

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصليبية

الحملة الصليبية الثالثة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الحادي والثلاثون دمشق ١٤١٨ / ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الثالثة

رواية شاهد عيان عن حروب رتشارد قلب الأسد

في

قبرص والأراضي المقدسة

مع رحلة حج

— سيولف الأنكلوسكسوني (١١٠٢)

— الراهب دانيال الروسي (١١٠٦)

— رسالة فيتيلوس في وصف الأرض المقدسة (١١٣٠)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤١٨ / ١٩٩٨

الجزء الحادي والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يشعر كل باحث في تاريخ الحروب الصليبية بالأهمية القصوى لأحداث ما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، ويعجب كيف انتهت انتصارات صلاح الدين المدوية في يوم حطين ثم تحرير القدس بفاجعة سقوط عكا وانتكاسة صلح الرملة، ويتساءل عن الأسباب: هل هي راسية في إقدام رتشارد قلب الأسد وتدفق النجذات من أوروبا، أم كان هناك خلل عظيم في بناء دولة صلاح الدين العسكري والإداري؟ أم أن سبب الداء رسا في بناء أسرة صلاح الدين؟ فقد كان أبرز أفراد هذه الأسرة تقي الدين عمر من الجانب العسكري، والملك العادل من كافة الجوانب، فقد تخلى تقي الدين عمر عن صلاح الدين في ساعة الحرج، وذهب إلى الجزيرة يغامر في سبيل تأسيس ملك واسع له، وبذلك فقد صلاح الدين العبقرية العسكرية التي أسهمت بالدور الرئيسي في حطين وسواها، أما العادل فكان طالب ملك بأي ثمن، والملك كما هو معلوم عقوق وعقيم، أنشأ علاقة ممتازة مع رتشارد قلب الأسد، وأنقذه في النهاية بالتوصل — إن لم نقل بإملاء — شروط صلح الرملة.

هذا ولسلوك العادل وأفراد البيت الأيوبي وحواشيهم فقد صلاح الدين في أواخر أيامه السيطرة على قادة جنده وانتابه التعب العظيم، ويبدو أن المعلومات عن الأوضاع داخل المعسكر الفرنجي كانت تحجب عنه، علماً بأنه امتلك جواسيس كانوا يعرفون كل ما يجري داخل صفوف الأعداء.

لقد حقق رتشارد قلب الأسد بعض التفوق العسكري، ونجح سياسياً إلى أبعد الحدود، فقد تخلص من غي ملك القدس أيام حطين، وأزاح كونراد صاحب صور من علي مسرح الأحداث بالتعاون مع الحشيشية، وفرض ابن أخته هنري ملكاً على مملكة القدس الثانية التي بعثها إلى الوجود، وهكذا أطل عمر الحروب الصليبية قرناً آخر، والقرن ليس بالزمن القصير.

ولما تقدم من أسباب وأسباب أخرى، اهتمت كثيراً بمصادر أخبار الحملة الثالثة لأن الحملات بعدها أمواج شاردة، ولأن مواد المصادر العربية لا تكفي، ولحسن الحظ تمكنت من تحصيل كتاب ذيل تاريخ وليم الصوري الذي كتبه واحد من الفرنجة البلديين، وهذا الذي أقدم له، وقد كتبه واحد من الفرنجة البحرية الوافدين بركاب رتشارد قلب الأسد، ونضيف إلى هذين المصدرين ما ورد في المجلد المتقدم وما سيرد في المجلد المقبل — إن شاء الله —، هذا ولن أتحدث عن مؤلف مصدرنا الحالي، فهذا قد ورد في مدخل الكتاب وسيرد المزيد حوله في المجلد المقبل.

وإتماماً للفائدة اخترت ثلاثة نصوص هامة جداً، كتبها بعض الحجاج الأوربيين الذين زاروا فلسطين فيما بين: ١١٠٢ و ١١٣٠ م، هذا ولدي المزيد من النصوص ستأخذ محلها في مجلدات مقبلة، والنصوص المقدمة اليوم هامة جداً، لأنه قبيل بداية الحروب الصليبية كانت هناك أوضاع خاصة في فلسطين وبالقدس بالذات نراها من خلال الجغرافيين العرب، وبعض الشيء من خلال رحلة أبي بكر بن العربي صاحب العواصم من القواصم، ثم جاء الاحتلال الصليبي وأحدث الفرنجة الكثير من التغييرات، وتلا هذا حطين وتحرير القدس وإقدام صلاح على إعادة النظر بأحوال المدينة المقدسة: في تطهير المسجد الأقصى وإقامة بيمارستان ومدرسة مع منشآت أخرى.

ومن هنا تنبع أهمية هذه النصوص، فضلاً عن أنها تومئ إلى ما أغفله المؤرخون، حيث واضح من خلالها أن شعب فلسطين العربي قاوم الاحتلال الصليبي بشتى السبل، وأن هذه المقاومة بلغت من الفعالية إلى درجات جعلت الفرنجة لا يرتحلون إلا على شكل جماعات محروسة، ولا يتجرأ أحد منهم على العيش، أو الظهور خارج أسوار القدس وغيرها من المدن المحتلة.

ولا شك أن القارئ الكريم سيجد المزيد من الفوائد، والله تعالى أسأل العون والسداد، وعليه جل وعلا دوماً أتوكل، والحمد لك اللهم أولاً وآخراً، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهداه إلى يوم الدين.

سهيل زكار

دمشق ٢ / ذي القعدة ١٤١٨ هـ

٣٠ / آذار ١٩٩٨ م

مدخل

توفي النبي محمد ﷺ في عام ٦٣٢م، وتمكن العرب خلال المتبقي من هذا القرن من فتح معظم العالم المعروف آنذاك، وحررت القدس في سنة ٦٣٧، وظلت العلاقات لقاربة أربعة قرون بين الحكام المسلمين والحجاج المسيحيين جيدة، حتى أن بعضهم يزعم - بدون توثيق - أن الخليفة هرون الرشيد ذهب إلى حد الاعتراف بملكية شارلمان لكنيسة القيامة، وب حمايته للمسيحيين في القدس، ولم يحدث تغيير في المعاملة حتى حلول سنة ١٠١٠، ففي تلك السنة أقدم الخليفة الحاكم بأمر الله، وكان شديد التعصب، و متهماً بعقله، على إصدار أوامر قضت أن الحماية قد سقطت، وانتهت، وأمر بهدم كنيسة القيامة.

وفي القرن الحادي عشر، عبر الغزّ إلى خراسان، وانتزعوها بزعامة السلاجقة من أيدي أبناء دينهم، أي من أيدي الغزنويين، واحتلوا العراق ثم اجتاحوا آسيا الصغرى وسورية بما فيها فلسطين، واستولوا على القدس في سنة ١٠٧١، ولئن كان هؤلاء همجاً وعلى درجة عالية من التوحش في معاملتهم لأبناء دينهم المسلمين، فقد كانوا أكثر همجية وأشد وحشية تجاه المسيحيين الذين وقعوا في أيديهم. ودعا في سنة ١٠٩٥م البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية الأولى وقال: «إذا أردتم إنقاذ أنفسكم قاتلوا في سبيل المسيح».

ولم يحمل أيا من الشخصيات الملكية «شارة الصليب» في تلك الآونة، وكان أعلى الناس رتبة ممن انضم إلى تلك الحملة هو غودفري دي بويلون. ومن بين جميع الوحدات التي زحفت في الحملة الأولى، وحدته فقط هي التي لم تعان من مأساة قبل الوصول إلى الأراضي المقدسة،

واستولى بلدوين أخو غودفري سنة ١٠٩٨ م، على مدينة الرها، كما وتم الاستيلاء الصليبي على أنطاكية في السنة التالية، واقتحم الصليبيون القدس في سنة ١٠٩٩، وهكذا كانت هذه الحملة أنجح الحملات الصليبية جميعاً، ونجم عنها تأسيس المملكة اللاتينية في القدس، التي امتد سلطانها على الفرنجة حتى مدينة الرها، بما في ذلك إمارة أنطاكية مع كونتيتي طرابلس والرها.

وانتخب غودفري ملكاً، غير أنه رفض أن يلبس التاج الذهبي حيث لبس يسوع تاجاً من شوك، وأثر عدم استخدام أي لقب أعلى من لقب «كونت»، وجرى بناء القلاع لحماية المملكة، وشحنت هذه القلاع بجنود انضموا إلى الرهبانيات العسكرية، التي حصلت على العون من المقاتلين المؤقتين من بين الحجاج من أوروبا، وتأثر الصليبيون الذين مكثوا بشكل دائم في المملكة بالسكان المحليين، وأصبحوا بسرعة الأشبه بأهل المشرق.

واستولى في سنة ١١٤٤ م، زنكي أتابك الموصل، على الرها، مما دفع برنارد أوف كليرفو للتبشير بالحملة الصليبية الثانية، وتطوع كل من لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا لقيادتها، وكادا بعد كثير من المشاكل أن يستوليا على دمشق، غير أنها أعيقا بعدد كبير من المعوقات ولقيا مقاومة فعالة، وفي سنة ١١٤٩، عاد الأحياء الذي بقوا من هذه الحملة إلى أوطانهم.

ويحكى أنه عندما هددت دمشق من قبل الصليبيين، عاش في تلك المدينة فتى كان في حوالي العاشرة من عمره، وكان ابناً لواحد من ضباط زنكي، الذي كان من أصل كردي، واسمه أيوب، وولد الفتى لدى توجه أسرته من العراق إلى الجزيرة، وكان ذلك سنة ١١٣٨، وكان اسمه يوسف غير أنه شهر أكثر بلقبه وهو «صلاح الدين» فهكذا عرف الصليبيون، وقد نشأ هذا الفتى في سورية، وبات صاحب أشهر اسم في تاريخ الصليبيين كله.

واضطرت القبائل التركية مع القبائل العربية التي قُهرت من قبلهم، بشكل متواصل، ويعبر الفضل في استمرار المملكة اللاتينية حية في القدس لمدة طويلة معتبرة. في وسط الجسم الإسلامي، بالدرجة الأولى إلى أنها كانت القوة الوحيدة الموحدة في المنطقة، وقد تحالفت من وقت إلى آخر مع الخلافة الفاطمية بالقاهرة ضد الأتراك، وبات واضحاً أكثر فأكثر عندما وصل صلاح الدين إلى سن الرجولة أن المشرق الإسلامي إذا لم يتحد سيزول من الوجود، وقرر صلاح الدين وجوب توحده، ولقد كان هو الرجل الأكثر موائمة للوصول إلى هذه الغاية وتحقيق الوحدة.

وكان حاكم بلاد الشام آنذاك هو نور الدين بن زنكي، وفي سنة ١١٦٤، بعث نور الدين بشيركوه عم صلاح الدين إلى مصر للاستيلاء عليها، وكان صلاح الدين وقتها في السادسة والعشرين من عمره، وقد ذهب برفقة عمه بمثابة مساعد له ونائب، وعندما توفي شيركوه خلفه صلاح الدين، وقد قبل نور الدين بحلوله محل عمه، وكانت النتائج مرضية جداً، فعندما كان الخليفة الفاطمي في سنة ١١٧١ يحتضر كان صلاح الدين هو وزير مصر وحاكمها، وكانت سورية ومصر موحدتان في دولة واحدة.

وإثر وفاة نور الدين في سنة ١١٧٤، اضطربت الأوضاع في سورية، واضطر الفتى الصالح اسماعيل ورث نور الدين إلى مغادرة دمشق إلى حلب، فجاء صلاح الدين فضبط البلاد ووسع ممتلكاته حتى حلب، وتمكن في السنوات التالية من الاستيلاء على حلب نفسها، وهكذا بات سلطان مصر والشام، وفي العامين التاليين مدّ صلاح الدين سلطانه إلى ما بعد الفرات، ووحد المشرق الإسلامي تحت رايته. وأمضى الحقبة ما بين ١١٨٠ و ١١٨٤ بالحرب ضد المملكة اللاتينية، ووقع في السنة الأخيرة معها هدنة مدتها أربع سنوات، وخرقت هذه الهدنة وتعطلت سنة ١١٨٦ من قبل أرناط (رينودي شاتيلون حاكم أنطاكية، ثم

صاحب الكرك)، وهكذا امتلك صلاح الدين المسوغ لإعلان الجهاد من أجل طرد الصليبيين من الأراضي المقدسة، ولدمج ممتلكاتهم داخل دولته الكبرى؛ ومع هذه النقطة بدأ المؤرخ حديثه، أي مع الغزوة الناجحة لصلاح الدين ضد مملكة القدس، فهنا تكمن بداية الحملة الصليبية الثالثة، وعندما انتهت هذه الحملة بهدنة ٢- أيلول ١١٩٢، وعلى الرغم من جهود رتشارد الأول ملك انكلترا، كان صلاح قد أزال مملكة القدس من الوجود، ووحيد المشرق الإسلامي، لكن نصره الشخصي عاش لمدة وجيزة لأنه مات في دمشق في ٤- آذار ١١٩٣، وهو في الخامسة والخمسين من عمره.

وكان صلاح الدين أنبل الحكام المسلمين وأقدر القادة الذين توجب على الصليبيين القتال ضدهم، وكانت إنسانيته وفروسيته مدهشة واستثنائية في عصر العنف الذي عاشه، ومثل دوماً بأخلاقه وسلوكه وتصرفاته أرقى النماذج المثالية التي بشرت فيها الديانة التي آمن بها، ومع أنه كان في بعض لحظات الضيق من الصليبيين كان يقول: دعونا نزيل الهواء الذي يتنفسونه، لقد عامل أسراه من الصليبيين بشكل أفضل بكثير مما عامل به الصليبيون أسراهم من المسلمين، ومجد المرأة واحترمها، وحمي الضعيف، وعبر عن إعجابه بشجاعة عدوه، ولقد نظر هو والملك رتشارد إلى بعضهما نظرة عالية وقدرا بعضهما بعضاً، وكان من الممكن في أوقات سعيدة أن يكونا صديقين متقاربين.

ويرى بعضهم أن رتشارد كان جندياً متفوقاً على الجندي صلاح الدين، لكن صلاح الدين كان قائداً أعظم، اعتمد على ما بثته قيادته في نفوس رجالاته، وعلى ما قام به من توحيد للمسلمين، ومن ثم إيمانه أن هذا سيحقق النصر لعساكره في القتال، وهو لم يتعلم كيف ينظم جيوشه بشكل صحيح، وهكذا لم تكن هذه الجيوش قط أكثر من حشود غير منظمة لكن شجاعة ومتحمسة، ونادراً ما قاد هو قواته شخصياً أثناء

القتال، بمباشرة الحرب بنفسه على رأس الصفوف، وليس مرد هذا لافتقاره إلى الشجاعة، فقد كان شجاعاً، بل لأنه رأى أنه ليس من واجب السلطان مباشرة الحرب شخصياً، بل إدارة المعركة والإشراف عليها، وكان في الواقع، كما أشار مؤرخنا، قد وجه النقد إلى تهور رتشارد وإصراره على أن يكون الأول في ساحة الوغى، وصحيح أنه تفوق كثيراً على رتشارد كرجل دولة، لكنه افتقر إلى الحزم، ولم يكن عبقرية في الإدارة، ولذلك توزعت دولته الكبرى بين أقربائه ورجاله إثر موته.

وكان رتشارد أصغر سناً من خصمه الكبير بتسع عشرة سنة، ذلك أنه ولد سنة ١١٥٧، لكل من هنري الثاني واليانور الأكوانية، وفي سنة ١١٧٣ كان رتشارد مع اثنين من إخوانه في حرب ضد أبيهم، لكن الرجل مالبت أن تصالح مع والده سنة ١١٧٥، ثم رفض تقديم الولاء إلى أخيه الأكبر هنري، وأعقب هذا نشوب حرب بين الأخوين، انتهت بوفاة هنري في سنة ١١٨٣، واقترح وقتها وجوب تنازل رتشارد عن أكويتين لصالح أخيه الأصغر جون، وأدى هذا إلى نشوب حرب أخرى، طلب خلالها رتشارد العون من فيليب ملك فرنسا ضد كل من أخيه وأبيه، وحدث في هذه الآونة أن قدم رتشارد الولاء لفيليب عن ممتلكاته في القارة الأوروبية، وبعدها هزم رتشارد والده، وأرغمه على الاعتراف به ولياً لعهد وخليفة له.

وأدت وفاة هنري الثاني، واعتلاء رتشارد العرش إلى الخلاف بين الملك الجديد لانكلترا وبين صديقه المتقدم فيليب، وامتلأ المؤرخ (الذي كان رتشارد بنظره دوماً كاملاً ولا يمكن أن يقترب الخطأ) كثيراً من التفاصيل ليرويها حول تطور هذا الصراع، وعندما كان رتشارد في حوالي الرابعة والثلاثين من عمره، قام بالمشاركة بالحملة الصليبية الثالثة، وتعد هذه المشاركة القسم الوحيد في تاريخ حياته وأعماله الذي أكسبه حسن السمعة والمكانة.

ولم يسبق لرجل انكليزي، أن عدّ مملكته مجرد مصدر للمال لينفق على مطامحه العظمى، وكان ما سعى إليه من استخلاص القدس من المسلمين، مع طرائقه في استخراج المال من رعاياه، بلا رحمة قد سبب كثيراً من المعاناة والمصاعب، وعندما أثنى المؤرخ على كرم رتشارد نحو ضيوفه، وإنفاقه بسخاء على الحملة الصليبية، ينبغي ألا ينسينا فعله هذا دافع الضرائب الذي استخرجت منه الأموال.

ورأت انكلترا خلال السنوات العشر التي حكمها فيها رتشارد، هذا الملك لعدة أشهر فقط، وفي الحقيقة لقد حكمت بشكل أفضل أثناء غيابه (فيما عدا الاضطرابات التي سببها أخوه جون، الملك المستقبلي) مما لو كان حاضراً، لأن المستشارين من الكنيسة والدولة الذين رست السلطة في أيديهم، بذلوا أفضل جهودهم للحكم بشكل جيد، تبعاً لمعطيات أيامهم.

حتى عندما عاد الملك رتشارد من الحملة الصليبية، أمضى عدة أسابيع قليلة في انكلترا، فقد كان اهتمامه أعلى بممتلكاته في القارة الأوروبية، وبحروبه الصغيرة مع فيليب وجيرانه، وهناك لدى المؤرخ إشارات كثيرة لاستخدام الزنبورك، أو القوس العقار، الذي كان للتوقد جرى استخدامه، ذلك أن القوس الطويل لم يكن قد عرف بعد بين الأسلحة الانكليزية، وكان رتشارد نفسه بارعاً باستخدام الزنبورك، ولقد استخدم هذا السلاح الجديد بتأثير كبير وفعالية في معاركه الفلسطينية، وحدث أنه من جراء إصابته برمية من قوس عقار قد توفي لدى حصار كالو Chalus في نيسان عام ١١٩٩، وكان عمره وقتها اثنتان وأربعين سنة.

وكان رتشارد رجل عصره، كرس نفسه عن إيمان لتحرير الأماكن المقدسة، ومع ذلك كان خسيساً دينياً وبلا قيم، عندما كان مثل هذا السلوك يوصله إلى غاياته، وكان بخيلاً قذراً وخائناً، أو نبيلاً فارساً،

وتعلق ذلك كله بعواطفه وأحواله في ساعة من الساعات، وكانت ثقافته عالية جداً، ولكن شاردة متقلبة الأطوار مثل صاحبها، وكان من الممكن أن يجهش بالبكاء أثناء انفعاله لدى سماعه الموسيقى، التي أحبها وأغرم بها إلى أبعد الحدود، ومع ذلك امتلك عاطفة مماثلة وتعطشاً أعظم للقتل وللقتال، فهذا الرجل الذي يقال بأنه تولى ترقية ابن أخي صلاح الدين إلى مرتبة الفروسية بيده نفسه، أمر بتنفيذ مذبحة عكا، لا بل باشر قتل الأسرى بنفسه، ونادراً ما عاد من حملة ومعه أقل من عشرة رؤوس بشرية إلى اثني عشر رأساً قد علقها من أطراف سرج حصانه كبرهان على بسالته وقدراته الخارقة.

وجعلته رعونته وطباعه العنيفة حليفاً من الصعب جداً تحمله، لكن بلاريب كان أقدر جندي في أيامه، وكسبت تكتيكاته في الأراضي المقدسة إعجاب العدو والصديق، وكان على السواء معلماً سيّداً في كل من حرب حصار المدن وفي معارك الالتحام، وكان شخصياً لا يعرف الخوف تماماً، وغالباً ما غامر بنفسه حيث خاف جنوده من اللحاق به، وجعلته قوته الجسدية وبراعته في استخدام جميع أنواع الأسلحة المقاتل الأكثر إزعاباً ممن وجد على كلا الطرفين، وشهرت تفوقه على جنوده أثناء الساعات الحرجة والعمل الصعب، بقدر ما تفوق بشهرته على القادة الآخرين في التكتيك.

وكان في أثناء حياته، وبعد مماته بوقت البطل الأثير جداً لدى الشعراء المتجولين والرومانسيين، ذلك أنه لم يكتف بايثارهم وحبهم كثيراً، بل إنه عدّ نفسه واحداً منهم، وكان يسر إذا نظر إليه على أنه واحداً منهم، وتمتع بدون سبب في إظهار غنائه وصوته الجميل على القيثارة من نظمه الخاص، وفي الحقيقة لقد بقي عبر القرون شخصية زير النساء وموضع الإعجاب، وهكذا استمر الحال حتى أن السير وولتر سكوت قدمه في سنة ١٨٢٥ بمثابة بطل روماني في «الطلسم»، وهي رواية قادت إلى إحياء

شعبيته في القرن التاسع عشر بين أوساط الشعراء والرومانسيين.

وكانت الحملة الصليبية الثالثة آخر محاولة قامت بها المسيحية الموحدة، ومع موت كل من بطلي المسيحية والإسلام، أخذت حرارة الروح الصليبية تغدو مع الأيام أكثر ضعفاً حتى جاء الوقت الذي انطفئت فيه تماماً.

وأرغم أباطرة بيزنطة على إقامة الصداقة مع جيرانهم الأتراك، وهكذا أصبحوا موضع شك لدى بني دينهم المسيحيين، ونجم عن ذلك تعمق الانشقاق، وعلى ذلك لم تكن الحملة الصليبية الرابعة لعام ١٢٠٣، صليبية على الإطلاق، بل كانت حملة ضد القسطنطينية عاصمة بيزنطة، وقادت إلى إقامة الامبراطورية اللاتينية التي عاشت خلال نصف القرن المقبل، وجرى أثناء الحملة الخامسة التي استمرت من ١٢١٨ إلى ١٢٢١، الاستيلاء على مدينة دمياط في مصر، لكنها أخفقت في تحقيق أي تقدم أكثر، وكان الصليبيون سعداء في الموافقة على عقد معاهدة سلام لمدة ثمانية أعوام؛ وتمكن فردريك الثاني الألماني في الحملة الصليبية السادسة من الحصول على القدس، بوساطة المباحثات، وتتوج ملكاً في سنة ١٢٢٩، لكي يتعرض لغضب البابا غريغوري التاسع لأنه توصل إلى التصالح مع المسلمين، وفي سنة ١٢٤٤ ساعد الغزاة الخوارزمية الذين اجتاحتوا آسيا الصغرى وأعالي بلاد الشام، على استرداد القدس.

وقاد في سنة ١٢٤٩ لويس التاسع - القديس لويس - ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة ضد مصر، لتكون مقدمة لتحرير الأراضي المقدسة، لكنه هزم ووقع أسيراً في المنصورة مع الجزء الأكبر من جيشه، ولم يطلق سراحه إلا بعد ما دفع فدية كبيرة جداً، ثم أُلقي في سنة ١٢٧٠ في الحملة الصليبية الثامنة، لكنه لم يتجاوز مدينة قرطاج (تونس) حيث توفي، وتولى إثر ذلك الأمير إدوارد الانكليزي القيادة، ووصل إلى فلسطين، واستولى على عكا، لكنه أدرك في سنة ١٢٧٢، أنه لا أمل من حملته، فعاد

إلى وطنه بعدما أعد اتفاقية هدنة لمدة عشر سنوات.

وثابر في السنوات العشرين التالية فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية على الاحتفاظ بعكا وصور وبعدد قليل من الحصون في فلسطين، لكن لم تُبدل أية محاولات جديدة جادة لاسترداد الأراضي المقدسة قبل سقوط عكا بأيدي المسلمين في سنة ١٢٩١، حيث تبعها بسرعة استسلام صور مع بقية الممتلكات الصليبية.

وأدت الحروب الصليبية إلى زيادة التجارة وتبادل المؤثرات بين الشرق والغرب، وكان تبادل الأفكار هاماً، لأن النظرة الضيقة لكلا الجانبين قد توسعت كثيراً، فالناس الذين عادوا من الحملات الصليبية جلبوا معهم إلى أوروبا أنواعاً من الأطعمة والتوابل لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت في الغرب، وذلك بالإضافة إلى معدات مفيدة وآلات تراوحت فيما بين الطواحين الهوائية إلى السجاد، وظهر السجاد في أوروبا في القرن الثاني عشر، واستخدم في البداية لتغطية المناضد والموائد، وذلك قبل أن يتحول الاستخدام إلى تغطية الأرض، وارتفع مستوى المعيشة في أوروبا، وبالإضافة إلى ذلك توفّر عطاء دائم لاحترام متبادل، لأن المسيحيين والمسلمين أظهروا أفقاً واسعاً واستمرارية وصبراً في الصراع المرير، وهي سمات قدرها المتصارعون على ساحات القتال تقديراً عالياً.

إن كاتب التاريخ رجل مجهول، وبناء على معطيات المخطوطة، ساد اعتقاد أنه كان غيوفري دي فنسوف Vinsauf، لكن اكتشف في ١٨٧٣ م. غاستون الباريسي أن النص موجود شعراً، وقد ترجم من النورماندية الفرنسية إلى اللاتينية الوسيطة في شعر ثنائي المقاطع منسوب إلى أمبرواز Ambroise، وهو شاعر جوال نورماندي رافق الملك رتشارد وذهب معه إلى الحملة الثالثة، وعرف العمل الأصلي باسم Carmen Ambroisii، والترجمة الشعرية باسم «رحلة حج وأعمال الملك رتشارد»، وتعرف الآن باسم «صليبية رتشارد قلب الأسد».

وهذا التاريخ أفضل مصدر حول الحملة الصليبية الثالثة، علماً بأن كل أمة اشتركت في هذه الحملة توفر لديها مؤرخوها .

-وقال نيكولاس تريفي Nicolais Trivet وهو كاتب فرنسي كان في أوائل القرن الرابع عشر، بأن شماساً كان هنا اسمه رتشارد من الثالث المقدس في لندن قد كتب «رحلة هذا الملك [رتشارد الأول] نثراً وشعراً»، ونقل نصوصاً من التاريخ الحالي، ومن المحتمل أن يكون رتشارد الثالث المقدس هذا هو «رتشارد دي تمبلو»، الذي انتخب رئيساً للثالث المقدس في سنة ١٢٢٢، والذي توفي في حوالي سنة ١٢٥٠، ولا يستبعد أن تكون «دي تمبلو» هي كنيته، وأن معناها هو أنه كان من الداوية Templar، ولعله كان شماساً في تلك المنظمة ولم يكن فارساً.

وهناك خلافاً صغيراً بين نصي الشعر والنثر، وقد يكونان مهمان، فلقد جرى في الشعر استخدام الشخص الأول مفرداً، واستخدم في النثر الشخص الأول جمعاً، وإذا صح أن دي تمبلو قد ترجم بالفعل الكتاب، لعله استخدم لغة الجمع ليضم نفسه، على أساس أنه هو نفسه خدّم في الحملة الصليبية الثالثة، وتتضمن هذه الفرضية بحقيقة، أنه في الوقت الذي نجد فيه معظم الكتاب عبارة عن ترجمة قريبة جداً، نلاحظ وجود بعض الإضافات الصغيرة أضيفت إلى القسم الأول الذي عالج الأحداث في فلسطين قبل وصول رتشارد، وفي إحدى الفقرات يقول الكاتب: «لكن توقعنا وصول الملك وانتظرناه بقلق وشوق»، ويومئء هذا إلى أنه كان في عكا قبل وصول كل من فيليب ورتشارد، ومع هذا كتب ما أشار به إلى أنه كان في أسطول رتشارد أثناء الرحلة إلى عكا، ولعل المسألة مردّها إلى تحريف صدر عن المترجم، أو إقحام جملة من قبله.

ولقد اعتقد بعضهم أن أمبريزربا، هو الذي كتب نصي الشعر والنثر، وأن نيكولاس تريفي أخطأ في عزو الكتاب إلى رتشارد، في حين أن الصحيح هو التأكيد أن الكاتب نفسه كان المسؤول عن النصين،

لكن يبدو أن هذا أقل احتمالاً من القول أنها ترجما من قبل مترجمين مختلفين، وعلى كل حال من غير الممكن تأكيد هوية شخصية المؤلف، وستبقى المسألة موضع شك.

وفي ضوء تكريس المؤلف نفسه بشكل مطلق للملك رتشارد، وملاحظاته حول سلوك الايرل جون، حينما كان في فلسطين، يبدو من المشكوك فيه أن يقدم على المغامرة بالظهور في البلاط عندما كان جون ملكاً، لهذا من المستبعد أن يكون الكاتب الأصيل للشعر هو أيضاً الكاتب لدى الملك جون، والذي حمل الاسم نفسه، وهو الذي دفع في ٢- تشرين أول سنة ١٢٠٠، شلنا واحداً، من أجل غناء ترتيلة أثناء تتويج الملك جون.

وقد طبعت منتخبات من هذا التاريخ في هانوفر سنة ١٦١١ من قبل جاكوبونغار Jacques Bongars في كتابه «أعمال الفرنجة»، ونشر للمرة الأولى كاملاً في سنة ١٦٨٧ من قبل غيل وفيل Gall+ Fell في «مجموعهما»، وأعيدت طباعة النص اللاتيني في سنة ١٨٦٤ من قبل W.stubbs ، في الجزء الأول من كتاب «تواريخ ومذكرات حكم رتشارد الأول»، وتقدم على هذه الطبعة نشر ترجمة انكليزية لا نعرف صاحبها لصالح مكتبة بوهن أنتيكواريان Bohn Antiquarian وكانت قد نشرت سنة ١٨٤٨، وجرت الإفادة من هذه الترجمة كثيراً في عملنا هذا.

كتاب حملة الملك رتشارد إلى أراضى القدس المقدسة

نحن الذين نعالج تاريخ القدس
جديرون بالتصديق حقاً، لأننا أوردنا ما رأيناه
ودوّننا بالقلم هذه الأعمال بينما ماتزال ذاكرتنا واعية لها. وإذا ما أراد
قارئ متشدد أسلوباً
أكثر رشاقة، عليه أن يتذكر أننا كتبنا عندما كنا
بالمعسكر، ولم يسمح لنا ضجيج الحرب بالهدوء والتفكير العميق.

كيف هاجم صلاح الدين فلسطين

في سنة ١١٨٧ لتجسيد كلمة ربنا، عندما كان أوربان الثالث يرأس حكومة الكرسي الرسولي، وفردريك الأول امبراطورا لألمانيا، واسحق الثاني يحكم في القسطنطينية، وفيليب الثاني في فرنسا، وهنري الثاني في انكلترا، ووليم الثاني في صقلية، وقعت يد الرب بثقل فوق شعبه، إذا صح أن ندعو هؤلاء «شعبه»، لأن دنس حياتهم، وعاداتهم، وبشاعة شرورهم، قد أبعدتهم عن إحسانه، لقد غدت آثامهم واضحة إلى حد أنهم جميعاً (رموا جانبا برقع الحياء) وانغمسوا كلياً، في وضوح النهار في حماة ذنوبهم.

وسيكون عملاً طويلاً، لا يتوافق مع هدفنا الحالي، أن نكشف مشاهد الدم، والسرقة والزنا التي لطختهم (إن عملي الحالي تاريخ وليس رسالة في الأخلاق)، ولكن عندما نشرعدونا القديم قريباً وبعداً، روح الفساد، استولى أكثر بشكل خاص على أراضي سورية وفلسطين، وهكذا أخذت الأمم الأخرى الآن تنهل الدنس من المنهل نفسه الذي زودهم من قبل بعناصر الديانة، فهذا ما جعل الرب، وقد رأى أرض ميلاده، وشهد مكان آلامه، قد سقط في حماة الموبقات عامل باهمال ورثته، وجعل من صلاح الدين عصا عذابه، وصب غضبه في سبيل تدمير ذلك الشعب العنيد، لأنه بالحري كان يؤثر بأن تصبح أرضه خاضعة لوقت قصير للطقوس الدنسة للكفار على أن تبقى في حوزة أناس ليس لديهم تقدير لما هو صحيح ولما يحول دون الأخذ بالأشياء غير الشرعية.

وبناء عليه قام صلاح الدين بعدما حشد وحدات مقاتليه، بالهجوم بكل عنف على فلسطين، وبعث أمامه أميرالها مع سبعة آلاف من الترك للقيام بالعيث فساداً في الأرض المقدسة، وبعد ما زحف هذا

الرجل بعيداً حتى الأماكن من حول طبرية اصطدم بجيرارد دي ردفورت، مقدم الداوية، وروجردى مولين مقدم الاستتارية، وقد هزم هزيمة ساحقة واحداً منهما، وقتل الثاني في هجوم مفاجئ.

وعُزل في هذه المعركة (١ - أيار ١١٨٧) عدد من جنودنا وحوصروا من قبل حشد كبير مما أدى إلى تحقق واقعة تستحق التدوين: كان هناك فارساً من الداوية، من أصل ألماني اسمه جاكوين دي ميللي، استطاع بشجاعته المفرطة أن يحول هجوم الأعداء ضده، فقد كان أصحابه من الجنود، وعددهم نحو خمسمائة، قد وقعوا إما بالأسر أو قتلوا، وصمد وحده يتحمل ثقل المعركة كلها، فلقد كان بطلاً حقيقياً لشريعة الرب، وأخيراً طوق تماماً من قبل عساكر الأعداء، وافتقر إلى المساعدة البشرية، وعندما رأى الآلاف المؤلفة تندفع نحوه من كل جانب، جمع شجاعته كلها وواجه بإقدام العدو وحده، وجذبت شجاعته إعجاب الأعداء، فامتلاوا بالعطف عليه، ودعوه باخلاص إلى الاستسلام، غير أنه واجههم بأذن صماء ولم يستجب لما رغبوه به، ولم يكن خائفاً من الموت في سبيل المسيح (وبعد ما أثقل بحمل الشاب، والحجارة، والحراب، استمر يقاوم ولم يسقط) غير أنه وبعد مصاعب جمة قتل، وتحول موته بالحقيقة إلى مجد وفخار، لأنه استطاع بسيف واحد أن يحيط نفسه بأكوام من القتلى.

وسرّ صلاح الدين بهذا النصر سروراً عظيماً، وحوّل ذهنه نحو أفاعيل أعظم، فبعدما استنهض جميع القوى في مملكته، هاجم بقوة وجراً أراضى القدس، وعلى مسافة قصيرة من طبرية، وفي مكان اسمه حطين، امتحن الرب شعبه بالسيف، وجرح الكثيرين، وألقيت أعداد كبيرة جداً بالسجن، حتى أن تدمير شعبنا استدّر عطف أعدائهم.

وتمّ الاستيلاء على صليب الصلبوت، الذي صلب عليه ربنا ومخلصنا، ولوث بأيدي غير المؤمنين، ولقد سقط حاملاه معه وهما:

أسقف عكا، وأسقف القديس جرجس (اللد) ، فقد قتل أحدهما وأخذ الآخر أسيراً.

لقد جرى أسر ملك القدس و صليب الصليبوت معا، وتم حفظ شطر من الأسرى دون أن يلحقهم أذى، ليوضعوا تحت تصرف المنتصر، ولاقى شطر مصيره بالسيف، وكان بين هؤلاء أرناط، أمير أنطاكية، وقد اقتيد أولاً إلى حضرة السلطان، وقام ذلك الطاغية ففقط رأس ذلك الشيخ بيده، وذلك بسبب شدة تعصبه أو حسداً منه وغيره من هذا الرجل العظيم، وأمر أيضاً بإعدام جميع أسرى الداوية، ولم يوفر سوى مقدمهم، فقد امتلك رغبة في محق هؤلاء الذين تميزوا عن سواهم بالشجاعة اثناء القتال.

وعندما خمدت أصوات المعركة، رفع صلاح الدين عينيه نحو السماء، وقدم الشكر لله على النصر الذي ناله، ولقد قيل أنه قال: نحن لم نتصر بقوتنا، لكن ذنوبهم أسلمتهم إلينا فانتصرنا، وهكذا تلاشى بلحظة واحدة مجد مملكة القدس كله، وزال عنها وخمد، ونال المصير نفسه حشد قوات المملكة كلها، فقد جمعها الملك تحت إمرته في سبيل المعركة الحاسمة، وبقي فقط يتولى حراسة المدن والقلاع، الضعفاء والنساء، والشيوخ، والذين كانوا غير قادرين على حمل السلاح.

وكان السلطان واثقاً أن قلاع المملكة ستسقط له بسهولة (بعد ما تم قتل المدافعين عنها)، ولهذا حمل معه الملك الأسير في موكب نصر، لعرضه أمام المدن التي رغب بالاستيلاء عليها، مستهدفاً بذلك ارغامها على الاستسلام، وقد زحف أولاً إلى عكا، واستولى عليها دونما جهد، وسمح لسكانها بالمغادرة، والسفر إلى حيث أرادوا ومعهم كل مقتنياتهم.

وحدث في الوقت نفسه أن البحارة منا، كانوا يتابعون رحلاتهم المعتادة نحو عكا، قادمين من البلدان المسيحية، وكان بعضهم محملاً

بالبضائع التجارية، وبعضهم الآخر بالحجاج، وبالأسف لم يكونوا قد سمعوا بما حدث، ولهذا دخلوا إلى الميناء المعادي ووقعوا أسرى.

وكان المركيز كونراد أوف مونت فرّات، بين آخرين، في طريقه من القسطنطينية، وقد رمى مراسيه خارج ميناء عكا، وكان الوقت يومها عند غروب الشمس، لذلك بقي حيث هو حتى الصباح، وقد أوجد الهدوء الذي لف المدينة في نفسه الريبة، حيث جرت العادة في غير ذلك من الأوقات بقيام صراخ عام وصيحات التهئة بالقدوم، عندما يظهر أي مركب، كما أن رنوك وشعارات السلطان التي رؤيت في مختلف أجزاء المدينة قدمت السبب لمزيد من الخشية، وشوهد بالوقت نفسه قدوم عدد من المراكب الإسلامية واقتربها، وهذا ما أنذر الملاحين والبحارة، فأمرهم المركيز بلزوم الصمت وانتصب واقفاً وتقدم ليتحدث باسمهم، وعندما سأله المسلمون من هو ومن معه، أجابهم، أن سفيتهم تجارية، وهو مقدمها، وأنه قد سمع بما حدث، وبما أنه عبد مخلص للسلطان، سينتظر حتى انبلاج الفجر ثم يقوم بالنهار بعرض بضائعه.

وجاءت في تلك الليلة ريح طيبة مواتية، وأبحر إلى صور، وتولى هناك مهام الدفاع عنها.

وحدث بعد الاستيلاء على عكا أن استسلمت بيروت وصيدا، وتوقع السلطان أن يأخذ صور بالسهولة نفسها، لكنه رد عن أسوارها بشكل مهين، فقام برفع الحصار، وحمل معه ملك القدس وتوجه من هناك إلى عسقلان، ونصب مجانيقه وآلات حربه لرميها بالحجارة، ثم بدأ بالهجوم عليها.

وطبعاً كان من السهل الاستيلاء عليها نظراً لأن الحامية المدافعة عنها كانت ضعيفة، وذلك على الرغم من أن دفاعاتها قد أظهرتها قوية جداً لاترام، وأنها مشحونة بما يكفيها من جند، وكان المهاجم المتلهف،

متشوقاً للاستيلاء على هذه المدينة قبل كل شيء. ثم إنه لم يكن يثق تماماً بقدراته للاستيلاء عليها عنوة، لأنه لم يكن على بينة بأحوالها وراء الأسوار، ولا كيف أنها كانت تعاني من نقص بالسلح، والرجال والطعام، ولذلك وافق على شروط استسلامها، التي قضت بأن يسمح لسكانها بالمغادرة بكل حرية وبحمل جميع ممتلكاتهم، وأن يجري إطلاق سراح ملك القدس مع خمسين آخرين من أعيان الأسرى، بأقصى سرعة ممكنة.

ولقد بات الآن أمر سقوط القدس محتوماً، وقام المنتصر بالزحف نحوها بسرعة عظمت لا يوازيها سوى كراهيته، وبأشر بحصار المدينة، وأنشأ آلات الحرب، ولوث الأماكن المقدسة بأعمال آثمة تدل على عدم الاحترام، وحاول سكان المدينة الدفاع عنها بقدر ما كانوا يستطيعون، غير أن جميع جهود رجالنا كانت بلا فعالية، فقد استخدموا النشاب والحرب والرمح وغير ذلك بدون فائدة، لأن الرب كان غاضباً، وسقوط المدينة أمراً تقرر.

وكانت أعداد كبيرة من الناس قد تدفقت معا على المدينة، واضعة ثقتها بقداسة المكان، أكثر منها بقوة دفاعاته، وكان من المستحيل أن يجد المرء في وسط هذه الحشود العظيمة أربعة عشر فارساً، وقام الكهنة ورجال الدين بتولي أعمال الجند (مع أن ذلك كان معاكساً لاختصاصهم)، وذلك بموجب حالة الطوارئ، وقاتلوا بشجاعة في سبيل بيت الرب، غير أن السكان، وكانوا جهلة ومرعوبين، فتجمعوا حول البطريك والملكة، اللذان خلفا في موقع المسؤولية عن المدينة، واشتكوا بمرارة، وأعلنوا بصدق أنهم ربما سيطلبون من السلطان منحهم شروط استسلام.

وأخذت المدينة، وتجاوزت تكبيرات المسلمين قمة الصخرة المقدسة، ونشروا هناك شريعتهم الزائفة، لقد نشروها في المكان الذي ذاق فيه المسيح طعم الموت على الصليب، وقام الأعداء بعمل مغيظ آخر: فلقد

- ٨١١ -

ربطوا حبلاً حول صليب، كان موضوعاً فوق قبة كنيسة الاسبتارية
(المسجد الأقصى) وسحبوه إلى الأرض، حيث بصقوا عليه، ودحرجوه،
وجروه — استهانة بعقيدتنا — وسط جميع قاذورات المدينة.

حصار عكا

أطلق سراح غي لوزغنان، ملك القدس، من قبل صلاح الدين، بعد ما أمضى سنة بالأسر، وذلك بعدما أعطى موثيق مشددة أنه سيتولى التخلي عن المملكة، وسيغادر البلاد نافيا نفسه إلى ماوراء البحار في القريب العاجل، لكن رجال الدين حللوا الملك من موثيقه وأيماه، لسبيين : أن ما قام به كان تحت الإكراه ويستحق الشطب، ولأن جموعاً من المؤمنين كانت في طريقها إلى الأرض المقدسة، وكانت ستجد فيه الرأس والقائد.

وقام الملك بعد برهة قصيرة، بحشد جيشه، وشرع في أواخر آب، في يوم القديس أوغسطين، أي بعد عامين من الاستيلاء على عكا من قبل الترك، هناك بأعمال ذلك الحصار الطويل والصعب، والذي استغرق أكثر من عامين، وذلك قبل استسلام المدينة.

ووصلت القوات البيزية — التي اختارت السفر بالبحر لأنه أقصر وأسهل — بسفنها إلى مقربة عكا، بانتظام ، وبشجاعة استطاعت أن تحتل الساحل، وما أن أنجز البيازنة تأمين قاعدة، حتى شرعوا بأعمال الحصار من جهة البحر، بشجاعة وتصميم، ونصب الملك مع بقية جيشه خيامهم على تلة مجاورة، تدعى عموماً جبل تورون Turon استطاع منه (نظراً لارتفاعه عن الأرض) أن يراقب الطرق البرية والبحرية الموصلة إليها.

وفي اليوم الثالث الذي تلا يوم الوصول، قام المسيحيون بالهجوم على المدينة، وادراكاً منهم أنه كان من العبث انتظار تأثير أحجار المناجيق وبقية الآلات، اعتمدوا على دفاعات ترستهم فقط، وحملوا سلام تسلق حتى يركبون بها الأسوار، وكادوا في ذلك اليوم أن يحصلوا نهاية سعيدة،

لولا خداع العدو القديم، ووصول معلومات زائفة، أحبطت انتصارهم عندما كاد أن يكتمل، فقد روي أن صلاح الدين قد بات وصوله وشيكاً، ولهذا رجع رجالنا إلى المعسكر مسرعين، لكن عندما أدركوا أن الذين وصلوا مجرد قوة صغيرة جاءت قبل سواها، عبروا عن غضبهم بدلاً عن أسفهم، لأن النصر اختطف منهم.

وكان السلطان في ذلك الوقت يحاصر قلعة الشقيف في الجليل، وعندما علم بما كان يحدث، زحف مسرعاً مع جيش كبير إلى عكا، وبما أن رجالنا كانوا غير قادرين على التصدي له ومنازلته، أبقوا أنفسهم داخل حدود المنطقة المتقدم وصفها، وهاجمهم الأتراك باستمرار، في الصباح وفي المساء، وجربوا كل وسيلة للتوغل حتى قمة الهضبة، وهكذا فإن أولئك الذين جاءوا لحصار آخرين، باتوا أنفسهم الآن محاصرين.

وبينما كان رجالنا، في هذا الوضع، شاهدوا اقتراب خمسين سفينة، تحمل نجدة قوامها اثني عشر ألفاً من الرجال، وأقام هؤلاء معسكرهم فيما بين المدينة وجبل تورون، ثم صرفوا قواهم العملاقة نحو تدمير الأعداء، وبعدما ازدادت أعداد المؤمنين على هذه الصورة، تقرر بالاجماع مهاجمة المعسكر المجاور لغير المؤمنين، وكان بينهما سهل واسع، قدم رقعة جيدة لاتخاذها ساحة للمعركة.

ووقف الترك بتصميم للدفاع عن معسكرهم، لكن عندما دنا رجالنا واقتربوا فتح الرجال (الذين كانوا بالساقة) صفوفهم، وقامت قواتنا المحمولة بالانقضاض بكل شجاعة على الأعداء، ولحقت الهزيمة بغير المؤمنين، وتخلوا عن معسكرهم، ثم إن المسيحيين توقفوا عن أعمال المطاردة، رغبة منهم في الحصول على الغنائم، وتم الاستيلاء على خيمة السلطان نفسه، واندفع بالوقت نفسه حشد كبير من الأعداء من داخل المدينة، وزحفوا من المكان الذي لم يكن محاصراً، واستمروا في سيرهم نحو الجبل بوساطة ممر خلفي، بالحقيقة زحفوا عن عمد عبر ممر دائري،

بههدف أنه بينما يكون رجالنا في حيرة لا يعرفون هل يقصدون مهاجمة المعسكر أم الجيش، ربما يكون بإمكانهم الانقضاض فجأة على الجيش من المؤخرة.

وكان الداوية، الذين لم يكونوا أدنى شهرة وإيماناً من أحد، قد تمكنوا في هذا الوقت من خرق صفوف الأعداء، ولو أن بقية الجيش تابعت خلفهم في أعمال المطاردة لنالوا في ذلك اليوم حظ الانتصار بالاستيلاء على المدينة وكذلك في المعركة، لكن عندما كان الداوية في جهدهم قد ابتعدوا كثيراً وتوغلوا طويلاً في متابعة حظهم، تعرضوا فجأة للهجوم وغلبوا، وذلك من قبل أهل المدينة، مع أن انتصار الأعداء لم يتم دون قتل عدد كبير من رجالهم.

وفي جزء آخر، بينما كان الألمان مشغولين جداً بأعمال النهب، عرض المخادع القديم أمام أبصارهم حصاناً فاراً، ورأوا جمعاً من الناس يطاردونه، فافترض البقية أنهم كانوا يفرون، وحدث بهذا الحدث التافه، لكن الحاسم، أن الخوف عم وسط الجيش كله، وتوجهوا جميعاً بعقولهم نحو الفرار.

ورأى قادتنا بعد هذا الحادث، أنه من الأفضل التمتع عن أعمال القتال في السهل، وشغلوا أنفسهم في تقوية المعسكر، وأقاموا حوله سوراً من الأتربة الممزوجة بالأعشاب والنباتات، مع خنادق عميقة من البحر إلى البحر، وبذلك أصبحت المدينة مغلقة من جهتي البر والبحر، وبينما كان رجالنا مشغولين في صنع الخنادق هاجمهم الترك بشكل متواصل، على شكل حملات قامت بها فرقة تلو أخرى من الصباح حتى الليل.

وعندما طوق رجالنا عكا من جميع الجهات، بدأ سكانها يعانون من مجاعة شديدة، ذلك أنهم كانوا قد استهلكوا جميع المؤن التي كانت لديهم، ولذلك عرضوا تسليم المدينة على شرط أن يسمح لهم بالمغادرة

مع مقتنياتهم دون أن يلحقهم الأذى، ولم تقنع هذه الشروط مقدمينا الذين قرروا إما إرغامهم بوساطة التجويع على الخضوع لإرادتهم، أو أن ينالوا فخار اقتحام المدينة عنوة، لكن عندما كانوا يناقشون ببطء أمور تسليم المدينة، قام السلطان بتحميل خمسين سفينة بالرجال والمؤن والسلاح من الاسكندرية وأرسلهم لمساعدة عكا، ووصل هؤلاء مساء عيد جميع القديسين، وعندما رؤيت هذه السفن عن بعد، قال بعضهم: إن العدو بات في متناول اليد، وقال آخرون: إن نجدة جاءت لعون المسيحيين، وفيما هم في حيرة غير متأكدين، دخل الأعداء إلى المدينة، وحملوا معهم بالقوة إحدى سفننا التي وجدوها بالميناء، ولدى تقوية المدافعين عن المدينة بالمؤن، قام هؤلاء بالضغط علينا بشجاعة أعظم.

واستمر بالوقت نفسه الجيش التركي الذي كان موجوداً خارج المدينة بحملاته المتواصلة على رجالنا الذين كانوا خلف الخنادق، وبذل المسلمون جهودهم لطم الخنادق، وأكملوا ردم بعضها برمي التراب فيها، غير أن المسيحيين وإن تعرضوا للضغط الشديد من قبل أهل المدينة من جانب ومن هجوم الجيش من الجانب الآخر حافظوا على مواقعهم برجولة، وأقاموا الحراس على الخنادق، وبذلك تمكنوا من رد الهجمات من كلا الجانبين.

واشتكى رجال العامة الآن من عدم فعالية المقدمين، ومن استمرار الانغلاق بلا فائدة، وضاقوا ذرعاً بالحصار، ولدى قيام المقدمين بتقدير الموقف، رأوا بعد بعض الوقت الذي أمضوه في معرفة ما هو الأفضل للقيام به، أنه ينبغي مهاجمة العدو في الخارج والاشتباك معه في معركة عامة، لأنه إذا ما أرغم الجيش المعادي على الانسحاب، سيكون أمر اقتحام المدينة أكثر سهولة.

وبناء عليه قام قادتنا في اليوم التالي لعيد القديس مارتن بقيادة قواتهم، وقد تعبأوا وانتظموا للقتال، وعند غروب الشمس أكملوا زحفهم

ونصبوا خيمهم، وهنا قدم سكان المدينة، ودخلوا المنطقة التي أخليت، وانقضوا على الأثقال لنهبها، لكن رجالنا استقبلوهم برجولة وأرغموهم على الفرار.

وفي تلك الليلة أمر السلطان بنقل جميع خيمه وأثقاله إلى الجبال، والذي لم يمكن نقله آنئذ أحرق، وهذا الذي حدث فيه دليل على روح مهزومة وعلى تردد، لأنه رفض القتال في المنبسط ودمر أثقاله، وتراجع إلى الجبل، وعندما عثر على بقعة لم يكن من السهل الوصول إليها، توقف، وأرسل عدداً كبيراً من الرجالة والنبالة لإيقاف من فكر بالملاحقة من قوات العدو وصدده، وبذلك بات بإمكانه من علو إغضاب هؤلاء الذين خاف من الاشتباك معهم عن قرب، وشعر رجالنا بأنهم خدعوا وأنهم لن يتمكنوا من الالتحام في معركة، وأنهم أيضاً عاجزين عن ملاحقة الأعداء عبر الطريق الصعب، لهذا حملوا أنفسهم وعادوا دون الإصابة بأضرار، ودون الحصول على المجد.

وازدادت في الوقت نفسه الحاجة إلى المؤن في جيشنا يوميا، وأضاف المناخ الحار رعباً إلى رعبهم فيما يتعلق بالمجاعة القائمة.

خبر ملكي انكلترا وفرنسا

بينما كانت هذه الأمور تحدث في فلسطين، انتشرت أخبار في جميع أرجاء العالم بأن مدن الأراضي المقدسة باتت في أيدي الكفار، وأن الآثار المقدسة تعامل بإزدراء وتداس بالأقدام. وأن المسيحيين تعرضوا للنهب والإهانة.

وتحرك أباطرة أوروبا نتيجة لاثارتهم من قبل البابا غريغوري الثامن، وثار عدد كبير من مختلف الأمم، وحمل الفرنسيون والانكليز قبل سواهم عن إيمان علامة الصليب، واستعدوا بكل ما أوتوه من قوة للاسراع إلى عون الأراضي المقدسة، وكانت الحماسة للحج الجديد هائلة حيث لم يبت السؤال: من سيحمل الصليب، بل من لم يحمله بعد، وأرسل بعض الأشخاص إلى بعضهم هدايا تكونت من مغزل وصوف، وذلك في إشارة إلى أن كل من رفض المشاركة بالحملة سينظر إليه باستخفاف واحتقار، وكأنه انسان قادر على القيام بواجبات النساء فقط، وحثت الزوجات أزواجهن والأمهات أولادهن ليكرسوا نفوسهم لهذا الصراع النبيل، وأسفن أن ضعفهن لكونهن نساء قد منعهن من الذهاب أيضاً، وهاجر الكثيرون من بيوتهم إلى المعسكر، واستبدلوا معاطفهم بالسوابغ وتخلوا عن تعلم الآداب إلى دراسة العمل بالسلاح، وبشر رجال الكنيسة في كنائسهم، وبينوا محاسن التوقف عن شرب الخمرة، وحثوا جميع الناس وأمروهم بالتخلي عما اعتادوا عليه من أسباب الرفاهية، وتم الاتفاق أيضاً على ضمان الحجاج الذين كانوا فقراء.

ومع أن فردريك امبراطور الألمان كان آخر حاكم تعهد بحمل الصليب، كان أول من نفذ تعهده، ولكن عندما كان على حدود أرمينيا (كيليكه)، وبينما خيول النقل والأثقال تقوم بجواز نهر غوكسو (السن)،

استعد للجواز من أقرب نقطة من النهر، حتى يحصل في الأمام، ويمتلك الحرية في متابعة سيره، ولكن المياه قهرته فغرق ومات.

ووصل رجال جيشه بعد ضياع وتشرد طويل جداً إلى أنطاكية، فأطلقوا لأنفسهم العنان في الأكل وإشباع الرغبات، ونتيجة لذلك مات عدد كبير منهم بسبب التخمة المفاجئة، وهكذا هلك العدد الأكبر من هذا الجيش بهذه الطريقة المعيبة، وعاد معظم الذين بقيوا على قيد الحياة إلى بلدانهم.

وكان رتشارد — الذي كان وقتذاك كونت بواتو — أول من حمل الصليب ومعه حشد هائل من الناس، ولكنهم لم ينطلقوا بسبب خلاف نشب فيما بين فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، والد رتشارد، وكان رئيس أساقفة صور (الذي حمل إلى العالم المسيحي أخبار الفاجعة العظيمة) قد بذل بإخلاص جهده للمصالحة بينهما وحدد اليوم الذي سيلتقيان فيه لحمل الصليب.

وعزما في ذلك اليوم أن يحمل كل واحد منهما الصليب، ويغادر من بلاده، وبدا هذا اجراءً احتياطياً سلباً حتى لا يقوم أي منهما بمهاجمة مملكة الآخر، ذلك أن أيا منهما لن يغادر ما لم يغادر الآخر، ثم قام الملكان بتبادل قبلات السلام وحمل الصلبان (وتميز كل منهما بلون صليبه، فقد كان لون الصليب الفرنسي الأبيض، والانكليزي الأحمر، والفلمنكي الأخضر)، غير أن الملك هنري مات يوم عيد الرسولين بطرس وبولص في سنة ١١٨٩، لتجسد ربنا، وفي السنة نفسها، وبعد موت أبيه، قام رتشارد كونت بواتو بعدما رتب شؤونته في نورماندي، أي بعد حوالي الشهرين من الوفاة، بالعبور إلى انكلترا، وكان ذلك في يوم عيد القديس جايلز، وقد استقبل في وستمنستر بموكب تشریف احتفالي.

وبعد مضي ثلاثة أيام، في الثالث من ايلول رسم ملكاً وتوج من قبل

رئيس الأساقفة بلدوين، وكان أخوه جون حاضراً وقت التتويج وكذلك أمه إليانور مع عدد كبير من الكونتات والبارونات، وحشد كبير من الناس والجند، وهكذا أسندت المملكة وآلت إلى أيدي الملك رتشارد.

على هذه الصورة وفي سنة ١١٨٩، لتجسيد الرب جرى تتويج رتشارد ملكاً في يوم أحد، واحتفل بالمناسبة لمدة ثلاثة أيام، تم خلالها استقبال الضيوف في القصر الملكي في وستمنستر، وأكرم الجميع بتوزيع المال عليهم بدون عد وإحصاء، وأعطى الجميع تبعاً لمراتبهم، وبذلك عبر عن كرمه وعظمته الكبيرة.

لقد امتلك شجاعة هكتور، وسموآخيل، وعادل الاسكندر (ولم يكن أقل من رولاند) في الشجاعة، وكان كرم تيتوس كرمه، و (كل شيء نادر وجد في جندي كان فيه)، وكان مفوها له فصاحة نستور وحكمة يوليسيس Ulysses وعبر عن نفسه وأظهر عظمتها في أثناء تنفيذ الأعمال، وجعله النجاح أكثر موائمة للعمل، لأن الزمان يرعى دوماً الجريء، ومع أنه كان يظهر سروره ممن يريد ويضفي بهجته على من يحب، لم يعان رتشارد قط من الهزيمة بالمتاعب والخصومات.

فلقد كان طويل القوام، جميل المحيا، بشعر ما بين الأحمر والخنوبي، وكانت أطرافه مستقيمة ومرنة، وامتلك ذراعين أقرب إلى الطول، لا يمكن موازاتهما في العمل بالسيف أو الضرب به، وتناسب طول رجلاه مع باقي بنيتة، وفي الوقت الذي كان مظهره أخاذا وفيه جلالة، وأخلاقه وعاداته موائمة، كان ماناله من مكانة من نسبه الرفيع أدنى مما حمله من محاسن تزين بها، ولم يحتج إلى إطراء كبير، ذلك أن حاجته إلى المديح كانت قليلة، والمديح كان دوماً المرافق الأكيد لأعماله العظيمة.

كان متفوقاً كثيراً على الآخرين في كل من المزايا المعنوية والقوة، ومذكوراً من أجل قوته في القتال، حيث أن أفعاله الجبارة فاقت في

لمعانها جميع الأوصاف البراقة التي يمكن أن نضيفها عليها، وكان والحق يقال لانظيره في أعماله الرائعة، وكان السبب الوحيد لمعاداته هوروعته، وأنه الباحث عن الصفات الحميدة، ولم يكن عبداً للآثام والشور.

وعندما انتهت احتفالات التتويج، انتصب رتشارد في مكان أبيه، وتلقى يمين الولاء من النبلاء حسبما جرت العادة، ثم غادر لندن، وقام بجولة في مختلف المناطق، وبعد هذا قام بالحج إلى القديس ادموند الذي اقترب حلول موعد عيدهِ، ووافق على تعيين عدد من الأساقفة في بعض الأسقفيات، وبعد ما أعد كل شيء من أجل الرحلة، ورتب شؤون مملكة انكلترا بقدر ما سمح له الوقت، عاد إلى نورماندي حيث احتفل بعيد ميلاد ربنا.

وجعلته نواياه بالشروع بالرحلة والوفاء بما تعهد به متلهفاً، ذلك أنه حكم أن التأخير خطير، ولذلك قام في سنة ١١٩٠، لتجسيد مولانا، بحث الملك فيليب صاحب فرنسا على أن يكون مستعداً أيضاً.

وكان الاسطول الملكي، قد وجهه الملك رتشارد وأمره بالارتحال إلى (صقلية) فوصل إلى هدفه وهو ميناء مسينا، وذلك بعد ما تخطى جميع مخاطر المحيط، وانتظر هناك وصول الملك، الذي كان يزحف براً مع جيشه.

وعندما غادر الملك تور مع قواته، من الذي كان بإمكانه أن يذكر عدد القوات التي رافقته، وأنواع أسلحتهم، وقطار النبلاء، وفرق المنازلة المختارة؟ أو من كان يستطيع أن يصف قوات الرجالة وكتائب حملة المقاليع بينهم؟ وقام الذين رأوهم بالبكاء والتوجه أيضاً بالشكر للرب من صميم قلوبهم. من أجل الملك الجديد، والذي قام في بداية حكمه، ودون أن يذوق طعم الراحة، بالتخلي عن ايمان وبكل سرعة عن جميع المسرات، وتولى القيام بعمل عظيم ومفيد جداً، ومتعب وكذلك ضروري.

يا للتنهدات وبكاء الذين عانقوا بعضهم أثناء الفراق! ويا للأمانى الطيبة للذين كانوا مسافرين، ويا للعيون المثقلة بالدموع، والحسرات التي قطعت كلمات المتكلمين وسط قبلات الذين كانوا عزيزين عليهم، ولقد حزنوا، وفقد بعض الذين كانوا منطلقين وعيهم من شدة الأسى، وذلك أثناء الفراق، وبعد ما تبادلوا تحيات الوداع وقفوا قليلاً أكثر ورددوا العبارات لكسب بعض التأخير، وأخيراً انتزعوا أنفسهم من وسط أصوات التحيات، وانطلقوا نحو الأمام حتى يخلصوا أنفسهم من بين أيدي الذين حبسوهم.

وعلى هذه الصورة، انطلق رتشارد، ملك انكلترا، في السنة الأولى لتتويجه من تور، وأخذ الطريق نحو فيزي، حيث التقى الملكان ومعهما قواتهما، وبما أن كلا الأمتين كانتا أكبر من أن تحصيا عدداً، فقد انتشرت الخيام والسراقات فغطت وجه الجبال طولاً وعرضاً، وكذلك سطح الأرض من حولها مع الحقول المزروعة، وأعطى ذلك الانطباع بشكل مدينة، وتمتن هذا الانطباع أكثر بتعدد أنواع السراقات واختلاف ألوانها التي ميزت بعضها عن بعض.

وكان بإمكانك ان ترى الشباب العسكريين من أمم مختلفة شاكي السلاح، مستعدين للحرب، يبدون وكأنهم قادرين على اخضاع الأرض كلها بالطول والعرض، وأن يهزموا جميع أمم العالم، وأن يخرقوا صفوف مختلف القبائل، وان يحكموا أن ما من مكان شديد الصعوبة أو ما من عدو قوي جداً بحيث يستحيل قهره، ولقد بدوا وكأنه من المستحيل بالنسبة لهم أن ينصاعوا للخطأ ماداموا قادرين على عون بعضهم بعضاً، ومساعدة أحدهم للآخر بفضل شجاعتهم.

ومع هذا فإن ذلك الجيش، الفخور بأعداده الكبيرة، والمحمي بقوة أسلحته، كان مشحوناً بالمتاعب، ممزقاً بالخصومات والخلافات، مغلوباً على أمره بعدم الاتفاق، ولو أنه ظل موحداً بالنظام العسكري والإرادة

الطبية، لبقى غير قابل للقهر بالنسبة لأي سواه، ولكنه بتمزيق روابط التبعية واجه سقوطاً مريعاً، وتخلّى عنه الأصدقاء وابتعد عنهم، ذلك أن البيت الممزق ضد بعضه يغدو خاوياً.

وانطلق الملكان نحو الأمام ومعهما رجالهما، وأعدا الخطط لزحفهما، وعقدت اجتماعات دورية بأبهة عظيمة، ولدى مرورهم خلال المدن والقرى يعتاد عملاق هائل وبأسلحة الصدام، كان السكان يرددون في دهشتهم: أيتها السماء، ما هذا الحشد الهائل من الرجال وماذا يريد؟! أيها الجند النبلاء في زهرة شبابهم ما أروعكم! أيها الشباب السعداء كم هو جمالكم عظيم! أي أرض ولدت مثل هؤلاء الجنود الشبان الرائعين؟.

وهكذا تابع الجيش زحفه مبتهجاً من فيزلي إلى ليون على الرون، ووقتها غادر ملك فرنسا مع جميع قواته واتجه إلى جنوى، وكان المتفق عليه أن الذي يصل إلى مسينا في صقلية أولاً يتوجب عليه أن ينتظر وصول الآخر، وبعد مضي ثلاثة أيام غادر الملك رتشارد إلى مرسيليا، حيث مكثنا هناك لمدة ثلاثة أسابيع، ثم أقلعنا في اليوم التالي ليوم رفع العذراء المباركة إلى السماء، لنعبر البحر إلى مدينة مسينا.

ولدى انتشار خبر قدوم ملك انكلترا النبيل بين سكان مسينا، اندفعوا بحماس وتجمعوا لرؤيته، فلقد تجمهروا على طول الشاطئ حتى يلمحوه، ولدهشتهم رأوا البحر عن بعد، مغطى بالمراكب، وكانت أصوات الأبواق عالية وحادة، طرقت فوق أسماعهم، وكانت المراكب محملة ومزينة بالأسلحة من كل نوع، وكانت أعلامهم وراياتهم تخفق بالهواء وهي لاعد لها ولا حصر، وكانت مقدمات المراكب متميز أحدها عن الآخر، بمختلف ألوان الطلاء، وكانت ترستهم تلمع بالشمس، وكان بإمكانك أن ترى البحر يفور تحت المجاذيف، ثم يالآبهة، وقف الملك الرائع على مقدمة مركب كان أعلى من البقية وأكثر زينة، وكان مرتدياً ثياباً فاخرة، وانطلق البحارة مع بقية الحاشية أمامه ليقوموا باستقباله

بالتهانى، ولكى يجلبوا الخيول، التى كان سىركبها مع أركانها، وتجمهر السكان المحليون من حوله وأحاطوا به من جميع الجهات، واختلطوا برجاله ، ولحقوا به إلى نزل ضيافته.

وتحدث عامة الناس بإعجاب عن مجده العظيم، واتفقوا على أنه كان جديراً بحكم امبراطورية، ويستحق أن يحكم أمماً وممالك: « لأن شهرته التى سمعنا عنها من قبل وضحت أنها أدنى بكثير من الحقيقة عندما رأيناها».

كيف أمضت الجيوش الشتاء في صقلية

كان موسم الملاحة قد شارف على الانتهاء، لذلك تقرر أن على الانكليز والفرنسيين تمضية الشتاء في صقلية، حول مدينة مسينا، المليئة بالأشياء الجيدة، مع أن سكانها هم أشرار، وعرق خبيث.

كان الملك تانكرد صاحب صقلية غني جداً، في كل نوع من أنواع الثروات، وكان قد خلف منذ أمد قصير الملك وليم الثاني على العرش، وفي هذه الآونة كانت أرملة الملك المتوفى تقيم في بلرم، وكانت أختاً للملك رتشارد، ملك انكلترا، الذي تبنى قضيتها، وأرغم الملك تانكرد على أن يعطيها ما يرضيها، وذلك فوق البائنة — الدوطة — التي تستحقها وزيادة عليها.

وبقي رجال الاسطول خارج المدينة حتى وصول الملك رتشارد، وذلك بسبب صفاقة أهلها التي لا تحتمل، لأن هذا الشعب الشرير (الذي يعرف بشكل عام باسم: غريفون) (أي اغريق حسب اصطلاح الصليبيين اللاتين) كانت أكثريته من أصل اسلامي، وهؤلاء كانوا معادين لأفراد شعبنا، وكانوا دوماً يوجهون الإهانة إليهم بالاشارة بأصابعهم إلى أعينهم، وتسميتهم « كلاب قذرة»، والسخرية منهم بطرق أخرى كثيرة، وقد قتلوا بعضهم على انفراد، ورموا بآخرين في مجاري القاذورات، حيث اقترفت فيما بعد جرائم كثيرة، وهددوا بطرد رجالنا من مدينتهم، لأنهم كانوا غرباء غير معادلين لهم بالعدد.

والآن عندما رأى الغريفون، أن الملكين قد نزلا إلى اليابسة ومعهما قوة عملاقة، ضبطوا رعونتهم بعض الشيء، لأنهم أدركوا أنهم أدنى في الشجاعة والمظهر، لكن اللومبارد (الناطقين بالاطالية والمرابين) لم يتوقفوا عن أعمال الاهانة والتحدي لرجالنا، واثارتهم بالشتائم والإيذاء،

وقد أثارتهم غيرتهم على زوجاتهم، اللائي كان رجالنا يتحدثون معهن، غالباً بقصد إغضاب الأزواج، وليس بنية اغوائهن، وبسبب الخصام هذا، ومن خلال الحسد، كان اللومبارد دوماً معادين لنا، يفعلون كل ما يستطيعونه لاغضابنا، وقاموا بالوقت نفسه باعلاء أسوار ودفاعات أبراجهم وبتعميق الخنادق المحيطة بهم.

وكان في أحد الأيام واحد من رجالنا يتساوم مع امرأة حول رغيف خبز جديد كانت عارضة إياه للبيع، وقد هددها بالقيام بوزن الرغيف، ولأن الرجل رفض أن يعطيها السعر الذي طلبته انفعلت المرأة، وأهانتها بعبارات شريرة، وتجمع عدد كبير من أهل المدينة لدى سماعهم أصوات المرأة وصراخ شتائمها، فأمسكوا بالرجل وضربوه بلا رحمة، وبعدما نتفوا شعره، وجرحوه جراحات كثيرة، داسوا عليه بالأقدام، وتركوه ليموت.

وعندما رفعت شكوى، تقدم الملك رتشارد بالرجاء من أجل السلام والصدقة، وأكد أنه جاء بسلام ليقوم بأداء حجه، وأنه لن يتوقف عن الصلاة حتى يعود كل فريق بهدوء إلى مقره.

لكن حدث في اليوم التالي أن تجدد الخلاف بين سكان المدينة والحجاج، وفيما الملك كانا مجتمعان مع قضاة صقلية وأعيان أهل المدينة، من أجل معالجة قضايا السلام والأمن، سمع صراخ عظيم وأصوات تقول بأن سكان المدينة كانوا يقومون بذبح رجال ملك انكلترا، ولم يصغ الملك إلى هذا، لسبب أساسي هو أن اللومبارديين أكدوا له أن ما قيل ليس صحيحاً، ثم مالبث أن جاء رسول آخر، أعلن أن سكان المدينة كانوا يهاجمون الحجاج، وهنا بادراً الملك وخرج مسرعاً من الاجتماع، وامتطى على ظهر حصان، وتقدم بنية إيقاف النزاع وإقامة سلام بين المتخاصمين.

وعندما وصل، كان الفريقان في حالة هياج شديد، لم يعودا يتصارعان

بالكلمات بل بالأيدي والهرارات، وبدلاً من أن يستجيب اللومبارد لجهود الملك بالفصل بين المتنازعين هاجموا بالشتائم، وبعبارات الاهانة، وقد انزعج من إهاناتهم له، فحمل سلاحه وبدأ بحصارهم في مدينتهم.

وكان الفرنسيون في الوقت نفسه لا يدرون ما الذي سيفعله سيدهم، لذلك أخذوا يركضون بهذا الاتجاه وذاك بحثاً عنه، وعم الهياج في أرجاء المدينة، وحمل كل انسان ما وصل إلى يديه، وتحذثوا بتبجح أنهم سيدافعون عن أنفسهم حتى النهاية، وذهب اللومبارد إلى الملك الفرنسي وطلبوا منه العون والمساعدة، وعرضوا عليه أن يضعوا أنفسهم وأموالهم تحت تصرفه ورهن اشارته، فيما لوقام بالتفريج عن مدينتهم، ومنع الهجوم الذي يتولاه ملك انكلترا، وأن يصبحوا من رعاياه مع مدينتهم، وعلى الفور أجابهم ملك فرنسا بأنه يؤثر تقديم المساعدة إلى اللومبارد على الوقوف إلى جانب رجال ملك انكلترا.

ولدى رؤية اللومبارد أن القتال بات الآن جدياً، وأنهم حوصروا بكل عزيمة، قاوموا بكل ما أوتوا من قوة، ووقفوا في أعالي الأسوار، وقذفوا من هناك الحجارة والنشاب من قسيهم، والحراب مثل زخات المطر، وبهذه الصورة تمكنوا في بداية دفاعهم الشديد من إلحاق إصابات كثيرة برجالنا، فبعضهم قد قتل، وبعضهم أصيب بكدمات، ولقد جرح بعضهم بعضهم الآخر، وقطعوا أطراف كثيرين.

وكان الملك رتشارد في اليوم الثاني لوصوله قد تجول حول أسوار المدينة مع اثنتي من مرافقيه فلاحظ وجود باب خلفي مهمل من قبل سكان المدينة، ومن خلال هذا الباب، توفر الآن مدخل بوساطة القوة والإقدام الكبير والعنف، وقام الذين دخلوا بتدمير الباب، وبذلك سمحوا لبقية الجيش بالدخول إلى المدينة، ثم قاموا بذبح وأسر كل من قابلوه من سكان المدينة وقاومهم، ولقد سقط في هذا الصراع عدد منهم ومن اللومبارد وكذلك من رجالنا.

وسار رجالنا الآن خلال المدينة المقهورة كمنتصرين، يتقدمهم الملك رتشارد، الذي كان دوماً هو الأول في كل هجوم، وسار خلفه حوالي عشرة آلاف رجل، وقاموا بنهب المدينة كلها. وكان بإمكانك أن تسمع هناك أصواتاً مرعبة بلغات مختلفة ومتداخلة، فمن جانب كان رجالنا يحثون بعضهم بعضاً على المطاردة، وبالمقابل كنت ترى اللومبارد الفارين يصرخون برعب من رجالنا، لأن رجالنا ضاعفوا ضرباتهم لهم، فاندفعوا أمامهم مثل سنابل قمح قوم تصدوا بهم للسيوف، وعندما اقتحمت بيوت اللومبارد، رموا بأنفسهم من الأسطحة، مدركين أنهم يبخلهم وسوء معاملتهم للضيوف استحقوا فقدان كل حق بالرحمة.

وهكذا استولى الملك رتشارد على مسينا، بضربة واحدة، وبوقت أقصر مما احتاجه كاهن لترداد ترتيلة طقوسه. وكان من الممكن سقوط المزيد من سكان المدينة، لولا أنه أمر بتوفير حياتهم، وكان هذا كرمًا منه، لكن الذهب والفضة وكل شيء ثمين وجدوه بات ملكاً للمنتصرين، وأحرقوا سفن الأعداء، خشية أن يفروا ويستردوا قواهم للمقاومة، وقام المنتصرون أيضاً بأخذ أعلى نسائهم مكانة، وحملوهن معهم.

ثم إنه ياللعجب، حدث بعد هذا كله، أن رأى الفرنسيون أعلام الملك رتشارد تحفّق فوق أسوار المدينة، ف شعر ملك فرنسا بإهانة كبرى، وحمل في قلبه كراهية للملك رتشارد استمرت طيلة حياته، وقادته فيما بعد إلى غزو نورماندي.

وبعد الاستيلاء على المدينة، أرسل ملك فرنسا، بناء على مشورة ديوانه، أوامر إلى الملك رتشارد لينزل أعلامه، واستبدالها بأعلام فرنسية، وذلك اعترافاً منه بتفوقه وسيادته(*)، وغضب الملك رتشارد من هذا

❖— كان من أسباب الخلاف بين الرجلين، أن ملك انكلترا يحكم أملاكه في فرنسا، عدّ واحداً من أتباع الملك الفرنسي، غير أن رتشارد عدّ نفسه مساوياً للملك الفرنسي، يضاف إلى هذا ما تقدمت روايته حول خرق رتشارد للاتفاق مع الملك الفرنسي بالزواج من أخته أليس، وزواجه بدلاً عنها من بيرنغاريا ابنة سانشو السادس ملك نافار، وتقدمت تفاصيل ذلك في المجلد المتقدم.

الطلب، ولم يبعث له بجواب، خشية أن يُرى أنه يتخلى عن حقه، لكن تمّ من خلال جهود الوسطاء اطفاء غضب الملك رتشارد، ووضع حد لهذا الخصام، واستجاب لتهدئة الأصدقاء له، واستجاب إلى مطلب ملك فرنسا في أن يتخلى عن حراسة الأبراج التي استولى عليها، وأن يوضع فيها حراس من كلتا الأمتين، وذلك حتى يعلمان مشاعر الملك تانكرد تجاه ما حصل، ولذلك تمّ رفع أعلامهما معا فوق أسوار مسينا.

وبعد اجتماع عام، تقرر وجوب ارسال رسل من قبل الملك رتشارد إلى تانكرد بغية طلب تعويضات عن الأضرار البالغة التي لحقت بشعبه نتيجة الاضطرابات، وأن يعطي الملكة الأرملة جوانا «بائنة» ترضيها مع حصتها من أموال الملك التي آلت إليها والتي هي حق لها.

وأثار الملك الفرنسي في الوقت نفسه مشكلة حول نهب المدينة، وطالب بحصته، ولأن الملك رتشارد رفض بحق طلبه، لم يتوقف عن إزعاجه وإثارته بمثيرات خبيثة ومنغصات مزعجة، وبناء عليه قرر الملك رتشارد رفض صداقته، وأمر سفنه أن تكون مستعدة للمغادرة مع جميع أثقالها، فهو قد أثر السير وحده مع رجاله فقط لانجاز حجة على أن تكون له أدنى معاملة مع رجل حسود، وعندما وصلت معلومات هذا الأمر إلى مسامع ملك فرنسا، قبل بوساطة جهود الوسطاء باعادة تجديد الصداقة المقطوعة، وأن يعود تعايشهما كما كان من قبل، على شرط اقتسام كل شيء بالتساوي سيتم الحصول عليه من الآن فصاعداً.

وبحث الرسل الذين توجهوا إلى الملك تانكرد معه تقديراته وآرائه بالقضايا المثارة معه، فأجاب باجابات غامضة، وأكد أنه سيتولى ارضاء الملكين وفقاً لمشورة نبلاء البلاد، في الوقت المناسب، وفي المكان الموائم، وبالطريقة التي تخص الموضوعات بشكل محدد، وقيل بأن ملك فرنسا قد حث الملك تانكرد بوساطة رسالة بعثها إليه، على عدم الاستجابة لمطالب ملك انكلترا، بل أن يظهر صلابة في الموقف وفي الدفاع عن حقوقه في

كل شيء، وأكد له أن ملك فرنسا سوف لن يشارك الملك رتشارد في أي عمل يقوم به ضده، بل إنه سيكون مخلصاً وفياً لتانكرد.

وأعاد هذا الخصام الشجاعة إلى السكان المحليين، فبعد ما أثيروا من قبل ملك فرنسا، بذلوا غاية جهودهم لإيذاء الملك رتشارد ورجاله بالقدر الممكن لهم: لقد منعوا تزويد المؤن لهذا الجيش الكبير، وأمروا بعدم عرض أي شيء للبيع، واستهدفوا من وراء ذلك إرغام الانكليز على إخضاع أنفسهم لسلطان السكان المحليين.

وبذل الملك رتشارد جهوداً كبيرة، وبقظة ونشاطاً في سبيل إنشاء قلعة أطلق عليها اسم « ميتغريفون Maetgriffon: «*» ، وارتعب الغريفون كثيراً، لأنهم رأوا أنها صممت من أجل تدميرهم، وقد شيد البناء على رابية محاذية للمدينة، وكان موائماً كثيراً للتقهقر والتراجع، وكان الجيش سيعاني كثيراً من نقص بالمؤن، لولا أنه استخدم المؤن التي جلبها بالاسطول كاحتياطي ضد العوز المستقبلي.

وهكذا تأرجحت الأمور، ثم إن الملك تانكرد اقتنع بأن الملك رتشارد لن يتوقف حتى يحصل على ما يرغب به، فأرسل رسلاً عرضوا عليه السلام، وسألوا باستعطاف المصالحة، وتم الاتفاق على شروط الصلح، وبذلك ختمت القضية، ثم كان أن صدرت فتوى عن وولتر رئيس أساقفة روان Rouen ، قضت أن كل من لا يعيد جميع ما نهب من ذهب ومن الفضة سيكون خاضعاً للحرمان واللعنة.

* — معنى هذه « صد الغريفون »، وكانت هذه القلعة مصنعة من ألواح من الخشب كانت جاهزة، تم تثبيتها داخل اطرار جاهزة بوساطة المسامير، ودعمت من الخلف بدعائم، وعندما غادر رتشارد مسينا، فكها وأخذها معه حيث أقيمت حول عكا من الخارج.

وهكذا جرى استرداد كل شيء، وبذلك بدا ظاهرياً أن السلام قد توطد، وعبر سكان المدينة عن سرورهم لسلامتهم، والحجاج لحصولهم على الهدوء، وجددت الصداقة بين الملكين، لكن التنافس الذي كان قائماً بينهما استمر.

واحتفل بعيد الميلاد بوقار خاص، لتوفر الحاجة أكثر من ذي قبل لانقاذ الجنس البشري، وقام الملك رتشارد، على شرف هذا العيد، بتوجيه الدعوة إلى ملك فرنسا لحضور مائدته، وتوجه بالدعوة بوساطة المنادي العام إلى كل ذي روح بأن يمضي العيد بفرح وسرور، واستجابة لهذه الدعوة اللطيفة جاء ملك فرنسا مع مجموعات كبيرة من النبلاء وحشد من الناس الآخرين.

وتم استقبالهم بترحاب كبير وتكريم في قلعة ميتغريفون، وجلس كل واحد هناك وفقاً لمرتبه : من كان بإمكانه إحصاء الصحن المختلفة، وأنواع الكؤوس، أو حشود الخدم أو الملابس والمظاهر الرائعة؟ وما من شيء كان هناك لم يكن ثميناً له قيمته وهو موائم، فلقد كانت الصحن على اختلاف أحجامها من الذهب أو من الفضة، وكانت الأوعية مصنوعة وعليها أشكال رجال أو حيوانات وضعت على الحواف أو الأطراف، ورصعت بأحجار كريمة، زد على هذا كانت هناك وسائل سارة ظهرت للجميع مما أضفى بهجة على العيد، وتمتع الضيوف برؤية عروض سارة وأعمال مبهجة، وذلك بالإضافة لأنواع اللحوم والأشربة وزيادة عليها.

ولدى انتهاء الاحتفال، وضع الملك رتشارد أمام ملك فرنسا أجمل الأقداح وأعطاه خيار الإنتقاء منها على شرف المناسبة، ثم قدم لكل واحد من النبلاء هدية تبعاً لمرتبه، لأنه مثله مثل تيتوس (الامبراطور الروماني ٧٩ — ٨١م) عدّ اليوم الذي حدث ولم يعط به شيئاً يوماً خاسراً.

كيف غادروا نحو الأراضي المقدسة

في السنة ١١٩١ لتجسيد مولانا ، ولدى انتهاء أشهر الزوابع من فصل الشتاء الكسول ، وحلول الأيام المشرقة ، امتلأ الناس بهجة بعودة موسم الإبحار والملاحة ، لأن الملكان أقاما في مسينا من عيد القديس ميكائيل حتى أيام الصوم ، ثم عقدا اجتماعاً حول نقل رجالهما، وارتأيا عدم موائمة التأخر أكثر، بسبب توفر المناخ الجيد، وبسبب أن وسائلهما سوف تحبط وتتلاشى بلا فائدة في إضاعة الوقت بلا عمل، ولأن رفاقهم في عكا كانوا يعانون وفي أمس الحاجة إليهم.

وبينما كل واحد يعد العدة لمتابع رحلته، وصل رسل حملوا أخباراً إلى الملك رتشارد أن أمه اليانور تخف الخطى وهي مسرعة للحاق به، وحيث أنها كادت أن تنهي رحلتها، فقد بات وصولها وشيكاً، وكانت جالبة معها النبيلة بيرنغاريا، المعدة لتكون زوجة له، وكان منذ وقت مضى، حينما كان كونتا لبواتو سحره حسنهما وأبهتهما ، وسمو مكانتهما وأصالتها، وجاذبية أنوثتهما، فشعر بعاطفة قوية نحوها، وبناء عليه، أودعها أبوها ملك نافار إلى أم رتشارد لتتولى العناية بها، ولتحملها إليه، بغية أن يتمكن من الزواج منها، قبل عبوره البحر، حسبما كان ناوياً، ولقد ابتهج الجميع بقدموها.

وكان في الوقت نفسه ، قد أكمل ملك فرنسا إعداد جميع تجهيزاته ، فاغتتم فرصة توفر الريح الطيبة ، فأقلع ومعه اسطوله في يوم السبت بعد يوم عيد بشارة مريم العذراء المباركة ، وقد شيعه الملك رتشارد وهو على ظهر مراكبه ومعه أعيان نبلائه لبعض الطريق ، ثم عاد لأنه لم يكن شخصياً قد تهيأ بعد لعبور البحر ، حيث لم يكمل جمع سفن شحنه ، ورأى أن هذه لم تتجهز بجميع المؤن المحتاجة ، زد على هذا كان قد

سمع بأن أمه قادمة ومعها بيرنغاريا الرائعة، ولهذا عندما ترك ملك فرنسا يمضي في طريق رحلته بسلام رجع بوساطة طريق الفاروس إلى ريغيو دي كالايرا، حيث سمع بوجود أمه الملكة وبيرنغاريا فيها ، وبعدما تلقاهما على ظهر سفينته بسرور عظيم، عاد إلى مسينا، حيث بقي هناك لوقت قصير، أسند وقتها إلى أمه شؤون العناية بالمملكة ، وتركها تغادر برفقة وولتر، رئيس أساقفة روان، وكان شخصاً عظيم الفضائل.

وأبقى الملك رتشارد معه الفتاة التي كان سيتزوج منها ، وبعدما جهز نفسه بكل شيء كان ضرورياً للرحلة، استعد تبعاً للاتفاقات ، للحاق بملك فرنسا بقدر ما هو ممكن من السرعة، وقد عين روبرت دي تورنهام ليقود الأسطول وليتولى العناية به، وبعث بزوجته مع أخته الملكة الأرملة لصقلية، ليرحلا قبله عبر طريق مباشر نحو الشرق، وذلك على ظهر إحدى السفن التي تدعى عادة باسم «درمون» ، ووضع بالسفينة عدداً من الفرسان ، مع حشد كبير من خدم الحاشية، في سبيل تأمين راحتيهما وسلامتيهما.

وبقيت المراكب بلا حراك، حتى أقام الملك وليمة، احتفل بها بوداع السكان المحليين ، وبات الآن جاهزاً للانطلاق وإيكال نفسه للرياح الطيبة ولأمواج البحر، ثم أقلت جميع السفن المحشودة، وصارت على وجه البحر، تدفعها أعداد هائلة من المجذفين ، ويحق لمدينة مسينا أن تفتخر بكل حق ، بأنه لم يحدث في القرون الماضية أن رأت تلك السواحل أسطولاً بهذه العظمة، ولن ترى مثيلاً له في العصور المقبلة.

وهكذا دخل الملك رتشارد مع سفنه الكثيرة عرض البحر، وكان بعضها يُوجه بالأشرعة ، وبعضها الآخر بالمجاديف ، وبقيت السفن الحربية بالخلف ، فهذا ما خطط له الملك رتشارد ، وخطط أن تبقى السفن قريبة من بعضها بعضاً بقدر الإمكان ولا تفترق، وخففت الغلايين من سرعتها عن قصد ، ولازمت البقاء على مسافة من سفن

الحمولة بهدف حمايتها.

وتوقفت حركة الريح، لهذا أرغم الأسطول على البقاء راسياً بلا حركة بين كالبيرا وجبل إتنا، غير أنه في اليوم التالي (يوم عشاء الرب) قام الذي أوقف حركة الرياح، بإرسال الرياح من خزائنه، لقد بعث إلينا بريح استمرت طوال اليوم، حيث لم تكن قوية جداً، بل كافية لدفع الأسطول لأن يسير بسرعة لطيفة، لكن في الليلة التالية اختفت الرياح تماماً.

وفي يوم الجمعة المقدسة ساقطت رياح معاكسة الأسطول إلى الخلف وهاج البحر (لأنه أثير بذلك كثيراً) وفار من أعماقه، وبينما تلاطمت الأمواج ازدادت قوة العاصفة، وكانت أصوات زئير الأمواج المتلاطمة، وأنين السفن التي كانت تواجه الرياح العنيفة العاتية، قد أصابت الجميع برعب عظيم، ولعتو الرياح، باتت إدارة السفن وقيادتها عاجزة كلياً، لأنه لم يعد بإمكان أي قبطان تحريك سفينته، وحُملت السفن بهذا الاتجاه وذاك، ففقدت نظامها، وذهبت كل سفينة باتجاه مخالف.

ويئس البحارة من الحصول على عون أرضي، لذلك سلموا أمرهم إلى الرب، وقرروا، بقدر ما سمح به الضعف الإنساني، أن يتحملوا الأمور بصبر، تحت ناظري مخلصنا، الذي عانى في ذلك اليوم من موت لا يستحقه، وذلك من أجل خلاصنا، وفيما السفن تتقاذفها الأمواج في هذا الاتجاه وفي ذاك، وتمضي بها باتجاهات مختلفة، بدأت بطون الرجال تشعر بآلام الغثيان، وأصيبوا بدوارات بحر عنيفة، وجعلهم الشعور بالغثيان أشبه بالمجانين تجاه المخاطر التي أحقت بهم، ولكن مع اقتراب المساء غدت الأحوال هادئة إلى حد بعيد، وتوقفت الرياح المجنونة مع الأمواج الصاخبة.

وانتشرت الآن ريح طيبة توافق رغباتنا، واسترد البحارة قواهم وثقتهم، وبذلنا جهودنا للمحافظة على الطريق المباشر لرحلتنا.

وبقي الملك رتشارد هادئاً، وسط هذه الحالة من الفوضى، ولم يتوقف عن تهدئة ومواساة الذين كانوا يائسين، حاثاً إياهم على التشجع، والأمل بحظ أفضل، وحسبما جرت العادة كان لديه ضوء شمعي داخل مصباح، علقه عالياً في سفينته ليعطي الضوء لبقية الأسطول، وليوجههم على طريقهم، وكان معه على ظهر سفينته أكثر البحارة خبرة، وقد بذل هؤلاء كل جهد يستطيع الإنسان أن يقوم به، واستخدموا كل حيلة لمواجهة الرياح الغاضبة، وبقي الملك واقفاً لبعض الوقت بهدف جمع الأسطول، الذي تقاطرت سفنه للتجمع حول الضوء، وهذا شابه دجاجة تولت جمع صيصانها معاً.

وبدأنا بعد هذا بريح طيبة، وأبحرنا باستمرار دون أن نواجه عقبة أو نعاني من أذى، وذلك يوم سبت فصبح اليهود حتى يوم الأربعاء التالي، واقتربنا في هذا اليوم من كريت حيث توقف الملك للراحة، وعندما اجتمعت السفن معاً، تبين فقدان خمس وعشرين منها، الأمر الذي سبب حزناً كبيراً للملك.

وفي يوم الخميس عاود الملك وجيشه كله الدخول إلى سفنهم، حيث بدأت الرياح تصبح أشد قوة، ومع أنها ظلت موائمة، كانت قوية في دفعنا نحو الأمام، لذلك تحركنا بسرعة بوساطة أشعة منتفخة، وسواري منحنية بعض الشيء، ليس بدون شبه لطيور طائرة، ولم تهدأ أبداً طوال الليل، وسأقت عند فجر النهار اسطولنا بعنف نحو جزيرة رودس، حيث انتشرت الأمواج والزبد على طول الشاطئ، وهكذا لم نكن قادرين على الوصول إلى الميناء، وعلى كل حال عندما تمكنا في يوم الاثنين التالي من الرسو، تمتعنا براحتنا بشكل جيد لأننا كنا بحاجة إليها تماماً.

وكانت رودس في العصور القديمة مدينة كبيرة، لا تختلف عن روما، وهناك بقايا الكثير من البيوت، وأجزاء عديدة من الأبراج ساقطة، لكن بقاياها ما تزال قائمة، وآثار رائعة لأبنية وأسوار عمرانها جدير

بالإعجاب، ومن الصعب تقدير امتدادها، كما ما يزال هناك أيضاً بقايا قلة من الأديرة الكثيرة، لأن معظم الأجزاء كانت مهجورة ، مع أنها كانت فيما مضى مسكونة بأعداد كبيرة من جماعات الرهبان، وقدم منظر مدينة عظيمة بهذا القدر (مع أنها الآن مبددة) شواهد وبراهين على وجود عدد كبير من السكان، لكن توفر الآن عدد قليل من السكان ممن كانوا بإمكانهم بيعنا الطعام، وبما أن الملك كان متعباً، فقد استراح هناك لبضعة أيام قليلة، انتظر خلالها وصول السفن التي أضلت سبيلها، وشردت عنا، وانتظر أيضاً وصول الغلايين التي سارت تابعة للأسطول، وقام أيضاً بالتقصي حول اسحق، الطاغية الوحشي، امبراطور قبرص، الذي اعتاد على حبس الحجاج الذين كانوا يرسون في مينائه.

وبعدما أمضينا عشرة أيام في رودس التي كانت جزيرة خصبة جداً، ومنتجة، صعدنا ثانية إلى ظهور سفننا، وتابعنا سفرنا، وكان ذلك في الأول من أيار، وحملتنا سفننا ونحن في طريقنا إلى أعظم الأماكن خطورة، الذي يعرف باسم خليج أضايا، حيث تتصارع تيارات عنيفة جداً تشكل وصلة بين أربعة بحار، وتصطدم مع بعضها بعنف شديد، وكل منها يندفع ضد الآخر ويقاومه، وعندما كنا على حافة الدخول إليه، عندها يا للعجب، حملنا تيار عائدين إلى المكان الذي شرعنا منه، وكأنه أراد سلامتنا، لكن قامت الرياح، التي تهب دوماً في تلك الأجزاء وتتغير، بعد وقت قصير بدفعنا عائدين ثانية إلى الخليج، وصاحب ذلك خطر ازداد لازدياد عنف الرياح، وخشية منا من نتائج هياج الرياح، فعلنا كل ما نستطيعه لحماية أنفسنا ضد مخاطر المكان، وعبرنا فوق الأمواج الهائجة التي كانت ترغو وتزبد من حولنا.

وكانت السفينة الملكية تسير دوماً بالأمام، وعندما رفع الملك ناظريه، رأى تحت السماء الهادئة سفينة كبيرة جداً من النوع الذي يعرف باسم

بصّ *Buss، وكانت متجهة نحونا، وعائدة من مملكة القدس، وبادر الملك مسرعاً فبعث ببعض الرجال ليحصلوا من الرجال الذين كانوا على ظهر السفينة على معلومات فيما يتعلق بحصار عكا، فأخبروه بأن ملك فرنسا وصل سالماً إلى عكا يوم السبت في أسبوع الفصح، وانشغل بنشاط في صنع آلات حربية، وذلك بانتظار وصول ملك انكلترا، وعندما سمع الملك رتشارد هذا، تابعت البصّ طريقها، وقام هو بصنع جميع الاستعدادات بروح معنوية عالية، ولم تكن الرياح طيبة، ولقد بذل غاية جهوده للسيطرة على تقلباتها، لكن الأسطول أرغم بهبات الريح المتضادة، والأمواج الصاعدة والهابطة، على العودة، وسيق إلى وسط عرض البحر.

وكان في الوقت نفسه قد وصل الغليون [الدرمون] الذي أبحر من ليون مع الملكتين إلى ميناء ليماسول، في جزيرة قبرص، لكن عوضاً عن النزول إلى البر، ألقى مراسيه على مسافة داخل البحر، واعتادت مملكة القدس أن تحصل من هذه الجزيرة سنوياً على مرباح كبيرة، لكن الآن بعد رفعها لنير الخضوع، تمنعت عن تقديم أي شيء، وذلك بتوجيه من طاغيها اسحق، الذي اغتصب السلطة الامبراطورية، وكان من أكثر الناس سوءاً وشروراً، وقد تفوق على يهوذا بالخيانة، وعلى جدعون في التآمر، وقد أراد فقط تعذيب الذي اعتنقوا الديانة المسيحية، وقد قيل بأنه كان صديقاً لصلاح الدين، وقد حكى أنها شربا دماء أحدهما الآخر كعلامة شاهدة على عهدهما المتبادل، فمزج دمهما ظاهرياً قد يصبحان أقرباء حقيقة، وقد تأكد هذا فيما بعد ببعض البراهين، فبعدها اطمئن

* — bucca أو buzzos — وهي سفينة تجارية من سفن البنادق، ذات تجويف

كبير، وقدرة على التخزين، وقد استخدمت بمثابة سفن خزن وحمولة، وأطلق الصليبيون على مثل هذه أحياناً اسم «درمون» أو «بص» دونما تمييز، وكثيراً ما أرادوا بذلك السفن الكبيرة، مع أن هذا النوع كان متميزاً عن سواه.

هذا الطاغية بهذه الخطوة، وبعدها ألغى خضوعه المتوجب عليه، اغتصب السلطة وادعى زيفاً اسم الامبراطور، واعتاد على إلقاء القبض على كل واحد نزل إلى الجزيرة طوعاً، أو لأن الرياح قذفته بقوتها إليها، وكان يستخرج من الغني فدية، ويرغم الفقير على العبودية، وبناء عليه عندما سمع خبر وصول درمون غريب، قرر إلقاء القبض على جميع من كان على ظهر السفينة، وأن يقوم بسلبهم جميع أموالهم، والاحتفاظ بهم أسرى لديه.

حول الملك رتشارد في قبرص

في عشية اليوم السالف لعيد القديس مرقص الرسول، وقبل غياب الشمس بوقت قصير، غطت غمامة داكنة الأفق، وهبت عاصفة عاتية، وحرك عنف الريح المياه، وبينما كانت بعض سفننا التي بعثرتها الرياح تحاول الوصول إلى جزيرة قبرص قبل اشتداد العاصفة، دفعت بها الأمواج المضادة والريح إلى الصخور، ومع أن الملاحين بذلوا غاية جهودهم لمقاومة الريح التي هاجمتهم، فإن ثلاثة من سفن الملك امتلأت بالماء، وتحطمت إلى قطع، وغرق بعض الذين كانوا على ظهرها، وواتى الحظ بعضهم الآخر، حيث أمسك كل منهم بقطعة من حطام سفينة، واستطاعوا (لكن ليس بدون بذل جهود كبيرة وسط البحر الهائج) بهذه الوسيلة الوصول إلى الشاطئ، وقد وجدوا أنفسهم عراة مفلسين، وكان بين الذين غرقوا روجر الذي كنيته كاتولوس Catulus ، وكان يحمل خاتم الملك، وضاع الخاتم، لكن عندما قذف تيار البحر بالجسد إلى الشاطئ، وجد أحد الناس الخاتم معه، فجلبه إلى الجيش لبيعه، وبذلك تمّ انقاذه.

ورحب سكان الجزيرة بسرور، تحت شعار غطاء السلام، بالبحارة الذين وصلوا إلى الشاطئ، وتظاهروا أنهم يريدون تأمينهم فقادوهم إلى أحد الحصون بالجوار، وقام الغريفون بتجريد جميع الذين وصلوا إلى الشاطئ سالمين من أسلحتهم، وقادوهم إلى المكان نفسه، وكانوا يؤكدون لهم أنهم إذا دخلوا الحصن وهم يحملون أسلحتهم فسيبدون وكأنهم جواسيس، أولديهم نوايا عدوانية بمهاجمة الجزيرة، وأن عليهم الانتظار حتى يحصلوا على ثقة الملك وإرادته.

وكان النبلاء منا قلقين بشأن أحوال الرجال الذين وضعوا رهن

الاحتجاز، فبعثوا إليهم بالملابس وبالأشياء الأخرى الضرورية لهم، وبعث إليهم ستيفن دي تورنهام وكان حاجب الملك وخازنه، بكميات كبيرة من المؤن، التي (عندما جلبت إلى مدخل الحصن) نهبت من قبل الغريفون، وحراس المدينة، وعلى كل حال قاموا بتهدئة رجالنا ومواساتهم بكلمات ناعمة، ولم يظهروا بعد نحوهم عداوتهم بشكل مكشوف، غير أنهم رفضوا إطلاق سراحهم ومنحهم حرياتهم حتى يتم إخبار الامبراطور بما حدث، ووعدوا بالوقت نفسه بكلمات منمقة أن يزودوهم بكل شيء ضروري، ثم إنهم وجهوا الدعوة إلى نبلاء البلاد، وعقدوا مشاورات معهم في سبيل إلقاء القبض على أكبر عدد من الحجاج بمختلف الأساليب الخادعة، ومن ثم يتولون قتلهم.

وعندما بات هذا معروفاً لدى رجالنا، حشدوا أنفسهم وتجمعوا داخل الحصن وعزموا على الدفاع عن أنفسهم، غير أن بعضهم قتل من قبل السكان المحليين، وهكذا قدروا المخاطر حق قدرها، وأنهم فعلاً معرضون لها، ولذلك اختاروا مواجهة المخاطر في القتال على أن يموتوا جوعاً بعد وقوعهم في أيدي الكفار الذين يتولون تعذيب المسيحيين، وبناء عليه تقدموا من خارج الحصن حتى وصلوا إلى أحد السهول، وبدأ السكان المحليون بحصارهم وقتلهم، ومع أنهم كانوا غير مسلحين، ولا يحملون سوى ثلاثة أقواس كانوا قد أخفوها عن السكان المحليين، فقد قاوموا بقدر ما استطاعوا، وأوقعوا في صفوف أعدائهم عدداً من القتلى لم يكونوا أقل من العدد الذي فقدوه.

وكان بينهم روجر دي هاردكيرت Hardecourt وقد صدف أن وجد فرساً هناك فركبه وهاجم حشود الذين تصدوا له، وكان كذلك وليم دي بويس Bois (وهو نورماندي كان من أبرع الناس بالرمي) الذي تمكن أولاً من تفريق مجموعة ثم فرق مجموعة أخرى، بوساطة رميهم بالنشاب والسهام نحوهم بدون توقف، ورآهم الجنود الذي كانوا ما يزالون على

ظهور السفن، فبادروا مسرعين لنجدتهم وتخليصهم بقوة السلاح، ومع أن الغريفون أعاقوهم بنشابهم وقسيهم بقدر ما استطاعوا، ومنعوهم من النزول إلى البر، لقد نجحوا أخيراً، تحت حماية الرب، بالنزول من سفنهم.

وبعدما تفرق الغريفون، ودفعوا نحو الخلف، شق الحجاج طريقهم إلى الميناء، حيث وجدوا هناك رجالنا الذين نزلوا من سفنهم يقاتلون بكل طاقتهم ضد الغريفون الذين واجهوهم، ولدى تمكن رجالنا من الاتصال ببعضهم فرقوا الغريفون، واستولوا على ميناء ليماسول، حيث وجدوا الملكتين، اللتان لجهلهما بأوضاع الجزيرة، وخشية منهما من وحشية الامبراطور وخيائته بقيتا بالسفينة ولم تنزلا إلى اليابسة، وقرابة مساء ذلك اليوم وصلت أخبار ما حدث إلى امبراطور قبرص، ولدى اطلاعه على أن الحجاج وصلوا، جاء إلى المدينة، وعندما شكّا إليه الحجاج ما لحقهم من أذى ومضار، وعدهم بكل ما يرضيهم، ووافق على أن يعيد إليهم الأموال التي أخذت من الرجال الذين تحطمت سفنهم، وحصلوا على حق الدخول إلى مدينة ليماسول والخروج منها، بشرط تبادل أربعة رجال بمثابة رهائن.

وفي الوقت نفسه، أعطى الامبراطور الأوامر، بحشد جميع المقاتلين في امبراطوريته، وهكذا شكل جيشاً قوياً، وأرسل في اليوم الذي وصل فيه رسالة تغرير إلى الملكتين، يطلب منهما النزول إلى اليابسة لأنها أكثر أماناً، وأن تتجولا حسبما ترغبان دون خوف من أذى أو إساءة معاملة من قبل شعبه، ولدى رفضهما بعث إليهما في اليوم التالي، على سبيل التكرم بخبز، ولحم كبش، وخمرة، من عصير عنب قبرص، التي قال لا مثيل لها بمزاياها في جميع أنحاء العالم، وحاول في اليوم الثالث مرة ثانية أن يخدعهما، وأن يأسرهما زيفاً بكلمات لطيفة في رسالة منمقة، وضعتها في حالة من الإرباك عظيمة، فإذا ما أصغيتا إليه ربما سيجعلها أسيرتين لديه، وإذا ما رفضتا بعناد لا بد من أن يخشين من التعرض لبعض

العنف، وكان الحال غير معروف بعد الوقت المتوقع فيه وصول الملك، أو الحالة الجيدة لأسطوله، ولقد تركنا الامبراطور في وضع غير مؤكد بإجابته إجابة مبهمه، وقالتا إنهما في الغد ستمثلان بحضرته وستكونان تحت تصرفه، ولتوقع الامبراطور قيامهما بتنفيذ ما وعدتا به لازم الهدوء.

وحدث فجأة في اليوم التالي أنه بينما كانت الملكتان في وضع مضطرب كثيراً، وواقعتان تحت تأثير قلق عظيم، وكانتا تتناقشان وتتحدثان وتقلبان أوجه الأمور، بينما هكذا كان الحال، فجأة ظهر بالأفق البعيد مركبان وكأنهما غرابان فوق ذرى الأمواج المتحركة، وكانا يتحركان نحو الأمام، ويسيران نحوهما بسرعة كبيرة، وفيما الملكتان ومن معهما في شك حول ما كانا، لمحت بعض المراكب الأخرى قادمة من بعيد، وإثر هذا كان ممكناً رؤية بقية الأسطول، وكله قادم بسرعة يؤم الميناء، ولدى معرفتها أنه كان أسطول الملك، فرحتا فرحاً عظيماً، وقدرتا أنه جاء في الوقت المناسب لإنقاذهما من الوضع السيئ والمخرج الذي عاشتا به.

ووصل الملك رتشارد، بعد تجاوزه لعدد كبير من المخاطر، تقوده عناية الرب وتوجهه إلى ميناء قبرص، وفي يوم عيد القديس جون أمام البوابة اللاتينية (٦- أيار) ألقى مراسيه في ميناء ليماسول ومعه جميع أسطوله، غير أنه لم ينزل إلى اليابسة.

وعندما علم الملك بالمخاطر التي أحقت برجال السفن المحطمة، وكيف أنهم سلبوا من مقتنياتهم، وذلك مع جميع ما حدث في تلك الآونة، غضب غضباً شديداً، وبعث في اليوم التالي باثنين من فرسانه إلى الامبراطور يطلب تعويضه بما يرضيه بشكل سلمي، وذلك عن الأذى الذي لقيه وعن المال الذي قام بسلبه [من رجاله]، وكان الامبراطور غاضباً غضباً شديداً تجاه هذه المطالب، ورأى أنه هو الذي لحقه الأذى وأنه هو الإنسان المصاب، ولهذا انفجريتفه ويقذف بكلمات شتائم وإساءة قائلاً: «عاهر، مأفون»، وأعلن أنه لا شأن له بالملك، وتبجح

بحمله لقب امبراطور، وأنه يمتلك السلطات الامبراطورية، وأنه واثق من تأييد الساء له، وأنه عمل فقط بما يرضيه.

وعندما عاد الرسولان يحملان هذا الجواب، انزعج الملك بسبب رعونه الامبراطور، وبسبب جوابه المهين، وكان فقدانه لرجاله له تأثيره الكبير، ولهذا صرخ بصوت مرتفع: «إلى السلاح»، وهو أمر أطاعه رجاله على الفور، وبعدما سلح الملك نفسه تماماً، اعتلى ظهر مركب من النوع الذي يدعى «أفعى»، وكذلك فعل جنوده، وذلك في محاولة منه للاستيلاء على الميناء، وكان الامبراطور قد قام بإغلاق الميناء حتى يمنعه، فطوقه بجيش كبير، وأغلق المدخل بكل نوع توفر له من وسائل الحجز والإعاقة، حيث اقتلع الأبواب والنوافذ من البيوت، وجلب حطام الأشياء، وركام كل شيء وجده، والمقاعد والسلام مع قطع طويلة من الخشب، جعلها على شكل عوارض مصلبة، وجاء كذلك بالدروع والترسة، وبالمراكب القديمة، والأوعية المهجورة والتي كانت قدرة لإهمالها ورميها جانباً، وجاء أيضاً بكل أداة مهما كانت، وبكلمة موجزة، قام الغريفون بهدف التصدي للهجوم على الميناء بوضع ركام كل شيء توفر لهم من خشب أو حجارة، وأمكن لهم العثور عليه في مدينة ليماسول، زد على هذا قام الامبراطور معه قواته بالزحف صعوداً ونزولاً على طول الشاطئ.

ولكم كان حشد الامبراطور مسلحاً بشكل رائع، فقد حملوا أسلحة غالية الثمن، لا بل ثمينة جداً، وارتدوا أردية ذات ألوان كثيرة، وركبوا خيول حرب تسابق الريح، وعلى بغال جميلة، وزحفوا إلى الأمام وإلى الخلف جاهزين للقتال، وكانت أعلامهم وراياتهم التي لا تعد ولا تحصى ترفرف بالهواء، وكان لديهم أيضاً بعض العرادات والقسي وخمسة مراكب جيدة التسليح وقفت مع الشاطئ، وكانت مملوءة بشباب بارعين في القتال البحري، ولدى محاولة رجالنا جاهدين الوصول إلى الشاطئ، حاول الغريفون قتالهم بصرخات مرعبة، وكانوا أشبه بكلاب

تنبح وتزجر، وشتموهم وكأنهم ممن حلت عليهم اللعنة، وأخبروهم أنهم يسعون وراء ما هو محال انجازه.

وبدت عساكرنا وكأنها أدنى من الأعداء، لأنهم كانوا مكشوفين داخل مراكب صغيرة، كما وكانوا أيضاً منهكين نتيجة متاعب ركوب البحر لمدة طويلة، فضلاً عن هذا لقد كانوا رجالة يحملون أسلحتهم الفردية فقط، وعلى عكسهم كان السكان المحليون، فقد كانوا في بلادهم، وبإمكانهم فعل كل شيء حسبما يرغبون، ولذلك عندما اقترب رجالنا في مراكبهم، قرروا الاقتراب بقدر الإمكان ليهزموا رماة العرادات والمقاليع والنشاب الموجودين داخل المراكب، وهكذا توجهت رمايات عراداتنا ونشابنا ضدهم، وبعدما فقد الغريفيون كثيراً من رجالهم، تخلوا عن مواقعهم، لأنه لم يعد بإمكانهم تحمل ثقل المعركة.

فعندما تطايرت الرمايات بكثافة، قام في وقت واحد ثلاثة أو أربعة من الغريفيون بالقفز من المراكب إلى البحر، وغطسوا تحت البحر، وهلكوا بسبب اصطدام أحدهم بالآخر لدى محاولتهم الحصول على منجاة "الآن الاستيلاء على المراكب، وباتت مراكبنا على الشاطئ، وتشجع رماتنا بسبب النجاح الذي تحقق، فأرسلوا بزخات من النشاب مثل الأمطار ضد الذين كانوا يحرسون مكان الرسو، ولم يستطع الغريفيون مواجهة الحملة، فتراجعوا من الشاطئ إلى أرض أكثر ثباتاً، وفي أثناء ذلك تابع رماتنا ورماتهم قذف بعضهم بعضاً، وهكذا أظلم الجو من زخات النشاب، وبدأ النهار وقد تحول إلى ظلام ليل، وفي هذا الوقت اكتظت المدينة بالعساكر، وامتلات المناطق المجاورة بحشود من الناس يعدون آلاتهم الحربية ويستخدمونها.

ومضى وقت طويل والنصر معلق بين الطرفين، فالشك ظل قائماً حول أي الفريقين هو المنتصر، وأيهما كان المتفوق، ذلك أن قواتنا، مع أنها بذلت غاية جهدها وقاتلت بكل قواها، لم تحقق تقدماً يذكر، ولاحظ

الملك أن رجاله لم يكونوا يمتلكون ما يكفي من جرأة ليغادروا مراكبهم، وليسيروا نحو الساحل، ولهذا قفز أول الناس من مركبه إلى الماء وقاتل الغريفون بإقدام، ثم حذا جندنا حذوه، وكانوا متشوقين لإلحاق الهزيمة بالأعداء، فقاموا بالضغط على قوات العدو، وأرغموها على ترك مواقعها. والتراجع.

ووقتها كان بإمكانك رؤية زخات من الشباب المتطايير، وصفوف الغريفون وقد تمزقت، وكان بقدرتك سماع دمدمة القراع والنزال، وأنين الذين كانوا يموتون، وعويل الذين كانوا يتراجعون، ثم تحرك رجالنا كتلة واحدة، فأرغموا الأعداء على الهزيمة والتخبط بالفوضى، وبعد هذا ساقوهم أولاً إلى داخل المدينة، ومن هناك إلى السهول الواقعة خارجها.

وضغط الملك بشدة في عملية مطاردة للامبراطور، فقد عثر على حصان عادي، فامتطاه بكل سرعة، واستعان برمح كان مركزاً خلف السرج، وركب مسرعاً مستخدماً أربطة عوضاً عن الركائب، ولم يتوقف عن مطاردة الامبراطور، ونادى بأعلى صوته: «مولاي الامبراطور، أدعوك إلى المبارزة الشخصية»، لكن الامبراطور، كان أشبه بالأطرش، فقد تابع الهزيمة بكل سرعة أوتيتها.

وبعدما استولى الملك على المدينة، جعل الملكتين تهبطان إلى اليابسة، وتغادران السفينة، ومن ثم تقيمان في ليما سول، فقد حصلتا بعد تعب الرحلة ورعبها على الأمن، وأمضى الملك الليلة نفسها في سراقه، وأمر فأنزلت خيوله إلى اليابسة بوساطة عبارات خاصة، بينما تظاهر الامبراطور بعدم الخوف من أي شيء، لذا أمضى الليل في معسكر على مسافة مرحلتين.

كيف سلم الامبراطور قبرص

في اليوم التالي ، وفي حوالي الساعة الثانية ، ركب الملك حصانه واكتشف وجود بعض الاغريق واقفين ليس بعيداً ، في حقل زيتون ، ومعهم أعلامهم المرسولة ، ولدى مبادرتهم إلى الفرار ، تولى مطاردتهم ، لكن بما أن خيولنا قد عقرت بسبب حبسها قرب البحر لحوالي الشهر كاملاً ، فقد احتفظ رجالنا بهم ووفروهم ، وساروا بخطى وثيدة حتى رأوا جيش الامبراطور ، الذي أمضى الليل في واد هناك ، وهنا توقفوا عن أعمال المطاردة ،

وبدأ الاغريق الذين يصرخون ويولولون بشكل مرعب ، بتوجيه الاهانات لرجالنا ، وبسبب الصراخ أفاق الامبراطور من نومه ، وامتطى ظهر حصانه ، وزحف ببطء مع رجاله نحو رجالنا حتى وصل إلى رابية قريبة ، حيث تمركز ليقوم بمراقبة الاشتباك .

واستخدم الاغريق قسيهم وحرابهم ، وصرخوا عاليا بأن رجالنا لا يمكن تحريكهم وزلزلتهم ، ثم تقدم الى الملك أحد الكتاب المسلحين ، واسمه هوغو دي مارا ، وقال مخاطباً إياه : « مولاي الملك ، يبدو من الحكمة تبني خطة تقضي بالتراجع لبعض الوقت أمام مثل هذا الحشد الكبير والقوي من الناس » ، ورد عليه الملك قائلاً : « أيها السيد الكاتب ، دعنا وما نختص به ، والأحسن بالنسبة لك أن تشغل نفسك بالكتابة ، وتدع الحرب لنا ، وانتبه واحرص أن تباعد عن الحشود ، وحاول آخرون مثل هذا أن يقنعوا الملك بالاقلاع عن القتال ضد حشد هائل مثل ذلك الحشد ، وفي الحقيقة لم يكن إلى جانبه في ذلك الوقت أكثر من خمسين رجلاً ، غير أن تشجيع من هيجان الأعداء ، فوضع مهمازين لفرسه وانقض بشكل مفاجيء في هجوم ضد الأعداء ، واندفع خارقاً لصفوفهم ،

فمزقهم ، وأخذ يقاتل الأول فالذي يليه ، مشدداً ضغطه بدون توقف ، وعندما أدرك جيشهم أن خصومه كانوا يتجمعون تلاشت شجاعة رجاله ، وشرعوا بالفرار ، ولقد نجا منهم الذين امتلكوا خيولاً سريعة وصبورة ، لكن الرجال والناس العاديين ، الذين كانوا أقل قدرة على الفرار فقد تعرضوا للذبح في جميع الاتجاهات بدون تفريق ، ولم يعد بإمكانهم الفرار بسبب وصول الملك .

وبينما كان الامبراطور يشجع رجاله ويحثهم على القتال ، انقض عليه الملك بشكل مفاجيء وبكل سرعة ، ورماه أرضاً عن ظهر حصانه بضربة من رمحه ، غير أنه ما لبث أن حصل على حصان آخر بكل سرعة ونجا وسط الحشد ، علماً بأن بعض أتباعه لاقى حتفه .

آه ، كم من الخيول الأصيلة كان بإمكانك أن ترى قد ذبحت هناك ، وكم من السوابغ ، والبيض والسيوف والرماح والرايات قد سقطت أرضاً وكم من الأجساد الميتة المضرجة بالدماء كانت هناك ، وكم من الذين كانوا يلفظون أنفاسهم !

وعند ادراك الامبراطور لشجاعة رجالنا واقدامهم ، ولحال قتال رجاله ، هرب بأقصى سرعة أمكنته نحو الجبال ، ورمى الملك أرضاً حامل راية الامبراطور ، وأعطى الأوامر أن يحتفظ بالعلم الرائع والجميل له ، ثم طارد خيالتنا الفارين بقدر ما استطاعوا ، أي لحوالي الميلىن ، وبعد هذا عادوا يسرون بخطوات عادية ، ثم وصلوا بكل هدوء .

ثم التفت الناس نحو الغنائم ، فأخذوا كثيراً من الأسلاب من أسلحة وأثواب ثمينة مع خيمة الامبراطور ، التي عثر فيها على آنية مصنعة من الذهب والفضة فقط ، وكذلك مع جميع مفروشات الامبراطور وثيابه الرائعة ومحتويات البيت ، وذلك بالإضافة الى عدد من السوابغ والبيض ، والسيوف المختارة والخيول والبغال ، وكثيراً من الغنائم من أغنام وسائمة

وما عز، وخيول أصيلة وبغال، وبط وأوز ودجاج، كما وجدوا أنواعاً منتخبة من الخمر والمؤن من جميع الأنواع، كما وحملوا معهم حشداً من الأسرى، ولقد كانت الكميات هائلة إلى حد أنهم شعروا بالتخمة، وبكلمة موجزة بات كل فكر مشغولاً بالغنائم، وكانت متراكمة بشكل عظيم، ولم يبد أحد منهم اهتماماً بأي شيء ثمين، حتى عندما قدمت هذه الأشياء إليهم.

وبعدما صنعت هذه الأشياء، أعلن الملك مرسوماً بوساطة صوت المنادي في أن بإمكان كل واحد من السكان قابل بالسلام، أن يذهب ويعود حسبما يشاء دون أن يتعرض للأذى من قبل رجاله، بل أن يتمتع بحرية كاملة، لكن كل من عدّ الملك بمثابة عدوله، عليه الانتباه حتى لا يقع بيديه، وينطبق هذا على رجاله الجيش، لأن من المؤكد أنه سيعاملهم بمثابة أعداء، وفقد الامبراطور بهذه الوسائط عدداً كبيراً جداً من رجاله، ذلك أنهم تخلوا عنه باستمرار، وأخيراً عندما وجد الامبراطور نفسه في حالة من الفوضى والأسى لأنه أخفق في مقاصده، حمل نفسه والتجأ إلى حصن قوي اسمه نيقوسيا.

وفي يوم السبت التالي ظهر بالأفق ثلاث شواني وصعد الملك، الذي كان دوماً متعجلاً، إن لم نقل كان مغامراً، إلى ظهر مركب صغير، دفع بقوة المجاذيف، وذهب لملاقاة هذه الشواني، ولمعرفة القادمين من هم، ومن أين جاءوا، ولدى اجابتهم له، قالوا إن فيها غي لوزغان، وعاد الملك مسرعاً وأمر بإعداد عشاء فوري للضيوف القادمين، وعندما نزل الملك غي إلى اليايسة، استقبله بحفاوة عظيمة جداً، وعامله بلطف زائد.

وجاء الملك غي إلى عند الملك رتشارد يسأل نصيحته، ويطلب عونه ضد ملك فرنسا الذي خطط لجعل مركز مونتفرات ملكاً للقدس، وخلع غي، ورحب الملك رتشارد به بلطف، وأكرمه بمنحه هداياه لأنه

كان فقيراً ومحروماً من الامكانيات ، وأعطاه ألفي مارك فضي وعشرين كأساً لها ثمنها ، الذي يعادل مائة وخمسة ماركات ، فقد كان كأسان منهن من الذهب الخالص .

وفي اليوم التالي ، وهو يوم الأحد ، الذي وافق عيد القديس بانكراس Pancras احتفل بشكل مهيب بزواج الملك رتشارد وبيرنغاريا النافارية في ليماسول ، وكانت سيدة على درجة عالية من الحكمة ، والأخلاق المصقولة ، ووقتها توجت ملكة ، وكان من بين الحضور وقت الاحتفال رئيس الأساقفة ، وأسقف أوف إفرو Evreux وأسقف بانيريا Baneria وعدد كبير آخر من الرؤساء والنبلاء الآخرين وكان الملك في أروع حالاته في هذه المناسبة السعيدة ، وأظهر نفسه مرحاً ، ودمثاً للغاية واحتفل بعد يوم واحد بالزفاف بشكل مهيب وبطرائق ملكية ، ووصلت الى قبرص جميع الشواني الملكية ، التي انتظرووصولها بقلق وكانت مجهزة ومدافع عنها بسلاح رائع وما من واحد رأى سفناً أفضل أو أعظم سلامة ، وضم الملك إليهم الشواني الخمس اللائي أخذهن من الامبراطور وبهذه الصورة امتلك أربعين شينياً مسلحاً وستين سفينة من أنواع أخرى بحالة جيدة .

واقترح الملك أن يطارد مع جيشه الامبراطور حيثما كان ، وأن يأخذه بالقوة ويرغمه على الاستسلام ، لكن بناء على وساطة وطلب مخلص تقدم به مقدموا استتارية القدس تقرر وجوب عقد مؤتمر بين الملك والامبراطور ، وندب الامبراطور خسارة رجاله ، وأنه قد أرغم على الفرار مجللاً بالعار الى نيقوسيا ، من وجه الملك ، وخشي من المطاردة ، أكثر بسبب أن السكان المحليين هجروه ، ولم يعد بإمكانه الاعتماد على مساعدتهم .

وبعدما استدعى الملك إليه أكبر عدد ممكن من الناس امتطى فرساً اسبانياً ، عالي الظهر ، عظيم الحجم ، جميل الشكل ، وسار الى

سهل واسع جداً فيما بين البحر والطريق العام ، قرب مدينة ليماسول ، وكان سرج فرسه يتألق بالذهب ، ووشي ورصع بالأحمر ، وكان على الجزء الخلفي منه أسدين صغيرين من الذهب استدارا نحو بعضهما بأفواه مفتوحة ، وكان على الجزء الأمامي أيضاً اثنين يشيران نحو بعضهما ، وكأنهما أقعيا للالتهام ، وزينت قدما الملك بمهمازين ذهبيين ، وارتدى قميصاً لونه زهر ، طرز بصفوف من الأهلة الفضية المصاغة ، وكان يشع مثل أفلاك الشمس بأشعة سميكة ، وهكذا سار الملك المكسوهكذا نحو الأمام ، وكان متمنطقاً بسيف مجرب مقبضه من الذهب ، والنطاق منسوج بالذهب ، وكان فم الغمد مغلفاً بالفضة ، وارتدى على رأسه قبعة قرمزية ، مزينة بأشكال مختلف الطيور ، ومخيطة ومطرزة بالابرة ، وحمل عصا بيده ، وعبر مظهره العام وبرهن أنه كان عسكرياً من الطراز الأمثل ، ومنح البهجة العظيمة لكل من رآه .

وبعد تقديم العديد من المقترحات على كلا الجانبين بين الملكيين ، عرض الامبراطور أخيراً أن يقسم للملك يمين التبعية في كل شيء ، وأن يرسل قوة مكونة من خمسمائة فارس إلى أرض القدس خدمة للرب ، ولتكون تحت تصرف الملك رتشارد وتطيع أوامره ، وعرض بالاضافة إلى جميع هذه الأشياء (حتى يرضي الملك تماماً ولا يترك في نفسه أدنى شك) أن يضع جميع قلاع وحصونه في أيدي حراس الملك ، وقدم بالاضافة إلى ذلك ثلاثة آلاف وخمسمائة مارك بمثابة ترضية وتعويض للذين فقدوا أموالهم ، أو تعرضت للسلب ، وتبعاً للاتفاق بينهما ، إذا ما وجد الملك أنه ورجاله قد قاتلوا بإخلاص ، يتوجب وقتها أن يعيد اليه جميع قلاعه وحصونه ، وأن تبقى الصداقة بينهما نفسها إلى الأبد .

وعندما أحال الملك هذا العرض الى رفاقه للفحص ، أجابوا بأنه محترم جداً ، ويتمشى مع احترام الملك ومكانته ، وكانوا راضين تماماً به ، وعلى الفور أقسم الامبراطور أن يحترم جميع الشروط المتقدم ذكرها بكل

اخلاص للملك ، وبعدهما تبادلا قبلات السلام أقاما التحالف وفق السمات الموصوفة .

وقام الامبراطور في الليلة التالية ، بناء على مشورة فارس خائن ، بالفرار الى فيما غوستا ، لأن الفارس أخبره أن الملك رتشارد عازم على إلقاء القبض عليه ورميه بالأغلال ، ولدى سماع الملك رتشارد بهذا انطلق يطارده ، متهماً إياه بالتدليس وحنث اليمين .

وعندما وصل الملك الى فيما غوستا ، وجدها مهجورة ، لأن الامبراطور وجد أنه غير مضمون الأمان بالنسبة له أن يتخذ فيها موقف المدافع ، ولهذا أخفى نفسه داخل الأحرش ، حيث الوصول اليه كان صعباً ، وإذا ما غامر رجالنا بالمرور بها ، سيكون بإمكانه مهاجمتهم من خلال الكائن ، وأعطى الملك الأوامر بوجوب حراسة الموانئ بدقة من قبل شوانيه ، بغية إلقاء القبض على الامبراطور إذا حاول الفرار .

وبعدما مكث هناك لمدة ثلاثة أيام جاء اليه أسقف بوفياس -Bea vais ودروغودي ميرل ، وهونيل واسع الشهرة ، جاء ا اليه رسلاً لحثه على عبور البحر بدون تأخير ، وليؤكد له أن ملك فرنسا لن يقوم بالهجوم على عكا قبل وصوله ، وأضافا الى ذلك كلمة نقد قائلين بأنه أهمل المسائل الضرورية ، وأنه أضاع جهوده في مهام عبثية ، وأنه يتولى بلا توقف تعذيب ومطاردة مسيحيين أبرياء ، في حين هناك آلاف من المسلمين يتوجب عليه حربهم في البلاد المجاورة .

ورد الملك على هذه الرسالة بطريقة غاضبة ، ليس من المناسب ادراجها هنا ، ذلك أنه بدا له من المفيد جداً بالمحصلات اخضاع مثل هذه الجزيرة الضرورية جداً والمفيدة لمملكة القدس ، ثم تحرك الجيش نحو نيقوسيا لانشاب القتال ، لأنهم علموا أن الامبراطور عازم على نصب كمين لهم ، وزحف الملك في الساقة ، للحماية ضد المهاجمين ،

عندما اندفع الامبراطور بشكل مفاجيء من مكان اختبائه وهاجمهم مع حوالي سبعمائة من الغريفيون ، وبذل رماة أقواسهم العقارة والعرادات غاية جهدهم ضد طلائع قواتنا ، لكن قواتنا حافظت على التحامها وتماسكها في نظام جيد لذلك لم تعان من التمزق ، وأنذاك زحف الامبراطور على الجناح للاستطلاع ، وانصب بقضه وقضيضه إما بهدف تمزيق صفوفنا ، أو أن يقف على مكان الملك ورميه ، وعندما وجد أن الملك كان في الساقة سدّد نحوه بسهمين مسمومين ، مما أشعل غضب الملك عليه ، فلبس مهمازين ، وركب حصانه ، وانقض على الامبراطور بهدف طعنه برمح ، لكن الامبراطور تجنبه وهرب بالسرعة التي أمكنته ، وهو حانق ومضطرب لأنه لم ينجح في تنفيذ رغباته ، ولم يطارده الملك بعيداً لأنه شك في قدرته على أسره لأنه كان ممتطياً لفرس كميت له سرعة وقدرة على الاستمرار ما من أحد رأى ما يياثلها أبداً .

ثم زحف الملك الى نيقوسيا مع جيشه ، وخرج سكان المدينة كتلة واحدة لتهنئته واستقبلوه ورحبوا به وكأنه سيدهم ، واستقبلهم الملك بسلام فقط جعلهم يخلقون لحاهم ، وذلك علامة وبرهان على تغييرهم لسادتهم ، وكان الامبراطور عظيم الغضب لدى سماعه بهذا ، وطلب من رجاله إلقاء القبض على كل واحد من رجالنا يستطيعون ، ومن ثم قلع عينيه ، وقطع الأنوف ، وتشويه الأيدي أو الأرجل بغية ارضاء غضبه وانتقامه ، واطفاء حزنه .

وقسم الجيش الى ثلاثة أقسام ، قاد قسم منها الملك غي لالقاء الحصار على ثلاثة حصون ، وتم الاستيلاء على الأول ، وعثر على ابنة الامبراطور وعلى أمواله ، وعندما سمع الامبراطور بهذه الخسارة استولى عليه اليأس ودفعه الى حد الجنون .

وزحف الملك غي الى حصار الحصن الثاني ، واستمر المحاصرون لأيام عدة يرمون على المهاجمين الحجارة والحرايب والنشاب ، حتى تلقوا أمراً

من الامبراطور بالاستسلام والتخلي عن الموقع ، وعندها وضع الملك فيه ابنة الامبراطور حتى يحول دون أسرها ثانية ، ومن هناك عاد الملك غي الى نيقوسيا ، حيث استلقى الملك رتشارد مريضاً ، وما أن عوفي حتى هاجم الحصن الثالث واقتحمه ، وهو حصن عدّ حتى الآن لايرام .

وارتأى الامبراطور بعدما قدر الموقف أن ابنته قد أسرت (ذلك أن حياته تعلقت بها) وأنه ليس هناك من أمل ترك للمقاومة ، بعد هذا قرر التماس السلام والرحمة ، وبناء عليه بعث برسل الى الملك رتشارد يلتمسون المسامحة ، وتبعهم في ثياب حزينة ، وفي حالة يائسة .

وعندما مثل في حضرة الملك رتشارد ، سقط على ركبتيه في حالة تذلل أمامه ، قائلاً إنه يضع نفسه كلياً تحت رحمته ، ويرجو ألا يلقيه بالأغلال ، وتحرك الملك عطفاً عليه وأنهضه وأجلسه الى جانبه ، وأمر بإحضار ابنته اليه ، وعندما رآها الامبراطور سرّ سروراً عظيماً ، وعانقها بشكل عاطفي جداً ، وغمرها بقبله ، بينما أخذت الدموع تتساقط من عينيه ، والقي الملك الامبراطور بالأغلال ، لكن ليس بأغلال حديدية بل أغلال فضية .

وهكذا تملك الملك قبرص في مدة خمسة عشر يوماً ، وأعطاه الى رجاله لسكنائها ، وعهد بأمر الامبراطور وشؤون اعتقاله الى الملك غي ، وسلم ابنته الصغيرة الى ملكته للعناية بها وتربيتها وتثقيفها .*

ثم أعاد الملك رتشارد جيشه وخدمه مع الأثقال الى ليماسول، حيث كانت الملكتان، وأعطى الأوامر بأعداد الاسطول لجواز مباشر للبحر، وانتشرت في هذه الآونة تقارير أفادت أن عكا باتت على حافة السقوط، وعندما سمع الملك بهذا تنهد بعمق وقال: «بعد ما حوصرت عكا هذه.

* تبعاً لمصدر آخر ، وافقت رتشارد في عودته الى نورماندي ، وحاولت بعد وفاته العودة الى قبرص ، غير أنها أوقفت في مرسيليا ، فأرغمت على الزواج من ريموند صاحب طولوز ، ثم كان زوجها الثاني فارس فلمنكي ، حاول عبثاً الادعاء بأحقية بعرش قبرص من خلالها ، ولكونه زوجها .

- ٨٥٣ -

المدة الطويلة، علّ الرب يؤجل سقوطها حتى قدومي، فعندها سيكون النصر بعونه أكثر روعة».

وبعدما وضعوا الأثقال على ظهور السفن، أقلع الاسطول من الشاطئ بريح مواتية، والمملكتان ذهبتا أيضاً برفقة الملك.

كيف تحاربوا مع سفينة اسلامية كبيرة ووصلوا أخيراً إلى عكا

ومن فيما غوستا أقلع الملك على واحدة من أكبر شوانيه وأسرعها، (وكما كانت عادته) تحرك نحو الأمام بالطليعة، وكان عديم الصبر تجاه التأخير، في حين سارت السفن الأخرى في أعقابها بأقصى ما أوتيت من سرعة، ولم يكن هناك من قوة، لم تكن لتخاف عن حق وترتعب من سرعتهم، وفي الوقت الذي خاضوا فيه غمرات البحر، أخذت ملامح الأرض المقدسة للقدس تظهر عن بعد أمامهم للمرة الأولى، وكان الحصن المسمى المرقب أول بقعة تأتي أمام أنظارهم.

وعندما كانوا على مقربة من بيروت، رأوا عن بعد مركباً مشحوناً بالمسلمين الذين جرى اختيارهم من الدولة الإسلامية، وكان المركب موجهاً من قبل صلاح الدين لنقل المعونات إلى المحاصرين في عكا، ولم يكن بمستطاع الذين على ظهر المركب تأمين مدخل سريع إلى ميناء عكا، خشية من المخاطر التي صدرت عن الجيش المسيحي، وكانوا ينتظرون لحظة مناسبة لدخول الميناء بشكل مفاجئ، وما أن رأى الملك السفينة حتى استدعى بيتردي بار Barres وكان قائداً لإحدى شوانيه، وأمره أن يجدف بسرعة ليعرف ويسأل من كان قائداً للمركب، وعندما أجابوه أنهم يعودون إلى ملك فرنسا، اقترب الملك بلهفة من المركب وبسرعة، لكنه لم يعثر على أية علامة أنه فرنسي، كما أنه لم يحمل أية شارة مسيحية أو راية، وعندما تفحصه الملك عن قرب، بدأت تعلوه الدهشة بسبب حجمه الهائل، وصناعته المحكمة، فقد كان على ظهره ثلاثة سوارى (السفن الأوربية امتلكت حتى القرن الثالث عشر سارية واحدة)، وكانت أطرافه معلمة بشرائح حمراء وصفراء، وكان مفروشاً

بشكل جيد وفيه كل ما يلزم من عتاد، إلى حد أن مامن سفينة كانت متفوقة عليه، كما كان مشحوناً بوفرة من الامدادات وبجميع أنواع المؤن.

وقال واحد ممن كان على ظهر سفينة الملك، أنه عندما كان في بيروت شاهد هذا المركب محملاً بمائة حمل حمل من السلاح، والرماح، والقسي، والحرايب، والنشاب، وكان على ظهره سبعة أمراء وثمانين من نخبة الأتراك، وذلك إلى جانب كميات هائلة لاتدخل تحت الاحصاء من جميع أنواع المؤن، وكان معهم على ظهر المركب كمية كبيرة من النفط (النار الاغريقية) في قوارير، ومائتين من الأفاعي القاتلة من أجل تدمير المسيحيين.

وجرى بناء عليه ارسال آخرين للحصول على معلومات مؤكدة أكثر، وعندما أعطوا بدلاً من الاجابة المتقدمة، اجابة جديدة، حيث قالوا إنهم جنويين وجهتهم إلى صور، بدأ رجالنا بسماع هذا الجواب المتغير يشكون بصدقهم، وأصر واحد من رجالنا الذين كانوا على ظهر السفينة أنهم كانوا مسلمين، ولدى سؤال الملك له قال: «إنني أسمح لك بقطع رأسي، أو شنقي على شجرة إن لم أبرهن بأن هؤلاء الرجال من المسلمين، دع الشيني يمضي مسرعاً خلفهم، لأنهم يحاولون الابتعاد، ولا تقدموا لهم أية نوع من أنواع التحيات، فبهذه الطريقة سنمتلك برهاناً مؤكداً عن ماهية مقاصدهم، وإلى أي مدى يمكن تصديقهم، ثم انطلق الشيني بناء على أوامر الملك خلفهم بسرعة كاملة، ولدى الاقتراب من مركبهم، والتجديف إلى جانبه بدون تقديم تحية صداقة لهم، بدأ البحارة يرمون الحرايب والنشاب نحو رجالنا، وعندما رأى الملك هذا أمر بمهاجمة السفينة على الفور، وبعد تبادل الرشقات من السهام، انخفضت سرعتها، لأن الريح حملتها بسرعة منخفضة.

ومع أن رجال سفينتنا جدفوا مراراً حول السفينة، وتفحصوها بدقة، لم يجدوا نقطة موائمة لمهاجمتها، لأنها بدت صلبة ومحكمة إلى أبعد الحدود،

ومصنعة من مواد قوية، زد على هذا كانت محمية بوساطة حرس من المقاتلين، الذين استمروا في رمي الشباب نحوهم، ولم يستمتع رجالنا أبداً برماية الشباب، ولا بالارتفاع العظيم للسفينة، لأنه من الممكن أن تصطرع مع عدو وتقاتل ضده على مستوى واحد، لكن عندما ترمى الرمايات من أعلى دوماً تؤذي الذين هم بالأسفل، لأن رؤوسها الحديدية تسقط نحو الأسفل، وعندما بدأ جهدهم يسترخي، ازداد حماس الملك صعوداً، ورفع صوته يقول متسائلاً: «هل ستدعون السفينة تمضي وتهرب دون أن تلمس أو تصاب بالأذى؟ العار لكم! هل تحولتم إلى جناء نتيجة تقاعسكم، بعد كثير من الانتصارات؟ العالم أجمع يعرف أنكم مكرسون لخدمة الصليب، ولسوف تعانون من أشد العقوبات وأقساها إذا ماسمحتم للعدو بالنجاة وهو على قيد الحياة، وذلك بعدما ألقى أمامكم على طريقكم».

وبناء عليه أرغمت الحاجة رجالنا، فقفزوا بنشاط نحو الماء، تحت طرف السفينة، وربطوا دفة القيادة ومجداها بالحبال، لحرف السفينة وإعاقة تقدمها، وأمسك بعضهم بالحبال، فقفزوا على ظهرها، واستقبلهم الأتراك برجولة، ومزقوهم إلى أشلاء عندما وصلوا إلى ظهر السفينة، ورموا برأس هذا، وبذراع ذاك، وبأيدي آخر، وقذفوا بأجسادهم إلى البحر، ولدى رؤية رجالنا هذا التهبوا غضباً، وتجددت شجاعتهم من العطش للانتقام، وعبروا فوق معظم السفينة وقاتلوا الأتراك على شكل كتلة واحدة، وبحدة عظيمة، ومع أن الأتراك تراجعوا قليلاً، غير أنهم قدموا مقاومة عنيدة.

واستمرت المعركة إلى وقت طويل، وسقط عدد كبير من على الجانبين، لكن في النهاية، ضغط الأتراك بشجاعة على رجالنا، وردوهم إلى الخلف (مع أنهم قاوموا بكل طاقتهم) وأخرجوهم من السفينة، وبناء على هذا تراجع رجالنا إلى شوانيههم، وحاصروا المركب من جميع الجهات، وحاولوا

ايجاد وسيلة أسهل لحربه.

ولاحظ الملك الوضع الخطر الذي كان فيه رجاله، وإذا لم تتعرض السفينة للأذى لن يكون من السهل أخذ الترك مع السلاح والمؤن التي فيها، فأمر كل شيني من شوانيه بوجوب مهاجمة السفينة بوساطة رؤوسها المعدنية التي في مقدمتها، وهكذا أخذت الشواني تتراجع إلى الخلف، ثم تهاجم بسرعة كبيرة بوساطة التجديف أطراف السفينة لخرقها، وبهذه الطريقة تحطمت السفينة بسرعة، وأصبحت مفتوحة أمام الأمواج ومن ثم أخذت تغرق، وعندما رأى الأتراك هذا قفزوا إلى الماء ليموتوا، وقتل بعضهم من قبل رجالنا، وغرق الآخرون، واحتفظ الملك بخمسة وثلاثين منهم أحياء، وهم الأمراء والرجال الذين كانوا بارعين في صنع الآلات، لكن البقية لاقوا حتفهم، وتمّ التخلي عن الأسلحة، وغرقت الأفاعي، وتوزعت بين أمواج البحر.

ولو أن هذه السفينة وصلت سالمة أثناء حصار عكا، لما تمكن المسيحيون مطلقاً من الاستيلاء على المدينة، لكن بوساطة الملك وبعون الرب تحولت إلى دمار الكفار، ولعون المسيحيين، وشهد المسلمون عن بعد، ومن فوق أماكن شاهقة ما كان يحدث، وبحزن وأسف حملوا الأخبار إلى صلاح الدين، الذي عندما سمعها أمسك بلحيته وأخذ ينتفها بغضب وحنق، وانفجر يمتتم بهذه الكلمات: «يا الهي، هل فقدت عكا، وخسرت نخبة جندي، الذين أثق بهم ثقة كبيرة؟ إنني مقهور ومتألم غاية الألم لهذه الخسارة».

وعندما حمل الذين شهدوا الواقعة الأخبار إلى جيش المسلمين، علت بين صفوفهم ضجة عظيمة من البكاء والنواح والندب المؤلم لحظهم السيء، وقطعوا ضفائر شعرهم، وتخلوا عن ملابسهم، ولعنوا الساعة التي جاءوا فيها إلى سورية، وشتّموا ما قدرته النجوم عليهم، لأنهم خسروا بخسارة السفينة المذكورة أعلاه جميع نخبة شبابهم، الذين وثقوا

بهم وعليهم اعتمدوا .

وبعد هذا النجاح أسرع الملك رتشارد مسروراً ومبتهجاً ، ومعه جميع أركانه ، نحو عكا ، الى حيث رغباته الجامعة حملته ، وفي الليلة ، وبفضل ريح مناسب ، رسا الاسطول قرب صور ، ورفع الأسطول في الصباح المراسي ، ونشر الأشرعة ، وبعد وقت قصير بات البرج المرتفع لعكا مرئياً ، ثم قليلاً فقليلاً ظهرت بقية دفاعات المدينة .

وأحاط بالمدافعين المحاصرين حشود لا تعد ولا تحصى ، منتخبة من كل أمة من أمم العالم المسيحي تحت قبة السماء ، وكانوا جميعاً مؤهلين للعمل والتعب في سبيل الرب ، لأنه كان قد مضى وقت طويل على حصار المدينة ، وقد تأثرت كثيراً بالجهد المتواصل ، والانهك بسبب ضغط الجوع ، وكل نوع من أنواع العدوان ، وكان من الممكن أن يرى خلف المحاصرين ، الجيش التركي وقد غطى الجبال والوديان ، والتلال والسهول ، بخيام عكست ألوانها أشعة الشمس ، ورأوا أيضاً سراق صلاح الدين ، وخيمة أخيه سيف الدين ، وخيمة تقي الدين ، الرجل الرئيسي للمسلمين ، فهو الذي تولى حراسة أجزاء البحر وكان يخطط للحملات الفعالة والمستمرة على المسيحيين .

وتفحص الملك رتشارد وقدّر حجم جميع جيشهم ، وعندما وصل الى المرسى ، جاء لاستقباله ملك فرنسا ، وجيش كامل من المحليين ، والأمراء والمقدمين ، والنبلاء ، وقد رحبوا به بسرور وانشراح ، لأنهم كانوا منتظرين ومتشوقين لوصوله .

وفي يوم السبت ، قبل عيد الرسول المبارك برنابا ، في اسبوع عيد العنصرة ، نزل الملك رتشارد الى الياسة قرب عكا مع حاشيته كلها ، واهتزت الأرض من صراخ المسيحيين المسرورين ، وعبر الناس عن بهجتهم بصرخات الترحيب وبالنفخ بالأبواق ، وأمضوا النهار كله

بالاحتفال ، وسيطر على الجميع سرور عام . وبالمقابل ارتعب الأتراك ، وانكسرت نفوسهم بقدومه ، لأنهم أدركوا أن جميع حركات الذهاب والاياب هي محصلة قدوم حشود الملك ونزولها من السفن .

وسار الملكان مع بعضهما من المرسى ، وقدم كل منهما للآخر العناية الفائقة ، ثم ذهب الملك رتشارد إلى خيمته التي كانت معدة له من قبل ، وشرع مباشرة في الاستعدادات للحصار ذلك أن اهتمامه تركز بشكل رئيسي على ايجاد الوسائل والأدوات والآلات ، التي تمكنهم من الاستيلاء على عكا ، دون خسارة للوقت .

وما من قلم قادر على وصف البهجة بين الناس تلك الليلة ، ليلة وصول الملك ، وما من لسان قادر على وصف ذلك ، فقد نظر الى هدوء الليل على أنه ابتسامة ألقيت عليهم مع هواء عذب ، وصدحت الأبواق، وصوتت الصور، مع نعيق النفر، وسمعت الأنغام العميقة للطنبور والمزمار، وشنفت الأذان ، وسمعت السمفونيات المهدئة وكأنها أصوات عدة مزجت بصوت واحد ، ولم يكن هناك إنسان لم يشارك في البهجة والحمد والشكر، إما بغناء أغان شعبية للتعبير عن مشاعر السرور في قلبه ، أو ردد أعمال القدماء محركاً بما ضربوه من أمثلة أرواح المعاصرين ، وشرب بعضهم الخمرة بكؤوس ثمينة بصحة المغنيين ، في حين قام آخرون بمزج ذوي المراتب العليا والمراتب الدنيا مع بعضهم ، وأمضوا الليل في رقص متواصل ، وإزدادت بهجتهم بإخضاع الملك رتشارد لجزيرة قبرص، وهو مكان نافع وضروري لهم ، وسيؤدي خدمات جليلة لجيشهم ، وكدليل آخر على بهجة قلوبهم ولاضائة ظلام الليل أشعلت الشموع والمشاعل فبثت الشعاع حتى بدا الظلام وكأنه أزيل بضياء النهار، وخيل للترك أن الوادي كله كان يشتعل ، ثم إن البيزيين وقد نال اعجابهم مجد وأبهة الملك رتشارد ، أقبلوا عليه ووقفوا أمامه ، وقدموا له الخضوع ، وحلفوا له يمين الولاء ، وأخضعوا متطوعين

أنفسهم لسلطانهم ولخدمته .

وفي اليوم التالي وهو أحد العنصرة ، سمع الملك رتشارد وعرف أن ملك فرنسا ربح إرادة وإيثار الجميع بإعطائه إلى كل جندي ثلاث قطع ذهبية (أوري Aurei) كل شهر ، عندها أعلن الملك رتشارد ، الذي لم يتفوق عليه أحد أو ساواه بالكرم بوساطة المنادي ، أن كل من أراد أن يدخل في خدمته ، بصرف النظر عن الأمة التي ينتمي إليها ، سوف يتلقى أربع قطع ذهبية بالشهر أعطية له ، وبهذه الطريقة تفوق بكرمه على الجميع ، لأنه فاق كل إنسان آخر بمحاسنه وبجوده ، مثلما بز الجميع بعطاياه وأبهته ، ولقد كان الناس يتساءلون : « عندما يقع أول قتال ، من الرجل الذي توقعناه طويلاً وانتظرناه بقلق وشوق لياشر ذلك ؟ ، ومن الرجل الأول تفوقاً بين الملوك والأعظم براعة في العالم المسيحي بأسره ؟ . لنضع الآن إرادة الرب تقرر ذلك ، إن آمال الجميع أُلقيت على الملك رتشارد . لكن بعد مضي عدة أيام أصيب الملك بمرض حاد يدعى أرنولديا Arnoldia ، فهذا ما يطلقه عليه عامة الناس ، وهو محصلة تغير المناخ وآثاره على الجسم (حيث ينجم عنه فقدان أظافر اليدين والقدمين وسقوط الشعر وبعض الآثار على الجسد أيضاً) ، وعلى الرغم من هذا أمر بإعداد العرادات والمجانيق ، وبناء الأبراج والقلاع (ميتغريفون) أمام أبواب المدينة ولم يوفر جهداً في تفعيل بناء آلات الحرب والاسراع بها .

كيف هاجم الفرنسيون عكا حينما كان الملك رتشارد مريضاً

ولم يرتح ملك فرنسا للتأخير في الشروع بالقتال ، فبعث كلمة الى الملك رتشارد قال فيها توفرت الآن فرصة مناسبة ، وطلب من الجيش أن يأخذ أهبطه للقيام بهجوم ، لكن الملك رتشارد أوضح عدم قدرته على القيام بواجبه ، بسبب عدم قدرته الصحية ، وبسبب أن رجاله لم يصلوا بعد ، وأمل بوصولهم بسفن الأسطول المقبل ، وأنهم سيجلبون معهم مواداً من أجل إنشاء الآت ، ورأى ملك فرنسا أنه من غير اللائق الاقلاع عن خطته وغاياته ، وأمر بالاعلان عن هجوم بوساطة صوت المنادي في أوساط الجيش .

وبناء عليه ، في يوم الاثنين بعد عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان ، عندما أكمل ملك فرنسا إنشاء آلاته ، أصدر أوامره الى رجاله بحمل السلاح ، وكان بإمكانك وقتها أن ترى حشوداً لا تعد ولا تحصى من الرجال المسلحين ، المجهزين بشكل جيد ، وعدداً كبيراً من السوابغ والدروع ، والخوذ اللامعة ، والخيول الأصيلية ، والكثير الكثير من الأعلام والرايات المتعددة الأشكال والصنعة ، وعساكر ذوي جرأة معروفة وشجاعة ، كأنهم لم يروا من قبل ، ومركزوا رجالاً للدفاع عن الخنادق ، ضد هجوم متوقع خطره من قبل صلاح الدين من الخلف ، واقترب الجيش من أسوار المدينة بحملة نشطة جداً بقذف الحراب ، والنشاب والحجارة من العرادات والمجانيق بدون توقف .

وعندما رأى الترك المحصورين داخل المدينة هذا ، أثاروا ضجة هائلة ، وارتفعت أصواتهم الى السماء ، حتى أنها شابهت الصدام في الهواء الناجم عن لقاء الرعد بالبرق ، وكانت مهام بعضهم فقط قرع الطبول والصنوج والكوسات ، وجميع الوسائل الأخرى التي ترسل الشارات إلى

صلاح الدين والجيش في الخارج ، وذلك من أجل أن يقدموا لمساعدتهم والتفريغ عنهم حسبما كانوا متفقين ، ولدى سماع الترك هذا ورؤيتهم له تجمعوا في جسد واحد ، وجاءوا بكل مادة توفرت لهم لطم الخندق ، واستهدفوا من وراء ذلك الجواز ، والهجوم على رجالنا ، غير أنهم أخفقوا في أهدافهم .

فقد تمكن غودفري دي لوزغنان ، وكان محارباً مجرب الشجاعة جداً ، من التصدي لهم ، وطردهم من المواقع الدفاعية التي استولوا عليها ، وقد قتل عشرة منهم بيلطة حملها بيده ، وذلك بطريقة رائعة جداً ، وما من واحد ضربه نجا من الموت ، وفضلاً عن هذا أخذ بعضهم أسرى ، ووصلت شجاعته وفعاليته الى حد ، أن ما من واحد من الجند يمكنه الادعاء بالتميز مثله ، منذ أيام الجند المشهورين مثل رولاند وأولفر ، واسترد رجالنا الدفاعات لكن بوساطة جهد كبير وبعد مصاعب جمة ، لأن الترك تابعوا تدفقهم ، وجعلوا بمقاومتهم العنيدة وبإصرارهم على القتال ، النتيجة مشكوك فيها لوقت طويل ، ولقد كان الصراع عنيدا ولا نظير له ، وكانت الجلبة التي تصاعدت من الصراع مرعبة جداً ، الى حد أن الرجال الذين كانوا يتولون الهجوم على المدينة ، وكانوا عازمين على طم خنادقها ، أرغموا على التراجع والتخلي عن المحاولة ، لأنهم كانوا غير قادرين في الوقت نفسه على الدفاع عن معسكرهم ضد الأتراك دون فقدان الكثيرين من الفرنسيين بمقتلهم بالرميات التي صدرت عن الزنبورك والقسي العقارة ومن الحجارة المقذوفة ، والنفوط المصبوبة عليهم ، وكان هناك الكثير من النواح والندب بين الناس .

كم انتظرنا بتحرق وبشوق وصول الملوك ، وكيف سقطت آمالنا ! فلقد جاءوا وربحنا لا شيء لا بل عانينا من خسائر أكثر من المعتاد ، والذين توقعناهم قدموا إلى لا غاية !

ووضع رجالنا من الفرنسيين أسلحتهم جانبا ، وبدأ الترك يسخرون

منهم ويعيرونهم ، وقد انتقدوهم في أنهم كانوا غير قادرين على انجاز ما بدأوا به ، زيادة على هذا عندما ألقوا النقوط على الآلات وعلى بقية الأدوات والوسائل الحربية العائدة لملك فرنسا (التي صنعت بعناية فائقة)دمروها ، وكانت نتائج ذلك استبداد الغضب والحنق بملك فرنسا ، وغرق في حالة من مرض الوهن والأسى ، والاضطراب ، والرعب حتى أنه لم يعد يجرؤ على امتطاء ظهر حصانه.

وانتخب الجيش ، وأصيب بالاحباط نتيجة لمرض الملكين بالتخاذل، لأنه لم يعد لديه مقدم أوقائد يقاتل تحت رايته معارك الرب ، ولكي يضاف الأسى العام مات كونت فلاندرز قبل وقته ، وفقط قدوم رجال رتشارد ، بعد رحلة هادئة ثبتهم الى بعض الحدود .

وتعافى ملك فرنسا أولاً من مرضه ، وركز اهتمامه على بناء الآلات والأبراج ، وعزم على الانصراف الى هذا العمل ليل نهار ، ولقد امتلك آلة متفوقة السمات ، أطلقوا عليها اسم « جار السوء » وامتلك الترك أيضاً آلة مثلها أطلقوا عليها اسم «قريب السوء» وقد استطاعت مراراً بوساطة قذائفها تدمير «جار السوء» الى قطع ، لكن ملك فرنسا أعاد بناءها ، حتى تمكنت برماياتها المتواصلة من تدمير جزء من السور الرئيسي للمدينة ، وضعضعة البرج الملعون ، ومن جانب آخر ، هوت آلة دوق بيرغندي، وبالمقابل حققت آلة الداوية انجازاً مدمراً ، وفي الوقت نفسه استمرت آلة الاستتارية في زرع الرعب بين صفوف الترك ، يضاف الى هذا كله كانت هناك آلة أخرى بنيت على حساب الجميع ، واعتادوا على دعوتها باسم « منجنيق الرب»وقد وقف إلى جانبه باستمرار كاهن يتولى الوعظ والتبشير ، وكان رجلاً صاحب أمانة عظيمة ، وكان يجمع الأموال لإعادة ترميمه على الحساب العام ، ولإكتراء رجال لجلب الحجارة من أجل الرمي ، وأمكن بوساطة هذا المنجنيق ضعضة جزء من السور ومن البرج الملعون بما يقارب العمودين منه .

وكان لدى كونت فلاندرز منجنيق منتخب ومن أكبرها حجماً ، وقد أضافه الملك رتشارد بعد موته الى واحد من المجانيق الأصغر التي امتلكها الآن ، وكان هذا مساوياً للكبير بالجودة ، وقد شرع هذان المنجنيقان بالرمي بشكل متواصل على مقربة من الباب الذي غالباً ما استخدمه الترك ، حتى أمكن القاء جزء من البرج الى الأرض ، وبالإضافة الى هذين المنجنيين أنشأ الملك رتشارد اثنين آخرين بصنعة متميزة وبمواد منتقاة ، ، وكان بإمكانها ضرب أماكن على مسافات واسعة جداً ، كما أنه أنشأ آلة قوية جداً لها سلام للصعود إليها ، كانت تعرف عادة باسم «البرج» وقد غطاها بالجلود غير المدبوغة والحبال ، وصنعها من شرائح من الخشب الأكثر قوة ، الذي لا يمكن تدميره بأية نوع من القذائف ، أو يتأذى بالنفوط أو بأية مادة محرقة أخرى تصب عليه ، وأعد أيضاً منجنيين ، كان أحدهما يمكن أن يطلق قذائف شديدة جداً ، وسريعة ، وبعيدة الى حد أنها وصلت الى الصفوف الداخلية من المدينة أي الى الأسواق .

وكانت هذه الآلات تتولى القذف ليل نهار ، وبات معروفاً أن إحدى الحجارة التي رمتها قتلت اثني عشر رجلاً برمية واحدة ، وحملت هذه الحجرة فيما بعد الى صلاح الدين لتفحصها ، وكانت من الحجارة التي جلبها الملك رتشارد معه من مسينا ، وكانت هذه الصخور الصوانية والحجارة الناعمة لا يمكن لشيء أن يصمد أمامها ، حيث كانت إما أن تفتت الى قطع الهدف الذي تصيبه أو تسحقه فتحوله الى طحين .

كيف صدّ الأتراك بفعالية رجال الملك رتشارد

ونظراً لموقع عكا الحصين ، ولأنه كان مدافع عنها بقوات تركية منتقاة، فقد بدت صعبة جداً حتى يتم الاستيلاء عليها عنوة ، وعلى هذا بدد الفرنسيون حتى الساعة جهودهم بلا فائدة ، في بنائهم بكل عناية آلات ومعدات لتدمير الأسوار ، فكل ما أقاموه وشيدوه بنفقات عالية جداً ، دمره الترك بالنفوط ، أو بوسيلة مخرقة أخرى التهمتھا التهاماً ، وكان بين الآلات والمعدات الأخرى آلة بناھا ملك فرنسا بعد تعب كبير ، وأعدھا لتسلق الأسوار والصعود عليها ، وقد دعوھا باسم «السنور» لأنها كانت مثل السنور تزحف وتلتصق بالسور ، وأعد آلة أخرى صنعھا من أغصان الأسبجة القوية ، ووضع بشكل محكم تحت غطاء من الجلود ما كانوا يسمونه الحلقات الدائرية ، ولقد اعتاد ملك فرنسا على الجلوس تحتھا وشغل نفسه بقذف الرمايات من آلة قاذفة ، فقد كان يترقب ظهور الترك فوق الأسوار الى جانب الشرافات فيرميهم وهم غير منتبهين .

ونشط الفرنسيون في أحد الأيام ، وسعوا وهم يزحفون بإصرار الى الأمام الى وضع سنور على الأسوار ، وعندما لاحظھ الترك ألقوا فوقھ كومة من الخشب الجاف جداً ، وبعدما رموها فوقھ وفوق «آلة السياج» التي بناھا الفرنسيون بعد تعب كبير جداً ، صبوا عليھا كمية من النفوط وعندما التھا بالنيران وجھا منجنيقاً نحوھا فدمراھا إلى قطع.

ونتيجة لهذا غضب ملك فرنسا بلا حدود ، وبدأ يلعن الذين كانوا تحت إمرته ، وعيرهم لأنهم لم ينتقموا بشكل موائم من المسلمين الذين ألحقوا بهم مثل هذا الأذى ، وأصدر وهو في أعلى حالات انفعاله مرسوماً عند اقتراب الصباح ، جرى تعميمه بوساطة صوت المنادي ، قضى أن سيكون هناك هجوم ينبغي القيام به ضد المدينة في اليوم التالي .

وفي الصباح تسليح الجميع ، وجرى اختيار أشجع العساكر من بين الجيشين جميعاً ، وجرت مركزتهم عند الخنادق ، نحو الخارج ، للتصدي للهجمات المتكررة والمزعجة والمفاجئة للمسلمين ، لأن صلاح الدين تبجح أنه سيعبر في ذلك اليوم الخنادق عنوة فيبرهن عن شجاعته بإذلال الجيش المسيحي والخط من شأنه وإنزاله حتى الرغام ، لكنه لم يحافظ على كلمته مع أن جيشه ، جاء تحت إمرة تقي الدين ، كتلة واحدة واقترب من الخنادق وحاول أن يجوزهم ، لكن الفرنسيين لم يكونوا بطيئين بالمقاومة ، وحاولوا قدر طاقتهم ردهم .

وكانت المقتلة على كلا الجانبين عظيمة ، وترجل الترك ، وزحفوا على أقدامهم بانسياب عظيم ، وبعد الالتحام بالمعركة قاتلوا بشجاعة واصرار يداً بيد بالسيوف ، وبيلطات حادة ذوات طرفين ، وقاتل بعضهم بهراوات لها أسنان حادة ، وضغط الترك نحو الأمام ، وردهم المسيحيون ولقد كان المسلمون من أعظم الناس اصراراً وصموداً ، وبالمقابل كان المسيحيون من أكثر الناس شجاعة ، وتمكن المسيحيون بعد كثير من المشاق والصعوبات من تحقيق رد الترك ، لأن هؤلاء كانوا أكثر منهم عدداً بشكل واضح جداً .

وحاول الذين وجهوا هجومهم ضد المدينة بكل وسيلة توفرت لهم ، وبذلوا جهد طاقتهم لخرق الأسوار أو لغمها وانزاعها ، أو تسلقها بوساطة سلم التسلق ، وخشي الترك الذين كانوا داخل المدينة من حماسة رجالنا ، لذلك حركوا شارة الى ترك جيش صلاح الدين في الخارج ، ودعوهم إما الى الهجوم بقصد إزاحة الفرنسيين عن الأسوار ، أو تقديم عون مباشر اليهم .

وعندما عرف تقي الدين بهذا ، حمل الأتراك من الخارج ثانية ، وضغطوا علينا ضغطاً شديداً ، وقد دفعوا برجالنا الى الخلف بعدما بذلوا غاية طاقتهم ، وتمكنوا بعنف من طم الخندق ، غير أن المسيحيين ، لم يقبلوا بهذا ، وقاوموا حملاتهم وتصدوا لها ، وأمكن بالتالي رد العدو .

وفي الوقت نفسه حقق الرجال الذين استخدمهم ملك فرنسا للغم السور، تقدماً ووصلوا حتى اقتلاع أحجار الأساسات، وملأوا الثغرة المحدث نتيجة الحفر، بقطع الأخشاب، ثم أضرموا فيها النيران، وتهاوت الأخشاب المعلقة تحت الأساسات تدريجياً، ومالت بعض الميل، لكنها لم تسقط كلها كتلة واحدة، وبادرت كتلة من المسيحيين مسرعة إلى هناك للدخول من الثلمة وسوق الجيش التركي إلى الخلف.

ووضع الفرنسيون من الخارج السلام على السور الذي انهدم جزئياً، وحاولوا الجواز إلى المدينة، وبالمقابل تسلق الترك أيضاً السلام للدفاع عن الثلمة التي أحدثت.

ثم وقعت واقعة رائعة، لا يمكن السكوت عن ذكرها، فقد رأى رجل واسع الشهرة، ومجرب الشجاعة ورائعها اسمه ألبيرك كليمنتس Alberic clements، الفرنسيين يبددون جهودهم مقابل قليل من النتائج، واستجمع ساعة تعبته الشديد كل قوته وقال: «سأموت هذا اليوم، أو إنشاء الرب، سأدخل مدينة عكا»، وبإكماله لهذه الكلمات تسلق بجرأة السلم، وما أن وصل إلى أعلى السور حتى تساقط عليه الترك من جميع الجهات.

ولحق به الفرنسيون، لكن السلم تحطم تحت ضغط عددهم، وأصيب بعضهم إصابات أوصلتهم إلى الموت، وتم سحب آخرين لحقت بهم جراحات بالغة، وصاح الأتراك لشدة بهجتهم، وأعلنوا عن سرورهم عندما رأوا الحادث، لأنه كان حادثاً مريعاً ومصيبة عظيمة.

ثم طوقوا ألبير كليمنتس، وقهروه، ذلك أنه ترك وحيداً على رأس السور، وطعنوه طعنات لا تعد ولا تحصى، وهكذا تحقق له ما قاله في أن يموت شهيداً إن لم يستطع تقديم العون إلى رفاقه بدخول عكا.

وارتعب الفرنسيون كثيراً بسبب خسارته، وتوقفوا عن التسلق،

وسلموا أنفسهم للبكاء والنحيب لوفاته ، لأنه كان رجلاً صاحب مرتبة ونفوذ.

وبعد مضي وقت قصير تمكن اللغامون الفرنسيون إثر مثابرتهم في عملهم ، من لغم البرج الملعون ، وعلقوه بجذوع الأشجار من الأسفل ، وكان الترك يحفرون بالاتجاه نفسه ، وقد وصلوا الى الجزء نفسه من الأساسات ، وهنا دخل اللغامون من الجهتين بإتفاق سلام متبادل ، توجب بمقتضاه أن يغادر الترك دون التعرض للأذى ، وتوجب أيضاً إطلاق سراح بعض المسيحيين الذين أسروهم ، ولدى اكتشاف مقدمي الترك هذا كانوا كانوا مغمومين جداً وأغلقوا الممرات التي كانت تفضي الى الخارج .

ولم يكن الملك رتشارد قد تعافى بعد من مرضه، ومع ذلك كان متشوقاً للعمل ، وعاقداً العزم على الاستيلاء على المدينة ، لذلك قام باستعداداته لأن يتولى رجاله مهاجمتها ، على أمل أنه ، بعون الحكمة الربانية ، سوف ينجح ، ولهذا الغاية أمر بصنع آلة السياج النقالة التي كانت تعرف باسم سيركليا Circlia وأن توضع مع نسيج متداخل ، صنع بمهارة عالية وطريقة ذكية جداً، وقصد الملك من هذه الآلة لاستخدامها للعبور فوق الخندق خارج المدينة ، ووضعها تحتها أعظم رجاله مهارة وخبرة باستخدام الزنبورك والجروح والعرادت ، وحمل هو نفسه الى هناك فوق فراش حريري ، ليعلم المسلمين بوجوده ، وليضع العزيمة في قلوب رجاله ، وقد تمكن من داخلها باستخدامه لقوسه العقار الذي كان ماهراً باستعماله من قتل العديد .

وتمكن لغاموه أيضاً من حفر نفق تحت البرج ، وعلقوه بالأخشاب ، وأضرموا النيران فيها ولدى اضافة عدة قذائف من المنجنيق سقط البرج الى الأرض بشكل مفاجيء وأحدث صوتاً عالياً.

وبعدما تأمل الملك كم كان تحقيق هذا النجاح صعباً، وأدرك أن عليه أن يصطرع مع أكثر الأعداء شجاعة وتصميماً، وأن هناك حاجة للاستعانة بكل قواه في القتال ، أمام هذا رأى أن خير طريقة لإثارة عقول جنوده الشباب بالوعد بالجوائز ، وليس بالتهديد والتحريض بالأوامر الشديدة فمن هو المعصوم من حب المربح ؟ ولهذا أمر المنادي أن يعلن عن جائزة قدرها قطعتين ذهبيتين ثم ثلاث ثم أربع لكل من يوقع منجنيقاً من على الأسوار ، ووعد بدفع مكافأة قدرها أربع قطع ذهبية لكل من ينتزع حجرة من السور ، ثم زحف الشباب نحو الأمام ، ونافسهم الجنود الشجعان ، وضغطوا من أجل سحب الحجارة من السور وكانوا متشوقين لنيل المجد والربح ولهذا ثابروا في عملهم وسط نشاب ورمايات العدو .

وأخفق كثير منهم في القيام بمهامهم ، في حين تم رد الآخرين ، فتراجعوا خوفاً من الموت ، لأن الترك صدوهم بنشاط من فوق ولم يكن بمقدرة الترس ولا السوابغ والدروع حمايتهم ، وكان ارتفاع الأسوار عظيماً ، وكذلك كانت سماكتها ، ومع ذلك استطاع الرجال الشجعان بعد تغلبهم على جميع المصاعب انتزاع عدد كبير من الحجارة وسحبها ، وعندما انقض الترك عليهم كتلة واحدة ، ناضلوا من أجل صددهم ، ولكن لأنهم كانوا قد خلفوا أسلحتهم وراءهم ، فقد تعرضوا وهم أشبه بالعزل لنشاب العدو .

وتفاخر واحد من الترك فوق الأسوار ، وهو لابس لسابغة ودروع وسلاح ألبيرك كليمنتس المتقدم الذكر وكان هدفه اغضاب رجالنا ، لكن الملك رتشارد استطاع أن يصيبه إصابة قاتلة ، خرقت قلبه بنشابة من قوسه العقار .

وحزن الترك لسقوطه ، وركضوا جميعاً محتشدين للانتقام لمقتله ، وعرضوا أنفسهم بدون خوف وبجرأة عظيمة للنشاب وللحرب ، وردوا

رجالنا وضغطوا عليهم مثل المجانين ، ذلك أنه لم يكن هناك مقاتلين أشجع منهم بين أي جنس على الأرض ، وتثير ذكريات أعمالهم على الفور في نفوسنا الاحترام والاعجاب ، وفي أثناء القتال الحامي ، لا شيء يمكنه أن يقف في وجه رمايات القوس العقارة أو مقاومتها سواء أكانت سوابغ مزدوجة ، أم دروع قوية ومحكمة الصنعة ، وعلى الرغم من كل شيء تابع الترك حفر نفق من الداخل ، وبذلك أرغم رجالنا على التراجع ، ورفع العدو أصواته عالية وكأنه حقق غايته .

وتهاوى البرج أخيراً بفعل رمايات منجنيقنا المتواصلة ، ونتيجة لسحب الأحجار منه بعد نزعها ، وعندما توقف رجال الملك رتشارد عن اللغم ، وتم الاقلاع عن الحملات ، هنا قام المرشحون من المرتبة الفروسية (المشوقين دوماً للاطراء والنصر) بتسليح أنفسهم ، وكان بينهم حاشية ايرل أوف ليستر ، ورجال أندرودي كاين Cayegin وهو غوبرن ، وكان هناك أيضاً رجال أسقف سالسبري وقد انتظموا بشكل رائع ، وعدد كبير آخر ، وكان الوقت حوالي وقت المغيب ، في ساعة العشاء ، عندما استعد هؤلاء الشجعان مع المرشحين الأعظم روعة للهجوم على البرج ، وتقدموا حتى استطاعوا بكل جرأة صعوده .

وعندما رأهم الخفراء من الترك صرخوا بصوت مرتفع فأيقظوا المدينة كلها ، وحمل الرجال السلاح بكل سرعة ، وبادروا يركضون بأعداد كبيرة ليتولوا الضغط على المهاجمين الذين كانوا يشقون طريقهم برشاقة .

وبينما رجالنا يحاولون دخول المدينة سعى الترك الى ردهم الى الخلف ، وقد اصطدموا مع بعضهم بعضاً وتقاتلوا يداً بيد ، وواجهت يداً يميني ، وقارع سيف سيفاً آخر ، وأمسك بعضهم ببعضهم الآخر ، وضرب بعضهم بعضهم الآخر ، وتم رد بعضهم وقتل بعضهم الآخر ، وكان تعداد رجالنا قليلاً ، غير أن أعداد الترك كانت بإزدياد مستمر ، وبرميهم للنفوط ، أرغموا رجالنا الذين لم يستطيعوا الصمود أمامها ، على التقهقر والنزول

من البرج ، وذلك بعدما قتل بعضهم على أيدي الأعداء ، ثم أحرقوا وتحولوا الى رماد بخلطات موادهم المدمرة، ثم تسلق البيازنة البرج بكل قوة ، وكانوا إما ظامئين للثناء أو متعطشين للانتقام ، ومن جديد قاتلهم الترك وكأنهم مجانين ، وصحيح أن البيزيين قاوموا بجرأة ، فقد أرغموا على التقهقر والتخلي عن البرج ، ولم يرقط ما يشبه الأتراك بالكفاءة والمقدرة بالحرب .

ولقد كان من الممكن الاستيلاء على المدينة في ذلك اليوم لو أن المعركة حوربت وفق خطة حكيمة بوساطة الجيش كله موحداً ، ولكن بما أن الجزء الأعظم كان وقتها يتناول العشاء ، كانت المحاولة محاولة احتمالية ولذلك لم تنجح .

كيف أبرم المحاصرون معاهدة مع المسيحيين وكيف تمت استعادة عكا

ما الذي يمكننا قوله حول هذا الجنس من غير المؤمنين الذين دافعوا على هذه الشاكلة عن مدينتهم ؟ إنهم ممن ينبغي الاعجاب بهم ، لشجاعتهم في الحرب ، ولقد مثلوا شرف أمتهم جمعاء ، ولو أنهم اتبعوا الايمان الصحيح ، لما وجدوا من يتفوق عليهم بين رجال العالم أجمع ، ومع ذلك ليس من دون سبب خافوا من رجالنا ، ذلك أنهم رأوا النخبة بين الجنود من بين جميع صفوف المسيحيين جاءوا لتدميرهم ، وأن جزءاً من أسوارهم قد سقط ، وجزءاً قد انشطر ، والجزء الأكبر من جيشهم قد تشوه بفعل الحرب ، وبعضهم قتل ، وآخرون قد أضعفتهم جراحهم .

وكان ما يزال في المدينة ستة آلاف من الترك مع المشطوب وقراقوش المتقدمين عليهم ، وكانوا قد يؤسوا من النجاح واعتقدوا بأن الجيش المسيحي كان قد وهنت عزيمته كثيراً لمقتل ألبيرك كليمتس ولمصرع أبناء رجاله وأقربائهم ، الذين سقطوا في المعركة ، ورأوهم أيضاً أنهم كانوا مصرين إما على الموت بشجاعة أو تحقيق الفوز ولهذا فكروا بسلوك طريق شبه مذل ، وفي ظل الظروف ، التمس المحاصرون ، بعد اجتماع عام ، وموافقة جماعية ، الحصول على هدنة بغية إخبار صلاح الدين حول أحوالهم ، وللتأكد إلى أي مدى سوف يمنحهم الأمن ، وفقاً لطبائع الشعوب الهمجية ، إما بأن يرسل اليهم مساعدة عاجلة ، أو أن يسمح لهم بمغادرة المدينة والخروج منها بشرف .

وبغية الحصول على هذا الهدف ، جاء إثنان من أعلى المسلمين والكفار مرتبة وهما : المشطوب وقراقوش ، إلى ملوكنا مع وعد بأنه إذا لم يبعث صلاح الدين لهم بمساعدة عاجلة ، سيتخلون عن المدينة على شرط أن يسمح لجميع الأتراك المحاصرين بالمغادرة أحراراً ، وأعطى

ملك فرنسا وتقريباً جميع الحضور من الفرنسيين في المؤتمر ، موافقتهم ، لكن الملك رتشارد رفض بإصرار هذا ، وبعدما بات معلوماً ما يرضيه ، عاد قراقوش والمشطوب الى المدينة دون الوصول الى ما استهدفاه .

وعندما علم صلاح الدين بأن رسلاً قد بعثوا من قبل المحاصرين ، أمرهم بالحفاظ عن المدينة والدفاع عنها بالقدر نفسه من الشجاعة التي أبدوها حتى الآن ، ووعدهم بوفرة كبيرة من المساعدات ستأتي حالاً إليهم ، ذلك أنه أعلن للرسل الذين جاءوا من عندهم اليه ، أنه بلا شك سوف يتابع الصمود ، وأنه كان يتوقع وصول كتلة كبيرة من الجند من مصر ، سوف يصلون بسفن وشواني ، وأصدر أوامره الى قائده المشطوب أن يبقى على اتصال به بدون انقطاع لمدة ثمانية أيام ، فإذا لم تصل المساعدات حسب اتفاقهم فقد وعد ووثق وعده باليمين ، أنه سيحصل للمحاصرين داخل عكا على سلام مشرف ، بقدر ما يستطيع ، من المسيحيين ، وأن يضمن حريتهم بالخروج ، وعندما سمع الرسل هذه الأشياء ، عادوا إلى عكا ، وكرروا وعود صلاح الدين ، وأقنعوا رجال البلدة بالمقاومة ، وذلك في الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه بقلق وصول المساعدات الموعودة .

وفي الوقت نفسه لم يتوقف منجنيق المسيحيين لا بالليل ولا بالنهار ، لضبعة الأسوار ، وعندما رأى الترك هذا ، أصيبوا بالحيرة والدهشة ، والرعب والاضطراب ، وألقى كثير منهم لشدة رعبهم أنفسهم من فوق الأسوار خلال الليل ، ولم ينتظروا وصول المساعدات الموعودة ، والتمسوا بتضرع تعميدهم وعدهم مسيحيين .

وأدرك صلاح الدين مخاطر التأخير ، ولهذا قرر بعد طول تفكير أن يقبل بمطالب المحاصرين ويسلم بقرارهم ، وقد اقتنع بأن يفعل ذلك بضغط من أمرائه وقادته ، وذوي النفوذ من رجال ادارته .

وبعدما جلب الرسل قرار صلاح الدين الى المحاصرين ، امتلاوا بسرور عظيم ، وتوجه على الفور أعيان المدينة الى الملكين ، وعرضوا من خلال المترجمين تسليم مدينة عكا بدون شروط مع صليب الصليبوت ومائتين وخمسين من أعيان أسرى المسيحيين ، وعندما أدركوا أن هذا العرض لم يرضهما عرضوا تسليم ألفين من نبلاء أسرى المسيحيين ، وخمسمائة من ذوي المراتب الأدنى ، وهؤلاء سوف يتولى صلاح الدين جمعهم من كل أجزاء مملكته ، وذلك إذا ما تركا الترك يغادرون مدينتهم ، بشياهم التي عليهم فقط ، تاركين وراءهم أسلحتهم وممتلكاتهم ، وسوف يدفعون فدية عن أنفسهم مائتي ألف دينار إسلامي ، وكضمانة لتنفيذ هذه الشروط عرضوا وضع جميع الأعيان وذوي المراتب الرفيعة من أهل المدينة بمثابة رهائن في أيديهم .

وبعدما تولى الملكان مع أكثر المقدمين حكمة تفحص المسألة ، كان القرار الصادر عن الجميع هو قبول العرض والموافقة على الشروط ، مقابل تأدية الأيمان ، وكتابة شروط السلام ، وإذا ما سلم المحاصرون الرهائن أولاً يمكنهم التخلي عن المدينة ومغادرتها دون أن يحملوا أي شيء معهم .

وبناء عليه ، جرى يوم الجمعة ، بعد انتقال القديس بندكت ، تسليم الأعيان الرئيسيين والأمراء ، وأخذوا بمثابة رهائن ، وحدد موعد شهر واحد من أجل تسليم الصليب وجمع الأسرى ، وعندما أشيع في الخارج أن المدينة قد تم التخلي عنها ، اشتعل العامة - بحماقتهم - غضباً ، لكن الجزء الأكثر حكمة ابتهجوا ، تجاه هذه الصفقة الرابحة ، بدون مخاطر ، فهذا ما عجزوا عن تحقيقه منذ وقت طويل . وأعلن وقتها بصوت المنادي وجوب ألا يتعرض أي انسان بالإهانة للترك بالقول أو بالعمل ، وألا يثيروهم بالشتائم ، وأن يجري التوقف عن ارسال الرمايات من أجل تدمير الأسوار ، أو نحو الأتراك الذين يمكن رؤيتهم وراء الشرافات

، وعندما جاء اليوم الموعد ، ووقف الأتراك وظهروا فوق الأسوار جاهزين لمغادرة المدينة ، توجه المسيحيون نحو الأمام لينظروا اليهم ، واستبد بهم العجب عندما تذكروا الأفاعيل التي قاموا بها ، ودهشوا أيضاً لرؤية مظاهر البشر على وجوه هؤلاء الذين أخرجوا من مدينتهم وهم أقرب الى الإفلاس المالي ، ولم يتغير سلوكهم بسبب المحنة ، أما أولئك الذين أرغمتهم الضرورات القصوى على عدّ أنفسهم مهزومين ، وأن يلجأوا بأنفسهم الى التضرع لطلب العون ، فلم يحملوا أية علامات على الاهتمام والقلق مطلقاً ، وهم يتقدمون نحو الأمام ، ولم تظهر عليهم أدنى اشارات على الأسى لفقدانهم كل ما ملكوه ، وهكذا بدوا بتماسكهم وجلدهم الذي ظهر في محياهم ، أنهم هم المنتصرون ، وذلك لولا كفرهم وذنوبهم التعيسة التي اقترفوها ، فلطخت أمجادهم العسكرية .

وأخيراً بعد ما غادر جميع الترك ، دخل المسيحيون وعلى رأسهم ملكيهم الى المدينة من خلال الأبواب المفتوحة ، دخلوها وهم يرقصون ويبتهجون ، ويغنون بأصوات عالية تسابيح للرب ، مع تقديم الشكر له والحمد ، لأنه أنزل رحمته عليهم ، وزارهم ، وخلص شعبه .

ثم رفعت الرايات ومختلف الأعلام العائدة للملكين فوق الأسوار والأبراج ، وقسمت المدينة بالتساوي بينهما ، كما وزعا بينهما بشكل عادل الأسلحة والمؤن التي وجداها ، وجرى احصاء أعداد الأسرى ، ثم وزعوا بالتساوي ، ونال الملك الفرنسي في حصته قراقوش مع عدد كبير آخر ، وكان المشطوب والبقية حصة الملك رتشارد ، زد على هذا أخذ ملك فرنسا ضمن حصته قصر الداوية مع كل امتيازاته وجميع ملحقاته ، وأخذ الملك رتشارد القصر الملكي ، واليه أرسل الملكتين مع وصيفاتهن وخدمهن ، وهكذا تملك كل واحد منهما حصته بسلام ، وجرى توزيع الجيش في أرجاء المدينة ، وأعطى أفرادهم لأنفسهم بعد صراع مرير لحصار طويل الغفران، وجددوا نشاطهم بالراحة التي كانوا بحاجة اليها .

وكانت المدة التي انقضت فيما بين يوم استيلاء المسلمين على مدينة عكا، واليوم الذي أعقب عيد القديس بندكت، الذي فيه استردت، أربع سنوات، وكان من غير الممكن تفحص أوضاع الكنائس دون الإصابة بالسرعب، ولم نتمكن من دون الشعور بالألم حكاية الأشياء غير اللائقة التي اقترفت فيهن، لأنه من الذي يمكنه أن يقف بدون دموع عندما ينظر إلى مظهر التماثيل المقدسة لصلب ابن الرب، وصور عدد كبير من القديسين وقد لطخت أو شوهدت بوسيلة أو أخرى؟ ومن هو الذي كان لن يرتجف رعباً أمام المنظر المخيف للمذابح وقد قلبت، وأشكال الصلبان وقد أُلقيت على الأرض وديست احتقاراً من قبل تلك الأمة المهينة وغير التقية، أي أمة الترك، وطمست جميع آثار خلاص الإنسان والمتعلقة بالديانة المسيحية، وجرى عرض ماتعلق بالشعائر الإسلامية في الأماكن المقدسة.

وتراجع صلاح الدين في الليلة التي أعقبت دخولنا، لخوفه منا، من مكانه الذي كان متمركزاً فيه إلى واحد من أبعد الجبال.

حول الخصام بين الملكين

ونشب الآن خصام شديد بين الملكين حول مركيز مونتفرات، الذي أثره ملك فرنسا، والذي إليه قرر أن يمنح الحصنة التي وقعت إليه الآن أو في المستقبل، في الأراضي المقدسة، لكن الملك رتشارد الذي شعر بالعطف نحو تعاسة الملك غي، لم يكن ليوافق على هذا العطاء، لأنه رأى أن كل شيء هو عائد إلى الملك غي وملك له.

وعاش الملكان في فراق حول هذه المسألة لبعض الوقت، حتى تصالحا بناء على وساطة المقدمين وقادة الناس، وقضى الصلح أن يعدّ المركيز هو الوريث عن طريق الزواج للعرش، وينبغي أن يعطى حكم صور (أي: صور، وصيدا، وبيروت) مع لقب كونت، وذلك كتعويض له عن المساعدة التي قدمها أثناء الحصار، وتوجب أيضاً أن يكون غودفري دي لوزغنان، لكونه أخى الملك غي، كونت يافا (أي: يافا وعسقلان) وذلك كتعويض على خدماته، وإذا مامات غي قبل المركيز، ينبغي أن يؤول التاج إلى المركيز، مع أنه تزوج من وريثة العرش بشكل غير شرعي، لكن إذا ما حدث وتوفي المركيز وزوجته، أثناء إقامة الملك رتشارد في هذه المناطق، فوقتها يترك إليه التصرف بمنح المملكة حسبما يشاء؛ وعلى أساس هذه الشروط انتهى الخلاف بينهما إلى الأبد.

لقد كانت هكذا الأوضاع عند نهاية شهر تموز، وهو الشهر الذي وعد الترك أنهم سيعيدون خلاله صليب الصليبيات، وبالمقابل يستعيدون الرهائن، وشاعت أخبار بين عناصر الجيش أن ملك فرنسا (الذي رست عليه آمال الناس) عازم على العودة إلى وطنه، وكان يعد أعداداً حثيثاً لرحلته، ولكم كان سيئاً ومهيناً القيام بمثل هذا العمل، وأن تتوفر الرغبة فيه، في حين مازال هناك الكثير من العمل للقيام به، وأن يذهب في حين

أن واجبه كان يقضي عليه أن يتولى حكم هذا الحشد الهائل من الناس، وعندما كان وجوده ضرورياً جداً لتشجيع المسيحيين على متابعة مثل هذا العمل الديني المقدس، وأن يسهم في تقدم مثل هذا الواجب الثقيل، فلماذا جاء عبر هذا الطريق الطويل، وتحمل هذه المشاق، إذا كان قد عزم على العودة مباشرة تقريباً! وهل هو انجاز رائع وتنفيذ لتعهد، بمجرد الدخول إلى الأراضي المقدسة، والنضال ضد الترك، ومن ثم الحصول على مثل هذا النصر الصغير!

وادعى الملك الفرنسي أن سبب عودته هو المرض*، وقال بأن وفي بنذره بقدر ما استطاع، وفي الحقيقة لا يجوز أن ننكر أنه بذل كثيراً من الجهد والمال في الأراضي المقدسة، وفي الهجوم على المدينة، وأنه أمن المساعدة لعدد كبير من الناس، وأنه بفضل نفوذه ووجوده تحقق بشكل أسرع تنفيذ الاستيلاء على عكا.

لكن عندما بات قراره الثابت بالعودة معروفاً لدى الجميع، وعندما رفض التراجع أمام عدد كبير من رجاله، ولم يستجب لالتماساتهم بالبقاء، كان الفرنسيون، لو استطاعوا، على استعداد للتخلي عن طاعتهم له، ولاشمازوا من حكمه، وحدث أن أنزلوا عليه كل أنواع اللعنات، وأمانى السوء، والخط العاثر، وغير ذلك مما يمكن أن ينزل بانسان خلال حياته، ومع ذلك كله، أسرع ملك فرنسا في رحلته، وبالمغادرة كيفما استطاع، وترك عوضاً عنه دوق بيرغندي مع عدد كبير من رجاله، زد على هذا التمس من الملك رتشارد أن يزوده باثنتين من شوانيه، وأعطاه الملك اثنتين من أحسن ما كان لديه، ولكم كان غيروفي وناكر لخدماته هذه، هذا ماسوف يرى فيما بعد.

*— بالاضافة إلى مرضه، شك الملك الفرنسي بالاتصالات التي جرت بين رتشارد وصلاح الدين، كما أنه كان يرغب بالعودة ليستولي على فلاندرز التي توفي كونتها أثناء حصار عكا.

ورأى الملك رتشارد وجوب دخول ملك فرنسا في ميثاق معه من أجل الحفاظ على أمنهما المتبادل، لأنهما مثل آبائهما نظرا إلى بعضهما بعدم ثقة تحت غطاء الصداقة، ولهذا طلب الملك رتشارد من ملك فرنسا أداء يمين له أنه سيبقى وفياً له، ولن يؤذي رجاله أو بلاده عن معرفة أو بقصد، مادام الملك رتشارد باقياً في الأراضي الأجنبية، وأدى له ملك فرنسا اليمين وأعطاه دوق بيرغندي والكونت هنري بمثابة رهيتين وذلك مع خمسة آخرين أو ستة، فقدت أسماؤهم، ومعروف للدنيا كلها كيف حافظ على ميثاقه ويمينه، ذلك أنه ما أن وصل إلى بلاده حتى أهاجها، وسبب الاضطراب لنورماندي.

وودع ملك فرنسا جيشه وتركه في عكا، وتلقى عوضاً عن التبريكات، الأمان بسوء المنقلب واللعنات من الجميع، وبناء عليه صعد ظهر السفينة في يوم عيد القديس بطرس، وأبحر نحو صور، ولكنه ترك الشطر الأعظم من جيشه مع الملك رتشارد، وأخذ معه المركيزات غير المشهورين وقراقوش والرهائن الآخرين الذين كانوا ضمن حصته، وقدر أنه سوف يتسلم مقابل فديتهم مائة ألف قطعة ذهبية أو أكثر، مما سيكفي جيشه والانفاق عليه حتى الفصح.

لكن لدى إيماءته إلى الترك حول التباحث بشأن الفدية، لم يلتفتوا إليه، وكان واضحاً أنهم لم يكونوا على استعداد لدفع بيضة أو ريشة مقابل إطلاق سراحهم، ولهذا مات أكثر الرهائن على هذه الصورة ولم يدفع شيء، ومامن أحد ربح شيء مطلقاً، ولاحتي أية حصّة من المؤن التي وجدت في المدينة، واعتاد الفرنسيون دوماً أن يتذكروا أنهم لم يتسلموا من ملك فرنسا زيادة على هذه المكافأة، ولهذا السبب غالباً ماقامت المشاحنات والخصومات فيما بينهم حتى قام الملك رتشارد — بناء على طلب من دوق بيرغندي — فأدانه، زيادة على ماله من رهائن خمسة آلاف مارك فضي للانفاق على رجاله.

وعندما أدرك الملك رتشارد أن إكمال الأعمال، وتقدم الشؤون، مع الجهد والانفاق بات واقعاً عليه بشكل رئيسي، قدم هبات كثيرة من الذهب والفضة إلى الفرنسيين وإلى الآخرين من كل أمة من الأمم، حتى يجندوا أنفسهم له عن رغبة، ولينفذوا ماتعهدوا القيام بانقاذه.

وإثر عودة ملك فرنسا مسرعاً إلى بلاده، حول الملك رتشارد جميع اهتمامه نحو ترميم الأسوار، ورفعها إلى علو كبير، وجعلها أكثر كمالاً مما كانت عليه من قبل أن يطاح بها، ومشى هو نفسه حول الأسوار، وحث العمال والحجارين، وكأن اهتمامه كله هو النضال من أجل استرداد ميراث الرب.

وبناء عليه انتظر الموعد الذي تم الاتفاق عليه بين الترك وبينه شخصياً، وصرف انتباهه نحو أعداد الآلات والمجانيق لشحنها، وعندما مضى الوقت الذي حدده الترك من أجل رد الصليب وفدية الرهائن، انتظر لمدة ثلاثة أسابيع مراعاة للاتفاق، ليرى فيما إذا كان صلاح الدين سيحفظ كلمته وميثاقه، ثم إنه لما ظهر أن صلاح الدين لم يكن مبالياً بالموضوع، عدّه الملك ورآه بمثابة منتهك لمواعيده، ولعل هذا كان تدبيراً ربانياً، حتى يمكن تحصيل شيء أعظم فائدة، غير أن المسلمين طلبوا منحهم وقتاً أطول للوفاء بوعودهم، وليبحثوا عن الصليب.

ثم كان عليك أن تستمع إلى المسيحيين وهم يسألون عن الأخبار، ومتى سيأتي الصليب، وكان أحدهم يقول متسائلاً: «الصليب قادم!» ويقول آخر بأنه رأى الصليب في الجيش الإسلامي، لكن كل متحدث كان مخدوعاً، لأن صلاح الدين لم يتخذ أي إجراء لاسترداد الصليب، لابل أهمل الرهائن الذين كانوا محتفظ بهم من أجله، ذلك أنه أمل أن يحصل بوساطته على المزيد من المنافع والشروط المفيدة، وأرسل بالوقت نفسه هدايا ورسائل متواصلة إلى الملك رتشارد حتى يربح التأخير بكلمات مزخرفة ومخادعة.

وأرسلت بالوقت نفسه رسائل إلى صور، لأمر الماركيز أن يعود إلى الجيش، وليجلب معه الرهائن التي عهد بها إليه، وذلك من أجل الحصول على فديتهم، ورد الماركيز على هذه الرسائل بشكل ساخط، في أنه لا يتجرأ على المغامرة ليمثل بحضرة الملك رتشارد، وزيادة على هذا تبجح قائلاً أنه إذا ما جرى استرداد الصليب، يتوجب أن يسلم إليه النصف وهو حصة ملك فرنسا، وأنه ما لم يتحقق هذا، هو لن يتخلى عن الرهائن، وسعى الرسل إلى اقناعه بوساطة الوعظ اللطيف، وعرضوا عليه أن يتركوا واحداً منهم بمثابة رهينة، وذلك كضمانة على أمانه أثناء الرحلة، وأن ذلك من قبل الملك رتشارد، لكنهم لم يفلحوا في اقناعه، لابل أكثر من هذا لقد أشفع رده بعدم العودة بيمين، ولهذا عادوا مخفقين، وفارغي الوفاض، وزادوا من تأجيج غضب الملك باخباره بالقصة كلها.

وجرى ارسال دوق بيرغندي، ودروغو دي أمين Amiens وروبرت دي كوينسي Quincey بسفارة ثانية إلى الماركيز المذكور، ليأتي معهم إلى الجيش، غير أنه رد عليهم بعجرفة واحتجاج أنه لن يذهب، وسيحافظ على حكمه لمدينته، وعندما ردوا على تأكيدات بحجج مناقضة، أمكن الوصول بالمسألة بعد صعوبات إلى النقطة التالية: يتوجب على الرسل أن يأخذوا معهم الرهائن المسلمين إلى الملك رتشارد، لكنهم لم يستطيعوا بكل وسائل الاقناع التغلب على الماركيز حتى يتحول عن نواياه العنيدة.

وعندما بات واضحاً للملك رتشارد، أن مدة أطول مما هو مقرر قد مرت، وأن صلاح الدين ماضي في عناده، ولن يعبأ بفداء الرهائن، عندها دعا إلى اجتماع لأعيان الناس، حيث تقرر بالاجماع وجوب شنق جميع الرهائن باستثناء عدد قليل من النبلاء وأصحاب المراتب العالية، الذين يمكنهم فداء أنفسهم، أو مبادلتهم ببعض الأسرى المسيحيين.

وفي يوم الجمعة بعد عيد صعود مريم العذراء المباركة (١٥ آب)، ألهم

الملك رتشارد بوجوب تدمير أصول وفروع الترك، وإنزال العقاب برعونتهم الداعرة، وكذلك ازالة الشريعة الاسلامية، ونشر الديانة المسيحية، وبناء عليه أمر بسوق ألفين وسبعمئة من الرهائن الأتراك إلى خارج المدينة، وشنقهم، وتقدم جنده بسرور عظيم لتنفيذ أوامره وللانتقام، بموافقة النعمة الربانية، من هؤلاء الذين قتلوا كثيراً جداً من المسيحيين.

وعند حلول المساء تم الاعلان بصوت المنادي بوجوب زحف الجيش في الغد، وعبور نهر عكا باسم الرب، موزع الأشياء الجيدة، وذلك بغية الزحف نحو عسقلان، والاستيلاء على تلك المناطق البحرية، وصدرت الأوامر أيضاً أنه ينبغي على السفن أن تحمل على ظهرها مؤونة عشرة أيام للجيش، من البقسماط، والوجبات واللحوم، والخمرة، وكل ما يرى ضرورياً أيضاً، وقضت الأوامر على بحارة سفن الشحن والنقل التي حملت الميرة وكذلك رجالاً مسلحين، الالتزام بدقة الأبحار على محاذاة الشاطئ، وهكذا تقدمت القوات على محورين، واحد في البحر وآخر في البر، لأنه كان من غير الممكن الاحتفاظ بالمنطقة وهي مشغولة تماماً من قبل الترك.

كيف نصب الملك رتشارد خيامه خارج عكا

في خلال الشتائين والصيف الواحد وإلى وسط الخريف عندما جرى شنق الأتراك (لأنهم استحقوا ذلك أمام الرب والبشر، مقابل تدميرهم لكنائسنا وقتلهم لرجالنا) مات كثير من المسيحيين الذين اشتركوا في حصار عكا وضحوا تضحيات عظيمة، وكان الحشد الذي مات من هذا الجيش العملاق أكبر من أن يحصى، ولقد فقدنا في الجيش ستة رؤساء أساقفة وبطارقة، واثنى عشر أسقفًا، وأربعين كونتًا، وخمسمائة رجل من طبقة النبلاء، وكذلك عددًا كبيراً جداً من الكهنة ورجال الدين، مع آخرين من غير الممكن تعدادهم بشكل صحيح.

وعوفي الملك رتشارد إثر شنق الأتراك مباشرة، وبناء عليه خرج من المدينة مع حاشيته كلها، وأمر بنصب خيامه في السهل خارج المدينة، وبذلك اتخذ الجيش محلاته فوق السهل، ليكون جاهزاً للزحف، وجرى جذب بعض الفرنسيين بالكلمات الناعمة، وآخرين بالتوسل والرجاء، وكثير منهم بالمال، وذلك لمغادرة أماكنهم، وأرغم الملك بعضهم على الخروج بالقوة.

ولكن وضح أنهم خرجوا متثاقلين ومتدمرين، ولم يزدد تعداد الجيش، بينما كانت المدينة تعج بحشد هائل، وبلغ تعداد الجيش، بما فيهم الذين كانوا بالمدينة، ثلاثمائة ألف رجل.

واعتاد الناس على التراخي والرفاهية، لأن المدينة كانت مليئة بالمسرات حيث توفرت أفضل أنواع الخمور وأجمل الفتيات، وانغمس الناس بمفاسدهم، وهكذا تدنست المدينة بموبقات أبناء الخطيئة، وبينهم سكانها الذين جعلوا وجوه العقلاء تحمّر خجلاً من انعدام حياتهم، ومن أجل التخلص من هذه الموبقات صدرت الأوامر عن

اجتماع المجلس بمنع أي امرأة بالخروج من المدينة أو الذهاب مع الجيش، فيما عدا الغسالات اللائي لن يكن حملًا على أفراد الجيش، ولن يهيئن الفرصة للذنوب.

ثم عين الملك رتشارد عددًا كبيراً من الحرس للإقامة حول سرادقه من أجل حمايته، لأن الترك كانوا يقومون بغارات مستمرة، وقد اعتادوا طوال النهار القدوم والانقضاض عليهم وهم غير متنبهين، وكانت عادة الملك أن يكون الأول في الخروج إلى قتالهم وانزال العقوبة بهم، بقدر ما كانت العناية السماوية تسمح له.

وحدث في أحد الأيام أن وضع معسكرنا في حالة هياج بوساطة الترك، الذين هاجمونا وأحدثوا اضطراباً كبيراً، وهب رجالنا على الفور لحمل السلاح، واندفع الملك وفرسانه نحو الأمام، وكذلك كونت هنغاريا وكثير جداً من الهنغاريين معه، وقد أرغموا الترك على الفرار، وطاردوهم أبعد مما كان ينبغي أن يفعلوا، وأخذ بعض رجالنا أسرى في تلك البقعة وعملوا معاملة مشينة مع أنهم تصرفوا تصرفات نبيلة جداً.

وأخذ كونت هنغاريا نفسه أسيراً من قبل الترك مع أنه كان رجلاً مجرب الشجاعة وشهيراً، وحمل بعيداً وكذلك رجلاً من بواتواسمه هيوج، وكان مارشال الملك رتشارد، وقاتل الملك بلا وعي، ودون أن يعبأ بسلامة شخصه، وناضل بكل ما أوتيته من قوة لانقاذ مارشال هيوج، لكنه أسر بسرعة كبيرة جداً وحمل بعيداً، فلکم هو مصير الحرب غير مؤكد، فهؤلاء الذين حتى الآن منتصرين غالباً ما انهزموا، وترى غداً الذين انهزموا فجأة منتصرين، ولقد كان مقدراً على الذين هزموا العدو أن يسقطوا هم أنفسهم ويموتوا، لأن المطاردين الآن أصبحوا أسرى المطاردين، والذي كان مدوناً لهم مجداً تبرهن الآن أنه حماقتهم، وغدت أفاعيل الشجاعة السبب للمخاطر.

ولم يكن الترك مثقلين بالسوابغ والدروع مثل رجالنا، وآذونا بمرونة حركتهم وسهولتها بشدة أكثر مما كان متوقعاً، وكان سلاحهم في الغالب سلاحاً خفيفاً، يحملون فقط قوساً أو دبوساً مسلح رأسه بأسنان حادة، أو بسيف أو برمح خفيف سنانه من حديد، ومدية معلقة بشكل خفيف، وعندما يهزمون من قبل قوة أعظم من قواهم، كانوا ينهزمون ويتعدون على ظهور خيولهم بأقصى سرعة ممكنة، وليس هناك من يوازيهم في رشاقته في جميع أنحاء العالم، ومن عادتهم أنهم إذا مارأوا مطارديهم توقفوا عن المطاردة، الانعطاف والعودة، ومثلهم في ذلك مثل الذبابة، إذا ما طردتها تذهب، لكن عندما تتوقف سوف تعود، ومادمت تطاردها، تراها تطير، لكنها تعاود الظهور في اللحظة التي تتوقف فيها، وهكذا الأتراك عندما تتوقف عن مطاردتهم يطاردوك، وإذا قاتلتهم يطفرون بعيداً، وبناء عليه عندما جعلهم الملك يفرون، هربوا بدون توقف، ولكن عندما توقف ليعود، هددوه من الخلف، وأحياناً ليس بدون عقاب، وأحياناً ليس بدون الحاق الأذى برجالنا.

وفي صباح اليوم الذي كنا سنزحف فيه نحو عسقلان، سلاح الجنود أنفسهم، وأصبحوا مستعدين في تعبئة كاملة، وبقي الملك نفسه في ساقه الجيش لصد الترك الذين هددوا باثارة المتاعب، ومن اللحظة التي شاهد فيها هذا الجنس البعيد عن التقوى، جيشنا يتحرك، تدفقوا من الجبال في مجموعات متفرقة، مثل المياه المندفعة، ووزعوا أنفسهم في مجموعات في كل منها ما بين العشرين إلى الثلاثين، بحثاً عن أفضل الفرص لمضايقتنا، ذلك أنهم كانوا مزعوجين جداً لموت آبائهم وأقربائهم، الذين رأوا جثثهم المقتولة موزعة في المنطقة هناك، ولهذا ضغطوا بشدة على جيشنا باستمرار، لكن بفضل العناية الربانية لم ينجحوا بقدر ما رغبوا، لأن جيشنا عبر فوق نهر عكا دونما أذى، ومن جديد نصب خيامه على الطرف الآخر من النهر حتى يوم الجمعة، (وهو عشية يوم عيد القديس بارثلميو)

ففي ذلك اليوم احتشدوا مع بعضهم، ومع يوم الاثنين التالي كان قد مضى عامان منذ أن بدأ المسيحيون بإلقاء الحصار على عكا.

وفي صباح اليوم الذي أعقب عيد القديس بارثلميو، اصطف الجيش ليزحف على طول شاطئ البحر باسم الرب، ولكم كان جيشاً رائعاً بجند ممتازين، فقد كان بإمكانك أن ترى هناك جماعة من نخبة الشباب ذوي الفضائل والشجاعة، كان من الصعب أن تقابل من يوازيهم، أسلحة براقية، وأعلام ذات زخارف مشعة، ورايات ذات أشكال متنوعة، ورماح ذات أسنة لامعة، وخوذ مشرقة، وكذلك الدروع والسوابغ، فلقد كان جيشاً تمت تعبئته بشكل جيد في المعسكر، وكان جيشاً مرعياً للعدو.

كيف زحف الجيش نحو عسقلان

وقاد الملك رتشارد الطليعة، واحتفظ بخيرة الحراس وأعلاهم كفاءة وكانوا من النورمان للدفاع عن الراية، ونحن لانرى هنا خروجاً عن الموضوع الاقدام على وصفها، فقد كانت مكونة من جزع شجرة طويل مثل صاري السفينة، منتخب من أصلب أنواع الخشب، ووضع فوق أربعة دواليب (عجل)، وجرى ربط الجميع بأربطة حديدية، وبذلك بدت أنه لاسيف أو بلطة يمكن أن تقطعها، كما لايمكن للنار أن تؤذيها، وجرت العادة باختيار كوكبة من الجنود وتعيينها لحراستها، خاصة أثناء المعارك في السهول، وذلك خشية أنها إذا ماتعرضت لهجوم معادي أن "تتحطم أو تلقى أرضاً، لأنه إذا حدث وسقطت لسبب ما، فالجيش كله سيتمزق وتضطرب أحواله، وإذا لم تظهر، يشعرون بالرعب، ويعتقدون أن قائدهم لا بد وقد أصيب إصابة أفقدته وعيه، ومامن شعب يمتلك القدرة على مقاومة عدوه إذا كان مقدمه في وضع خطر منذ زمن سقوط الراية، لكن إذا بقيت مرفوعة، لديهم وقتها ملاذ يعودون إليه، فبجانباها يقوى الضعفاء والجنود الجرحى (حتى من أصحاب المراتب والشهرة)، وكذلك الذين يسقطون في المعركة يحملون إلى قربها، وتدعى الراية العظمى، لأنها أعظم شعار وشارة للجيش في أثناء القتال، وموائم كثيراً جرها فوق العجلات، لأنه عندما يتراجع العدو تتقدم، وإذا ماحدث العكس يجري جرها إلى الخلف وفقاً لأوضاع المعركة.

وجاء دوق بيرغندي مع الفرنسيين في الساقة، وسببت حركتهم البطيئة وتأخرهم الطويل، وقوع خسائر كبيرة، وزحف الجيش على محاذاة شاطئ البحر، الذي وقع على يمينه، وراقب الترك تحركاته من أماكن مرتفعة على اليسار، وفجأة أصبحت الغيوم داكنة، واضطربت السماء، وعندما وصل الجيش إلى واحد من الطرق الضيقة، الذي لايمكن عبوره بسبب عربات

المؤن، هنا تخلى الجيش عن نظام تعبئته، بسبب ضيق الطريق، واضطربت أحواله، وبات الزحف في خط طويل، بدون نظام.

وما أن رأى المسلمون هذا، حتى تدفقوا فجأة على دواب الحمولة، وعلى عربات الأثقال، وفي لحظة قتلوا الخيول والرجال، وسلبوا كثيراً من الأثقال، وهاجموا بجرأة الذين تصدوا لهم وشتتوهم بعيداً حتى شاطئ البحر، ثم أعقب هذا نشوب صدام عنيف، قاتل فيه كل انسان في سبيل حياته، ووقتها قطع الترك اليد اليمنى لإفرارد الذي كان من رجال أسقف سالسبري، قطعوها وهو ممسك لسيفه بها، ودون أن يبدل الرجل من تماسكه العام ومظهره شيئاً تناول السيف بشجاعة بيده اليسرى، والتحم بالترك الذين كانوا يضغطون عليه، ودافع عن نفسه بشجاعة ضدهم، وفي هذه الساعة اضطربت الساقة وتشوشت كثيراً، وخشي جون فترز لوك من تردي الأوضاع، فغمز بمهازيه حصانه ومضى إلى الملك رتشارد الذي كان جاهلاً بما كان يحدث.

ولدى سماعه بهذا، بادر مسرعاً تمام السرعة، لمساعدتهم، ومزق الترك من على اليمين واليسار، بسيفه مثل البرق، وبسرعة انهزم الترك الآن، مثلما هرب الفلسطينيون في الأيام الخوالي من المكابيين، على هذه الشاكلة فروا من أمام الملك رتشارد، واتجهوا نحو الجبال، لكن بعضهم بقي بيننا بسبب فقدانهم لرؤوسهم.

وحدث في أثناء هذا القتال أن أحد الفرنسيين، واسمه وليم دي بارتي Bartis ، وكان على خلاف مع الملك رتشارد بسبب حسد قديم، قد تصالح معه، وردده الملك إلى حظيرته بفضل حسن تصرفه غير الاعتيادي.

ولم يكن السلطان بعيداً ومعه كل القوة الرئيسية لجيشه، لكن الترك يئسوا من النجاح بسبب هذه الحملة الموفقة، لذلك تمنعوا عن المزيد من قتال رجالنا، مرة ثانية، لكن تابعوا مراقبتهم من المرتفعات، وعندما

انتظم رجالنا مرة ثانية، تابعوا زحفهم حتى النهر الذي التقوا به صدفة، ولوجود صهاريج مياه جيدة استفادوا منها، نصبوا خيامهم هناك وارتاحوا ليستفيدوا من السهل الخصب، ووجدوا أن صلاح الدين تقدم له أن نصب معسكره هناك، وحكموا من خلال الأرض المداسة أنه امتلك جيشاً كبيراً جداً.

وكان صلاح الدين وأتراكه مستنفرين دوماً مستعدين لإلحاق الأذى بنا، وقد استولوا على بعض الممرات بين الجبال الوعرة، وتوجب على جيشنا أن يتابع زحفه عبرها، وعزموا على قتلنا أو أسرنا أو تشتيتنا عندما سنتقدم في صف طويل، لكن عندما زحف جيشنا من النهر بحذر وعلى مهل حتى حيفا، تمكنا من نصب خيمنا هناك، وانتظرنا كتلة الجيش الكبرى التي كانت تتبعنا.

وتمركزنا فيما بين حيفا والبحر، ومكثنا هناك لمدة يومين، نعد أنفسنا ونتفحص الأمور، ونستعرض أثقالنا، حيث رمينا ما اعتقدنا أننا نستطيع أن نتخلى عنه، واحتفظنا فقط بما كان ضرورياً تماماً، لأن الجنود الرجالة زحفوا على أقدامهم، في حين عانينا نحن من ثقل الأحمال والميرة، ولهذا عانوا في أثناء القتال من كثير من الإنهاك والعطش.

وفي يوم الأربعاء، الذي وافق اليوم الثالث الذي تلا وقوفنا عند حيفا، تحرك الجيش نحو الأمام، وقام الداوية في المقدمة، وتمركز الاسبتارية في الساقة، وبرهن فرسان الفئتان على قدرتهما العظيمة على التحمل وبالتالي على الشجاعة العظيمة.

وزحف الجيش في ذلك اليوم بحذر أكثر من المعتاد، وتوقف بعد مسيرة طويلة، فقد أغراه مارآه من كثافة الأعشاب وطولها، التي ضربت وجوه أفرادها، خاصة وجوه الرجالة، وكان في هذه المناطق الساحلية أعداد كبيرة من الحيوانات البرية (اليرابيع) التي قفزت فيما بين أقدامهم

من بين الأعشاب الطويلة والكثيفة، وتم امساك كثير منها، ليس عن عمد، بل لأنها جاءت في طريقهم بالصدفة.

وبعدما سار الملك حتى تلحوم (التي هدمها المسلمون تماماً) ترجل وتناول بعض الطعام والجيش واقف ينتظر، ومن أراد منه تناول طعامه، وفور الفراغ تابعوا زحفهم حتى بيت عرف باسم «بيت الطرق الضيقة»، لأن الطريق هنا بات ضيقاً، وقد توقفوا هناك ونصبوا خيامهم.

وكان من عادة الجيش كل ليلة قبل الجلوس للراحة ندب واحد من الناس ليقف في وسط المعسكر وليصرخ بصوت مرتفع «العون، العون، من أجل الضريح المقدس»، وعندما كان بقية الجيش يسمعون يرددون هذه الكلمات، ويرفعون أيديهم نحو السماء، وسط دموع منهمرة، وكانوا يصلون ويدعون طلباً للرحمة ولعون الرب في هذا المقصد، ثم كان المنادي نفسه يردد الكلمات بصوت مرتفع، ثم يرددها كل انسان وراءه للمرة الثانية، وبعد ذلك كان هذا يتكرر للمرة الثالثة بقلوب نادمة مع كثير من البكاء، فمن الذي كان بإمكانه التمتع عن البكاء في مثل هذه اللحظة؟ وبدأ الجيش بعد الصراخ وفق هذه الطريقة وقد استرد نشاطه وارتفعت معنوياته.

وهاجنا كل ليلة نوع من أنواع الزواحف، تدعى الثعابين، التي كانت تزحف على الأرض، وتلدغ لدغة سامة جداً، وكانت في النهار غير مؤذية، لكن مع حلول الليل، اعتادت أن تلدغ بشكل متواصل، وكان الذين يلدغون يتورمون على الفور بالسم، ويعانون من آلام حادة، واستخدم الذين تعرضوا للدغ من النبلاء والأغنياء نوعاً من مراهم الترياق بوضعه فوق مكان اللدغ، وبرهن الترياق أنه فعال في إزالة الألم، وأدرك أخيراً الأكثر فهماً وملاحظة بيننا أن الثعابين كانت تخاف وتهرب من الأصوات المرتفعة، لذلك أخذوا يصعدون أصواتاً عالية لدى اقترابها منهم، بوساطة الضرب على مقاعدهم، أو أعمدتهم أو الصناديق الخشبية أو

الأباريق، أو الطسوت، أو الصحون، أو المراجل، أو أية أداة من أدوات المنزل كانت تصل إلى أيديهم لإحداث صوت كاف بها، وطردها بوساطة هذه الأصوات الثعابين.

وبقي الجيش لمدة يومين في ذلك المنزل المتقدم الذكر، حيث توفرت ساحة كبيرة للعسكرة، وانتظروا هناك حتى وصول السفن التي كانوا يتوقعونها، وأعني بهذا البوارج والشواني المشحونة بالميرة التي كانوا بحاجة إليها.

ثم تحرك الجيش، مستخدماً جميع الاحتياطات ضد الترك الذين بقوا على جناحهم حتى بلدة تدعى الملاحه، حيث كان الملك قد أمضى إحدى الليالي الماضية، وقرر هنا أن يتولى بنفسه قيادة المقدمة في اليوم المقبل، بسبب العوائق على الطريق، ولأن الداوية مكثوا في حراسة الساقة.

ولبس الملك في ذلك اليوم مهمازيه، وانقض على الترك وهو حانق جداً، وكان على وشك قطف ثمار مجد عظيم لولا أن أعاقه بعضهم وأخروه، مما عرقل نجاحه، لأنه بعدما طارد الملك رتشارد الأتراك إلى مسافة، توقف بعض رجاله فجأة، الأمر الذي عرضهم للوم في المساء، ولو أن أصحاب الملك تبعوه في المطاردة وتابعوا الجري وراء الترك، لنالوا نصراً مبيناً، لأن الملك دفع الجميع أمامه.

وواجه الملك مصاعب جمة لدى زحفه على طرف البحر بسبب الحرارة العالية، لأن الوقت كان ضيقاً، وهم قد ساروا رحلة يوم طويل، وأنهم المسير عدداً كبيراً منهم، فسقطوا موتى، ودفنوا حيث ماتوا، وعطفاً من الملك ورحمة أمر بعدد كبير ممن أنهكهم التعب من المسير أو المرض، أو أي سبب آخر، أن ينقلوا بوساطة الشواني والسفن إلى غايتهم، ووصل الجيش إلى قيسارية.

وكان الترك قبلهم هناك، وكانوا قد دمروا قسماً من الأبراج والأسوار، ودمروا المدينة بالقدر المستطاع، لكن عند وصول جيشنا هربوا، ونصب الجيش هناك خيامه وأمضى الليل على طرف نهر قرب المدينة، كان يعرف باسم نهر التماسيح (نهر الزرقا) لأن التماسيح افترست في إحدى المرات اثنين من العساكر وهم يسبحون فيه.

وكان محيط مدينة قيسارية واسع جداً، والأبنية رائعة فخمة وبهية، وغالباً مازارها مخلصنا ومعه حواريه، وصنع معجزات فيها، إنه هنا كان الملك قد أمر سفنه بمقابلة الجيش، وأمر الملك بالوقت نفسه بالاعلان في مدينة عكا بوساطة صوت المنادي، أن على الذين تخلفوا في المدينة لكسلهم الصعود إلى ظهور السفن التي أرسلت والقُدوم إلى الجيش حياً للرب، للمساعدة على انجاح هدف المسيحيين، ولينفذوا عهد حجهم بكمال أعظم، وأطاع العديد منهم أوامره وقدموا إلى قيسارية مع الأسطول، الذي كان مشحوناً بوفرة من الميرة، وهياً أن تتقدم السفن من ذلك المكان لتبقى على اتصال بالجيش ولتقدم له الخدمات.

وتجمع عدد كبير من السفن معاً، وعندما قسم الملك جيشه إلى فرق، انطلقوا في أحد الأيام في حوالي الساعة التاسعة، بخطوات بطيئة، بسبب أن الترك ضايقوهم عندما غادروا مراكزهم، ثم اقتربوا منهم كثيراً بقدر ما تجرأوا، وأنزلوا بهم ما استطاعوا الأذى والمضايقة.

وقد أزعجوننا في هذا اليوم أكثر من المعتاد، لكن بعون الرب نجونا دونما أذى، لأننا تمكنا من قطع رأس واحد من أمرائهم، وكان رجلاً عظيم الشجاعة، ومشهوراً لاقدامه، وكان قوياً جداً إلى حد أن مامن أحد — كما قيل — كان يستطيع أن يرميه من على ظهر حصانه، أو يتجرأ حتى على قتاله، وقد حمل رمحاً كان أثقل بمرتين من رماحنا أطلق عليه اسم «رمح اياز»، وحزن الترك حزناً شديداً لمقتله واستولى عليهم الأسرى، إلى حد أنهم قطعوا ذيول خيولهم، ولو سمح لهم لحملوا جثمان

مقدمهم.

ووصل الجيش بعد هذا إلى نهر كان يدعى النهر الميت (نهر المفجر؟) وكان المسلمون قد غطوه من قبل، حتى لا يرى، ولكي تتعرض حياة رجالنا إلى الخطر بالسقوط به، لكن بفضل حكمة الرب ونعمته حفظنا من المخاطر، وبعد ما جرى كشف النهر شرب رجالنا منه وأمضوا الليلة هناك.

كيف تحارب الجيشان عند أرسوف

تقدم الجيش في اليوم الثالث ببطء من النهر الميت، ولأن رجالنا كانوا غير قادرين على المسير على طرف البحر، الذي كان مغلقاً بشعراء كثيفة، فقد أرغموا على الزحف خلال منطقة جبلية وعرة جداً، وجرءاء تماماً من كل شيء، وحفظ الجيش نفسه أثناء الزحف في مجموعات متراصة أكثر من المعتاد، وتولى الداوية في ذلك اليوم الساقة، وهكذا خسروا عدداً كبيراً من الخيول من حملات الأتراك، حتى أنهم غدوا في حالة يائسة تقريباً، وفقد كونت سينت بول أيضاً كثيراً من الخيول، لأنه تصدى بنفسه للترك بشجاعة عظيمة عندما هاجمونا وحققوا خرقاً بيننا، وبفضل جهوده تمكن الباقون من الجواز بسلام والابتعاد سالمين، وهكذا استحق الشكر والثناء من الجيش كله.

وفي ذلك اليوم جرح الملك في طرفه بنشابة أثناء طرده للترك، وأثاره هذا الجرح الخفيف وحسه لمقاتلتهم بشجاعة أعظم، ذلك أن ضربة الجرح جعلته متشوقاً إلى الانتقام أكثر، وقاتل خلال النهار كله ضدهم وردهم إلى الخلف.

ومن جانب آخر ثابر الترك على إغاضة رجالنا وارهاقهم، وحافظوا على السير على طرف جيشنا، وألحقوا برجالنا من الجراحات بقدر ما استطاعوا برميهم السهام والنشاب، التي تطايرت مثل زخات المطر، وإنه لمحزن لو علمت كم عدد الخيول التي سقطت نتيجة طعنها وإصابتها بالجروح! وكم عدد التي ماتت فيما بعد، اثر عقرها والجراحة التي نالتها! فلقد كان هناك سيلاً من النشاب والجروح إلى حد أنه كان يتعذر عليك أن تجد موضعاً لقدمك على الأرض حيث توجب على الجيش المرور دون الإصابة بها، واستمرت هذه الحالة المحتدمة والمرعبة طوال النهار، حتى

حلول الظلام، فوقتها عاد الترك إلى خيمهم ومساكنهم، ووقف شعبنا عند ما يعرف عادة باسم نهر المالح (نهر اسكندرون)، وأمضوا الليل هناك، ووصلوا يوم الثلاثاء بعد عيد القديس جايل، ومكثوا لمدة يومين.

واجتمع هنا حشد كبير بسبب الخيول التي ماتت إثر جراحاتها، ذلك أن الناس كانوا راغبين بشراء لحوم الخيول، حتى أنهم لجأوا إلى نفخها، وعندما سمع الملك بهذا، أعلن بوساطة المنادي أنه سوف يعطي حصاناً حياً لكل من سوف يوزع حصانه الميت على أحسن الرجال في خدمته، ممن هم بحاجة إليه، وهكذا أكلوا لحوم الخيول وكأنها لحوم الطرائد والغزلان، وعدّوها لذيذة جداً، لأن الجوع حل الآن محل التوابل.

وفي اليوم الثالث زحف جيشنا في حوالي الساعة التاسعة في تعبئة قتالية، وانطلق من نهر المالح، لأنه كانت هناك اشاعات تحدثت عن أن الترك كانوا قد أعدوا كميناً في شعراء أرسوف وبساتينها، وأنهم كانوا عازمين على اضرام النيران هناك لمنع قواتنا من عبورها، غير أن رجالنا عبروا بنظام، فاجتازوا دون التعرض للأذى في المكان الذي قيل بأن الكمين قد نصب به، وبعدما خرجوا من الشعراء، وجدوا أنفسهم في سهل واسع يحاذيها، وهناك نصبوا قرب نهر يدعى بشكل عام روشيتيل Rochetaille (نهر الفالق)، وأرسلوا من هنا جواسيس للاستطلاع، وقد جلبوا معهم أخباراً بأن الترك ينتظرون وصولهم في أعداد لا تحصى، لأن حشودهم غطت وجه الأرض هناك، وقدّر تعدادهم بثلاثمائة ألف رجل، بينما كان المسيحيون مائة ألف رجل فقط من الأشداء، ووصل الجيش المسيحي إلى نهر روشيتيل يوم الخميس قبل عيد ميلاد مريم العذراء المباركة، واستراح هناك حتى اليوم التالي.

وفي الفجر الباكر من يوم السبت صلب رجالنا أسلحتهم عليهم بعناية كبيرة لتلقي الترك الذين لا يمكن لشيء أن يوقف عجرتهم سوى القتال، وعبأ العدو نفسه بانتظام، واقترب منا أكثر فأكثر، وكذلك اتخذ

رجالنا غاية الحذر لوضع أنفسهم في نظام جيد بقدر الامكان.

وعباً الملك رتشارد، الذي كان أكثر الناس خبرة بالشؤون العسكرية، الجيش على شكل كتائب، وأصدر توجيهاته للذين توجب عليهم الزحف في الأمام والذين كانوا في الساقة، وقسم الجيش إلى اثني عشر فوجاً، ثم قسم هؤلاء إلى خمس فرق، تسلسلت قياداتها حسب رتب الرجال تماشياً مع النظام العسكري، وكان من غير الممكن إيجاد جيش أحسن تنظيماً من الناحية العسكرية ولا أكثر قوة لو أن رجاله وضعوا ثقتهم في الرب الذي هو مانح الأشياء الطيبة، وشكل الداوية في ذلك اليوم الصف الأول، وجاء من بعدهم بنظام تام البريتانيون ورجال أنجو، ثم تلاهم الملك غي مع رجال بواتو، وكان في الصف الرابع النورمان والانكليز، الذي عهد اليهم بأمر العناية بالراية الملكية، وزحف بعدهم في الصف الأخير الاستبارية، وكان صفهم مؤلفاً من نخبة من المحاربين موزعين على شكل مجموعات، وساروا متراصين إلى حد لو أن تفاحة ألقيت عليهم كان من غير الممكن أن تصل إلى الأرض دون أن تلمس رجلاً أو فرساً، وامتد الجيش من حد الجيش الاسلامي إلى طرف البحر.

وكان بإمكانك أن ترى هناك أفضل أشكال التمييز وأنسبها: أعلام وشارات من مختلف النماذج، وجنود أشداء، نشطاء ممتلئين حيوية، ومناسبين تماماً للحرب، وكان هناك إيرل أوف ليستر، وهيوج دي غيرني Gurnay، ووليم دي بورز Borriz، وولكن دي فيرار Walkin De Ferrars، وروجر دي توني، وجيمس دي أفنس، وروبرت كونت أوف درول Druell، وأسقف بوفاي Beauvais، وأخوه وليم دي بار Barres، ووليم دي غارلاند Garlande، ودروغو دي ميرل Drogo De Mirle، مع كثير من أقربائه، وهنري كونت شامبين، وهو الذي تولى الحراسة على الجانب الأقرب إلى الجبل، مثابراً على النظر على الجناح ومراقباً له، وكان الجنود الرجالة والرماة ورماة الزنبورك والجروح في

الخارج، وكانت ساقه الجيش ملاصقة لدواب الحمولة والعربات التي حملت الميرة، والأشياء الأخرى، وسارت فيما بين الجيش والبحر لتتجنب الهجوم من العدو.

هكذا كانت تعبئة الجيش ونظامه عندما تقدم بشكل تدريجي لمنع الانقسام (وعزل الأسلحة عن بعضها) ذلك أن فقدان الترابط بين صفوف القتال، يؤثر عليها ويجعلها أضعف في المقاومة، وسار الملك رتشارد ودوق بيرغندي، مع حاشية منتقاة من المقاتلين صعوداً ونزولاً، ليراقبا عن قرب أوضاع وسلوك الترك وسمااتهم، ولاصلاح أي شيء في قواتهما إذا رأيا الفرصة المناسبة، لأنها احتاجا في تلك اللحظة إلى فائق الحذر.

وكان في حوالي الساعة التاسعة عندما ظهرت فرقة كبيرة من الترك فيها عشرة آلاف من الجنود الأشداء، وكان هؤلاء الجنود سائقين نحونا للانقضاض علينا بأقصى سرعة ممكنة، ويرمون نحونا بالجروح والنشاب بقدر ما استطاعوا من سرعة، وبالوقت نفسه مزجوا أصواتهم بصرخات مرعبة، وأعقب هؤلاء جنس شيطاني جهنمي من البشر، لونهم أسود، ويحملون مظهرًا خارجيًا مناسباً يعبر عن سوادهم، وكان معهم المسلمون الذين يعيشون في الصحراء، ويعرفون باسم البدو، وهم عرق متوحش من الرجال أشد سواداً من السخام، وهم ممن يقاتل راجلاً، ويحمل كل منهم قوساً وكنانة ودرقة مستديرة، وهم عرق خفيف وفعال، وقاتل هؤلاء الرجال جيشنا ببسالة وارهاب، وكان من الممكن أن يرى من بعدهم الكتائب الحسنة التنظيم للاتراك، بشارات مثبتة على رماحهم، وأعلامهم وراياتهم لها علامات متميزة وكان جيشهم مقسماً إلى فئات، والفئات إلى جماعات، ويبدو أن تعدادهم جاوز العشرين ألفاً.

وقاتلوا رجالنا بانقضاض لا يمكن مقاومته، وكانوا أسرع من النسور، وحين حملوا علينا منقضيين كانوا أمضى من البرق، وأثاروا أثناء تقدمهم

سحابة من الغبار، حتى أن السماء أظلمت، وتقدم أمامهم بعض الأمراء، حسب مقتضيات الواجب، مع بعض الأبواق والنفر، وكان مع بعضهم شبور، ومع آخرين مزامير، ودفوف، وكؤوس، وصنوج وآلات أخرى، كانت تنتج ضجيجاً مرعباً، وصخباً، إلى حد أن الأرض ارتجفت من الأصوات العالية والمتداخلة، حتى أن أصوات الرعد لا يمكن سماعها وسط صخب هذه الأصوات، وقد فعلوا هذا لإثارة أرواحهم ولتشجيعهم، فمع ازدياد العنف، تكون الأصوات قد ارتفعت، وهم يغدون أكثر جرأة في الانقضااض.

وهكذا هددنا الترك غير الأتقياء من على الجانبين: من جهة البحر، ومن جهة البر، ولم يكن من الممكن خلال مساحة قدرها ميلين من الأرض الاستيلاء على شبر منها أو رؤيته، بسبب المهاجمين الترك الذين غطوها كلها، ولكم ضغطوا علينا بعناد، واستمروا في حملاتهم الجريئة والعنيدة، ولهذا عانى رجالنا من خسائر كبيرة وقاسية في الخيول، التي قتلت بجروحهم ونشأهم!

ولكم كان مفيداً لنا في ذلك رماة الزنبورك منا وكذلك النبالة، الذين وقفوا إلى جانب صفوفنا المعرضة للفناء، وبدلوا غاية جهدهم لرد الترك الأشداء، واندفع العدو منقضياً علينا مثل السيل الجارف، مستهدفاً قتالنا، وهنا لم يستطع غالبية رماة الزنبورك الصمود أمام ثقل الهجوم المرعب، وحملتهم المخيفة، فرموا جانباً أسلحتهم، وخشية منهم أن يتعرضوا للموت بالاصابة بالرميات، هربوا والتجأوا بجمعهم الكبير خلف الصفوف الكثيفة للجيش، وفعلوا ذلك وهم يولولون خوفاً من الموت، وهو أمر لم يكونوا قادرين على مواجهته، أما المتبقي من رماة الزنبورك الذين منعهم خوفهم من العار، من الهزيمة، أو لأنهم كانوا يأملون بالحصول على تاج الأبدية، لذلك صمدوا، وتحلوا بشجاعة عظيمة وجرأة فوقفوا ولم يتزحزحوا وقت الصراع، وقاتلوا بدون كلل أو ملل وبشجاعة

وجهاً لوجه أمام الترك، وفقط تراجعوا خطوة خطوة، وبذلك ضمنوا تقهقر رفاقهم.

ولكم كان المأزق ضيقاً الذي كنا فيه ذلك اليوم! ولكم كان هائلاً اضطرابنا، عندما تأثر بعضنا بالخوف، ومامن واحد منا كان لديه الثقة أو الشجاعة، ولم يرغب في تلك الساعة في أنه أنهى حجه وعاد إلى وطنه، عوضاً عن الوقوف بقلب خافق مضطرب في معركة غير معروف مصيرها، وصدقاً أقول إن شعبنا الذي كان تعداد رجاله صغيراً، قد طوق من قبل حشود من المسلمين، ولذلك لم يمتلك رجاله الوسائل للنجاة، كما أنهم بدوا وهم لا يمتلكون ما يكفي من الشجاعة للصمود أمام عدو كبير كهذا، لابل الأمر كان أشد من هذا، لقد كانوا أشبه بقطيع شياه وقع كل واحد منهم بين فكي ذئب من الذئاب، وليس هناك سوى السماء من فوقهم، والعدو جميعه من حولهم.

أي جيش في الوجود تعرض قط لهجوم مثل هذه القوات الهائلة؟ لقد كان بإمكانك أن ترى عساكرنا وقد فقدوا مطاياهم، وهم بالتالي يزحفون على أقدامهم مثلهم في ذلك مثل الجنود الرجالة، أو يرمون بالجروح ويستخدمون الزنبورك، أو السهام من القسي، ضد العدو، أو يصدون حملاته بخير وسيلة وبقدر ما استطاعوا، وضغط الترك الذين كانوا بارعين بالرماية باستمرار عليهم، وصبت قسيهم زخات من النبال، وامتلاً الجو برشقات النشاب، وحجب ضوء الشمس بوساطة الكميات الهائلة للنشاب، مثلما تظلم في الشتاء بسقوط البرد والثلج.

وضغط الترك بجرأة هائلة كادت أن تؤدي إلى سحق الاستتارية، مما دفعهم إلى إرسال رسالة إلى الملك رتشارد بأنهم غير قادرين على الصمود أمام حملة العدو الشديدة، ما لم يسمح لفرسانهم بالتجمع والاقلاع بحملة تامة ضده، ومنعهم الملك من ذلك، ونصحهم بالبقاء على شكل كتلة متماسكة، وبناء عليه حافظوا على نظامهم وبقوا إلى جانب بعضهم

بعضاً، علماً بأنهم كانوا قادرين بكل صعوبة على التنفس بسبب الضغط الشديد، وتمكنوا بهذه الوسيلة من المحافظة على متابعة الزحف على طريقهم، مع أن الحرارة حدث أن كانت عالية جداً في ذلك اليوم، وقد تصبب المسيحيون عرقاً في تلك المحنة، والذي أمكنه أن يراهم في ذلك الممر الضيق والمساحة المغلقة صابرين وهم يعانون من حرارة ومشقة ذلك اليوم مع حملات العدو(الذي شجع بعضه بعضاً على تدمير المسيحيين) لا يمكن أن يساوره الشك في نفسه، أن محتتهم ووضعهم الحرج جداً، الذي ازداد سوءاً بحكم كونهم حشداً كبيراً، يومئذ بالسوء لنجاحنا.

وقرع العدو على ظهورهم وأرعد وأبرق بمثل المطارق، لذلك لم يجدوا مجالاً لاستخدام قسيهم، فقاتلوا يداً بيد بالسيوف، والحراب، والهرات، وترددت أصدااء ضربات الترك ورمياتهم على الدروع والسوابغ المعدنية، وأعادت الأصوات وكأنها قرعت على سندان.

وكان القتال ثقيلاً جداً وشديداً، على الصف الأقصى من صفوف الاسبتارية، وازداد الوضع سوءاً وشدة، مع ازدياد عدم قدرتهم على المقاومة، ومع ذلك تحركوا نحو الأمام بصبر تحت آلام جروحهم، ولم يصدر عنهم ولاصوت تجاه الضربات التي سقطت عليهم، ثم ضغطوا نحو قلب الجيش الذي كان أمامهم، وذلك بقصد الحصول على السلامة، ولتجنب قسوة العدو الذي ضايقهم من الخلف.

وكانت قوات جميع المسلمين قد احتشدت مع بعضها من دمشق ومن فارس، ومن البحر المتوسط إلى الشرق، ولم يترك السلطان بين جميع الأجناس على الأرض، ولا واحد من الرجال المشهورين أو الأشداء، ولا أمة اتسمت بالشجاعة، ولا واحد من الجنود البواسل، أبداً، لم يترك السلطان أحداً من هؤلاء إلا واستدعاه لعونه، إما بالتوسل، أو بالمال، أو بالسلطة، وذلك بهدف سحق الجنس المسيحي، ذلك أنه كان يأمل أنه سيتمكن أن

يزيل الصليبيين من على وجه الأرض، لكن آماله تبددت، لأن أعدادهم كانت كافية، بعون الرب، لتحقيق غايتهم، فلقد اجتمعت بالفعل زهرة نخبة شباب وجند المسيحية، واحتشدت ومن ثم توحدت في كتلة واحدة مثل سنابل قمح على سوقها، وجاءوا من مختلف مناطق الدنيا، ولو أنهم سحقوا تماماً ودمروا، ليس هناك من شك أنه لن يبقى هناك ولا واحد يتولى المقاومة.

النصر الرائع للمسيحيين

غطت الهواء سحابة من الغبار أثناء متابعة رجالنا لزحفهم، وعانوا من ضغط من الخلف وذلك بالإضافة إلى الحر الشديد، وكان العدو شرساً، وأنزل بنا ضربات موجعة شيطانية، ومع ذلك ثابر المسيحيون على البرهنة أنهم رجال صالحون، وحافظوا بروحهم التي لا تقهر وضمنوا استمرار التقدم، في حين استمر الترك في تهديدهم بدون توقف من الخلف، غير أن ضرباتهم وقعت عليهم بدون أذى بسبب حمايتهم بوساطة السوابغ والدروع المعدنية، وأدى هذا إلى تراخي الترك في اندفاعهم وحماسهم تجاه اخفاق محاولاتهم، وبدأوا يتدمرون همساً معبرين عن خيبة الأمل، وأخذوا يصرخون بغضب شديد بأن رجال شعبنا كانوا من حديد، وأنهم لن يتخاذلوا أو يتراجعوا أمام أية ضربة.

ثم إن عشرين ألفاً من الترك الأشداء انقضوا مندفعين مجدداً ضد رجالنا، محدثين الفوضى بين صفوفهم حيث اختلط الحابل بالنابل، وأرهقوهم بكل وسيلة ممكنة، وعندما باتوا على حافة الانهيار أمام ضرباتهم العنيفة، صاح الأخ غارنيير دي نيب Napes ، وكان من أفراد الاستتارية، بصوت مرتفع: «أيها القديس جورج الرائع، إلى متى ستركنا هكذا في وضعنا المضطرب؟ والمسيحية كلها الآن على حافة الدمار، لأنها تخشى الرد بضربة ضد هذا العرق الفاجر».

وعند هذا ذهب مقدم الاستتارية إلى الملك وقال له: «مولاي الملك، لقد ضغط العدو علينا ضغطاً شديداً وبعنف، ونحن في وضع نخشى فيه من العار السرمدي، طالما نحن غير متجراين على رد ضرباته، ها نحن الآن يفقد كل واحد منا حصانه تلوا الآخر، فكيف لنا أن نتحمل منهم الأكثر؟ ورد الملك عليه قائلاً: «أيها المقدم الجيد، إنه أنت الذي

ينبغي أن يصمد أمام هجماتهم: ما من واحد يمكنه أن يكون في لحظة واحدة في كل مكان».

وعند عودة المقدم، قام الترك مجدداً بحملة عنيفة عليهم من الخلف، ولم يكن بينهم أمير أو كونت إلا وتلطح بالعار، وقال كل واحد للآخر: « لماذا لانحمل عليهم بأشد ما نستطيع وبأسرعه؟ يالأسف، ويالأسف، سوف نستحق بشكل أبدي أن ندعى جناء، وهو أمر لم يحدث لنا من قبل، لأنه لم يسبق لمثل هذا العيب والعار أن نزل بجيش عظيم مثل هذا الجيش، حتى من قبل غير المؤمنين، وما لم ندافع عن أنفسنا في أن نحمل بالحال وبدون تأخير على العدو، فسوف نجني خزيا وفضيحة أبدية، وسيزداد هذا ويتعاضم كلما تأخرنا في القتال.

وفيما هم يعالجون هذه المسألة، ولدى توصلهم إلى القرار نفسه بشأن القيام بحملة ضد العدو، قام فارسان، لم يعودا يمتلكان الصبر والتأخير، بوضع كل شيء في فوضى واضطراب، وعلى كل حال تقرر باتفاق الجميع أن تقوم ستة أبواق بالصدح بأصواتها في ثلاثة أجزاء مختلفة من الجيش، ويكون ذلك بمثابة إشارة للاقلاع بالهجوم، وتفصيل ذلك: بوقان في المقدمة، واثنان في الساقة، واثنان في القلب، وذلك بهدف تمييز أصواتها عن أصوات أبواق المسلمين، ولتحديد المسافة لكل منها، ولو حدث ونقلت هذه الأوامر إلى الترك لأخفقت تماماً، ولقاد تسرع الفارسيين المتقدم ذكرهما إلى إحباط نجاح الأمور.

فلقد انطلقا بسرعة تامة وانقضا على الترك، وتمكن كل واحد منهما من القاء خصمه الذي واجهه بطعنة برمحه، وكان أحدهما مارشال الاسبتارية، وكان الآخر بلدوين دي كاريو Carreo ، الذي كان رجلاً جيداً وشجاعاً، ومرافقاً للملك رتشارد، الذي جلبه معه في حاشيته.

وعندما لاحظ المسيحيون الآخرون هذين الفارسيين وهما يندفعان نحو

الأمام، وسمعاها يدعوان بصوت واضح القديس جورج ليقدم لهما العون، هاجموا الترك وحملوا عليهم حملة رجل واحد، بكل ما ملكوه من قوة، ثم جاء دور الاستتارية، الذين عانوا طوال النهار من الضغط داخل صفوفهم ومن شدة الازدحام فيها، فقاموا باللحاق بهذين الجنديين وحملوا على العدو في صفوف متلاحقة، وبذلك غدت مقدمة الجيش ساقته، وأصبح الاستتارية الذين كانوا في الصفوف الأخيرة، أول من تولى الحملة، واندفع كونت شامبين أيضاً نحو الأمام مع جماعته المختارة، وجيمس دي أفنس مع أقربائه، وكذلك روبرت كونت درو Dreux، وأسقف بوفياس Beauvais، مع أخيه، وكذلك إيرل ليستر، الذي قام بحملة حادة من اليسار نحو البحر.

وتكتل الذين كانوا في الصف الأول من الساقة، وقاموا بحملة موحدة شديدة جداً، وجاء بعدهم رجال بواتو، ورجال أنجو، ورجال بريتاني، فقد ألقع هؤلاء باندفاع سريع نحو الأمام، ثم أعقبتهم بقية قطع الجيش: وأظهرت كل فرقة شجاعتها واقدامها بالالتحام مع الترك، فأطاحوا بهم حين طعنوهم برماحهم، ورموهم أرضاً، وغدت السماء داكنة بسبب الغبار الذي تصاعد في مواجهات ذلك المعترك، وكان الترك قد ترجلوا من على ظهور خيولهم، حتى يتمكنوا من التسديد بشكل أفضل نحو رجالنا بنشابهم وجروحهم، غير أنهم قتلوا على جميع الجوانب أثناء تلك الحملة، فقد بطحهم الفرسان وجاء بعدهم الجنود الرجالة فأجهزوا عليهم وقطعوا رؤوسهم.

ورأى الملك رتشارد، جيشه وهو يتحرك، وقد شرع بالعراك مع الأتراك، ولهذا طار مسرعاً على ظهر حصانه، بأقصى سرعة ممكنة إلى وسط الاستتارية الذين تولوا الحملة، وإليهم جلب المساعدة مع حاشيته، وخرق صفوف الرجالة الأتراك، الذين تملكتهم الدهشة تجاه ضرباته وضربات رجاله، فأفسحوا له الطريق من على اليمين ومن على

الشمال، وكان بإمكانك أن ترى وقتها أعداد كبيرة من الرجال وقد تمددوا على الأرض، وكذلك خيولاً كثيرة جداً بدون ركابها، وأيضاً الجرحى وهم ينتحبون ويندبون منيتهم القاسية، وكان هناك بعضهم وهو يلفظ آخر أنفاسه أثناء التمرغ بدمائهم المتخثرة، وكان هناك عدد كبير من الرجال بلا رؤوس، في الوقت الذي ديست فيه أجسادهم التي كانت بلا حياة من قبل أصدقائهم وأعدائهم.

ولكم اختلفت توقعات الذين تأملوا وسط الأرتال شكل مباشرة الحرب الرهيب عن قرب! هناك كان الملك — الملك الحاد، والملك غير الاعتيادي — وقد فلق أجساد الأتراك في كل اتجاه، ولم يكن هناك من يستطيع النجاة من قوة ذراعه، فحيثما التففت، شاهراً سيفه، شق لنفسه ممراً واسعاً، وهو يتقدم نحو الأمام، وكان لا يتوقف عن الضرب والطعن بسيفه (لذلك قطعهم مثل حصاد يقطع الزرع بمنجله)، وخاف البقية من مشهد الذين كانوا يموتون وارتعبوا، ولذلك أعطوه المزيد من المساحة، وتراجعوا من أمامه، ذلك أن أجساد القتلى من الترك التي تمددت على وجه الأرض غطت أكثر من نصف ميل.

وتبرهن أن الغبار الذي تصاعد من القتال كان ضاراً جداً بالنسبة لرجالنا، لأنه عندما أصبح رجالنا يشعرون بالتعب من جراء قتلهم لأعداد كبيرة، ولدى تراجعهم لتنفس بعض الهواء النقي، لم يكن وقتها بإمكانهم تمييز بعضهم بعضاً، وسددوا ضرباتهم بدون تمييز إلى اليمين وإلى الشمال، غير قادرين على التفريق ما بين العدو والصديق، فقدروا أن بعض رجالهم من رجال العدو، فقتلوهم بلا رحمة.

وهكذا ضغط المسيحيون بكل شدة على الأتراك، ولم يتقهقر هؤلاء أمامهم، وعلى ذلك ظلت نتيجة المعركة لوقت طويل متأرجحة غير محسومة ومشكوك فيها، وتابع الفريقان تبادل الضربات، فكل فريق منهما جاهد في سبيل نيل النصر، وفي تلك الأثناء تراجع بعضهم من على

الجانبين وقد غطتهم الجراح، في حين سقط آخرون على الأرض قتلى. ولكم كان كثيراً ما يمكن رؤيته من الرايات والأعلام والعذبات، والرنوك الملونة التي كانت ممزقة وملقاة على الأرض، وسيوف الفولاذ المجرب، ورماح الخيزران ذوات الأسنة الفولاذية، والقسي التركية والحرا ب ذوات الأسنة الحادة، والنشاب والنبال، التي غطت الأرض، كما كان هناك من الجروح ما يكفي لأن يكون حمولة عشرين عربة أو أكثر، وكانت هناك أجساد الأتراك الذين قتلوا ملقاة ومبعثرة بلا رؤوس، في حين حفظ آخرون شجاعتهم لبعض الوقت حتى ازداد رجالنا بقوتهم، وهنا تخفى بعضهم وأخفوا أنفسهم بين جثث القتلى، بينما تسلق بعضهم الآخر بعض الأشجار، فكشفوا، فكان أن رمىوا فسقطوا أرضاً وهم يثنون الماء ورعباً، وتخلّى بعضهم أيضاً عن خيولهم، وسلخوا بعض الممرات المنحدرة والفردية نحو شاطئ البحر، ثم ألغوا بأنفسهم نحو أمواج البحر، من فوق الشعاب العالية، التي بلغ ارتفاع بعضها خمسة أعمدة.

وتم صد بقية الأعداء بطريقة مذهشة حتى بات من غير الممكن رؤية أحد خلال مساحة ميلين غير الفارين، مع أنهم كانوا من قبل من الجراءة والصمود بمكان، وقد امتلأوا بالعزة والفخر، لكن بنعمة الرب وفضله تحول فخرهم إلى ذل، وتابعوا الفرار دون توقف، ذلك أنه عندما توقف رجالنا عن المطاردة، أضاف الخوف وحده أجنحة إلى أقدامهم.

وكان جيشنا حين هاجم الأتراك مؤلفاً من أقسام، كما أن النورمان والانكليز الذين كان معهوداً إليهم أمر العناية بالراية، قدموا ببطء وساروا نحو القوات التي كانت مشتبكة مع الأتراك، ولأنه كان من الصعب جداً تفريق صفوف الأعداء وتمزيق قواه، فقد وقفوا على مسافة قصيرة بعيدة هناك، لتكون نقطة تجمع للقوات.

ولدى انتهاء المذبحة، توقف رجالنا، وعندما رأى الفارون هذا، وكانوا

نحواً من عشرين ألفاً، استردوا شجاعتهم على الفور، وتسليحوا برماحهم وحراهم، وحملوا على الفور على الكتلة العظمى للذين كانوا يتراجعون، واستنقذوا من أيدي رجالنا بعض الذين أسروهم آخراً.

ومن غير الممكن وصف الحملة التي تعرض لها رجالنا آنئذ، لقد كانت حقاً مرعبة، لأن النشاب والجروح التي تساقطت عليهم وهم يتراجعون، حطمت رؤوس دروعهم وخرقت بقية أطراف فرساننا، ولذلك انحنوا، والتصقوا بقرابيس سروج خيولهم، غير أنهم مالبثوا أن استردوا شجاعتهم، واستأنفوا القتال، وكانوا عطاشى للانتقام (مثلهم مثل اللبوة عندما يخطف أشبالها)، وحملوا على الأعداء، وخرقوا صفوفهم وشتتوها.

ثم كان بإمكانك رؤية الخيول وقد زالت سروجها عن أماكنها، والأتراك الذين كانوا قد فروا للتو، وعادوا وحملوا على شعبنا بشدة متناهية وبغضب هائل، ولولا أن رجالنا حافظوا على التقدم ولم يتوقفوا أثناء الالتحام، بل بقيوا كتلة متحركة، لخبرت عنهم كل دفعة من الرمايات التي تلقوها.

وكان قائد الترك أميراً حمل اسم تقي الدين، وكان من أقرباء السلطان، وقد حمل راية ذات شكل مدهش ونموذج فريد: فقد حيكت عليها صورة زوج من السراويل القصيرة، وهو رمز كان معروفاً بشكل ممتاز بالنسبة لرجالنا، ولقد كان أقصى رجال أعدائنا وأشدّهم عنفاً والعدو الأعظم تصميماً للصليبيين، وكان تحت امرته سبعائة من نخبة الأتراك، ومن أعظم شجاعة من عساكر بيت صلاح الدين، وقد حمل أتباع كل واحد منهم علماً أصفر، مع عذبات ذوات ألوان مختلفة.

وحمل هؤلاء على رجالنا بسرعة قصوى، محدثين ضجة عظيمة، وكان مظهرهم مظهرًا مخيفاً، وقد انقضوا على رجالنا الذين كانوا على نية الانعطاف والعودة نحو الراية العظمى، وشرعوا في تمزيقهم وطعنهم

بشدة متناهية، حتى أن أكثر الناس ثباتاً بين مقدمينا تقلقلوا تحت ثقل ضرباتهم وضغطهم، ومع هذا ثابر رجالنا وتابعوا الاشتباك بهم، وكانوا مرغمين على صد القوة بالقوة، وتعاضم الالتحام وازداد كثافة، وتضاعفت الضربات، وغدت المعركة أكثر حدة، وكانت الجهة المهاجمة تسعى لسحق أعدائها، في حين سعى الآخرون — أي الفرنجة — لصد المهاجمين وردهم.

وبذل كلا الطرفين غاية جهودهما، ومع أن رجالنا كانوا أدنى عدداً من أعدائهم، لقد تمكنوا من أحداث فوضى عظيمة وسط الأعداء وأعطوا الانطباع أنهم حشد عظيم، لكنهم باتوا في مأزق شديد، وكانوا غير قادرين على العودة نحو الراية العظمى بسهولة، وبدأوا يتخاذلون، وشجاعتهم تتطاير، وقلة منهم تجرأت على تجديد الحملة على الأعداء، وصدقاً أقول: كان الترك أشداء جداً في حملتهم، وأرعبوا رجالنا إلى درجة عالية، رجالنا الذين أخذت دماؤهم تتدفق أمامهم وتسيل مثل جدول صغير، وذلك نتيجة لما تلقوه من ضربات.

وعندما رآهم وليم دي باري — وكان فارساً واسع الشهرة — ناكسين على أعقابهم، خرق صفوفهم، ومن هناك حمل على الأتراك بصحبة رجاله، وكانت حملته شديدة إلى حد أن بعضهم سقط بحد السيف، في حين أنقذ الآخرون أنفسهم بوساطة الفرار السريع.

ثم انعطف الملك باتجاه الجبال، وكان على ظهر كميت قبرصي لا نظير له، وشتت الذين واجههم من على جميع الجوانب، لأن العدو هرب من سيفه، وأفسح أمامه المجال، وذلك في وقت تدحرجت فيه الخوذ على الأرض أمامه وتصاعد منها الشر من الضربات، ولقد كانت حملته عنيفة جداً، وكانت ضرباته كثيرة ومميتة في ذلك اليوم أثناء التحامه مع الترك وصراعه ضدهم، حتى أن العدو تشتت في وقت قصير، وذهب في جميع الاتجاهات، ومن ثم تسنى لجيشنا متابعة سيره وسمح له بذلك، وهكذا

بعد ما عانى رجالنا ما عانوه، عادوا أخيراً إلى الراية العظمى، وتابعوا زحفهم حتى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج الأسوار.

وفيما كانوا منشغلين بنصب الخيام، حملت كتلة كبيرة من الأتراك على أقصى صفوف ساقه جيشنا، وما أن سمع الملك رتشارد أصوات المهاجمين حتى تولى تشجيع رجاله وحثهم على القتال، وقام على الفور بالاندفاع بأقصى سرعة نحو الساقة ومعه فقط خمسة عشر واحداً من أتباعه، وانقض على الترك وهو يصرخ بصوت مرتفع وينادي: «أعنا أيها الرب، عونك أيها الضريح المقدس»!، وكرر هذا النداء ثانية، ثم أعاده مرة ثالثة، وعندما سمع رجالنا أصواته، بادروا مسرعين للحاق به، وقاتلوا الترك، وهزموهم، وأجبروهم على الفرار، وطاردوهم حتى أرسوف (التي قدموا بالبداية منها) ومزقوهم وأخضعوهم.

ثم عاد الملك من مطاردة الفارين وقتلهم، إلى معسكره، وفي تلك الليلة نام رجالنا بهدوء بعدما أنهكهم عناء ذلك اليوم.

وعاد كل من كان جشعاً لنيل الربح، ورغب في جمع الأسلاب إلى أرض المعركة، وحمل نفسه بما أشبع رغبات قلبه، وذكر الذين عادوا من هناك بأنهم أحصوا وجود اثنين وثلاثين مقدماً تركيا قد قتلوا في ذلك اليوم، وقدروا ذلك من خلال سلاحهم الرائع ومظهر ملابسهم الثمينة، وبناء عليه افترضوا أنهم كانوا من ذوي الأهمية الكبيرة والنفوذ العظيم والسلطة، وبحث الترك أيضاً عنهم وحملوهم معهم، وكأنهم من أعظم الناس مكانة، وحمل الترك مع هؤلاء جثث سبعة آلاف اختلطوا فيها بينهم، وكان أصحابها من ذوي المراتب التالية، وذلك بالاضافة إلى الجرحى الذين ساروا في مجموعات بطيئة خلف القوات، وعندما فقدوا قواهم سقطوا في أرجاء أرض المعركة وماتوا، وبفضل من الرب لم نفقد العشر من قواتنا، وأقل من واحد على مائة مما فقدته الجيش التركي.

ولقد بكينا كثيرا وندبنا خسارة جيمس دي أفنس، الذي قهره الأتراك بفضل تفوقهم العددي، وقد رمي من على ظهر حصانه بشكل مأساوي وهو يقاتل بشجاعة، وتجمع الترك من حوله، وقتلوه بعد بذلهم لجهد عظيم، لكنه قتل قبل موته خمسة عشر رجلاً من الترك، وذلك تبعاً لرواية الذين أرسلوا لجلب جثته إلى المعسكر، فقد وجدوا هذا العدد الكبير من الترك وقد ألقوا من حوله، ووجدوا هناك بين الموتى إلى جانبه ثلاثة من أقربائه، ممن لم يقدم لهم بعض رجالنا المساعدة التي توجبت عليهم، بل (من المعيب القول): تخلوا عنهم وهجروهم أثناء صراعهم ضد حملة الأتراك، ولهذا السبب استحق كونت أوف درو Dreux مع آخرين كانوا حاضرين، العار والازدراء.

وامتلاً السلطان غضباً عندما سمع أن قواته المنتقاة، التي وثق بها ثقة كبيرة وعليها اعتمد، قد هزمت على هذه الصورة من قبل الصليبيين، وانفعل انفعالاً كبيراً، واستدعى إليه أمراءه وخاطبهم بقوله: « هل هذه هي أفاعيل عساكري الشجعان، الذين كانوا يوماً من الأيام عظمي الفخار، والذين أثقلتهم بالعطايا والهبات؟ ألا ترون أن الفرنجة يعيشون فساداً بالديار حسبما يرغبون، لأنه ليس هناك من يتصدى لهم؟!، وخفض الأمراء رؤوسهم وطأطأوها نحو الأرض لدى سماعهم كلماته هذه، غير أن واحداً منهم رد عليه قائلاً: « مولاي السلطان المبجل، عفواً منك ومعدرة إن هذه التهمة غير عادلة، لأننا قاتلناهم بكل قوانا، وبذلنا غاية جهدنا لتدميرهم، غير أنهم قد ارتدوا دروعاً وسوابغ لا يمكن خرقها بأي سلاح، ولهذا أخفقت جميع ضرباتنا، لأنها كأنها سقطت على صخرة من صوان، زد على هذا بين صفوفهم رجل تفوق على كل رجل رأيناه في حياتنا، وهم يدعونه الملك رتشارد (رك Ric)، فهذا الملك كما يبدو قد ولد ليتأمر على جميع الأرض، فما الذي كان يمكننا فعله ضد مثل هذا العدو المرعب؟ »

واستدعى صلاح الدين وهو في حالة غضب قصوى وانزعاج، إليه أخاه سيف الدين، وخاطبه قائلاً: « إن رغبتى هي أن تحاول معرفة المدى الذي يمكننا الاعتماد به على رجالنا في هذه الضائقة، وكم من الثقة يمكن أن نضعها فيهم: امض بدون تأخير ودمر أسوار عسقلان وغزة، لكن أبق دير البلح في عهدة رجالنا لضمان سلامة الذين يعبرون ذلك الطريق، ودمر أيضاً: النطرون وتل الصافية، ويافا، والجيب الفوقاني، والجيب التحتاني، واللد، والرملة، وكوكب، والشوبك، وقاقون، وقلنوسة، والقيمون، وجميع الحصون الجبلية، ولا تبق مدينة ولا قلعة ولا حصناً، باستثناء القدس، والكرك » .

وأطاع سيف الدين هذه الأوامر، وخرب جميع هذه القلاع والحصون بدون تأخير.

كيف كاد الملك رتشارد أن يقع أسيراً بيد الترك

وفي يوم الاثنين، وهو اليوم التالي لعيد ميلاد العذراء المباركة، واليوم الثالث الذي جاء بعد المعركة، زحف الملك رتشارد مع جيشه إلى أرسوف، ووصل إلى النهر دونما معارضة، وعندما وصل الصليبيون، كان الترك واقفين في كمين قريب، لذلك رموا معظم بالحراش والجروح والنشاب، غير أنهم أخفقوا في تحقيق النجاح، ولهذا تراجعوا، وعسكر رجالنا تلك الليلة عند أرسوف.

وفي الصباح، لم يكن من السهل على قواتنا المحافظة على تعبئتها، ومع ذلك زحفت مع ضباط رسميين إلى يافا، التي وجدوها بحالة دمار، لهذا تعذر على الجيش أن يجد مكان إقامة فيها، ولهذا عسكر رجال الجيش في بستان للزيتون على الجانب اليساري من البلدة، وكان ذلك بعد مضي ثلاثة أسابيع على مغادرة عكا.

ومكث الجيش خارج أسوار يافا، وجدد نشاطه وتمتع بوفرة الفواكه هناك من تين، وعنب، ورمان، وحمضيات، وهو ما كانت المنطقة هناك تنتجه، وسافرت سفن الاسطول العائد للملك رتشارد مع مراكب أخرى كانت قد رافقت الجيش، فيما بين يافا وعكا. وجلبت لنا ما كنا نحتاجه، مما أغضب الترك كثيراً، ذلك أنهم لم يتمكنوا من منعها.

وكان صلاح الدين قد دمر بالوقت نفسه أسوار عسقلان، وجلب هذه المعلومات واحد من الجنود العاديين، الذي نجا أثناء تنفيذ العمل، لكن صعب على شعبنا أن يصدق أن هذا كله قد صنعه صلاح الدين وهو في حالة يأس، وبغية التأكد من حقيقة الأمر، بعث الملك رتشارد، بناء على نصيحة نبلائه، غيوفري دي لوزغان، ووليم دي ستاغنو مع آخرين في سفينة حربية قوية، للإبحار إلى عسقلان، ومن ثم العودة جالبيين معهم

بياناً عن الأوضاع وعن مجريات الأمور، ونفذوا المهمة بإخلاص، وذكروا أن ما سمعوه كان صحيحاً.

وبناء عليه تناقش الملك رتشارد مع نبلائه وتباحث حول الذي عليهم القيام به: هل يزحفون إلى عسقلان لإنقاذها، أم يزحفون نحو القدس، وعرضت آراء كثيرة ومواقف عديدة، وعرض الملك موقفه بحضور دوق بيرغندي وآخرين بهذه الكلمات حيث قال: «يبدو بالنسبة لي أن خلافاتنا بالرأي، لا يمكن أن تكون بلا فائدة فقط، بل خطيرة بالنسبة للجيش، فالترك الذين يتولون تخريب عسقلان، لا يتجرأون على مقابلتنا على ساحة المعركة، وأعتقد أن علينا بذل الجهد لإنقاذ عسقلان، في سبيل حماية الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق».

وعارض الفرنسيون بعنف هذا الموقف، وأوصوا بوجوب استرداد يافا، لأنها تؤمن طريقاً أقصر بالنسبة للحجاج وأسهل للذهاب إلى القدس، وهللت الحشود وأيدت الموقف الفرنسي، وهو رأي أحق، صدر عن عناد قاتل لهؤلاء الناس الكسالى، الذين أثروا الراحة المباشرة والعمل الأسهل، وتجنبوا الجهد والانفاق، وهذا ما سوف يندمون عليه، لأنهم لو أنقذوا عسقلان آنذاك من الترك، لكان من الممكن سريعاً تنقية الأرض كلها منهم، لكن صراخ الناس هو الذي سيطر، وجرى حشد بعض الناس، حيث شرعوا على الفور في إعادة بناء أبراج يافا، وتعزيل الخندق.

وبقي الجيش هناك مدة طويلة يتمتع بالراحة والرفاه، وازدادت ذنوب رجاله وتراكت عليهم يومياً، فقد جاءت النساء من عكا إليهم، لإثارة غرائزهم، ولمضاعفة آثامهم، وفسد الناس جميعاً، وانطفأت حرارة الحماسة نحو الحج، وأهملت جميع أعمال العبادة والتقوى.

ومع نهاية أيلول، عندما اكتمل جزء من إعادة بناء يافا، تحرك الجيش من ضواحيها وعسكر أمام حصن حبقوق، وكان جيشاً صغيراً جداً، لأن

من المؤسف أن عدداً كبيراً منه قد غادروا وعادوا إلى عكا، حيث أمضوا أوقاتهم في الحانات، وعندما شاهد الملك رتشارد تقاعسهم وانغماسهم في الآثام، أرسل الملك غي لإعادتهم إلى الجيش في يافا، غير أن عدداً قليلاً جداً منهم عاد، مما أرغم الملك رتشارد نفسه على الإبحار إلى عكا، حيث حثهم على تذكر واجباتهم كحجاج، وأقنع بهذه الوسيلة عدداً كبيراً منهم على العودة إلى يافا، كما أنه اصطحب معه الملكتين، ونسائهما.

ومكثوا الآن مدة سبعة أسابيع في يافا للاحتشاد، ولتجهيز جيش وإعداداته، وهكذا عندما التأم جمعهم شكلوا كتلة أكبر عدداً وأكثر كفاية من ذي قبل.

وخرج الملك رتشارد في هذه الآونة للصيد، ومعه مرافقة صغيرة، وكان عازماً أنه إذا ما رأى مجموعة صغيرة من الترك أن ينقض عليها، ولدى شعوره بالتعب الشديد من الركوب ترجل ونام، وهنا انقضت عليه مجموعة من الترك بشكل مفاجيء بغية أسره، وأفاق الملك لدى سماعه الأصوات، وما كاد يمتطي صهوة مهرة الكميت القبرصي، ويركب رفاقه مطاياهم، حتى وصل الترك، غير أن الملك امتشق سيفه، واندفع نحوهم، فتظاهروا بالفرار، وجعلوه يسعى خلفهم إلى مكان كمنت فيه مجموعة أخرى من الترك، وخرج هؤلاء مسرعين من الكمين وطوقوا الملك لأخذه أسيراً.

ودافع الملك عن نفسه بشجاعة، وتراجع الأعداء، علماً أنه كان من الممكن وقوعه بالأسر لو أن الترك عرفوا من كان هو، ففي أثناء العراك صرخ واحد من رفاق الملك واسمه وليم دي بريتل Pratelles بلغة المسلمين، يعرفهم أنه هو «الملك»، وصدق الترك ما قاله، فساقوه أسيراً إلى جيشهم.

وقتل في هذه المناوشة رنيير دي ماروم، وكان فارساً شجاعاً، غير أنه

كان تقريباً أعزل من السلاح، وكذلك ابن أخيه وولتر مع ألان، ولوقا دي ستيل، ولدى وصول أخبار هذه الواقعة إلى جيشنا استنفروا وحمل السلاح، وجاء مسرعاً جداً ليجد الملك، وعندما رآته عناصر الجيش عائدات، والتقى بهم، قاموا معاً بمطاردة الترك، غير أنهم لم يستطيعوا اللحاق بالفارين، وتم حفظ الملك رتشارد بيد الرب لأشياء أعظم، وقد عاد إلى المعسكر وسط بهجة عامة من قبل عساكره، الذين حمدوا الرب وشكروه على حفظه له، لكنهم حزنوا من أجل وليم دي بريتل، الذي أنقذ باخلاص الملك مقابل حريته الشخصية.

ووجه بعض رفاق الملك النقد الآن إليه، وحذروه من التجول خارج المعسكر لوحده، ومن تعريض نفسه للأسر بوساطة كهائن الترك، الذين كانوا متشوقين لأسره، وأن عليه أن يصطحب معه في جميع المناسبات بعض الجنود الشجعان، وألا يعتمد فقط على قوته للتصدي لمثل هذه الأعداد، لكن الملك لم يأخذ بنصائح أحسن رفاقه ولم يتمسك بها، فقد كانت طبيعة تدفعه للتحرر، وعدم التقيد، فهو قد كان في جميع الحملات الأولى حملة والأخير تراجعاً، ولم يخذل قط سواء من قبل شجاعته، أو من العون الرباني، في العودة ومعه عدد من الأسرى، أو إذا قاوموا، جعلهم طعماً لسيفه.

ووضح أن العساكر قد ارتاحت الآن، واستردت شجاعته، فصدرت الأوامر الملكية إليها لإعادة بناء قلعة الجيب الفوقاني، التي كانت ضرورية لسلامة الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق، وبناء عليه ترك الملك حامية في يافا، مع أوامر في أن لا يغادر أحد منهم المدينة وذلك باستثناء التجار الذين يتولون جلب الميرة، وعهد بأمر المدينة إلى أسقف افرو Evreux، مع كونت أوف شالون Chalons ، وهيوج ريبول Ri-bole وآخرين .

وكان اليوم التالي هو ليلة عيد جميع القديسين، وبعد ما زحف الملك

لمسافة قصيرة عسكر فيما بين الجيب الفوقاني والجيب التحتاني، وكان الجيش التركي آنذاك في الرملة التي اعتاد أن يقلع منها بحملات ضدنا.

وفي يوم الأربعاء، وهو يوم عيد جميع القديسين، كان الملك رتشارد راكباً في سهول الرملة، ورأى صدفة بعض الكشافة الترك، فهاجمهم بشجاعة، وألحق بهم الهزيمة، وذلك بعد ما قتل بعضهم، وقطع رأس واحداً من أعيان أمراء الترك، وانهزم الباقون.

ومكث الجيش خمسة عشر يوماً حيث كان، وأعاد الداوية بناء حصن الجيب الفوقاني، غير أنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه حملات الأتراك، الذين حملوا عليهم في أحد الأيام بحشد كبير من الرجالة وألف من الخيالة، لكن الملك امتطى حصانه بسرعة، ونهض الجيش كله، وهرب الترك بعدما فقدوا عشرين رجلاً قتلوا، وستة عشر أسروا، وباءت بالاختفاق إثر هذا جميع محاولات الملك لأسر البقية وقتلهم، وتابع مطاردته حتى بات على مرأى من الرملة، ثم قاد قواته عائداً إلى المعسكر.

وفي اليوم السادس بعد عيد جميع القديسين خرج جميع السادة ورجال السلاح للبحث عن الطعام والأعلاف لخيولهم ولحيوانات التحميل، وتولى الداوية حراسة السادة حينما تفرقوا بحثاً عن أعشاب غضة، وهو واجب كلفهم أحياناً غالياً إذا ما تصرفوا بدون حذر شديد، وفيما الداوية منشغلون بهذا الواجب، اندفع نحوهم حوالي الأربعة آلاف من الترك في أربع مجموعات، وبدون تأخير كان الداوية مطوقين من قبل حشود متزايدة من الترك.

وترجل الداوية وسند أحدهم ظهره إلى الآخر، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وفي لحظة واحدة قتل ثلاثة منهم، وأعقب ذلك صراع حاد، لأن الترك حملوا عليهم بشدة متناهية وبحدة وحاولوا أخذهم أسرى، وعندما حملت أخبار ما يحدث إلى المعسكر، بادر أندرو دي شافني - Cha-

vigny مسرعاً نحوهم لانقاذهم ومعه خمسة عشر فارساً، وتمكن من انقاذ الداوية من وضعهم الخطر، غير أن الترك كانوا يتسلمون النجيدات باستمرار، وقاموا أحياناً بالهجوم وأحياناً بالتراجع، واستمرت المعركة مستعرة حتى سمع الملك رتشارد — الذي كان مشغولاً في إعادة بناء الجيب التحتاني — بالصخب، فبعث بكونت دي سينت بول وبإيرل ليستر لمساعدة الداوية، وذهب معهم وليم دي كين Cagen، وأوثودي برانسنغ Pransinges، وسمعت الجماعة بالحال صرخات الرجال المسلحين للنجدة، ثم حث الملك الكونتين ليتجهزا، وليحملا أسلحتهما وليلحقا بهم بأقصى سرعة ممكنة.

وبينما كان الكونتان مسرعان نحو الأمام ظهر أمامهما أربعة آلاف من الترك بشكل مفاجئ، وكانوا في أربع مجموعات، وجاء ظهورهم من واحد من الأنهار المجاورة، وهاجم نصفهم الداوية في حين حمل البقية على الكونتين، وهنا قدم كونت سينت بول اقتراحاً لم يكن مجدياً، إلى إيرل ليستر، وكان اقتراحه أن يتولى واحد منهم الاشتباك مع العدو، في حين يقف الآخر ليقدم العون عندما يتضح أن ذلك بات ضرورياً، واختار إيرل ليستر أن يتولى قتال العدو، ولم يرغب بالوقوف دون أن يعمل شيئاً، وهجم على الفور على الأعداء واستنقذ من أيديهم اثنين من رجالنا كانوا قد أسروهم، وأضاف بهذا الانجاز الذي حققه في ذلك اليوم كثيراً إلى سمعته العالية من قبل.

وكان الاشتباك يدور بشكل عنيف جداً، وذلك عندما وصل الملك، وكانت حاشيته صغيرة جداً، فقال له بعض رجاله: « لانرى يامولانا من الحكمة أو من الممكن، بعددنا الصغير، أن نقاوم هذا الحشد الهائل، كي أننا لن نستطيع انقاذ رجالنا الذين يقاتلون الأتراك، ومن الأفضل أن ندعهم يموتون على أن نعرض شخصك وجميع المسيحيين لخطر مؤكد وذلك في الوقت الذي نمتلك فيه القدرة على النجاة».

وتغير لون الملك لسخطه تجاه سماع هذه الكلمات وقال: «ماذا، إذا ما أهملت أنا تقديم العون للرجال الذين أنا بعثت بهم أمامي، مع وعد بالحقاق بهم، إنني لن أستحق ثانية أن أدعى ملكاً، ولم يزد على هذا بل غمز حصانه، واندفع نحو وسط الأتراك، فقهرهم من على جانبيه، وكان شاهراً سيفه يضرب به حيث شق طريقه نحو الأمام ونحو الخلف وسط الصفوف الكثيفة، فقتل وأصاب بشكل قاتل كل واحد اقترب منه، وكان فيمن قتلهم، واحداً من الأمراء الأتراك، رماه حظه وقدره على طريقه.

وصار العدو إما طعمة للسيف، أو منشغلاً بالفرار، وعاد رجالنا مع عدد من الأسرى إلى المعسكر، وتم الحصول على هذا النصر دون نيل أية مساعدة من الفرنسيين، وتخلّى في ذلك اليوم نفسه ثلاثة من الأتراك — ربما لخوفهم من الموت — عن أوهامهم، واعتنقوا المسيحية، وخضعوا للملك رتشارد.

وكان الآن قد تمت إعادة بناء جزء من القلعتين، وإدراكاً من الملك رتشارد أن قواته لا تكره الأتراك فقط، بل إنها لم تعد تخشاهم كما كانت من قبل، ذلك أن هذه القوات تمكنت دوماً — بعون الرب — من هزيمتهم، ولهذا قام الآن بإرسال سفارة متميزة إلى صلاح الدين وإلى أخيه سيف الدين، يطلب استسلام مملكة سورية، مع كل ما هو عائد إليها، حسبما كانت أيام الملك المجذوم، وطالب أيضاً بتسليم الجزية من مصر، مثلما كان الملوك — من أسلافه — يفعلون مع جميع الامتيازات والحقوق التي توفرت في يوم من الأيام وعادت إلى مملكة القدس.

وكشف السفراء عن محتوى رسالتهم أمام صلاح الدين، الذي لم يستجب أبداً للمطالب، ورد عليهم قائلاً: «ادعى ملككم مطالب غير معقولة، ونحن لانستطيع، رعاية لاياننا واسلامنا أن نوافق عليها، لكنني سوف أمنح ملككم من خلال أخي سيف الدين جميع أراضي

القدس من الأردن إلى البحر، بدون جزية أو معيق، على شرط أن لا يعاد بناء مدينة عسقلان لا من قبل المسيحيين ولا المسلمين».

وعندما جاء سيف الدين حاملاً هذه الرسالة إلى الملك، كان الملك رتشارد قد فرغ لتوه من الفصد، لذلك لم يكن قادراً على التباحث معه في ذلك اليوم، لكن ستيفن دي تورنهام، أكرمه — بناء على أمر الملك — بكل أنواع الطيبات حيث وضعها أمامه على المائدة، واستضافه ولطفه في الوادي فيما بين قلعتي الداوية ويهوشفاط، وبعث سيف الدين في اليوم التالي بهدية مكونة من سبعة جمال، وخيمة ثمينة، وجاء للمثول بحضرة الملك، حيث قدم رسالة صلاح الدين، ورأى رتشارد أن الفوضى وعدم معرفة نتائج الحرب والتأكد منها، تحتاج إلى الصبر والانتظار الطويل، ولذلك الأفضل الاتفاق حول المستقبل، لكن، من المؤسف أظهر قليلاً جداً من الحكمة والإدراك، ولم يكتشف الخداع الذي تعرض له حتى يمر الوقت فتكون المدن والقلاع والحصون في تلك المنطقة قد دمرت كلها.

وكان سيف الدين قد خدع ببراعة الملك الساذج جداً، إلى حد تكوين انطباع أن اتفاقاً قد عقد بتبادل المصالح الأسرية والتفاهم المشترك، ذلك أن الملك تسلم يومياً هدايا سيف الدين، وكانت الرسائل تمر يومياً مع الهدايا للملك، الأمر الذي أزعج أصدقاءه وأغضبهم لإقامته عقداً للصداقة مع المسلمين، لكن سيف الدين أصر أن ما يريد هو إقامة سلام بين الملك وبين صلاح الدين، واعتقد الملك أنه كان متبنياً سياسة حكيمة، يمكن بوساطتها توسيع حدود الصليبيين، ومن ثم إبرام سلام معتمد وموثق، وخاصة أنه منذ أن غادر الملك الفرنسي، بات يخشى من عمل خياني من قبله لأنه وجد أن صداقته دائماً جوفاء وخادعة، وعلى كل حال عندما اكتشف الملك أن وعود سيف الدين كانت مجرد كلمات، ولا يمكن منها الوصول إلى أية محصلة، لاسيما فيما

يتعلق بحصن الشوبك ، أوقف على الفور المناقشات، والذي فهم من الشروط أن الملك طالب بهدم هذا الحصن، لكن الترك رفضوا الاستجابة لهذا المطلب.

وعندما بات خبر اخفاق المعاهدة معروفاً، ظهر العدو من جديد، وبات يرى على أجنحة قواتنا، ونزل الملك رتشارد من جديد إلى ساحة المعترك للتصدي له، وأزاح بهذه الوسيلة التهم المتقدمة التي وجهت إليه وأثيرت ضده، وجلب معه في كل يوم عدداً من رؤوس الأتراك، ليبرهن أن غيرته لم تخف ولم تضعف تجاه القضية الصليبية.

حول المعاناة المزعجة من الأمطار ومن الأعداء

عندما اكتمل ترميم الحصنين وشحنا بالجند، حرك رتشارد جيشه نحو الرملة، الأمر الذي جعل صلاح الدين يأمر بإزالة أسوارها، لأنه لم يتجرأ على اللقاء مع الملك في ساحة القتال، ثم انسحب مع قواته نحو دير البلح، لأنه وثق واثقاً عظيماً بالمناطق الجبلية.

وعندها عسكرت قواتنا فيما بين اللد والرملة، وهناك مكثنا لمدة اثنين وعشرين يوماً ننتظر النجدات والمؤن، ومالبثت الهجمات العنيفة من العدو، والأمطار الغزيرة أن أرغمت ملك القدس وشعبنا على الانتقال إلى هذه الأماكن، بينما ذهب كونت أوف سينت بول إلى قلعة بيت (نوبة)، وتوقفنا بالرملة لمدة سبعة أسابيع، لكن في وضع صعب، غير أن البداية الصعبة تحسنت فيما بعد وتغيرت الأوضاع نحو الأفضل لبعض الوقت فقط، لأن الترك ماكانوا ليسمحوا لنا ولا بقليل من الاستقرار، بل هاجمونا باستمرار بجروحهم ونشابهم.

وفي أمسية عيد القديس توما، زحف الملك رتشارد مع حاشية صغيرة نحو قلعة تدعى تل الصافية، للقيام بمغامرة ما ضد الترك، غير أنه شعر بوجود غلط ما (بالهام كما يعتقد من السماء) فعاد إلى المعسكر، وتنامى إليه في الساعة نفسها أن صلاح الدين بعث قبل قليل قوة مكونة من ثلاثمائة من نخبة قواته إلى تل الصافية، أي إلى حيث كان رتشارد متوجهاً، وفي اليوم نفسه ذهب الملك غي إلى عكا، إلى حيث تبعه في اليوم التالي ستيفن دي تورنهام.

وفي منتصف ليلة عيد الأبرياء المقدسين (٢٨ — كانون الأول) غادر الداوية والاستبارية المعسكر، وعادوا في الصباح مع مائتي ثور، ساقوها من المنطقة الجبلية قرب القدس.

وفي الوقت نفسه بات معروفاً إلى صلاح الدين أن رجالنا كانوا يستعدون لمهاجمة القدس، وأنهم باتوا على مسافة ميلين منه، ولم ير صلاح الدين مأمونا أن يتحارب مع الصليبيين، لذلك أصدر أوامره بتخريب دير البلح، خاصة أسوارها وأبراجها، وتراجع هو نفسه إلى القدس، وغادر الترك السهول وانسحبوا نحو الجبال.

ونتيجة لهذا صدر الأمر إلى رجالنا بصوت المنادي بالتحرك نحو سفوح الجبال، وعندما اكتملت جميع الاستعدادات، زحفوا نحو قلعة اسمها بيت نوبة، ثم بدأت الأمطار وكذلك البرد يتساقطون عليهم، فقتلت كثيراً من حيوانات التحميل، وكانت العاصفة شديدة وعنيفة إلى حد أنها دمرت أوتاد الخيم، وأغرقت الخيول، وأتلفت البقسماط ولحم الخنزير، وصدأت الدروع والسوابغ إلى حد كبير حتى أنها احتاجت إلى عمل عظيم لإعادتها إلى لمعانها السالف، وتلفت ملابسهم من البلل، وعانى الرجال أنفسهم من شدة البرد والمناخ القاسي الذي لم يعتادوا عليه.

وفي ظل هذه المعاناة، وجدوا أن مخرجهم الوحيد كامن في غيرتهم وحماسهم لخدمة الرب، ولهذا رغبوا في إنهاء حجتهم، ففي ذلك راحتهم، ولتحقيق هذا الهدف والوصول إلى هذه الغاية، قدم كل واحد حصته من المؤن من أجل الحصار، واجتمعوا جميعاً مسرورين واستعدوا لكل شيء، حتى الذين كانوا مرضى في الفراش في يافا تم حملهم على المحفلات، فقد كانت رغبتهم عارمة جداً لرؤية القدس، وتأثر عدد كبير جداً منهم بالرغبة لرؤية ضريح ربنا، وكان هذا أملهم الوحيد في ظل المعاناة الهائلة، لكن الترك لم يقيموا وزناً أو تقديراً للذين كانوا يرافقون المرضى، ووقفوا في مكانهم ينتظرونهم وقتلوهم معاً: الحامل والمحمول، فقد عدّوهم كلهم ونظروا إليهم على أنهم أعداء، ومن المؤكد أن هؤلاء سوف يعدّون شهداء، وهنا تتوفر الراحة والمواساة بالنسبة لهم، وصحيح أن الترك قتلوهم بنوايا شريرة، ومع ذلك لقد عانوا فقط للحظة واحدة،

ونالوا جزاء عبادة مديدة وخدمة طويلة.

وسر الجيش الآن سروراً عظيماً، اعتقاداً منه أنه سوف يلقي بالحال نظرة على ضريح مولانا، وبدأ الجميع يعملون على تلميع دروعهم وخوذهم وسيوفهم، حتى لا تبقى ولا نقطة تفسد لمعانها، وباختصار كان الجميع متشوقاً لخوض غمار هذه المغامرة، وتبجحوا أن جميع قوى الاسلام أو الحملات المعادية للمسلمين لن تمنعهم من تنفيذ تعهدهم الصعب.

غير أن العقلاء بينهم لم يوافقوا على هذه الآراء ولم يرتضوها، وأقنع الداوية والاسبتارية والبلديون (البوليانز) الملك رتشارد بالاقلاع عن الزحف حالياً نحو القدس، ذلك أنهم امتلكوا بصيرة أمضى حول أوضاع البلاد ومستقبلها، وكانوا يخشون أن يتعرضوا وهم يحاصرون صلاح الدين لهجوم الجيش التركي الذي كان بين الجبال، فهذا الجيش قد يفاجئ رجالنا، وبذلك يصبحون بين قوتين: تقاتلهم شحنة القدس من الداخل والجيش التركي من الخارج، لابل أكثر من هذا حتى وإن استولوا على القدس، سيكون من الضروري شحنها بقوة من أشجع العساكر، وهذا سيكون من الصعب جداً تحقيقه، لأن الناس أصابهم الانهاك، وكانوا يعانون من قلة الميرة والعتاد، وكلهم متشوق لاكمال حجه والعودة إلى وطنه، ولهذا الأسباب نصحوا بتأجيل الحصار إلى وقت آخر، وإبقاء الجيش مجتمعاً، فهذا يتحقق طالما أن نذر عناصره لم يتم الوفاء بها، لأنه ما أن يقوموا بالوفاء بتعهداتهم حتى ينفرط عقد الجيش، لكن نصيحة الداوية لم يصغ إليها أيضاً.

وكانت الآن بداية السنة (سنة ١١٩٢) وكانت سنة كبيسة، وفي اليوم الثالث التي جاء بعد ختان ربنا، كان الجيش على نية التحرك، فهاجمه حشد من الترك كانوا قد أقاموا كمائن في الليلة السالفة قرب قلعة الجيب التحتاني، أقاموها بين الأحرار التي حاذت ذلك الطريق، وعلى الفور تمت إبادة مجموعتين من رجالنا كانتا في الطليعة، واطلع

الملك رتشارد على خبر الكمين، فزحف بكل سرعة في الصباح، آملاً أنه سيتمكن من انقاذ قوات المقدمة، لكن الترك، وكان عددهم حوالي المائة، وهم الذين شكلوا الطليعة (اليزك) لاحظوا راية الملك، فهربوا، وأصيب سبعة منهم: بعضهم قتل، وبعضهم الآخر وقع بأسر الملك وهو يقوم بالمطاردة.

وبعد عدة أيام من عيد الغطاس، اجتمع رجال المجلس الاستشاري للجيش ثانية، ومعهم بعضاً من أكثر البلديين حكمة، للبحث في مسألة الزحف إلى القدس، ومن جديد ألح الاستتارية والداوية مع البلديين (البوليانز) كما فعلوا من قبل على وجوب إعادة بناء مدينة عسقلان، لقطع المواصلات والمراسلات بين القاهرة والقدس.

وعلى هذا وافقت أكثرية المجلس، وعندما غدا هذا معروفاً، كان الجيش منزعجاً جداً، حيث تصور أن آماله في رؤية ضريح الرب ستعاق كلية، واختفت الحماسة السالفة لعناصره، وخلفها اليأس وحل محلها، في حين صبوا لعنتهم على أصحاب هذا القرار على أساس أنهم دمروا أثمن أمانيتهم وأغلاها.

ولو أنهم عرفوا ما كان يعاني منه الذين سكنوا القدس من مصاعب ومشاق لحصلوا على بعض السلوان والمواساة من اضطرابات العدو وآلامه، ذلك أن الترك في القدس كانوا يعانون كثيراً، ويواجهون أثقل المشاق من البرد والثلج، الذي كان يذوب في الجبال، مسبباً فيضانات من المياه كانت تنحدر نحو المدينة وتتدفق عليها، مسببة إما اغراق مواشيهم، أو قاتلة إياهم أنفسهم فيما بعد نتيجة للبرد، فلقد كان عناءهم من حالة المناخ قد بلغ حداً عظيماً، إلى حد لو أن الصليبيين عرفوا بذلك لكان من المؤكد تمكنهم من الاستيلاء على المدينة، مع أنه كان مقدراً عدم استطاعتهم الاحتفاظ بها لوقت طويل، لأن الناس كانوا بعد وفائهم بنذرهم المتعلقة بالحج سيعودون إلى أوطانهم، وكانوا

لن يجدوا ما يكفي من القوات لشحنها بها والدفاع عنها.

واقترب موعد حلول عيد القديس هيلاري، وكان الأسف والانزعاج في الجيش كبيراً، دفع الكثيرين إلى التخلي عن حجبهم، ولعنهم اليوم الذي ولدوا فيه حتى يعانون من مثل هذا الاحباط، وكان بعضهم قد وصل حالة حد الإعياء بسبب الارهاق والانهك والفقر، حتى أنهم كانوا بصعوبة بالغة يمكنهم التحمل والمقاومة، وتأثرت خيولهم وحيوانات الحمولة لديهم بالبرد والمطر، وباتت لا تستطيع المتابعة خلال الطين والأوحال، بل سقطت ونفقت جوعاً، ووقعت تحت أثقال حملتها، وفي حرقة وآلام في النفس رفع سواقيها أيديهم نحو السماء وتفوهوا بكلمات مقذعة وصلت حتى حد الكفر.

ومن غير الممكن تصور حالة العذاب والشقاء، حتى أسوأ الجرائم وأقساها، كانت أدنى مما عاناه رجالنا الآن، فلقد اختفت الآن شجاعتهم وأفاعيلهم الجريئة وبسالتهم في الحرب، وحل محلها الحزن واليأس والقنوط في الروح، وذلك بالإضافة إلى المعاناة الجسدية، وبينما كان الجميع في هذه الحالة، كان من الممكن أن يتعرض المرضى والضعفاء لخطر الهلاك لولا عناية الملك رتشارد بهم ورعايته لهم، فقد بعث بالرسل إلى جميع الجهات ليجمعهم مع بعضهم ولجلبهم إلى الرملة، حيث عاود الجيش اجتماعه هناك بكل سرعة، وحصل هذا بعد وقت قصير من مغادرتهم لها.

وحينما كان جيشنا باقياً في الرملة تولى عدد كبير من أفراديه عنه وهجروه، إما حتى يتجنبوا آلام الزحف، أو سخطاً منهم وعناداً، وهكذا نقص تعدادهم نقصاً هائلاً، وغادر جلّ الفرنسيون لشعورهم بالسخط، وذهب بعضهم للتمتع بالراحة في يافا، وتراجع بعضهم الآخر إلى عكا، حيث توفرت كميات كبيرة من المؤن، والتحق بعضهم بالمركيز في صور، حيث غالباً ما حثهم على فعل ذلك، وتحول آخرون مع دوق بيرغندي إلى

حصن الجيب التحتاني واعتزلوا هناك، ومكثوا لمدة ثمانية أيام، وكان الملك رتشارد غاضباً من هذه الحالة التي تجددت، فذهب مع ابن أخته هنري كونت أوف شامبين، والجيش الذي نقص تعداده كثيراً، إلى يبنى، ووجدوا هناك من الضروري التوقف، حتى ينال الجيش قسطاً من الراحة، لأن الطريق كان موحلاً، وكانت تعاسة عناصره العقلية والجسمية هائلة إلى حد أن ما من قلم يستطيع أن يكتب عنها، وما من لسان يمكنه أن يعبر عنها.

وجرى في فجر النهار إرسال رجال مع خيم للتقدم نحو الأمام، وتبعتهم بقية الجيش، وكان عذاب اليوم السالف والامه لاشيء بالمقارنة مع العذاب والألم الذي تحملوه الآن من الانهاك، والبرد والأمطار والفيضان، وبدا وكأن السموات كلها قد تأمرت على تدميرنا، وغدت الأرض موحلة جداً، وناعمة تحت أقدام العساكر، إلى حد أن كل من الرجال والخيول وجدوا صعوبة عظيمة في تثبيت أقدامهم ومنعها من الانزلاق، وغرق بعضهم في الأوحال ولم يقم مرة ثانية.

من الذي يمكنه الحديث عن مصائب ذلك اليوم؟ وكانت آلامهم عظيمة إلى حد، وقاسية إلى درجة أن أشجع الجند سكبوا دموعهم مثل المطر وكانوا قلقين على وجودهم الذاتي، وعندما سقطت دواب التحميل، تلفت المؤن التي كانت تحملها بالأوحال، أو ذابت وتبعثرت في المياه، إنه في ظل هذه الأحوال من التعاسة، لعنوا اليوم الذي ولدوا فيه، وتابعوا ضرب صدورهم بأيديهم حتى وصلوا إلى عسقلان، فوجدوها مدمرة من قبل المسلمين إلى درجة وجدوا فيها من الصعب جداً المرور من خلال الأبواب بسبب أكوام الحجارة.

وكان ذلك اليوم هو العشرين من كانون الثاني، وعسكر كل انسان تلك الليلة وأمضاها حسبما استطاع وتدبر الأمر.

كيف أعادوا بناء عسقلان

عسقلان قائمة على الساحل ، ولو أنها امتلكت مرسى جيداً ، لكان من الصعب أن يكون لها نظير، لموقعها ولخصب المناطق المجاورة لها، وفي الحقيقة امتلكت ميناء، لكنه من الصعب الوصول إليه كثيراً ،حتى أنه بسبب الطقس العاصف الذي استمر لمدة ثمانية أيام، بعد وصول الجيش، لم تستطع سفينة الدخول إليه، ونتيجة لهذا ،كانت عساكرنا مع خيولها بحاجة ماسة للمؤن، لكنها لم تستطع الحصول على شيء لمدة ثمانية أيام، وذلك باستثناء ما جلبوه معهم، ولم يكن من الممكن البحث عن الأعلاف في المناطق المجاورة، بسبب وجود الأتراك.

وعندما تحسن الطقس أخيراً ،دخلت بعض السفن الى الميناء ،لكن العواصف جاءت ثانية، ومن جديد بدأ الجيش يعاني من الحاجة، وتم فقدان بعض البوارج والشواني المحملة بالميرة، وكان بعضها قد فقد مع ملاحيه كلهم أثناء الرحلة، وتعرضت عدة سفن للغرق، وكان بعضها من سفن الملك، ذلك أنها تحطمت بالعاصفة .

وعندما سمع صلاح الدين أن عساكرنا قد توزعت على الساحل، وبعضها قد تمزق وتعطل، أعطى دستوراً لعساكره بالعودة إلى مواطنها، وبذلك كان من الممكن لها الاشراف على أمورها الداخلية ومعالجتها، وأصدر أوامراً لجنده بالتجمع ثانية في شهر أيار، وعاد الترك، الذين مضى على وجودهم يعملون بمشقة داخل جيش السلطان منذ أربع سنوات، مسرورين إلى زوجاتهم وأسرهم، وحكى مقدموهم وأمرأؤهم من ذوي الشهرة باختصار أخبار مغامراتهم والحملات المأساوية التي رأوها، فلقد كانوا في الحروب المتقدمة هم المنتصرين، وحصلوا على وفرة من الأسلاب، لكنهم عانوا الآن من فقدان الممتلكات والمقتنيات، ومن

موت أقربائهم ومقتلهم في المعارك، وتأسوا بشكل خاص وحزنوا لموت الأمراء والمقدمين والآخرين الذين قتلهم الملك رتشارد قرب عكا، عندما أخفق صلاح الدين في تحقيق وعوده بانقاذهم، ولهذا السبب تملكوا مشاعر غضب عارمة ضد صلاح الدين.

وانتهى الآن شهر كانون الثاني، وباتت السماء مشرقة أكثر من ذي قبل، وغضب الملك لانتشار الجيش وتوزعه، فبعث برسائل لإقناع الفرنسيين بالعودة ومن ثم تقوية الجيش، وبذلك يكونوا في وضع أفضل للقيام بالمزيد من الأعمال المقررة، وقال: «من المرغوب فيه أن يكون الجيش مع بعضه مجتمعاً أثناء العمل، لأن التمزق سوف يضعفنا ويعرضنا لحملات أعدائنا» وبناء على هذه الحجج استدرج الفرنسيين للوعد أنهم سيلتحقون بالجيش حتى الفصح، على شرط، أنهم إذا مارغبوا وقتها بالمغادرة يمكنهم ذلك بكل أمان، وشعوراً من الملك بضرورة تحمل ذلك، وافق على هذه الشروط، وبذلك عاود الجيش لحملة اتحاده ثانية.

وكان هناك الآن اتفاق عام على إعادة بناء عسقلان، لكن الأمراء والنبلاء كانوا في حالة إعياء، ولذلك وجدوا أن امكاناتهم وماتوفر لهم لا يكفي لذلك الغرض، ومع ذلك شرعوا بالعمل بقدر ما استطاعوا، ووزعوه فيما بينهم، وأخذوا يحفرون الأساسات لواحد من الأبواب الرئيسية حتى وصلوا إلى الصخر الأصم، وأزالوا جميع الردم والفضلات الموجودة في الأعلى، وتولى كل واحد تنفيذ حصته من العمل، وكان من الممكن رؤية الأمراء والنبلاء والفرسان والسادة، ورجال الحاشية، كل منهم ينقل حجرة من يد إلى يد، ولم يكن هناك من تمييز بين رجل دين وعلماي، ونبيل وانسان عادي، وأمراء وحواشيهم وخدمهم، فالكل عملوا مثل بعضهم، ودهشوا هم أنفسهم لنتيجة التقدم الذي حققوه، وعندما تم جلب الحجارة والبنائين، تقدم العمل بنشاط مزدوج، وارتفعت

الأسوار بسرعة.

وكان الملك، مثلما هو في بقية المسائل، قد ضرب المثل الأعلى في دفع العمل نحو الأمام، وذلك عن طريق المشاركة بيديه، وبتشجيع الرجال، وبتوزيع الحصص والواجبات على كل واحد منهم، وبذلك قدم خدمات عظيمة، وبناء على حثه وتشجيعه تولى كل واحد العمل في سبيل إكمال حصته المحددة له بوسائله الخاصة، وإذا ما تمتع أحدهم بسبب الحاجة إلى المال، تولى الملك اعطائه من جيبه الخاص، ذلك أنه كان أكبر قلباً مما أبداه من تكبر، وهكذا جاءت براهين التشجيع، وبراهين اليقظة، والانفاق، ولذلك قيل اكتمل إعادة بناء ثلاثة أرباع المدينة بهذه الوسائل.

وبالوقت نفسه رتب صلاح الدين لارسال اثني عشر ألفاً من أسرى المسيحيين الفرنسيين والبلديين من سكان الأراضي المقدسة إلى القاهرة، وجلبهم خدمه حتى دير البلح، وعندما كانوا يمضون الليل هناك مع نية الانطلاق في رحلتهم في اليوم التالي، حدث بقدر من السماء أن قام الملك رتشارد بانقاذهم.

فقد حدث في أحد الأيام أن كان الملك يقوم مع كتلة من نخبة عساكره بأعمال استطلاع لحصن دير البلح، ليدرس كيف يمكنه أن يستولي عليه، لأنه كان سهل كثيراً مرور الأتراك وهم يجلبون المؤن من القاهرة إلى القدس، ولاحظ الترك الذين وصلوا إلى هناك قبل غياب الشمس قدوم الملك من رايته، فخافوا على حياتهم، واهتموا بسلامتهم، فاعتصموا بسرعة في برج الحصن وتركوا الأسرى في الخارج، وعندما رأى هؤلاء ذلك، التجأوا مسرعين جداً إلى إحدى الكنائس المجاورة، ولدى وصول الملك، تولى إطلاق سراحهم دون أن يفقد دقيقة واحدة، وتركهم يذهبون دون أن يصابوا بأذى، وفي الوقت نفسه تولى مع رجاله قتل عدد من الترك صدفوهم على الطريق، واستولى الملك أيضاً على كثير من

الخيول الثمينة، وأسر عشرين من زعماء الأتراك وهم أحياء. من الذي يشكك أن قدوم الملك، الذي كان مفيداً جداً لهؤلاء الأسرى، لم يكن مقدراً من الرب؟ فلو أنه لم يقدم لانقاذهم لاشك أنهم كانوا عرضة لأن يحكم عليهم بالعبودية الدائمة.

وبعدما أنجز الملك هذه الأعمال الناجحة، بعث برسل إلى مركز مونتفرات، وذلك مثلما فعل كثيراً من قبل، طالباً منه القدوم إلى عسقلان، والالتحاق بالحملة لصالح المملكة التي تشوق لقيامها، وطلب منه القيام بذلك بموجب اليمين الذي أقسمه لملك فرنسا، الذي هو تعهد بالتبعية الاقطاعية له، لكن المركز المنحط أجاب بتحفظ دنيء، وقال إنه لن يتحرك ما لم يجتمع أولاً بالملك رتشارد، ثم بعد ذلك يجري عقد مؤتمر في مكان محدد هو حصن يحمور (قرب عكا) Ymbrie.

وفيما الملك وجيشه منشغلين تماماً في أعمال إعادة بناء أسوار عسقلان، نشب خلاف بين الملك رتشارد، ودوق بيرغندي، فقد كانت المؤن قد نفدت واستهلكت، وبات كل انسان لا يملك شيئاً تقريباً، وبدأ الفرنسيون يلحون على دوق بيرغندي من أجل الدفع، أي أن يدفع لهم ما هو مدان به، وذكروا أنهم إذا لم يدفع لهم، لا يمكنهم متابعة الخدمة في المعسكر، ووجد الدوق نفسه غير قادر على تلبية طلباتهم الملحة، لذلك رأى أن من الأفضل أن يسأل الملك رتشارد تزويده بمبلغ كبير من المال، وفي مناسبة ماضية كان الملك قد أقرض الفرنسيين، بناء على طلب من الدوق، مبلغاً كبيراً من المال، كان من المفترض تسديده من مال فدية الأسرى، وبما أن الأسرى لم يدفعوا فدية سوى رؤوسهم، لذلك ذهبت الوعود سدى، ولذلك رفض الملك في هذه المناسبة الاستجابة لطلبه، ولهذا السبب ولأسباب أخرى من عدم الاتفاق، غادر الدوق عسقلان، مع بعض الفرنسيين، الذين لم يستطع أن يدفع لهم، لهذا بادروا مسرعين بالعودة معه إلى عكا.

ولدى وصولهم إلى هناك وجدوا نشوب صراع مريع بين البيازنة والجنويين، لأن البيازنة كانوا محظيين من قبل الملك غي، في حين وقف الجنويون إلى جانب المركيز، والسبب الرئيسي لذلك هو أنه كان مربوطاً بيمين ولاء لملك فرنسا، وتصاعد الخلاف وانتهى بسفك الدماء وقتال متبادل، وباتت المدينة كلها في حالة فوضى.

ومع اقتراب الفرنسيين من المدينة سمعوا أصوات صخب شديدة، وصراخ الناس يحشون بعضهم بعضاً على القتال، ونتيجة لهذا، أسرع دوق بيرغندي الذي كان مسلحاً تماماً، ليقدّم مع رجاله الضمان للجنويين، وكانوا في وضع محرج تماماً عند وصولهم، ولهذا انزعج البيزيون عندما رأوهم قادمين، وخرجوا بجرأة للتصدي لهم، وانقضوا على دوق بيرغندي، الذي بدا أنه قائدهم، وطوقوه وعندما طعنوا فرسه بحربة، ألغوه أرضاً، ثم تراجعوا إلى المدينة، وأغلقوا الأبواب، وأقفلوها، كاحتراز احتياطي ضد أي حادث غير مرئي قد يقع، لأنهم سمعوا بأن الجنويين بعثوا إلى المركيز يطلبون منه القدوم بأقصى سرعة ممكنة حتى يستولي على عكا، وقد وعدوه بتسليمه إياها، ولهذا اتخذ البيزيون كل الاحتياطات ضد هذا العمل، ولضمان سلامتهم وسلامة المدينة.

ولم يضع المركيز ولا دقيقة واحدة، بل جاء مسرعاً إلى عكا في شوانيه مع عدد كبير من الرجال المسلحين، آملاً بالاستيلاء على المدينة على حين غفلة، ولدى وصولهم قاتلهم البيزيون برجولة بالعزادات والمجانيق، وبما أنهم كانوا واثقين من عدالة قضيتهم فقد قاتلوا بشجاعة، وقاوموا خصومهم لمدة ثلاثة أيام، وبعثوا برسالة إلى الملك رتشارد الذي كان آنذاك في قيسارية في طريقه لحضور المؤتمر، وأخبروه بصورة الأوضاح، وطلبوا منه القدوم بكل سرعة ممكنة.

وعندما سمع المركيز بأن الملك رتشارد بات قريباً منه، عاد مسرعاً إلى صور، وكأنه كان يشعر بقرارة نفسه أن قدوم الملك نذير سوء بالنسبة له،

لكن على الرغم مما بذله من سرعة وصل دوق بيرغندي مع الفرنسيين أولاً إلى صور، وعندما وصل الملك رتشارد إلى عكا، أخذ على عاتقه ترتيب كل شيء، فصالح البيزيين مع الجنويين، وجعلهم يتوحدون في وئام ووافق، وأعاد إقامة تفاهمهم الجيد المسبق.

وبعدما أكمل الملك رتشارد تهدئة الأوضاع والناس وفق هذه الطريقة، أرسل رسولاً إلى الماركيز يخبره في أن يعود إلى يحمور، ليرى إذا كان من الممكن التوصل إلى تفاهم تصالح وصدقة، وبناء عليه إلتقاء، وعقداً مؤتمراً طويلاً، لكن بلا محصلة، وتصوروا الآن أن دوق بيرغندي، والماركيز وكذلك الفرنسيين اختاروا التغييب عن الجيش، وأسف الملك رتشارد بقرارة نفسه أسفاً كبيراً على شروط السلام التي تم الاتفاق عليها، وتردد لوقت طويل حول ما هو الأفضل للقيام به، وتشاور مع القادة وأكثر الرجال حكمة وتجربة في الجيش، وقرروا أن الماركيز قد خسر دعواه للملكية التي كان قد وعد بها، ونتيجة لسلوكه المريب، ينبغي حرمانه من جميع موارده، ونتيجة لهذا نشب خلاف كبير بين النبلاء الفرنسيين وبين الملك رتشارد، وبشكل خاص بينه وبين الماركيز.

وفي يوم أحد السعف، قلد الملك رتشارد، وسط مظاهر أبهة عظيمة، حزام الفروسية إلى ابن سيف الدين الذي بعث إليه لهذا الغرض.

كيف تراجع الفرنسيون إلى عكا وكيف جرى اغتيال مركز مونتفرات

في يوم الثلاثاء المتقدم وعلى عيد الفصح، عاد الملك رتشارد إلى الجيش في عسقلان، وكان حزينا جداً، على درجة كبيرة من الانزعاج، وفي اليوم التالي طلب المتبقي من الفرنسيين من الملك أن يزودهم بحراسة وبجواز أمان، ووافق الملك، وعين لهم الداوية ليتولوا مرافقتهم في رحلتهم، وعين كذلك معهم الاستتارية، كما ورافقهم الكونت هنري أوف شامبين ومعه عدد كبير آخر، ورافقهم وهو على طريقهم شخصياً (لحرصه على أن لا يدع نقطة موائمة للعناية)، وفعل ذلك وهو يحاول أن يبقينهم مدة أطول، غير أنهم رفضوا رفضاً قاطعاً، لذلك تركهم يذهبون وعاد إلى عسقلان، ومن هناك بعث برسل مسرعين جداً إلى عكا، لتوجيه الأمر إلى الحامية هناك بعدم السماح للفرنسيين بدخول المدينة، وألا يتعرضوا لهم بأية اهانة أو ازعاج، يمكن أن يتخذ حجة عدوانية ويؤدي إلى الخلاف، وبناء عليه عندما وصل الفرنسيون مركزوا أنفسهم خارج المدينة.

وانخفضت معنويات الجيش كثيراً في يوم عشاء ربنا، بسبب مغادرة الفرنسيين، لأنه خسر بذلك جزءاً كبيراً من قوته، لقد فقد سبعة فارس (من الرجال المجربي الشجاعة وذوي الفعالية الكبيرة)، فلقد غادر هؤلاء، ونتيجة لهذا اضطرب الناس وانزعجوا كثيراً.

وسر الترك سروراً عظيماً لدى سماعهم بما حدث، وعندما أخبر صلاح الدين بذلك، بعث بالرسل إلى جميع الأمراء والناس في ممالكهم يأمرهم بمرسوم صادر عنه أن يدعوا جانباً مشاغلهم وأن يقدموا إلى أراضي القدس بكل سرعة ممكنة، وقال لهم: «إن الفرنسيين، لسوء معاملتهم، غادروا، وتركوا البلاد تقريباً بلا مدافعين عنها، وتدنت كثيراً طاقة الحرب

لدى جيش الفرنجة وتداعت قدرته، ولهذا نأمل بكل ثقة أن نتمكن في وقت قصير من الاستيلاء على عكا وصور اللتان هما المدينتان الرئيسيتان في هذه البلاد»، وعاد الترك وانضموا تحت لواء السلطان، لكن باستعداد أقل، وبأعداد أدنى من قبل، لأنهم لم ينسوا الماضي، وبالمقارنة مع عددنا المتدني، لقد تفوقوا علينا كثيراً في قوتهم.

واحتفل الملك رتشارد في عسقلان بعيد الفصح، الذي جاء في الخامس من نيسان، بأبهة عظيمة، وزود الناس بكل ما احتاجوه مع كميات وافرة من اللحم والشراب، وأمر بنصب سرادقه على المروج خارج المدينة، وقدم إلى شعبه كثيراً من الضروريات التي احتاجوها للاحتفال بهذه المناسبة بأبهة وروعة.

وعاد يوم اثنين الفصح متيقظاً نشطاً لمتابعة العمل الذي كان قد بدأه وتابع بكل غيرة وحماسة إعادة بناء أسوار المدينة، وكما هي عادته حث الناس وحرصهم على إكمال ما تبقى، ونتيجة لحرصه وعنايته وتعاونهم اكتمل كل شيء على حسابه الخاص وبدون مساهمة الفرنسيين وذهب الملك مع عدد قليل من أتباعه، يوم ثلاثاء الفصح، في عملية استكشافية نحو غزة، وانطلق في يوم الأربعاء ليقوم بتفحص قريب لدير البلح (الداروم)، محاولاً التأكد من النقطة المواتمة للهجوم عليها، لكن الترك اتخذوا موقف الدفاع في البلدة، ورموا بكثير من النشاب من القسي وأيضاً بجروح كثيرة، مع شتائم وإهانات للملك ولرجاله، وكأن المكان لا يرام، وعندما استكمل الملك تفحصه لها، عاد إلى عسقلان.

وبعدما غادر الفرنسيون، عاد الذين عهد إليهم من قبل الملك بمراقبتهم تأمين وصولهم حتى عكا، عادوا إلى المعسكر في عسقلان، وما أن وصل الفرنسيون إلى صور حتى أطلقوا لأنفسهم العنان للانغماس بكافة المسرات، الأمر الذي نرى من المفيد التوقف قليلاً لذكره.

لقد غادر الآن المعسكر، الرجال أنفسهم الذين يفترض أنهم جاءوا يوجههم تدينهم وغيرتهم لانقاذ الأرض المقدسة، وتخلوا عن هذا، وسلموا أنفسهم للغانيات ولالأغاني المبهجة وللمتعة الجنسية، لأنهم ابتهجوا (حسبما جاء على لسان الذين رأوهم) بالرقص مع النساء، وعبر مظهرهم الخارجي عن خلائعهم وتبذلهم، فقد ربطت أكمام أثوابهم بسلاسل ذهبية، وأظهروا عن عمد أوساطهم، وحزموها بأحزمة مطرزة، وبقيت أرديتهم مكشوفة مع أذرعتهم وكانت مربوطة لتمنع رؤية طرف من أثوابهم، والذي افترض لتغطية ظهورهم، أرغم الآن على خدمة أجزاء أخرى من الجسد، لأن بطونهم، وليس ظهورهم غطيت بهم، ووضعوا حول أعناقهم أطواق كانت تشع بالجواهر، وعلى رؤوسهم قبعات نسجت بكل شكل من أشكال الورد، وحملوا في أيديهم الكؤوس والدنان وليس السيوف، وكانوا بعد أن يمضوا الليالي كلها في الشرب والعريضة، يذهبون إلى بيوت العاهرات، وإذا صدف وكن مشغولات، والأبواب مغلقة في وجوههم، كانوا يخلعونها، وهم يتلفظون بلغة وأيمان ترعب الذين يسمعونهم.

وبكلمة واحدة برهنت أحوالهم الخارجية على تردي أخلاقهم، والعار للفرنسيين لانغماسهم في مثل هذه التجاوزات، ولايمكننا أن نؤكد أنهم جميعاً كانوا مجرمين بهذا أو حمقى، لأنه كان هناك عدد كبير ممن كان مزعوجاً جداً تجاه هذا المسلك المتحلل، وآسفين لعدم توافقه مع الملك رتشارد.

وبعد انقضاء عيد الفصح بعدما بات موسم الجواز البحري ممكناً، وصل رئيس رهبان دير هيرفورد Hereford ، وهو دير انكليزي، حاملاً رسالة إلى الملك رتشارد، جعلت الجيش كله يضطرب، لقد جلب رئيس رهبان الدير رسائل من وليم، أسقف ايلاي، الذي كان مستشار الملك، يخبره أنه والذين أنابهم الملك ليتولوا حكم البلاد أثناء غيابه، قد طردوا

بصفقة وعدوانية من حصون المملكة، وقتل بعض رجالهم أثناء أعمال الصخب، وبوساطة نيابة أخيه للملك، أعني الايرل جون، جرى طرد المستشار من انكلترا، ولم يعد هناك المزيد من المال في الخزانة أو في أي مكان آخر، ماعدا القليل الذي أخفي بكل صعوبة في الكنائس.

وبالإضافة إلى هذا، قال رئيس رهبان الدير: «لقد طرد المستشار نفسه، والكاهن والأسقف مرغمين إلى نورماندي، وذلك بعد ازعاجات كثيرة وسوء معاملة، وأن الايرل جون استخرج بالعنف من الايرلات والنبلاء في البلاد يمين الولاء والطاعة، والتبعية من حفظة القلاع وشحنها، كما أنه صادر بدون حق الدخل السنوي للملك واستولى عليه، والمقصود بهذا الخزينة الملكية، وأضاف رئيس الدير يقول: إذا لم تتخذ جلالتك قراراً سريعاً حول هذه المسائل، وتعود إلى الوطن بكل سرعة ممكنة، وتنتقم لما لحقنا من اعتداءات العصاة، ستزداد الأمور سوءاً، ولن تستطيع استرداد مملكتك بدون التعرض لمخاطر الحرب».

واستولت الدهشة تماماً على الملك لدى سماعه مانقل إليه، وقلب الأمور في ذهنه طويلاً ولم يقل إلا قليلاً، لأنه اعتقد أن الأمر لا يصدق، وأن المسألة قطعة من الشرور تتجاوز المعقول.

ذلك أن الخلاف بين الأمراء نادراً ما يمكن تجنبه واضعافه، لكن إذا ما أرغم الملك رتشارد على العودة إلى الوطن، ربما مامن انسان سوف يبقى في الأرض المقدسة، لأن هناك نزاعاً وصراعاً بين الناس في صور وبين شعب عسقلان، ومما لاشك فيه سوف يستولي الترك على البلاد كلها بشكل أبدي.

ودعا الملك في اليوم التالي إلى الاجتماع قادة الجيش، ووضع أمامهم كل ماسمعه، وشرح شرحاً وافياً كلمات رئيس الرهبان، وأعلن بالوقت نفسه أنه لابد بحكم الضرورة من عودته إلى الوطن مباشرة، لكن وعد

بتزويد الحملة في الأراضي المقدسة بثلاثمائة فارس وألفين من عساكر الرجال المنتخبين، على حسابه، ثم سأل بعد هذا: من الذي سيعود معه، ومن الذي سيبقى بعده وأعلن أنه لن يجبر أحداً على هذا أو ذاك، بل ترك الخيار المطلق لكل واحد حسبما يريد.

وبعدما عرض هذه النقطة، أجابوه كما يلي: بما أن البلاد تعاني من التمزق وصراع بعض الفئات، ومادامت نتائج الأمور غير واضحة — لاسيما وأن الملك غي لم يصل إلى مبتغاه في استرداد المملكة — رأوا من الضروري جداً تعيين ملك جديد، يقدمون له جميعاً الولاء، وبحفظه يمكن أن تترك البلاد وبعنايته، ويمكن أن يقاتل معركة الشعب، وينبغي أن يكون ربيعاً، يتبعه الجيش ويطيعه، وإذا لم يقرر هذا بحل مناسب قبل مغادرة الملك، فإنهم جميعاً، فرادى وجماعات سوف يغادرون البلاد، لأنه لن يكون بإمكانهم القيام بحراستها ضد الأعداء.

وعندما سأهم الملك السؤال التالي: أي واحد من الاثنين تفضلون أن يكون الملك: الملك غي أو المركيز؟ جثا الجيش كله من صغير وكبير على الركب، والتمسوا وجوب ترقية المركيز إلى الملكية، لأنه أفضل قدرة بكثير في الدفاع عن البلاد من الآخر إذا ما وقع الاختيار عليه، وأصغى الملك إلى التماسهم، وأنبهم بكلمات لطيفة على سذاجتهم وانخداعهم، لأنهم كما حدث في الغالب من قبل انحرفوا عن الأخلاق الحميدة والسمات الحسنة للمركيز.

وباعطاء الملك موافقته، صدر قرار بالاجماع يتعلق بانتخاب المركيز، وجرى ارسال بعض الرجال من ذوي المناصب العالية بالبحر ومعهم حاشية لنقل الأخبار الطيبة إلى المركيز في صور، وشرح له السفراء كيف أنه انتخب ملكاً بالاجماع من قبل الجيش كله، مع موافقة الملك رتشارد، وأن تاج المملكة قد منح له، إذا ما رغب بالقدوم مع الجيش، وممارسة واجباته هناك بنشاط وشجاعة ضد الترك، ومباشرة حكم مملكة القدس

بنفسه في جميع المسائل، كما لو أنها تخصه، ولقد قيل عندما سمع المركز هذا الكلام، بسط ذراعيه، وهو في غاية السرور في قلبه، ومدّهما نحو السماء، وشرع يدعو كما يلي: «مولاي الرب، يامن خلقتني، ووضعت الروح في جسدي، يامن أنت ملك عادل ورحيم، أدعوك يامولاي إذا كنت تراني أستحق حكم مملكتك، أعطني الفرصة لأرى نفسي متوجاً، لكن إذا حكمت بعكس ذلك، لاتوافق على ترقيتي».

وعندما بات معروفاً في أرجاء مدينة صور بأن المركز سوف يتوج ملكاً، كان السرور عارماً بين الناس، وأخذوا يعدون كل ما توجب، واستخدموا كل طاقاتهم للإعداد من أجل الاحتفال بتتويجه، فاقترضوا المال لشراء الملابس والدروع، لأنهم رغبوا في ابداء أروع المظاهر الممكنة في خدمة مثل هذا الانسان الرائع، الذي رقيّ إلى أعلى مراتب المجد، وبات بالامكان رؤية الناس الآن وقد انشغلوا في تنظيف دروعهم وسوابغهم، وتلميع أسلحتهم، وشحذ سيوفهم، ومسح رماحهم، واشترك الجنود والأطفال في معارك صورية، وحافظوا تماماً على مظهر صراع حقيقي ومبارزات جدية، ولقد تبجحوا في الوقت نفسه بأنهم في المستقبل سوف يدمرون الترك.

وفي أحد الأيام كان المركز عائداً من استقبال أقامه له أسقف بوفياس Beauvais وكان به هو الضيف، وكان مسروراً جداً، ونفسه مشرقة مبتهجة، وعند وصوله إلى بيت التعشير، قفز عليه فجأة شابان بلا أردية — من الحشيشية — واندفعا نحوه، وبأيديهما خناجر كانت مخفية، وطعنوه حتى قلبه، ثم انعطفا هاربين بسرعة قصوى.

وسقط المركز على الفور من على ظهر حصانه، وتقلب على الأرض وهو يموت، وتم على الفور قتل أحد القتاتلين، لكن الآخر اختبأ في الكنيسة، وعلى الرغم من حرمة المكان، فقد أُلقي القبض عليه، وحكم عليه بالسجل في أرجاء المدينة حتى يموت، وقبل تنفيذ العقوبة به، استجوب

بدقة لمعرفة الذي حرضه ولاكتشاف الأسباب الدافعة لذلك، ولماذا اقترفا هذه الفعلية، وقد اعترف بأنهما أرسلتا منذ زمن طويل مضى، وأن ذلك كان بأمر رئيسهم، الذي توجبت طاعته.

وقد تبين أن هذا كان صحيحاً، لأن هذين الشابين كانا منذ أمد في خدمة المركز، ينتظران الفرصة المناسبة لتنفيذ فعلتهما، فقد تقدم لشيخ الجبل، صاحب مصيف أرسلهما لاغتيال المركز في مدة من الزمن محددة، هذا وكل واحد قضى شيخ الجبل أنه يستحق الموت، عمل على اغتياله بالطريقة نفسها.

وجلب شيخ الجبل صاحب مصيف، تبعاً لعادة متوارثة عدداً كبيراً من الأطفال النبلاء إلى قصره، وجعلهم يتعلمون كل نوع من أنواع المعرفة والتدريبات، ووجههم لتعلم كل نوع من أنواع اللغات إلى حد تمكنهم من الحديث بها بدون مساعدة مترجم في أي بلد من بلدان العالم المعروف، وتضمن ذلك أيضاً وحشية وقسوة إلى أعظم الدرجات وسرية عميقة جداً، وجرى تدريب الطلاب وتعويدهم على المتابعة والتمسك بذلك برغبة وعناية كبيرة، وكانوا عندما يصلون إلى سن البلوغ، يدعوهم الشيخ إليه، ويؤكد لهم براءتهم من كل ذنب في قتلهم لبعض أعيان الناس، الذين يذكرهم بالاسم، وهذه الغاية كان يعطي كل واحد منهم خنجراً بطول مرعب وحاد جداً، وانطلاقاً من طاعتهم الإيمانية، لم يعرفوا التردد قط في الانطلاق وتنفيذ ما أمروا به، وما كانوا يقفون حتى يصلوا الأمير أو الطاغية الذي عين لهم، ويبقون في خدمته حتى يجدوا الفرصة المناسبة لتنفيذ أغراضهم، معتقدين أنهم بفعلهم ذلك يحصلون على الدخول في الجنة.

والآن فيما المركز كان يتنفس أنفاسه الأخيرة، حمله مرافقوه الذين كانوا من حوله على أذرعتهم إلى القصر وهم يندبونه ويبكون عليه بتفجع، لاسيما لأن سرورهم قبل قليل كان عظيماً جداً، وأوصى زوجته بالاهتمام

بكل عناية بالحفاظ على مدينة صور، وألا تسلمها لأحد غير الملك رتشارد، أو إلى الشخص الذي تؤول إليه المملكة بحق الوراثة، وما لبث أن مات ودفن في مقر الاسبتارية وسط حزن عظيم وأسى كبير.

وفي وسط الفوضى التي سادت بين الناس، تهامس بعض من الفرنسيين (الذين ابتغوا تغطية شرورهم بنوع من الأكاذيب، وأدخلوا في عقول الناس جميعاً) بأن الملك سبب بشكل شرير مقتل المركيز، وأنه هو الذي استأجر هؤلاء الرجال من الحشيشية لهذا الغرض، ولم يقنعوا بهذه التهم التي ألصقوها بالملك رتشارد وأساءوا بها إلى سمعته في هذه المناطق، بل أرسلوا تحذيرات إلى ملك فرنسا حتى يحترز ضد مبعوثي شيخ الجبل صاحب مصيف، وقدموا له تفاصيل كيفية موت المركيز، وذكروا أن الملك رتشارد قد وجه أربعة من هؤلاء الرجال للقيام باغتيال الملك فيليب.

كيف جرى اختيار الكونت هنري ليكون ملكاً لصور

بعد دفن المركيز اجتمع الفرنسيون، الذي بلغ تعدادهم حوالي العشرة آلاف، وكانوا يعيشون في خيم خارج المدينة، والتقوا للتداول فيما بينهم، وبعد نقاش طويل بعثوا بأوامر إلى زوجة المركيز (*) يأمرونها أن تضع المدينة في عهدهم بدون تأخير أو معارضة، من أجل خدمة ملك فرنسا، لكن الملكة أجابتهم: عندما يأتي الملك رتشارد ليراها سوف تعطيه المدينة، ولن تعطيه لأحد سواه، لأن هذه كانت أوامر المركيز المتوفى، ذلك أنه لا يوجد أحد عمل مثله كثيراً لإنقاذ الأراضي المقدسة من الترك، وإعادة لها إلى حريتها المتقدمة، وبناء عليه ينبغي إعطاء المملكة إلى أشجع الرجال، ليرتب أموراً كما يراه مناسباً.

وغضب الفرنسيون وسخطوا سخطاً عظيماً تجاه هذا الجواب، وفيما هم يبذلون الجهد لامتلاك المدينة، جاء الكونت هنري بشكل غير متوقع إلى المدينة، وذلك بعد ما اندهش لدى سماعه بما حدث. وعندما رآه الناس قائماً بينهم اختاروه على الفور أميراً لهم، وكأنه أرسل من قبل الرب، وبدأوا بمحاولة إقناعه ليتقبل تاج المملكة، بدون اعتذار أو

* — من المفيد مراجعة ما ورد في المجلد السالف مع ما جاء لدى صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري (الجزء الثامن). والملكة هنا هي ايزابيلا أخت سيبيلا (التي توفيت في سنة ١١٩٠، وبذلك غدت ايزابيلا وريثتها)، وعندما توفيت أختها الكبرى كانت ايزابيلا متزوجة من هنري الرابع صاحب تيرون، الذي كان مكروهاً من قبل النبلاء، ولهذا أقنعوها لتتطلق منه، على أساس أنها خطبت إليه بدون موافقتها، ثم زوجها المركيز كونراد أوف مونتفرات الذي كان أثيراً لديهم، وبذلك أعطوه حق المطالبة بعرش المملكة ضد غي أرمل سيبيلا، وتزوجت ايزابيلا مرتين أخرتين بعد مقتل المركيز، أولاهما من هنري أوف شامبين، ثم بعد موته من عموري الثاني صاحب قبرص.

تردد، وأن يتزوج أرملة المركيز، لأن المملكة مملكتها بحق الوراثة، ورد على هذا كله أنه سوف يتصرف وفقاً لنصيحة خاله الملك رتشارد، محترماً الحل الذي يقرره الرب لكل المسائل ويدعوه إليه، وعلى الفور جرى إرسال مبعوثين إلى الملك رتشارد ليعلنوا له الانتخاب الذي جرى باقرار الناس في تمليك الكونت هنري وليحدثوه عن الاغتيال الرهيب للمركيز.

وفي الوقت نفسه، قبل أن يصل الرسل المرسلين إلى الملك رتشارد إلى غايتهم، بدأ الفصل الدافئ بعد أشهر برد الشتاء، وشرع الملك رتشارد في مهاجمة الترك بهمة لاتعرف التعب، مثلما كان يفعل من قبل، لأنه لم يكن هناك انسان مثله، ولا من خافه الترك مثلما خافوه، فما من واحد آذاهم من قبل مثلما فعل، فقد كان ينقض، وهو فارغ اليدين تقريباً، ثم يعود جالِباً معه رؤوس الأعداء، أحياناً عشرة في يوم واحد، وأحياناً اثني عشر، أو عشرين أو ثلاثين، حسبما يحدث ويصدفهم في طريقه.

وبالإضافة إلى هذا كله كان يجلب معه إلى المعسكر كل يوم عدداً كبيراً من الأسرى، والحق يقال لم يوجد في عصور المسيحية رجلاً مثله دمر أعداداً كبيرة من المسلمين بيديه وحده.

وفي يوم الأربعاء الذي تقدم على عيد القديس مرقس الرسول، انطلق الملك وجيشه نحو الجديدة لحماية المدينة، غير أنه لم يجد أحداً هناك، وفي طريق العودة قاتل الملك خنزيراً برياً متوحشاً، كان قد سمع صوت العساكر وهم يمرون، فخرج ليقف على الطريق، وتصاعد الزبد من فم الحيوان الشرير، لشدة غضبه، ووقف شعر جسده وكذلك أذناه، وبدا وكأنه يستجمع كل قواه وحنقه إما ليتلقى هجوماً أو ليقوم بالهجوم، ولم يتحرك من مكانه عندما صرخ الملك، وعندما دار الملك حوله، لدهشته استدار هو حول نفسه، وظل واقفاً في المكان نفسه.

واستخدم الملك الآن رمحه بمثابة رمح صيد، وحركه ليطعنه به،

وانحرف الخنزير قليلاً إلى أحد الجوانب واستعد للقاءه، وكان حجم الحيوان حجماً هائلاً، ومنظره مربعاً، وانقصف الرمح الذي خرق صدره العريض بكل جرأة إلى قسمين، وسبب انكساره أنه لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليتحمل ضغوطهما وهما يقتربان من بعضهما، وصار الخنزير غاضباً الآن كثيراً بسبب جرحه، فاندفع بكل ما أوتيته من قوة نحو الملك، الذي لم يمتلك أية مسافة، أو وقتاً للانعطاف أو الابتعاد، لذلك غمز فرسه وشدد عليه، فتمكن من القفز فوق الحيوان دون الإصابة بجراحه، علماً بأن الخنزير قد مزق تجافيف حصانه، غير أن فعالية الحصان ونشاطه أعاقت الضربة، وحالت قطعة الرمح المغروسة في صدر الحيوان بينه وبين الاقتراب، ثم قام الخنزير سريعاً وكأنه يريد الاقتراب من الملك، لكن الملك كان قد استل سيفه، فطعنه به وهو عابر، وصعقه بالضربة، ثم استدار حول حصانه، وقطع عروق الخنزير، ثم عهد به إلى رجال صيده.

وبينما كان الملك يمضي الليلة التي حلت بعد يوم الرسول المبارك القديس فيليب والقديس جيمس، ومعه عدد قليل من الأتباع، في مجدل يابا Furbia، انقضت الترك عليهم في الصباح الباكر، بشكل مفاجئ، وفي نيتهم إما أسرهم أو تدميرهم، غير أن الملك كان أول من قفز من فراشه، وأمسك فقط بترسه وسيفه، فأسر سبعة من الترك، وقتل أربعة، وهرب البقية من أمامه، ثم بعث إثر ذلك الداوية والتوركيلي حتى حصن دير البلح (الداروم) لاستكشاف المنطقة، فصدفوا عشرين مسلماً كانوا قد خرجوا من الحصن، يحصدون شعيراً، وأسروا هؤلاء وأرسلوهم إلى عسقلان.

وفي هذه الأيام، عندما كان الملك رتشارد مشغولاً في سهول الرملة بأعمال مطاردة الترك، وصل الرسل الذين بعثوا من صور، ومثلوا أمامه وأخبروه بصورة أحوال الأوضاع هناك، وأن الكونت هنري لن يغامر بقبول المملكة إلا بموافقة الملك ونصيحته، ولدى سماع الملك بوفاة

المركيز، مكث وقتاً طويلاً صامتاً وقد اعترته الدهشة تجاه هذه النهاية العنيفة التي جاءت بغير وقتها، لكن لمعرفته أن شعبه خاصة رغب بذلك رغبة كبيرة، سرّ سروراً عظيماً وابتهج لانتخاب ابن أخته، ولذلك أضفيت عليه بوقار علامات التشريف الملكية.

كيف جرى اختيار هنري ملكاً لصور

وقال الملك: « وبناء عليه بما أن المركيز، توقف بحكم قرار موت الذي لايرد، عن الوجود، ليس من المفيد أن نغمس بالأسى، فالبكاء لن يفيد شيئاً بالنسبة لروح الفقيد، إنني اقدم التهنئة إليكم لانتخابكم الكونت هنري، وإنني راغب تمام الرغبة — إذا شاء الرب — في أن يضافى عليه جميع أمور حكم المملكة في اللحظة التي يجري فيها امتلاك جميع الأراضي المقدسة، وفيما يتعلق بزواجه من أرملة المركيز، ليس لدي من رأي أقدمه، لأن المركيز استحوز عليها بشكل غير قانوني، بينما كان زوجها مايزال حياً، واقترب الزنا بمضاجعته لها، دعوا الكونت هنري يستحوز على مملكة مدينة عكا وكل متعلقاتها، وأعني بذلك صور ويافا، وجميع الأرض — إذا رغب الرب — بشكل أبدي، وأخبروه باسمي أيضاً أن يقلع بحملته بأقصى سرعة ممكنة، وأن يجلب الفرنسيين معه، لأنني أنوي الاستيلاء على دير البلح (الداروم) على الرغم من معارضة الترك».

وبعدما تلقى الرسل تعليمات الملك رتشارد عادوا إلى صور، إلى الكونت ، ملكهم المستقبلي، ونقلوا إليه الرسالة التي عهد بها إليهم، ثم عم السرور والفرح بين الجميع وانتعشوا مجدداً، وأقنع أعيان الرجال الكونت حتى يتزوج أرملة المركيز وورثته المملكة، لكنه رفض خشية اغضاب الملك رتشارد، وبناء عليه، حثه الفرنسيون ونبلاء المملكة على القيام بذلك، لأن الولاء له مع مركزه سوف يقوى بهذا الاجراء، وبوساطة نفوذهم جاءت السيدة عن طواعية وقدمت له مفاتيح المدينة.

ولم يكن من المفترض أن يواجه الذين أقنعوا الكونت لاتخاذ هذه الخطوة كثيراً من المصاعب، لأنه كان من السهل اقناع رجل راغب، واحتفل بالكنيسة بالزواج بشكل مهيب وذلك بحضور رجال الدين

والعلمانيين، وسط أبهة ملكية، وابتهج الجميع لدى انجاز العمل، وكان الفرنسيون والنورمان بالقدر نفسه مسروين، لأن الكونت كان بالوقت نفسه ابن أخت كل من ملكي فرنسا وانكلترا، وبهذا الاتحاد بات الأمل بأوقات سعيدة ستأتي، وأن يعود أولئك الذين اختلفوا إلى السلام والوئام.

ولدى اكمال الكونت الاحتفال بزواجه أرسل على الفور أشخاصاً لياشروا الحكم في عكا باسمه، وكذلك في يافا والمدن الأخرى والحصون، وليستحوذوا على جميع الممتلكات التي توجب استملاكها في ظل سيادته وباسمه كمولى لهم، ثم أصدر مرسوماً، دعا فيه الجميع ليكونوا جاهزين للحملة ضد دير البلح.

وبعد ما ترك الكونت هنري أشخاصاً مناسبين لحماية مدينة صور وبقية البلاد، قام وبصحبه دوق بيرغندي بتحريك جيشه نحو عكا حتى يسرع الحملة، وجلب أيضاً معه زوجته، لأنه كان لا يصبر على البقاء بدونها.

وعندما عرف شعب عكا أنباء قدوم الكونت، خرجوا وهم يرقصون لاستقباله، وهتفوا بحياة السيد الجديد، واحتشدوا من حوله، ورافقوه في دخوله إلى المدينة، التي كانت مزينة من كل جانب مثل معبد من المعابد، فلقد زينت بالستائر والأقمشة الحريرية، وملأت روائح البخور المحترق كل مكان، وانتقل شذى الروائح الطيبة من طريق إلى طريق، ومن شارع إلى آخر، وقامت النسوة بالرقص ببهجة ونشوة، وتقدم حشد هائل من الناس، بلغ تعدادهم ستين ألفاً، بكامل السلاح، نحو الأمام لاستقبال الكونت، وللتعبير عن سرورهم وتقديرهم له. وقاده رجال الدين بيده إلى داخل الكنيسة، إلى أمام المذبح، ومنحوه الصليب المقدس، وآثاراً مقدسة أخرى، ليقبلها، وقدم الكونت نفسه، ومعه عدد كبير من الآخرين، هبات ثمينة هناك، واقتيد بعد هذا إلى القصر الملكي، حيث أمر بأعداد وليمة، وبذل كل واحد — حسب رتبته وقدراته —

جهده لتقديم التشریفات للسید الجدید.

وبما أن صعود رجل جدید كان معناه دوما سقوط آخر، وعليه إن خسارة واحد هي لصالح ومنفعة آخر، فالآن حرم الملك غي من المملكة التي قاتل في سبيلها عدداً كبيراً من المعارك، وأقام الآن هناك مثله مثل انسان عادي، ليس لأنه غير جدير (لأنه لم يكن هناك ملك آخر مثله بالعادات الملكية والطباع ولا أحسن منه)، بل لسبب واحد، هو أنه كان ساذجاً، ولا يعرف حرفة التآمر السياسي، وعوضاً عن أن يقدر كثيراً لامتلاكه هذه الصفات — فهذا هو المتوجب — عد ضعيفاً لا تجوز طاعته.

ولقد كان عسكرياً صاحب شجاعة كبيرة، وتولى ادارة حصار عكا، عندما كانت محتلة من قبل الترك، بنشاط عظيم وبتصميم ومثابرة، لكن نظراً لازدياد أعداد الأعداء على الجانب المصاقب للبحر، لم يستطع اقتحام المدينة، الأمر الذي سعى من أجله بعده ملكان وقد لاقيا صعوبات جمة حتى استوليا عليها، فهل يصح بعد هذا أن تؤذيه بساطة أخلاقه، وتحرمه من الحصول على حقوقه؟ هكذا هي متناقضات العصر، فالذي عرف بأنه أبعد الناس عن الانسانية في أخلاقه وأعماله عدّ أهلاً لعظيم الشرف والمجد، وهكذا بما أن المهارة هي الفضيلة المتحكمة في العصر الحالي، حصل الدهاء على الاحترام، في حين غرقت التقوى في عدم الاحترام.

وهكذا بات، آنئذ غي ملكاً بدون مملكة، حتى أشفق الملك رتشارد عليه، وهو المعروف بعطفه وشفقته، فأعطاه بدون شروط ملكية جزيرة قبرص، ومع أن الداوية كانوا قد اشتروا الجزيرة منه من قبل، وضعت شروط الشراء جانباً، وصار غي امبراطوراً لقبرص.

وفي الوقت الذي اغتيل فيه المركيز في صور، وصل عدد كبير من

الرسـل من انكلترا يحثون الملك على العودة، وقال بعضهم إن كل شيء سليم، وقال آخرون إن انكلترا على وشك أن تؤخذ منه، وترجاه بعضهم للعودة إلى الوطن في حين بذل آخرون كل جهودهم لإقناعه لإكمال حجه، وهكذا شوشت تأكيداتهم المتباينة فكره، وجعلته لا يهتدي إلى أي جانب سوف يميل، لكنه قدر نفسية الملك الفرنسي انطلاقاً من تجربته الماضية، لأنه كما يقول المثل: «الذي لديه جار سوء لاشك أنه سيجد في الصباح شيئاً ما سيئاً».

كيف استولى الملك رتشارد على حصن دير البلح عنوة

في الوقت الذي كان فيه الكونت هنري مع الفرنسيين في عكا يسرون نحو حصار حصن دير البلح، شرع الملك رتشارد الذي كان يكره التأخير مع رجاله بالانطلاق من عسقلان، وأرسل بوساطة البحر مجانيقه، التي وضعت قطعة قطعة على ظهر السفن، وخلف رجالاً لحراسة المدينة، كما إكترى آخرين بأجور مغرية ليتولوا بالنهار مراقبة الحصون العدو المجاورة، وليقيموا حراسة ليلية دقيقة ليمنعوا الأتراك من حمل الميرة— كما كانوا يفعلون من قبل— إلى دير البلح، حيث خططوا مراراً وتكراراً لإقامة كمائن ضد رجالنا، ثم انطلق الملك مع عساكره خاصة نحو حصن دير البلح، ووصل إلى هناك يوم الأحد، ونصب خيمته وخيام أتباعه على مسافة قصيرة منها.

وبالنظر لقلة عدد رجالنا كان هناك شكوك حول أي أجزاء الحصن ينبغي مهاجمته، بحكم أنهم كانوا غير قادرين على الاحاطة به بشكل كامل، فإذا ما جرى تفريق أعدادنا الصغيرة لن يكون بالامكان اقتحام البرج، أو الصمود في وجه حملة الأتراك، ولهذا تراجعوا كتلة واحدة نحو قرية كانت قائمة في السهل، وهناك شكلوا أنفسهم وعبأوا قواهم، ولدى رؤية الترك هذا الجيش الصغير خرجوا من الحصن وتقدموا نحو الأمام، وكأنهم يريدون اثارته وتحديه للدخول في معركة، ثم تراجعوا ثانية وأغلقوا الأبواب بإحكام وقوة، واستعدوا للدفاع عن أنفسهم.

وإثر هذا مباشرة وصلت مجانيق الملك في سفنه، وكانت هذه المجانيق مفككة إلى قطع متعددة، وحمل الملك مع أمرائه ونبلائه قطع المجانيق على أكتافهم من الشاطئ (ليس بدون تصبيهم بالعرق) إلى مسافة تقارب الميل، وأخيراً عندما جرى تركيب الآلات وتجميعها، واستعد

الرجال للعمل بها، تعهد الملك بنفسه القيام بتشغيل واحدة منهم، واستهدف أن يهاجم بها البرج الرئيسي في الحصن، وتولى النورمانديون تشغيل الآلة الثانية، ورجال بواتوالآلة الثالثة، ووضعت كل آلة وجهاز لتقوم بأعمال التدمير، وجعل الملك رتشارد آلاته تعمل ليل نهار، ولهذا السبب جاهدوا في سبيل حماية أنفسهم برجولة، وهنا رأى الترك أن الدمار الكامل بات وشيكاً.

وامتلك حصن دير البلح سبعة عشر برجاً قوياً ومتيناً، وكان أحدها أعلى من البقية وأقوى، وكانت الأبراج مع الأسوار محاطة بخندق عميق مغطى من أحد الجوانب بصفائح من الحجارة، بينما كان الجانب الثاني بطبيعته من الصخور، واستولى الآن الرعب المخيف على المسلمين، خشية أن لا يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بشكل فعال، أو حتى النجاة بأرواحهم، وأمر الملك النقابون في اليوم التالي بالشروع في حفر أنفاق بكل عناية تحت الأرض، من أجل اقتلاع الأحجار وفتح ثلثة في السور، وتمكنت آلات الرمي بوساطة العمل الجماعي والرمي المتواصل من تدمير واحد من مجانيق العدو، الذي أقيم على البرج الرئيسي، وأدخل تحطيمه إلى قطع الرعب كثيراً إلى قلوب العدو.

وفي البداية رد الترك رجالنا إلى الخلف بالحجارة والنشاب الذي تساقط بكثافة مثل زخات المطر، من عراداتهم وأقواسهم، ووجه العاملون في عراداتنا رماياتهم نحو أي إنسان شاهدوه فوق الشرافات، وهكذا قتلوا وجرحوا عدداً كبيراً منهم، لذلك نادراً ما تجرأ العدو على التحرك، وباتت أحوالهم الآن بعيدة عن أن يحسدوا عليها، عندما انهار واحد من أبواب الحصن، بسبب النيران، ثم دمر تدميراً كاملاً بوساطة رمايات آلات الملك، وارتعب الترك كثيراً نتيجة لما حدث، وللرمايات المتواصلة والحملة المستمرة، وباتوا غير قادرين على الاستمرار بالدفاع، لأن عدداً كبيراً منهم قد قتل، وتمدد الآخرون جرحى على الأرض.

وبات الآن واضحاً أن الملك رتشارد كان دوماً من المتعذر قهره في كل عملية شرع بها، وأنه بات واثقاً من النجاح بفعل لغمه للأبراج واستمرار آلات رمية بالقذف، وبناء عليه خرج ثلاثة من المسلمين من الحصن وتقدموا نحو الملك رتشارد والتمسوا السلام، وعرضوا عليه تسليم الحصن وكل شيء عائد إليه شرط أن يسمح لهم بالمغادرة آمنين على حياتهم، لكن الملك رفض وأخبرهم أن يدافعوا عن أنفسهم بقدر ما يستطيعون.

ولهذا عادوا إلى الحصن، واستمرت آلات الملك تعمل بلا توقف، وبعد هذا مباشرة تهاوى أحد الأبراج بعدما ألحق به الضعف نتيجة حفر نفق تحته من قبل النقاين التابعين للملك، وجاء انهياره إثر تلقيه رمايات متواصلة، وعندما انهار أحدث دويّاً هائلاً، واختلط الترك أثناء محاولتهم النجاة من وسط الخرائب برجالنا، الذين لاحقوهم وهم يقتلونهم حتى قاموا بعقر خيولهم، وهو عمل مرعب فعلوه ليحولوا دون وقوعها بيد الفرنجة ومن ثم استخدامهما، وإثر هذا التجأوا إلى البرج الرئيسي.

وهرب الترك الآن، واقترب رجالنا بجراًة من الحصن، وكان أول الداخلين إليه هو سيغوين بورت Seguin Borret ، ومعه حامل دروعه واسمه أوسبيارد Ospiard وكان الثالث بيتراوف غسكوني، وتلاههم عدد كبير آخر، نُسيت أسماؤهم، وكانت راية ستيفن دي لونغشامب الأولى التي رفعت فوق الأسوار، وكانت الثانية راية إيرل أوف ليستر، وكانت الثالثة راية أندرودي كافني Chavigny ، وكانت الرابعة راية (بوهيموند الثالث) ابن الأمير ريموند (صاحب أنطاكية)، ثم رفع الجنويون والبيازنة أعلامهم على الأسوار، وكانت ذات أشكال متنوعة، وفي الوقت نفسه رميت أرضاً رايات الترك.

وكان من الممكن الآن رؤية الترك وهم يفرون نحو البرج أو يسقطون أرضاً بعد اصابتهم بضربات السيوف، أو ارتقوا بلا حراك إثر اصابتهم

بالنشاب، وذلك قبل أن يتمكنوا من الوصول إليه، وكل من وجده رجالنا ما يزال صامداً في مكانه فوق الشرافات، رموه إلى الأرض دونهم، ولقد تم قتل ستين من الترك في مختلف أجزاء الحصن.

وعندما رأى الذين التجأوا إلى البرج مقتل عساكرهم، وأن المكان الذي اعتصموا فيه سوف يجري تدميره (لأن رجال الملك كانوا على الفور بناء على توجيه الملك قد شرعوا بالعمل لتدميره) أدركوا أنهم لن يستطيعوا التمتع بالأمان طويلاً في التصدي للملك، لذلك استسلموا يوم الجمعة قبل عيد الحصاد، ووضعوا أنفسهم تحت الرحمة الملكية ليكونوا عبيداً دوماً إلى الأبد، وتمتن هذا القرار أكثر بوساطة حقيقة أن أميرهم القوي جداً، واسمه قيصر Caisac ، الذي كان معهوداً إليه أمر قيادتهم وحمايتهم، قد أخفق بوعوده في تأمين الأمان لهم، وبعد الاستيلاء على حصن دير البلح، وجدوا فيه نحواً من أربعين أسيراً فرنجياً، كانوا في الأغلال، وباتوا الآن يعيشون أحراراً.

وجعل الملك رتشارد رجاله ليلة الجمعة التالية يقومون بحراسة الترك الذين ظلوا على قيد الحياة، حتى الصباح، ومع أوائل الفجر طلب منهم النزول، وقد ربطت أيديهم خلف ظهورهم بحبال، ولذلك غدت أطرافهم متيبسة، وكان تعدادهم قد وصل إلى ثلاثمائة بالإضافة إلى الأطفال والنساء.

وهكذا تملك الملك رتشارد حصن دير البلح، بفخر كبير، وذلك بعد أربعة أيام من هجومه عليه وكان رجالنا راغبين تماماً في انجاز هذا العمل بدون الفرنسيين، حتى ينالوا مجداً أعظم.

وهكذا جرى الاستيلاء على دير البلح، وفي الوقت نفسه كان الكونت هنري مع الفرنسيين ودوق بيرغندي، قادمين بسرعة كبيرة، حتى يكونوا حضوراً أثناء الاستيلاء على الحصن، لكنهم وصلوا متأخرين كثيراً،

واستقبل الملك الكونت لدى وصوله بحفاوة خاصة وبسرور عارم، وأخذه معه إلى الحصن وأعطاه إياه بحضور الجميع، وذلك بمثابة القطف الأول للملكية، ولملكته التي سيستحوذ عليها، وبقي الجميع في حصن دير البلح حيث أمضوا يوم عيد الحصاد العظيم، وفي يوم الاثنين التالي، وضعوا بعض رجال الكونت بمثابة حرس في الحصن، وانطلقوا نحو عسقلان، ومروا في وسط غزة حتى وصلوا إلى مجدل يابا، فهناك بقي الملك لمدة ثلاثة أيام، لكن البقية ذهبوا إلى عسقلان، حيث احتفل الفرنسيون بوقار بعيد الحصاد.

وعندما كان رتشارد في ذلك الموضع هناك وصل رسول من انكلترا، وكان رجل دين اسمه جون دي ألكون Alencon ، ليخبر الملك عن الأوضاع المضطربة في انكلترا، ومرد ذلك إلى تصرفات أخيه الإيرل جون، الذي كان يرفض الاصغاء إلى حجج أمه الملكة، أو إلى أي شخص آخر، بل اتبع هواه والدسائس المتوالية للملك فرنسا، وأكد جون دي ألكون للملك أنه ما لم يوضع حد للخيانة غير المشهورة، وتوقف بوسيلة أو أخرى، انكلترا واقعة في خطر حرمان الملك رتشارد من ملكيتها.

وانزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار، وفكر مليا حول أي السبل عليه أن يتبع، واعترف أخيراً أن عليه العودة إلى الوطن، إذ لم يرغب في أن تنتزع منه بلاده ومملكة آبائه، وفي الوقت الذي لم يكن قد أعلن فيه عن نوايا الملك ومقاصده، قال بعض الناس إنه ذاهب، وقال بعضهم الآخر: إنه لن يدع تقارير غير مؤكدة تبعده عن إتمام واجبه الديني، فمثل هذا العمل لن يساعد على استرداد الأرض المقدسة، ولن يضاعف أمجاده.

وفيا الناس على خلاف بالرأي حول مغادرة الملك رتشارد، اجتمع معا جميع قادة الجيش وضباطه من: فرنسيين وانكليز، ونورمانديين، ورجال بواتو، ومين وأنجو، واتفقوا أنه سواء أعاد الملك رتشارد أم لم

يعد، سوف يزحفون لحصار القدس، وما من شيء ينبغي أن يمنعهم من القيام بذلك، وعندما بات هذا معروفاً بين صفوف الجيش امتلأ الناس بسرور عارم، وابتهج الجميع مع بعضهم بشكل علني من غني وفقير، وعالي ومنخفض، ولم يكن هناك رجلاً واحداً في الجيش إلا وشعر بالشيء نفسه، وبناء عليه أقاموا إضاءة هائلة، ورقصوا وغنوا طوال الليل تقريباً.

وكان الملك وحده الذي اضطرب لدى سماعه بذلك، وجلس يفكر واستغرق بالتفكير حتى قهره ثقل ذلك، فألقى بنفسه فوق فراشه، وهو غاضب جداً.

وكان الوقت الآن بداية حزيران، وانتعش الناس بالرغبة بالانطلاق نحو القدس، وانطلق الملك مع الجيش من تل الصافية، وتابعوا زحفهم خلال السهول إلى يبنى العائدة للاستتارية، ثم إلى بيت جبرين فالخليل، قرب الوادي الذي قيل بأن حنة أم مريم العذراء قد ولدت فيه، وتوقفوا هناك حيث هاجمتهم حشود من الحشرات الصغيرة، التي طارت هناك مثل شرر النار، وأطلق عليها اسم « بعوض Cincenelles »، وامتلات المنطقة كلها من حولهم بهذه الحشرات، وقد أزعجت الحجاج بشكل مرعب بلسعاتها الحادة في الأيدي والرقبة، والعنق، والجبهة، والوجه، وفي كل مكان صدف وكان مجرداً، وكان يتبع اللسعات حرقة وتورم، وبدا الذين تعرضوا للسع مثل المصابين بالجذام، وبصعوبة استطاعوا تجنب الهجمات المزعجة بوساطة أغطية ألقيت فوق الوجه والرقبة، لكنهم كانوا جميعاً في معنويات عالية، واعتقدوا أن عليهم تحمل هذه المنغصات بصبر، لأنهم جميعاً أقسموا على الزحف من أجل حصار القدس.

ورأى في أحد الأيام شماس من بواتو، اسمه وليم، الملك، وهو جالس لوحده في الخيمة، وعيناه مثبتتان نحو الأرض، وهو في حالة تأمل، فشعر بالانزعاج من أجله، لأنه عرف أنه كان منزعجاً جداً وقلقاً بسبب الأخبار الواصلة من انكلترا، غير أنه لم يتجرأ على المغامرة على الدخول

على الملك ليخفف عنه ويلطف من ضيقه الذي أثقل كاهله، ونظر إليه نظرة احترام وانهمرت الدموع من عينيه، دون التفوه بكلمة واحدة.

وعندما رآه الملك أنه راغب في مخاطبته استدعاه وأدناه منه وقال له ما يلي: « أيها السيد الشماس، أرجوك أن تخبرني، بحق الولاء الذي تدين به إليّ، ما هو السبب الذي جعلك تبكي، وهل المناسبة انزعاجك وأساك أية علاقة بي؟ ».

ورد عليه الشماس بصوت متواضع قائلاً: « إنني لن أتكلم قبل أن أعلم أن معاليك لن تغضب من الذي سوف أقوله » : وأقسم له الملك أنه سيعطيه الحرية في أن يقول ما يشاء، وبناء عليه بدأ الشماس يقول:

« مولاي الملك، إنني أبكي بسبب الوضع الحرج الذي أراك فيه قائماً مع الجيش، ذلك أنك تنوي العودة إلى الوطن، لعل الرب يمنعك عن الابتعاد عن استرداد هذه الأرض المسكينة بسبب أخبار مشكوك فيها، أو غير مؤكدة، لأننا نعتقد أن تخليك سيسبب عاراً أبدياً لك، فالجميع هنا على اتفاق أنك الأب، والبطل، والمدافع عن المسيحية، وإذا ما هجرتهم كأني بك وقد ألقيت بهم للدمار بوساطة العدو ».

وأصغى الملك إلى كلمات الشماس، وتفكر بها في قرارة نفسه بصمت لبعض الوقت، وتبدل موقفه وتغيرت نواياه بهذا الخطاب، وتأكدت عزيمته حول السبيل الذي سوف يتبعه، ولهذا رجع مع جيشه في اليوم التالي إلى عسقلان، وتوقف في البساتين الموجودة خارج المدينة، وافترض كل واحد أنه بات على نية العودة إلى الوطن، وأنه يسرّع عودته، لكن بما ألهمه الرب إياه من خلال الشماس، أخذ الملك يغير نيته، وأخبر الكونت هنري ودوق بيرغندي وبقية النبلاء أنه لن يترك الأراضي المقدسة قبل الفصح، بسبب تلقية أية رسالة أو أي تقرير أو شكاية مهما كان نوعها.

وبناء عليه، استدعى في الرابع من حزيران، في اسبوع الثالث

المقدس، فيليب، مناديه وأمره أن يعلن في جميع صفوف الجيش إن على الجميع إعداد أنفسهم وفقاً لامكانياتهم، والاستعداد لحصار القدس، وعندما سمع الجيش كلمات المنادي ابتهج مثل طير عند حلول الفجر، وعلى الفور أعد الجميع أنفسهم وقالوا: « أيها الرب، إننا نعبدك ونشكرك لأنك سوف تجعلنا عما قريب نرى مدينة القدس، التي استقر بها الترك مدة طويلة وأكثر مما ينبغي، أيها الرب بارك توقعاتنا بعد هذا التأخر الطويل، فلم عانينا وتعذبنا وتألم كل منا، إن شوقنا الطويل لرؤية مدينتك سوف يعوضنا عن كل شيء»، وهذا الدعاء ومثله قدمه كل واحد، وبات همهم الوحيد وشغلهم الشاغل الآن هو الشروع بهذا الزحف، زد على هذا كانت حشود الناس من الطبقات الدنيا متشوقة جداً للزحف نحو القدس، وباتوا نشيطين جداً بأملهم، حتى أنهم حملوا حقائب المؤن على أكتافهم، وأكدوا أنهم قادرون تماماً، أن يحملوا ميرة شهر، فلا شيء لا يمكن التغلب عليه في ذهن انسان ملك الإرادة، فقط إذا امتلك الرغبة والحماسة في خدمة الرب، فهذا يخفف من شقاء تعبهِ ويلطفه.

وفيما كل واحد كان مشغولاً بالاستعداد للحملة، بدا أن كل شيء قد حدث متوائماً مع نواياهم، وبعد ما استعد الملك والجيش تمام الاستعداد من أجل الزحف، انطلقوا من عسقلان في فجر يوم الأحد، الذي وافق اليوم الثامن بعد عيد الثلاث المقدس، وساروا يريدون القدس، وكان الذين تقدموا في الأمام نخبة الناس، وقد اصطفوا بشكل رائع، وزحفوا ببطء بسبب الحرارة، وزود الذين انضموا إلى الطبقات العليا الذين انضموا إلى الطبقات الدنيا بما أرادوه بكرم، وكان هؤلاء فقراء الحجاج الذين ساروا على أقدامهم، ولقد زودهم الأغنياء بجميع وسائل التسهيلات من خيول وكل نوع من دواب الحمولة لحملهم، وفي الوقت نفسه سار في الخلف الذين حملوا أسلحة خفيفة، والجنود الشباب

الأقوياء.

وكان بإمكانك وقتها أن ترى عدداً من الأعلام والعذبات من مختلف الأشكال وهي تخفق في الهواء، وكذلك أناساً من مختلف الأمم، وأسلحة متنوعة الأوصاف، وخوذاً لها أعراف وكانت تلمع بالجواهر، ودروع مشرقة، وترسة مزينة بصور أسود أو تينينات طائرة وكلها من الذهب، وبغال وخيول متشوقة للتحرك بسرعة كاملة، ويتحرقون سخطاً لأنهم أعيقوا ببعض المعيقات، وكانت هناك رماح كثيرة بأسنة حادة ذات لمعان، وكان الجومليئاً بأشعة السيوف المتلألئة، كما وكان هناك عدد كبير من الجنود، من خيرة الرجال، رجال صدق وجودة.

وتقدموا مسرعين وبنجاح، وبعد عبورهم لنهر عذب الماء وصلوا الى تل الصافية، ونصبوا خيامهم بالسهل بالخارج، وأمضوا الليل هناك، وفي أثناء الليل مات عسكري مع حامل سلاحه لأنها لدغا من ثعبانين في منطقة صغيرة هناك، أرجو أن يمنحهما الرب الذي كانا يعملان في خدمته الغفران لروحهما، ومكث الجيش في ذلك المكان لمدة يومين.

ووصل الجيش في اليوم الثالث، وهو التاسع من حزيران، الى النطرون، وذلك بدون عوائق أو منغصات، وأسر رجالنا الليلة أربعة عشر بدوياً هبطوا من الجبال للنهب، وفي اليوم التالي تحرك الجيش بعد الغداء نحو الأمام، وسار الملك في الطليعة ومعه خاصة جنده حتى قلعة قلونية، حيث أمر بنصب خيمته على الجانب الأيمن، والأعلى من القلعة، ووصل الفرنسيون في اليوم التالي، وانطلق الجيش كله الى بيت نوبة حيث مكث بعض الوقت. يتوقع وصول الكونت هنري، الذي بعثه الملك رتشارد الى عكا لجلب بعض الناس الذين كانوا يعيشون هناك باسترخاء وكسل، ولذلك كان من الضروري بالنسبة للجيش أن يبقى هناك الشهر كله أو أكثر، وأن يقيم عند سفح الجبل الذي توجب على الحجاج عبوره لدى ذهابهم الى المدينة المقدسة والعودة عنها.

لماذا لم يزحفوا الى القدس

وفيما نحن في الوادي ، رأينا أشياء كثيرة تحدث ، الأمر الذي نعتقد أننا لا يجوز أن نمرّ به صامتين ، ففي اليوم الذي أعقب عيد القديس برنابا ، وكان يوم جمعة ، أخبر جاسوس الملك أن الترك موجودين فوق الجبل ، في كمين للذين توجب عليهم الجواز ، ولهذا انطلق في الصباح الباكر عند الفجر للبحث عنهم ، وفاجأهم على حين غرة عند نبع عمواس ، فقتل عشرين منهم ، وجعل البقية يفرون ، وأسر منادي صلاح الدين ، الذي اعتاد أن يعلن مراسيمه ، وكان هذا الرجل هو الرجل الوحيد الذي أبقاه الملك رتشارد حياً ، واستولى أيضاً على ثلاثة جمال ، وخيول وبغال ، وثلاثة أكاديش وبغلين محملين بأغطية حريرية ثمينة وأنواع مختلفة من توابل الصبر ، وأشياء أخرى ، وطارد بقية المسلمين عبر الجبال ، ملحقاً بهم الهزيمة ومقتلاً لهم ، حتى وصل الى وادي ، فهناك بعدما طعن واحداً من الأعداء ورماه أرضاً يموت ، نظر نحو الأعلى فرأى عن بعد مدينة القدس .

وعندما وصلت أخبار اقتراب الملك رتشارد الى الترك الذين يسكنون في القدس ، بوساطة الفارين ، أصيب هؤلاء بالهلع ، وليس هناك من شك لو أن الملك ورجال جيشه تقدموا نحو الأمام في تلك اللحظة من رعبهم ، لتخلي الترك عن القدس ، ولتركوا الفرنجة يستولون عليها بدون منازع ، فقد هرب المسلمون منها أفراداً وجماعات ، ولم يغامر أحد على البقاء بالمدينة ، وما من أحد ارتدع بتهديدات السلطان ، أو انجذب بأمل الحصول على جائزة ، ولهذا كان كل ما طلبه السلطان نفسه هو تزويده بأسرع فرس لديه حتى يمكنه الفرار من وجه الملك رتشارد الذي لم يتجرأ على الانتظار حتى وصوله .

وفي اليوم السابع عشر من حزيران ، وهو يوم عيد القديس بوتولف Boitolph كانت قافلتنا في طريقها من يافا إلى الجيش مع الميرة وبقية الأشياء الضرورية ، وسارت غالبية طلائع رجالنا بسرعة نحو الأمام ، لكن الذين كانوا في الساقة تبعوهم ببطء وبخطا متثاقلة، وعندما كانوا غير بعيدين عن الرملة، انبعث خيالة ترك من كمين، واندفعوا نحو الذين في الساقة، وحاولوا أن يغدوا أمامهم، حيث مروا مباشرة من خلال ساقة القافلة، وأسقط هناك بلدوين دي كارون Carron من على ظهر فرسه، غير أنه امتشق حسامه وأخذ يضرب به في جميع الاتجاهات، فبرهن أن متمنع على العدو، ويتعذر عليهم الوصول إليه.

وألقي أثناء ذلك القتال برتشارد توركي Torques وثيودورك من على ظهري فرسيهما ، لكن بلدوين قاتل حتى جلب له رجاله فرساً آخر، وساعدوه على امتطائه ، وكان هناك صراع حاد ومشرف لكلا الجانبين ، وكانت السيوف تسطع ، وجانب يهاجم والآخر يدافعون عن نفوسهم بشجاعة قصوى ، وكانت هناك خيول تجول تائهة بدون ركاب ، وكان الترك يحملون ورجالنا يقاتلون بثبات.

وكان ما أن يوقع الترك بعض رجالنا الى الأرض ، كما حدث مراراً ، كان رجالنا يصطفون من حوله بإحكام ، ويقيمونه ، ويساعدونه على امتطاء فرسه ، فقد كان كل واحد يساعد الآخر، لكن رجالنا قاتلوا في وضع محرج جداً ، فقد كانوا قلة قليلة ، فقد كان كل واحد يصارع عدوه وهو مغطى - كما حدث فعلاً - بحشد من أعدائه عندما كان أي واحد من رجالنا يحرم من حصانه ، كان مصيره الغلبة من قبل الأعداء ، وقد عقرت الخيول ، وأضعفت كثيراً بزخات النشاب التي رميت عليها .

وألقي بلدوين أرضاً للمرة الثانية وما أن رمي من على ظهر حصانه حتى بادر على الفور فأمر واحداً من رجاله المسلحين بأن يترجل ، وركب

هو عوضاً عنه ، وبعد قليل قطع رأس هذا الرجل الذي تصرف ببسالة .
واتخذ رجالنا الآن موقف الدفاع ، وجرى أسرفيليب رفيق بلدوين ،
ومعه أسر الترك رجلاً آخر من الأتباع المسلحين ، وكان شجاعاً جداً ،
كما قتل آخر رتشارد توركوي ، وللمرة الثالثة حرم بلدوين من حصانه ،
وضرب بالهراوات حتى أصبح بلا حراك وكاد أن يموت ، وتدفق الدم
مثل النهر من أنفه ومن أذنيه ، بينما انثلم سيفه من كثرة الاستعمال
وانكسر رأسه ، وبات غير صالح للاستعمال ، ثم جرى تطويق بلدوين
بمجموعة كثيفة من الترك ، وهنا صرخ لـ « مانسييردي ليسلي » nan-
nassier de lisle ، وكان فارساً عظيم القوة ، سحق كل من
واجهه ، وقال : « مانسيير هل تخليت إذن عني ؟ »

وبناء عليه امتطي مانسييرفرسه وبادر بكل سرعة لانقاذه ، لكن
العدو كان كثيراً جداً ، وشجاعاً ويقا تل بعزيمة وثبات ، لهذا لم يستطع
هذان الرجلان فعل شيء ضد رجال العدو ، فقد حرم مانسيير من فرسه ،
وعندما بات على الأرض ضربوه بوحشية بأعمدة حديدية ، ذوات رؤوس
خشنة ولها أسنان ، وكان واقفاً على الأرض ، فأنهكوه حتى سقط لما به
وكسروا ساقيه وعظامه ، وكل ما في جسده هتكوه ، وهكذا تم تدمير
كل من بلدوين ومانسيير من قبل العدو ، بينما لم يعلم رجالهما شيئاً عن
مصيرهما .

وأرسل الرب في هذه اللحظة ايرل سالسبري الشجاع لانقاذهما
وحمايتهما ، واندفع الايرل نحو العدو وألقى بأول رجل اصطدم به من
على ظهر حصانه ، فعجل بناء عليه أوسكون Auscun ، وكان رفيقاً
لستيفن دي لونغشامب ، فقطع رأسه ، ورماه إلى مسافة بعيدة ،
وتصرف ستيفن أيضاً برجوله ، وازداد رجالنا بالعدد ، وانزلت الهزيمة
بالعدو ، وهرب بسرعة إلى الجبال ، اللهم باستثناء الذين ألقى رجالنا
القبض عليهم ، أما الذين جرحوا من رجالنا فوضعوا بعناية على

ظهور الخيول وحملوا الى الجيش .

وجلب رجل سرياني ، هو أسقف القديس جورج (اللد) قطعة من صليب الصلبوت الى الملك هنري ، وكان هذا الأسقف شخصياً مع رعيته ممن يدفع الجزية لصالح الدين ، منذ أن دخل المسلمون القدس للمرة الأولى ، وكان عندما جاء ، جاء مصحوباً بعدد كبير من الرجال والنساء ممن ينتمون الى شعبه ، وأعطى الملك قطعة الصليب .

وحدث أيضاً ، في اليوم الثالث ، قبل عيد القديس يوحنا المعمدان ، بينما كان الجيش في بيت نوبة ، أنه قلق كثيراً تجاه أخبار جلبت الى الملك ، جلبها رجل تقي هوراعي دير القديس إيليا ، الذي عبر مظهره الخارجي ، ولحيته الطويلة ، والرأس الأبيض ، عن القداسة ، وأخبر الملك أنه منذ زمن بعيد مضى خباً قطعة من صليب الصلبوت ، احتفظ بها لتبقى حتى يتم انقاذ الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، وما أن سمع الملك بهذا حتى بعث على الفور مع الراعي عدداً كبيراً من الناس الى المكان الذي تحدث عنه الراعي ، وبعدما حملوا قطعة صليب الصلبوت بتذلل وتبجيل ، عادوا معاً الى الجيش ، وقبلوا مع الناس قطعة الصليب بكثير من التقوى والاستغفار .

وبعدما تعبد الجيش الصليب لوقت طويل بسرور عظيم زائد ، تشكى الناس من الطبقة الأدنى ومن العامة وقالوا : « أيها الرب ، ما الذي سنفعله ؟ هل سنتابع الزحف الى القدس ؟ ثم بماذا سنقوم أيضاً ؟ هل سنستطيع الصبر حتى ننجز حجتنا ؟ هكذا تعالت التتمتات والشكاوى بين الناس .

وبناء عليه اجتمع الملك مع قادة الجيش للبحث هل من المفيد المتابعة حتى حصار القدس أم لا ، ووافق الفرنسيون على الزحف بحرارة ، لا بل حثوا الملك على متابعة الزحف والحصار ، وقد رد عليهم

بأن هذا لا يمكن القيام به ، وقال الملك : « إنكم لن تروني أعمل بمثابة دليل وقائد للناس في هذه المسألة ، لأن من الممكن أن نكسب بذلك العار ، لأنه من غير المعقول كثيراً أن نمضي في هذه المغامرة ، وإذا كان يرضيكم متابعة الزحف الى القدس ، لن أتحلى عنكم ، غير أنني سأكون رفيقكم ولن أكون قائدكم ، وإنني سأتابعكم ، لكن لن أقودكم . »

«ألا يعلم صلاح الدين كل ما يجري في معسكرنا ، وهل تظنون أن أوضاعنا الضعيفة غابت عن ملاحظته؟»

إنه يعرف تماماً كم هي قوانا، وأنا بعيدين عن شاطئ البحر، وعندها سينحدر العدو بقواته من الجبال الى سهول الرملة ليراقب الطرقات، وليقطع الممرات على الذين يجلبون لنا المؤن، وهنا ستكون المحصلة مأساوية جداً بالنسبة للمُحاصرين، وعندها سنندم ولات حين مندم، وسندفع عقوبة مغامرتنا الحمقاء، وثمن عنادنا .

«زد على هذا إن أسوار القدس التي نقترح حصارها، هي كما سمعنا- عظيمة جداً باستدارتها، وأن نقوم بمضايقتها بقواتنا- التي هي قليلة كما ترون الآن- إن عددها لن يكون كافياً لمتابعة الحصار، أو القيام به، أو حماية الذين يجلبون الميرة، من الحملات التي سيشنها الترك، ومن المؤكد أنهم سوف يتعرضون للدمار أفراداً أو جماعات، إذا لم يكن هناك من يتولى انقاذهم».

«وإذا ما قمت بهذه المغامرة الخطيرة، ونزلت نازلة سوء وأنا المتولي للقيادة (لاسمح الرب) إنني وحدي الذي ينبغي أن يلام لعدم تبصري، وسأكون وحدي المسؤول عن المخاطر، وليس هناك من شك، وأنا على يقين من ذلك، أن هناك أشخاص هنا في الوقت الحاضر، كما هناك أشخاص في فرنسا، قد رغبوا منذ وقت طويل، ويتمنون كثيراً أن أبذل غاية جهدي في هذا الصدد، من دون اتخاذ احتياطات موائمة، وتيقظ مناسب، وأن علي إنجاز أعمال

جريئة، ستكون بحق موضع تساؤل وستجلب العار لاسمي النقي حتى الآن من أية شائبة، وبناء عليه إنها عملية خطيرة جداً، ولها نتائج مشكوك بها وغير محققة على الإطلاق، وأرى إنه خطأ أن نبادر فنندفع نحو الأمام بدون احتياطات عظيمة»

«زيادة على ماتقدم، نحن، وشعبنا نجهل طبيعة هذه المنطقة، ولا نعرف الطرق ولا التشعبات والعقبات، ولو أننا كنا أفضل معرفة بهم، لأمكننا الزحف بسلامة أكبر، ومع هذا أرى إن أفضل سبيل نتبعه هو أن نسأل السكان المحليين من أبناء الأرض، ونطلب نصيحتهم، وهم مشتاقون الى استعادة أراضيهم والعودة الى أوضاعهم الماضية، وينبغي أن نجهد لتأكد منهم ما الذي يروونه الأفضل للقيام به، وأرى أيضاً إنه ينبغي علينا استشارة الداوية والاستتارية، ونقف على حكمهم وموقفهم حول: هل علينا الزحف أولاً لحصار القاهرة، أو لحصار بيروت، أو لحصار دمشق، وبهذه الصورة لن نستطيع جيشنا الاستمرار، كما هو الآن، في أن يتوزع الى فئات بسبب الآراء المتباينة».

وبناء عليه، تم الاتفاق، استناداً لتوصية الجميع وموافقتهم، وجوب اختيار عشرين رجلاً موثقاً بهم، وأن يقسم هؤلاء على اتخاذ قرار حول ما هم بصددده، وأن على الجميع الأخذ بقرارهم دون مزيد من المعارضة، وبالفعل جرى اختيار خمسة من الداوية، وخمسة من النبلاء الفرنسيين، وخمسة من الاستتارية، وخمسة من البلديين السوريين، واجتمع هؤلاء العشرين مع بعضهم، وبعد التداول لبعض الوقت، حول المسألة المطروحة من قبل، عرضوا موقفهم المقرر وهو إن أفضل خطة على الإطلاق هي الزحف مباشرة لحصار القاهرة، ولدى سماع هذا عارضه الفرنسيون بكل شدة، واحتجوا وقالوا إنهم سوف لن يزحفوا الى أي مكان إلا الى حصار القدس. وعندما سمع الملك بعناد الفرنسيين وتخليهم عن موافقاتهم بالالتزام، اضطرب وانزعج وعلق قائلاً: «إذا كان

الفرنسيون ليسوا على استعداد للالتزام بخطتنا، ولن يوافقوا على الزحف لحصار القاهرة، تماشياً مع ما أقسموا على طاعته، إنني سوف أعطيهم اسطولي الراسي في عكا، وهو مجهز تماماً، وذلك لكي يحمل مؤنهم وما يحتاجون إليه، ووقتها يمكن للجيش أن يزحف على طول الساحل وهو مطمئن، كما أنني سأبعث إلى هناك معهم، على حسابي الخاص، سبعمائة فارس، وألفين من أتباعهم، وذلك باسم الرب، وإذا كان أي واحد يحتاج إلى المساعدة من مالي أو مما هو متوفر لدي، ليكن متأكداً أنه سوف يزود بكل ما يطلبه، وإذا كان أي واحد يشك في أنني سأفعل ذلك، فأنا سوف أزحف مع جنودي فقط، وبدون عون الآخرين».

ثم أمر بالتقصي والبحث في داخل خيم الاستتارية التي كانت مجاورة لخيامه، ومعرفة ما الذي يمكن تزويدهم به من أجل القيام بالحصار، وكم عدد الرجال الذين يمكنهم تقديمهم وتسليحهم، وجاء المقدمون أيضاً إلى هناك، ووافقوا على تقديم وفرة من الاسهامات فيما يتعلق بنفقات الحصار، مع أنهم كانوا يمتلكون القليل جداً في جيوبهم، لكن في تلك اللحظة الحرجة والحاسمة ظهوروا وهم متشوقين جداً للقيام بتلك المخاطرة المريبة النتائج كثيراً، حتى باحتياطات أقل مما تصورها لدى الشروع بالتفكير بحصار القدس، التي حللتهم الأيمان من القيام به.

الاستيلاء على القافلة الكبيرة

وبناء عليه، بينما كان الاستتارية يبحثون بقلق ما الذي ينبغي أن يقدمه واحد تجاه نفقات الحصار، وصل برنارد، وهو جاسوس للملك رتشارد، ومعه اثنين آخرين جاء كل واحد منهما من جوار تخوم مصر، وكانا من السكان المحليين للمنطقة، وقد لبسا ملابس تركية ولم يختلفا في شيء عن المسلمين، وكانت وظيفتهما أن يرويا للملك رتشارد تقارير عن أوضاع العدو وما من أحد تكلم اللغة التركية بيسر أكثر منهما، وأعطى الملك رتشارد لكل واحد منهما ثلاثمائة مارك فضي مقابل خدماته.

وبينا للملك أن عليه أن يستعد مع رجاله بكل سرعة ممكنة، لاعتراض طريق قافلة كانت قادمة من مصر، ووعداه أن يقوداه نحوها، وابتهج الملك لدى سماعه ما حكيه وطلب من دوق بيرغندي أن ينضم إليه على الفور للقيام بهذه المغامرة، وليجلب الفرنسيين للمساعدة، ووافق الفرنسيون على القيام بهذا شرط أن يتسلموا ثلث الغنائم، ووافق الملك على هذا المطلب، وهكذا حضر من الفرنسيين على الفور خمسمائة جندي مسلحين بشكل جيد جاهزين للانطلاق، وأخذ الملك معه ألف رجل ممن كان يخدمه بالأجرة.

وشرعوا بالزحف عند المساء، وتقدم الملك أمامهم، وساروا طوال الليل في ظل ضوء القمر الرائع، ووصلوا إلى تل الصافية، واستراحوا هناك قليلاً، وبعثوا إلى عسقلان من يجلب اليهم المؤن، وأعدوا بالوقت نفسه بكل عناية أسلحتهم حتى وصول الخدم الذين أرسلوهم لجلب المؤن.

لكن ما أن زحفت قواتنا للهجوم على القافلة حتى أخبر جاسوس صلاح الدين في القدس بأنه رأى الملك رتشارد ينطلق مع حشد كبير من شعبه لاعتراض القوافل، وبذلك انكشف سر حملتنا، فأرسل صلاح

الدين مسرعاً خمسمائة من خيرة الترك، الذين شكلوا عندما التحقوا بالذين كان موكلاً إليهم حراسة القوافل، قوة مكونة من ألفي فارس، وذلك بالاضافة الى جماعة كبيرة من الرجال.

وعندما كان الملك رتشارد وأتباعه يرتاحون في تل الصافية، أخبر جاسوس الملك بأن واحدة من القوافل المتقدمة الذكرتعبر بالقرب من صهريج مستدير (الخويلفة)، وأشار عليه بالمضي مباشرة والاستيلاء عليها، وأوصاه بإبقاء قواته في الخلف، وقال: «لأن من سيستولي على القافلة، سوف يحصل على غنائم هائلة» لكن بما أن الجاسوس كان من أبناء المنطقة، لم ير الملك وجوب الوثوق به تماماً، والاعتماد على تأكيدات لوحده، ولهذا بادر الملك الى ارسال بدوي مع اثنين من الخدم التيركوبلية اليقطين، للتأكد من صحة المسألة، بعد البحث والتقصي حولها، وجعلهم يلبسون لباس البدو، حتى يظهروا مثلهم مثل المسلمين.

وانطلق الرجال الثلاثة ليلاً عبر الهضاب، التي كانت مغطاة بأبراج مراقبة، وانعطفوا نازلين الى الوادي، وساروا حتى رأوا بعض المسلمين فوق بقعة مرتفعة، وكان هؤلاء أنفسهم جالسين ينتظرون الذين يمكن أن يعبروا الجبال، وعندما اقترب بدوينا منهم لاكتشافهم بخطوات خفية، سألهم المسلمون من هم، ومن أين جاءوا، وإلى أين وجهتهم، وطلب البدوي من الآخرين التزام الصمت، خشية أن يكتشفهم المسلمون من كلامهم، وأجابهم بأنهم كانوا عائدين من المنطقة المجاورة لعسقلان، الى حيث ذهبوا للنهب، لكن واحداً من المسلمين قال له: «لقد قدمت للبحث عنا، وأنت من أتباع ملك انكلترا» وأجابه البدوي بأنه يكذب، ثم تجاوزوه وتقدم مسرعاً باتجاه القافلة، ولحق به بعض المسلمين لبعض الوقت، وهم يحملون قسيهم ورماحهم، وظلوا يفعلون ذلك حتى توقفوا عن المطاردة بسبب تعبهم.

والآن وقد تأكد جواسيسنا من حقيقة القافلة، عادوا بأقصى سرعة

الى الملك وأخبروه أن بإمكانه الاستيلاء بسهولة على القافلة إذا ما بادر مسرعاً ، وعندما سمع الملك بهذا ، وبعدما كان قد أراح خيوله وعلف عليها ، انطلق مع رجاله ، وساروا طوال الليلة التالية حتى وصلوا الى المكان حيث كانت القافلة ، فأعدوا أسلحتهم ، وعبأوا أنفسهم ، وسار الملك في الصف الأول ، ومشى الفرنسيون في الساقة ، وحظر الملك بصوت المنادي على أي واحد الالتفات نحو النهب ، وأمرهم أن يبدلوا ما في وسعهم لخرق الصفوف التركية وتدميرها .

ومع اقتراب الصباح ، وعندما كانوا مشغولين في تنظيم صفوفهم ، وصل جاسوس آخر مسرع جداً ، وأخبر الملك بأن القافلة كانت تستعد مسرعة للتحرك منذ الفجر لأن نية الملك بمهاجمتها باتت معروفة من قبل حراسها ، ولدى سماع الملك بذلك ، تقدم نحو الأمام مع نبأته ورماة الزنبورك ، ، ليعطل القافلة وحراسها ، ولإثارة الحراس للدخول في معركة أبقاهم تحت رقابته حتى يتمكن هو وعساكره من الانقضاض عليهم ، وبهذه الطريقة شعر الترك بالخطر وتأخروا ، في حين اقترب منهم جنودنا مصطفىين في أرتال قتالية جاهزة لانشاب المعركة .

وما أن رأهم الترك حتى شرعوا على الفور بالصعود الى أحد الجبال ، من أجل أن المنطقة المرتفعة يمكن أن تمنحهم وضعاً أثبت ، ودلل مظهرهم العام على أنهم أقل ثقة بأنفسهم من المعتاد ، ثم أقلع الترك بحملة حادة ، وأرسلوا بجروخهم ونشابهم مثل زخات البرد على صفوفنا ، في حين بقيت القافلة واقفة دونما حراك .

وكان الملك رتشارد قد قسم جيشه الى قسمين ، وبناء عليه هاجم الترك بشكل مفاجئ وتمكن مع أتباعه من خرق صفوفهم الأولى وهزموها ، وكانت حملته من الشدة بمكان جعلتهم يسقطون الى الأرض من دون ضربة تقريباً ، وضغط هو بوحدة وشدة على المنهزمين ، إلى حد أنه لم يبق هناك من لديه مقاومة ، باستثناء عدد من الذين

فروا ، وكانوا يلتفتون نحو الخلف ، ويرمون بالنشاب خلفهم ، وهكذا هرب الجميع ، مثل الأرانب البرية أمام كلاب الصيد ، وطوردوا في كل اتجاه ، في حين وقفت القافلة تحت رحمة المطّاردين الذين قتلوا كل من اصطدموا به ، وهكذا تكومت جثث قتلى العدو فوق الرمل ، فالذين حرموا من خيولهم بوساطة فرساننا ، أجهز عليهم سيرجنديتنا ، وكان من الممكن أن تشاهد هناك خيول وقد انقلبت سرجها ، فالذين هزموا تمّ تدميرهم بشكل تعيس ، وقاتل رجال الملك ببسالة ، وقاتل الفرنسيون أيضاً بمعنويات عالية ، مثلهم مثل رجال اعتادوا على القتال.

وكان الملك متفوقاً على البقية بتفوقه الملكي عليهم جميعاً ، فقد أمتطى فرساً طويلاً ، وانقض على العدو بمفرده ، وفي أثناء القتال انقصفت قناة رمح ، بسبب الطعن به مراراً ، وباتت قطعاً متناثرة ، فامتشق سيفه على الفور ، وأخذ يضرب به ، فضغط بشدة على الفارين وكومهم على الأرض ، وأزال الذين كانوا بالخلف من الوجود ، وأخضع الذين كانوا أمام الجميع ، ولقد كان مثل الصاعقة ، قطع ومزق كل من صدفه ، فما من درع كان يمكنه الصمود أمام ضرباته ، فبحد سيفه قطع الرؤوس من الأعلى حتى الأسنان ، وبضربه بسيفه يمنة ويسرة أربع. الترك وجعلهم يفرون مثل الشياه لدى مطاردتها من قبل الذئب .

وفيما الملك يتولى على هذه الصورة الفارين ، قام بعض هؤلاء وهم في حالة يأس ، فتخلوا عن طريقهم ، وعادوا نحو غيما الذي كان شبه مهجور، آمليين بعمل شيء ما ضد الحرس في أثناء غياب الملك ، فعندما كانوا أمامه تخلت شجاعتهم عنهم ولم يكن هذا بلا سبب لأن حياة الأعداء أو موتهم كانت دوماً بين يديه .

وبناء عليه جاء حوالي الثلاثين من الفارين عبر طريق دائري ، وانقضوا على رجالنا ، وقاموا بحملة عنيفة على روجردي توني Toony ، الذي قتلوا حصانه من تحته ، وكاد أن يقع في أسرهم عندما جرى

انقاذه من بين أيديهم بوساطة واحد من رفاقه .

وجاء في الوقت نفسه رجالنا المسلحين مع إيرل ليستر، وهاجموهم من على اليمين واليسار، ثم تجددت المذبحة ، ولعت السيوف بالهواء ، وتغطت الأرض بالدماء ، وتلاقت الأذرعة واصطدمت مع بعضها ، ومزقت الأجساد ، وقطعت الأطراف ، والرؤوس والأذرعة والأقدام ، والأيدي ، والأطراف الأخرى كانت موزعة هنا وهناك ، واعترض طريق رجالنا أثناء سيرهم أجساد الأعداء التي كانت ملقاة على أرض المعركة بأعداد كبيرة ، وجعلتهم يتعثرون في كل خطوة ، وكانت مقتلة الترك أعظم مما رآه أجدادنا قط ، وكان اضطرابهم وهلعهم أثناء القتال قد بلغ حداً ، أن طفلاً واحداً كان بإمكانه أن يقتل عشرة منهم أو بالحقيقة ، أكبر عدد منهم بقدر من كان يصطدم بهم .

وبهذه الهزيمة ألقى بكبرياء الترك الى الرغام تماماً ، ومحقت شجاعتهم بالفعل كلية ، في حين غدت القافلة ، بكل ما فيها من ثروات غنية للمنتصر ، فقد سلم حراسها بأنفسهم الى رجالنا الأثقال ، وخيول النقل ، ومدوا أيديهم نحو الأمام استسلاماً ، والتمسوا الرحمة ، على شرط واحد هو أن تصان حياتهم .

وقادوا حيوانات الجر والجمال ، بشكالها ، وسلموها الى رجالنا ، وجلبوا البغال وهي محملة بالتوابل من مختلف الأنواع ، والأثمان العالية ، مع الذهب والفضة ، وأردية الحرير الأرجوانية، والثياب الحمراء ، والملابس المطرزة بأشكال متنوعة ، بالإضافة الى الدروع والأسلحة من جميع الأشكال ، والسوابغ ، والأرائك الثمينة ، والسرادقات والخيم ، والبقساط، والخبز ، والشعير والقمح ، والأطعمة وكميات هائلة من الأطعمة المحفوظة والأدوية ، والطشوت والقرب والصناديق ، والصحون الفضية ، وحوامل الشموع ، والفلفل والقرفة ، والسكر ، والشمع ، وأشياء أخرى ثمينة مختارة من مختلف الأنواع ، وكمية هائلة

من المال ، وكميات لا يمكن عدها من البضائع ، لم يؤخذ مثلها من قبل في وقت واحد في أي مما تقدم من معارك .

وبعدما توقفت مقتلة المسلمين ، وتم الاستيلاء على القافلة ، تعرض جيشنا الى أمر مزعج ومتعب تمثل في جمع الجمال والنوق ، التي كانت تسبب الفوضى والاضطراب للجيش كله ، لأنهم تجنبوا مطاردتهم من قبل خيولنا بقدرة عظيمة بحيث أنه ليس هناك نوع آخر من الحيوانات يمكن أن تكون مثلهم بالفعالية والسرعة الطبيعية ، فكانوا يبدون متماهلين وبطيئين حتى يغدوا المطارد على مسافة ضئيلة منهم ، وعندها يتحركون بسرعة كاملة .

وتم أخيراً بوسيلة أو أخرى جمع أربعة آلاف وسبعمائة جمل وناقة مع بعضها بعضاً، علماً بأن هذا الرقم ليس مؤكداً ، وأخذوا كثيراً من البغال من الجنسين ، وهمير تحميل من غير الممكن عدها لكثرتها ، لأنها بدت أكثر عدداً مما كان من الممكن أن يتطلبه تعداد الرجال ، فضلاً عن هذا كله تجاوز عدد الفرسان الأتراك الذين قتلوا في ذلك اليوم الألف وسبعمائة، الى جانب عدد كبير من الجنود الرجالة الذين ديسوا أثناء المعركة حتى الموت .

كيف عاد الجيش الى عكا

وعندما أكمل الملك جميع هذه الأشياء ، وأعدّ أثقاله للعودة ، انطلق عائداً مع جيشه مثقلاً بالأسلاب ، وسار الجميع بخطا وثيدة ، حتى وصلوا الى بيت عفة التي ابتعدت مسافة أربعة أميال عن يافا، فهناك توزعوا الغنائم فيما بينهم ، ثم تابعوا سيرهم في اليوم التالي الى الرملة .

والى هناك جاء الكونت هنري مع العساكر والناس الذين جلبهم معه من عكا ، ومن هناك توجهوا جميعاً إلى بيت نوبة ، وهو المكان الذي كانوا انطلقوا منه ، وتجددت هنا الأفراح العامة، وتقاطر الجميع واجتمعوا مندهشين تجاه عدد حيوانات التحميل التي سيراقتها الجيش .

ولدى الوصول ، وزع الملك النبيل الجمال ، التي كانت أكبر حجماً من أي نوع رأي هناك من قبل ، وأعطاهما إلى الجنود الذين مكثوا لحماية المعسكر ، وإلى الذين انضموا الى الحملة على شكل حصص متساوية، وحذا في هذا المقام حذو ذلك المحارب الشهير، وأعني به الملك داود الذي أعطى حصصاً متساوية من الأسلاب الى الجنود الذين ذهبوا الى المعركة وإلى الذين مكثوا في المعسكر، ووزع أيضاً الحمير بين الرجال الذين يخدمونه ، وزود الجيش بهذه الوسيلة بعدد كبير جداً من الجمال وحيوانات الحمولة الأخرى ، ولقد كان من الصعب جداً حفظها مع بعضها ، وحشوا لحوم الجمال الشابة بشحوم الخنازير وشووها للأكل ، فوجدوها بيضاء كثيراً ، وسائغة طيبة المذاق.

وبعد وقت قصير من توزيع الأسلاب ، شرع الناس يتشكون من أن حيوانات التحميل قد أكلت كثيراً من الشعير والأعلاف ، ولهذا ارتفعت أسعار الحبوب كثيراً ، وبالإضافة الى هذا توفر المزيد من الشكوى

والأسف بين الناس، لأنه ارتوي أنه من غير المناسب الزحف نحو حصار القدس، حسبما رغبوا، وذلك بسبب معارضة العشرين مستشاراً.

فلقد رأوا أنها مغامرة صعبة، لابل مستحيلة، بسبب الحاجة الى الماء، الذي لن يستطيع الناس والمواشي العيش من دونه، لاسيما وأن عيد القديس يوحنا بات على الأبواب، وهو زمان تزداد به حرارة الصيف، وبسببها يغدو كل شيء جافاً بشكل طبيعي، خاصة حول القدس، القائمة في الجبال، زد على هذا أغلق الترك جميع صهاريج الماء، لذلك بات من غير الممكن إيجاد نقطة من الماء الصالح للشرب على طول مسافة ميلين من المدينة، ومن غير المأمون الذهاب للبحث عن الماء الى مسافات بعيدة، عندما يكون الحصار قد بدأ، ولن يكون نبع سلوان الصغير الذي يجري عند سفح جبل الزيتون كافياً للجيش.

ولقد كانت هذه هي الأسباب التي جعلت المستشارين يقنعون الملك رتشارد بالاقلاع عن حصار القدس في ذلك الوقت، وعندما بات معروفاً في أوساط الجيش أنهم لن يذهبوا الى هناك، بل كانوا على وشك الابتعاد عن تلك المدينة، لعنوا ذلك التأخير وأكدوا أنهم يرغبون فقط بالبقاء أحياء حتى تغدو القدس والأراضي المقدسة والصليب مرة أخرى في حوزة المسيحيين وحدهم.

وعلىنا أن لا نعجب أن الحجاج الذين تعذبوا هكذا بدون الوصول الى نتيجة طيبة، أسفوا وحزنوا لاختفاق رغباتهم، في حين تطور الخلاف فيما بينهم الى انشقاق، ولما ظهرت هنا سمات التردد لدى الفرنسيين، التي ميزتهم عن بقية الشعوب، حدث في إحدى الأمسيات عندما كان الجيش يتقدم في زحفه، قام الفرنسيون بعزل أنفسهم عن البقية واتخذوا موقفاً متميزاً، وكأنهم يزدرون الجماعة، ولم يكتفوا بالرضا بالانفصال فقط بل انخرطوا بالشجار فيما بينهم أنفسهم، وتلفظوا بألفاظ قاسية بشعة، ولغة قبيحة، وتبجح كل منهم ببسالتة، وبعدم الاكتراث أو التقدير

لآخرين، وفوق الجميع نظم هنري دوق بيرغندي أغنية، نشرها بين الناس، وهي أغنية (لو امتلك أدنى إحساس بالخجل) لما سمح بنشرها، ولم يغنها الرجال فقط بل النساء غير الوضيعات أيضاً، مظهرين أخلاق هؤلاء الذين تورطوا في مثل هذه الحماقة القذرة.

وعندما انتشرت الأغنية بين الجنود وتداولها الناس، غضب رتشارد غضباً عظيماً، وارتأى أن القيام بعمل مماثل سيكون وسيلة للانتقام لنفسه من الناظم، وكانت هنالك وفرة بالمادة، ولذلك لم يجد صعوبة في نظم أغنية معاكسة، وهاجمه منافسه، الذي لم يكن موازياً له، بشتائم قاسية وقبيحة بلا مسوغ.

وبقي الجيش على هذه الشاكلة لعدة أيام بعد الاستيلاء على القافلة، وكان أفراد حزينين جداً ويائسين نتيجة الحظر الذي وضع على متابعة الجيش زحفه حتى يزور الضريح المقدس في القدس، الذي كانوا على مسافة أربعة أميال منه، ولم يكن الشعور بالاحباط الذي سببته عودتهم له مايوازيه مطلقاً لدى أناس شجعان مثلهم.

وعندما تحرك رجالنا تعرضوا للهجوم من قبل الترك من الجبال، وصدهم فرساننا الأقوياء ولكن بعض أتباع معسكرنا قتلوا لأنهم لم يمتلكواخيولاً جيدة، ووصل الجيش بعد هذا الى مكان قام فيما بين القديس جرجس والرملة، وهناك أمضى الليلة، وقد عسكر الفرنسيون على الجهة اليسرى، وعسكر الملك ورجاله على الجهة اليمنى.

وساروا في اليوم التالي وتابعوا زحفهم في أقسام منفصلة، ووصلوا الى قلعة قامت في منتصف الطريق، وكان هذا في اليوم السادس من تموز، وتخلّى هنا بعضهم عن الجيش وهجروه وهم في حالة اشمئزاز، بسبب حالة الانهاك والإرهاق التي تعرضوا لها أثناء الحملة، وذهبوا الى يافا.

وعندما علم صلاح الدين بحالة الصليبيين ونواياهم، انتعشت

آماله، وكان سروره بلا حدود، وبعث على الفور برسل يحملون رسائل مختومة بخاتمه الى الأمراء والمقدمين، والقادة والحكام في ممالكه يخبرهم فيها بالتمزق الداخلي الذي تفجر داخل جيش الفرنجة، وأرغمه على التراجع، وأن كل من يريد أن يدخل في خدمته مأجور عليه القدوم الى القدس، وكان الحشد الذي تدفق الى هناك عظيماً، ونتيجة لهذا بات عدد الخيالة يقدر بعشرين ألفاً من الأشداء، الى جانب جموع لاتعد ولا تحصى من الجنود الرجال. وأدرك بالوقت نفسه الملك عجزه عن منع الناس، وإيقافهم عن التخلي عن الجيش، بسبب تباين المواقف التي سادت، فرأى أن خير خط سياسي يمكنه اتخاذه هو مراسلة صلاح الدين في هذه الساعة، والموافقة على الهدنة (التي عرضت من قبل في سهول الرملة) لمدة محدودة، من أجل أن يمتلك الوقت حتى يستطيع العودة من بلاده، غير أن صلاح الدين الذي عرف تمام المعرفة أوضاع جيشنا، وأنه كان يزداد ضعفاً كل يوم، رفض رفضاً قاطعاً، ما لم يتم تدمير عسقلان وإنزالها الى الأرض واجتثاثها، وما أن علم الملك بجواب صلاح الدين، لم يظهر أبداً الانزعاج، بل أمر على الفور الداوية والاستبارية مع آخرين، وصل عددهم الى الثلاثمائة، أن يمتطوا خيولهم، ويسيروا لتدمير حصن دير البلح وبعث برجال الحراسة ومراقبة حصن عسقلان بالشدة الممكنة.

وبادر هؤلاء لتنفيذ أوامر الملك، فدمروا دير البلح وسووها بالأرض، ثم عاد الجيش في حالة اشمئزاز وقنوط حتى يافا، حيث بقي هناك العديد بسبب سوء الصحة والضعف، وفي الوقت نفسه سار الملك مسرعاً كلياً الى عكا.

كيف هاجم صلاح الدين يافا

وعندما سمع صلاح الدين أن رجال يافا كانوا محرومين من وجود رتشارد لحمايتهم، أمر جيشه بالزحف الى هناك، وهو يأمل بالاستيلاء على المدينة بسهولة خلال غياب الملك، وأخذ معه عشرين ألف فارس، وأمير البيرة(?) Bula لقوي، وابن(مقدم)الحشيشية، مع مائة وستة أمراء، وحشد هائل من الرجالة من الجبال، الذين غطوا وجه الأرض مثل الجراد، وغادر الجيش القدس، ونزل الى سهول الرملة، واندفع الجند على شكل أرتال وفرق، كلهم كان متحمساً ومتشوقاً لتدمير الفرنجة تدميراً كاملاً.

وكان يوم الأحد الذي أعقب أحد الزحف هو عيد القديس بطرس في الأغلال [٢٦-تموز] (وهو الموافق لليوم الذي جاء فيه الملك رتشارد مع جيشه الى عكا) ففي هذا اليوم زحف صلاح الدين مع عساكره للهجوم على يافا، وشرعوا في يوم الاثنين التالي بمهاجمة القلعة، لكن سكان المدينة خرجوا الى الأرباض، وقاوموهم طوال النهار، ومنعوهم من الاقتراب من المدينة، ومريوما الثلاثاء والاربعاء على الشاكلة نفسها، ولم يكن حتى يوم الخميس حين شعر الترك بالخجل بأنهم صدوا من قبل عدد بهذه الضالة، فقاموا بجهد عظيم وطوقوا المدينة على الفور، وبأمر من صلاح الدين أقيم أربعة منجنيقات قوية مع منجنيين بكفاءة عظيمة في زمي المقدوفات.

وكان عدد المحاصرين داخل يافا حوالي خمسة آلاف، وبدأوا الآن يتأثرون بسوء أحوالهم، ولذلك شرعوا يدعون للرب لانقاذهم، وحولوا أنظارهم نحو ملك انكلترا، وتمنوا لو أنه لم يذهب الى عكا، تاركاً إياهم هناك عرضة للدمار، وشدّد الترك في الوقت نفسه الحصار، وكان الوضع

المتردى لسكان المدينة يبكي أي انسان يرى ذلك، ومع ذلك قاوموا بشجاعة كبيرة، علماً بأنهم أنهكوا بوضع ألف رجل على الفور للدفاع عن مدينتهم، في حين لم تتوقف العرادات والمجانيق عن القذف.

وتم أخيراً بفضل حملات الترك وضغطهم تدمير البوابة التي تقود إلى القدس، وفتحت يوم الجمعة نتيجة الضربات المتوالية للمنجنيق، كما أن السور القائم على جهة اليمين انشطر بمقدار عمودين بالعرض، وكان الالتحام وقتها حاداً جداً، وبينما قاوم المحاصرون دخول الترك، تلقى هؤلاء نجدات، لذلك دفعوا بأعدادهم الفرنجة الى الخلف حتى أوصلوهم الى قلعة المدينة، ولكم كانت المذبحة التي وقعت مرعبة، وبطش الترك بأعدائهم وقتلوهم بدون رحمة، وفتكوا بكل من وجدوهم في البيوت مرضى ومستلقين بفرشهم، وهرب بعض رجالنا ونزلوا نحو شاطئ البحر ونجوا، في حين انشغل العدو في نهب كل شيء، وكسروا رؤوس جميع دنان الخمرة التي وجدوها في البيوت، وجعلوا الخمر تجري في الشوارع، وهاجم بعضهم البرج الرئيسي في القلعة، وطارد آخرون الذين انحدروا فارين نحو شاطئ البحر، وتم تمزيق عدد من المتخلفين، وهرب ألبيرك Alberic أوف رايمز، وكانت وظيفته حماية البلدة، لقد نجا على ظهر سفينة خشية أن يتعرض للقتل، لكن أتباعه ورفاقه انتقدوه لجبنه، ودعوه لأن يشعر بواجبه وأرغموه بالقوة على الدخول إلى أحد الأبراج، وحين لم ير هناك سوى المخاطر التي تحيط به من كل جانب، تمتم قائلاً: «هنا سوف نكرس حياتنا لخدمة الرب» لأن ذلك الشيء الوحيد الذي بقي له ليصنعه .

وهاجم الترك الآن البرج، وحجبت زخات نوابهم نور الشمس، ولم يعرف المحاصرون أي جانب عليهم الدفاع عنه أولاً، واستمر القتال طوال النهار، وكان من المؤكد أن يلجأ الفرنجة أخيراً إلى الاستسلام أمام عنف القتال، لولا بفضل الرب كان البطريك المنتخب حديثاً موجوداً،

فقد برهن في تلك الساعة أنه كان رجلاً لا يخاف الموت ، وما من شيء كان يرعبه.

واضطر هذا الرجل بحكم الضرورات أن يقترح على صلاح الدين وأخيه منحهم برهة من الوقت يتوقف خلالها القتال حتى اليوم التالي ، بشرط إذا لم يتسلموا مساعدة حتى ما قبل الساعة الثالثة، على كل رجل داخل القلعة أن يدفع إلى صلاح الدين عشر قطع ذهبية، وعن كل امرأة خمس قطع ، وعن الطفل ثلاث قطع مقابل الهدنة التي منحهم إياها، وأن البطريك مع النبلاء الآخرين سوف يسلمون أنفسهم رهائن إلى صلاح الدين، وأن يبقوا في الأغلال حتى حلول الساعة المتفق عليها.

ووافق صلاح الدين، وعندما اكتملت الضمانات من أجل مراعاة شروط الهدنة، جرى تقديم الرهائن التالية إلى صلاح الدين: البطريك، ألبيرك أوف رايمز، وثيوبولد أوف تريف، وأوغسطين أوف لندن، وأوسبيرت والدن osbertwaldin، وهنري دي سينت جون، إلى جانب آخرين، لا نتذكر أسماءهم، فهم جميعاً حملوا أسرى إلى دمشق.

وفي الوقت نفسه كان الملك رتشارد مشغولاً جداً في الاستعداد لمغادرة عكا عائداً إلى بلاده، وكانت سفنه كلها جاهزة تماماً، وكان قد حصل أيضاً على موافقة من الداوية والاستبارية ومباركة، وبعث أمامه بسبع من شوانيه مشحونة بالقوات لإخراج العدو من بيروت، التي سيمر بها، ونجحت هذه الحملة، وفر العدو مرعوباً.

وكان الملك في خيمته يتحدث مع ضباطه حول إقلاعهم في الغد نحو أوطانهم، عندما وصل رسل من يافا، ودخلوا ممزقة ثيابهم ، فأخبروا الملك كيف أن العدو استولى على يافا كلها، باستثناء القلعة التي مكث فيها البقية تحت الحصار، ومالم يقدم لهم المساعدة بكل سرعة سيواجه الجميع

مصيبراً واحداً، واستمع الملك لأخبار المخاطر التي كان المحاصرون يتعرضون لها، فأثار وضعهم عاطفته، فقاطع الرسل قائلاً: «مادام الرب حياً، سأكون معهم، وسأقدم لهم المساعدة بقدر ما أملك من قوة» .

وما أن أكمل تلفظ كلماته حتى كانت الأوامر قد أعلنت بوجوب استعداد الجيش، غير أن الفرنسيين ماكانوا ليوافقوا على الاستجابة حتى اكراماً للملك، وتبجحوا معلنين أنهم لن يزحفوا مطلقاً مرة ثانية تحت لوائه، وبالفعل هم في هذا المجال لم يخفقوا، لأنهم هلكوا في مدة وجيزة بشكل تعيس، ولم يزحفوا ثانية تحت لواء أي انسان.

وفي الوقت نفسه تهيأ للانطلاق مع الملك، الجنود من مختلف الأمم، الذين لامس الرب شغاف قلوبهم، والذين أثارتهم معاناة أبناء جلدتهم، واستدرت عواطفهم، وأعني بهؤلاء: الداوية والاسبترية، وفرسان شجعان آخرين، زحفوا جميعاً براً الى قيسارية، لكن الملك النبيل الذي عهد بسلامته إلى شجاعته، ركب ظهر احدي شواني اسطوله الذي اصطحبه معه، وكانت شوانيه مجهزة بكل شيء يمكن أن يكون ضرورياً، وكان معه ايرل أوف ليستر، وأندرودي شافني chavigny، وروجردى سيثيا Sathya، وجوردان دي هومز Humez، ورالف دي موليون Mauleon، وآخوس دي في Achus de Fay، وفرسان بريتل Pratells، ومرافقي الملك مع آخرين كثر من ذوي الأسماء اللامعة، الى جانب الجنويين والبيازنة.

وتوقف الذين ذهبوا الى قيسارية هناك لبعض الوقت خشية الوقوع في كمين، حيث سمعوا أن صلاح الدين قد نصب واحداً ضد كل من يحاول المرور في هذا الطريق، ولم يكن هناك طريقاً أفضل، لأن ابن مقدم الحشيشية تولى حراسة المنطقة الساحلية القائمة ما بين قيسارية وأرسوف.

يضاف الى هذا ، ثارت ريح مضادة ، حجزت شواني الملك لمدة ثلاثة أيام في حيفا ، حيث توجب عليهم التسليم بذلك ، واشتعل الملك غضباً تجاه هذا التأخير ، فرفع صوته بالشكاية عالياً وهو يقول : «مولاي ، يارب لماذا حبستنا هنا ؟ أرجوك ، المسألة مستعجلة جداً ، والتقوى هي رغبتنا» . وما أن أكمل دعاءه هذا ، حتى سبب الرب هبوب ريح مواتييه ، نقلت هذا الاسطول ووضعته داخل ميناء يافا في منتصف ليلة الجمعة التي تقدمت مباشرة على يوم السبت الذي اتفقوا على الاستسلام فيه ، عندما كانوا جميعاً على وشك الحمل نحو التدمير .

أسفي من كفر ذلك العرق الشرير ، ففي الصباح الباكر لذلك النهار (يوم القديس بطرس في الأغلال) تعجل الترك فطالبوا المحاصرين بتنفيذ شروط الهدنة ، وبناء عليه بدأوا في الساعة التاسعة بدفع جزء من القطع الذهبية التي وعدوا بها ، ووقتها تصرف الترك الأشرار بوحشية أكبر من الحيوانات ، ولم تتوفر نحوهم أدنى مشاعر انسانية ، حيث قطعوا رؤوس الذين دفعوا المال ، وهكذا هلك سبعة منهم ، ورموا برؤوسهم الى الخندق .

ولدى اكتشاف الذين كانوا على قيد الحياة في البلدة لهذه الخيانة ، أصيبوا بالرعب ، وبدأوا يرسلون صرخات الندب والأسى ، فقد رأوا الموت واقفاً أمامهم ، لهذا ركع كل واحد منهم أمام الآخر ، واعترف كل منهم بذنوبه للآخر ، وماعادوا يفكرون بحياتهم ، بل بأرواحهم ، ولكي يؤجلوا موتهم لبعض اللحظات — ذلك من هو الذي كان هناك ولم يخش الموت ؟ — هربوا صعوداً نحو القلعة ، بقدر ما استطاعوا من سرعة ، وانتظروا هناك ضربة الشهادة ، وكانوا يريقون الدموع ، ويستمدون الرحمة من المولى القدير ، الذي رضي أخيراً ، وقرر الاصغاء لالتماساتهم ، فقد وصل منقذهم ، وكان اسطوله يسير في المرفأ ، وجنوده متشوقين للنزول الى اليابسة لانقاذهم .

واكتشف الترك وصول اسطول الملك ، فانحدروا مسرعين نحو شاطئ

البحر يحملون سيوفهم وترستهم، وأرسلوا أمامهم زخات من النشاب، وكان الشاطئ قد امتلا بشكل كثيف بحشودهم حتى بات من الصعب إيجاد موطئ قدم على الأرض، ولم يقتصر عملهم على الدفاع، بل همز فرسانهم خيولهم لخوض البحر ولنع رجال الملك من النزول الى اليابسة، وعندما كان الملك يجمع سفن اسطوله مع بعضها، تشاور مع ضباطه حول أفضل خطوة يمكن اتخاذها.

وقال: «هل سنندفع ضد حشود الرعاع هذه التي احتلت الشاطئ، أو هل سنقدر قيمة حياتنا أكثر من حياة أولئك المساكين المعرضين للدمار والمحتاجين لمساعدتنا؟»

وأجابه بعضهم بأن محاولات أخرى سوف تكون عقيمة، لأنه ليس هناك ما يؤكد أن أيامنهم حياً لانقاذهم، ثم كيف يمكنهم النزول الى اليابسة في وجه مثل هذا الحشد الهائل؟.

ونظر الملك من حوله مدققاً، ورأى في تلك اللحظة كاهنا يغطس في الماء ويسبح نحو الشيني الملكي، وعندما استقبله على ظهر السفينة خاطب الملك بقلب متلهف وبروح كادت تتلاشى منه وقال: «أيها الملك الأعظم نبلاً، المتبقي من شعبنا ينتظرون وصولك، وهم معرضون للذبح مثل الشياه، ما لم تجلبك النعمة الإلهية لانقاذهم».

وسأله الملك قائلاً: «إذاً، هل ما يزال أحد منهم حياً، وإذا كذلك، أين هم؟» وقال الراهب: «ما زال هناك بعضهم حياً في الطرف الأقصى لهذا البرج المقابل»، ورد عليه الملك قائلاً: «من فضلك يارب، يامن جئنا بتوجيهه وقيادته، سوف نموت مع أخوتنا الشجعان بالسلاح، ولتنصب اللعنة على الذي يتردد».

ولم يكذ يفرغ من كلامه، حتى كانت الشواني قد دفعت نحو طرف اليابسة، واندفع الملك نحو الأمام وسط الأمواج، وأطرافه غير مغطاة

بسابعته، وخاض بالماء حتى وسطه، وبسرعة حصل على موطىء قدم ثابت فوق الشريط الجاف، وجاء خلفه يتبعه غيوفري دي بويز Bois ، وبيتر دي بريتل Pratelles وجاء في المؤخرة جميع الآخرين مندفعين وسط الأمواج.

ووقف الترك للدفاع عن الشاطئ، الذي غطته أعداد هائلة من العساكر، واستطاع الملك بوساطة القوس العقار الذي حمله أن يردهم إلى الخلف يمناً ويسرة، وضغط رفاقه على العدو المتراجع، الذي تلاشت شجاعته عندما رأى أفراداً أن الذي يهاجمهم هو الملك، ولم يعودوا يتجرأون على مقابله، وامتشق الملك سيفه الحاد، الذي لم يعطهم فرصة للمقاومة، فتقهقروا أمام الضربات المميتة الصادرة عنه، وانزاحوا بشكل فوضوي بوساطة رجال الملك حتى بات الشاطئ نظيفاً منهم.

ثم جلب الفرنجة بعض جذوع الأشجار والأعمدة وقطع الخشب من سفن قديمة وشواني، لإقامة حاجز، ومركز هناك بعض الفرسان والخدم والعرادات للحراسة ولطرد الترك واقتلاعهم، وعندما رأى هؤلاء أنهم لن يستطيعوا متابعة التصدي لعساكرنا، فرقوا أنفسهم على الشاطئ بوساطة الصراخ، والعويل، وهم منهزمون جميعاً، ثم انعطف الملك وسار بشكل مستقيم، ولاحظ أن بيت الداوية هو المدخل إلى البلدة، حيث وجد ما يزيد على ثلاثة آلاف من الترك ينهبون كل شيء وجدوه في البيوت، ويحملونه معهم بمثابة أسلاب.

وما لبث الملك الشجاع أن دخل البلدة، وما أن فعل ذلك حتى أمر بهزرايته من فوق مكان مرتفع حتى يمكن رؤيتها من قبل المسيحيين الذين كانوا في القلعة، وقد تشجع هؤلاء لدى رؤيتهم لها، واندفعوا وهم يحملون أسلحتهم من داخل القلعة لمقابلة الملك، ولدى انتشار خبر ذلك اضطرب وضع الترك في البلدة، ودبت الفوضى بين صفوفهم،

وفي الوقت نفسه طارد الملك أفراد العدو، وقتل الذين انحصروا فيما بين الكتلتين المسيحتين وملاً الطرقات بجثث قتلاهم، فهل أحتاج إلى قول المزيد؟ لقد قتلوا جميعاً، باستثناء الذين امتلكوا الفرصة ففروا بالوقت المناسب، وهكذا حدث أن الذين كانوا منتصرين من قبل، باتوا الآن منهزمين وتلقوا عقوبة استحقوها، لأن الملك لم يظهر أدنى رحمة نحو أعداء صليب المسيح، الذين وضعهم الرب بين يديه، لأنه لا يوجد على وجه الأرض انسان مثله مقت الجبن.

وإذا ما تفحصنا أعمال القدماء، وجميع المدونات التي تركها لنا المؤرخون المتقدمون، سنجد أنه لم يكن هناك مطلقاً رجلاً ميز نفسه في المعركة مثلاً فعل الملك رتشارد هذا اليوم، وعندما كان الترك يغادرون البلدة رأوا أعلامه تخفق في الهواء، وارتفعت صرخة عالية من على اليمين واليسار عندما انقض عليهم، ولم تكن عاصفة من البرد أو المطر الشديد بالكثافة تساوي النشاب الذي تطاير من الترك فغطى وجه السماء وحجب ضوء الشمس.

وأحدث الترك الذين فوجئوا بيافا مذبحة هائلة بين الذين كانوا ضعفاء جداً وغير قادرين على المقاومة، وقتلوا عدداً كبيراً من الخنازير، وفي الحقيقة لقد قتلوا كل ما وجدوه منها، لأنهم عدّوها نجسه، وكان محرم أكلها في شريعة المسلمين، ولإزعاج الفرنجة جمعوا في كتلة واحدة أجساد الخنازير مع أجساد الفرنجة الذين قتلوهم، وجرى الآن دفن أجساد الفرنجة بسلام، في حين ألقيت أجساد الترك لتتعفن مع أجساد تلك الخنازير.

وسمع صلاح الدين بوصول الملك وبحربه الرائعة مع الترك، فاستولى عليه لهذا خوف مفاجيء، وكان مثله مثل الأرنب، الحيوان الجبان، غمز حصانه وفر من أمام وجهه، وتابع الملك مع رجاله أعمال المطاردة، يقتلون ويحطمون، بينما أحدث قوسه العقار فوضى عظيمة بين الخيول،

حتى أن آثار فرارهم كان يمكن رؤيتها لمسافة ميلين، ونصب الآن خيمته في المكان نفسه الذي كانت فيه خيم صلاح الدين منصوبة، وهكذا كان بفضل الرب استطاعت فئة صغيرة من الرجال الحاق الهزيمة بهذا الجيش التركي العظيم.

واستدعى صلاح الدين أمراءه إليه وخاطبهم قائلاً: «هل هزمنا جميعاً؟ هل عاد جيش الفرنجة من عكا ليقتلنا وليهزمنا على هذه الصورة؟ بأي وسيلة متفوقة أمكنهم انجاز هذا؟ فمن المقرر أن جيشنا كان متفوقاً برجالته وكذلك بفرسانه»!

ورد على هذه الكلمات واحد من المؤبخين، كان موجوداً، وكان مدركاً لأوضاع جيشنا قائلاً: «مولاي ليس الأمر كما تظن، ليس لدى الفرنجة خيول ولاحيوانات تحميل من أي نوع، باستثناء ثلاثة خيول فقط، كان ملكهم الرائع قد وجدهم في يافا، وعلى كل حال أعتقد أن الملك نفسه يمكن مفاجأته بسهولة، لأنه مستقل لوحده في خيمته، ومنهك تماماً بسبب تعبته، ومن يلقي القبض عليه سوف يضع على الفور حداً لمتاعبنا، وللحملة كلها».

ثم راجع بعد هذا في أوساط الترك ما وجه إليهم من لوم، وتوبيخ دائم وعار مستمر، حيث أن جيشاً بمثل هذا الحجم، ومثل هذه الآلاف المؤلفة من الترك، يُهزم من قبل جيش صغير جداً، وأن يافا قد استردت منهم بقوة السلاح، وبهذه الطريقة تتم كل واحد منهم إلى الآخر، فاضطربوا اضطراباً عظيماً.

كيف حاول الغلمان والأكراد مفاجأة الملك رتشارد في خيمته

وكان اليوم التالي هو يوم أحد، انطلق فيه الملك بنشاط في العمل على ترميم أسوار يافا، وتابع جهوده في يومي الاثنين والثلاثاء، حتى يمكن تأمين بعض الوقاية لهم، ولهذا تمت أعمال الترميم بدون استخدام للكلس أو الملاط، وكانت هناك مجموعة فاسدة من الرجال بين المسلمين اسمها غلمان Menelones حلب، وأكراد Cordivi ، وهم عرق فعال، وقد التقى هؤلاء مع بعضهم للتشاور حول ما ينبغي عمله في حالة الأوضاع القائمة، وتحدثوا عن العار الذي لحقهم حيث تمكن جيش صغير جداً من طردهم من يافا، ولاموا أنفسهم بتهمة الجبن، وبالتقاعس المخجل، وتبجحوا في إقامة حلف فيما بينهم، من أنهم سوف يلقون القبض على الملك رتشارد وهو في خيمته، ويجلبونه إلى أمام صلاح الدين، حيث سيتسلمون منه جائزة فخمة جداً.

ووصل في الوقت نفسه الكونت هنري مع أتباعه من قيسارية على ظهر شيني، فهناك كان المتبقي من جيشنا معوقاً بسبب كحاشي الترك على جميع الطرق، والجسور، والآبار، وبناء عليه لم يكن بإمكان الملك في هذا الوضع الاضطراري حشد أكثر من خمسة وخمسين فارساً من جيشه كله، وكتلة قوية من الرجال، ورماة الزنبورك، والحاشية مع ألفين من الجنود والبيازنة وسواهم، ولم يكن لديه من الخيول أكثر من خمسة عشر رأساً، سواء من النوع الجيد أو الرديء.

وعندما أعدّ الغلمان والأكراد أنفسهم في منتصف الليل لمفاجأة الملك، تقدموا نحو الأمام بوساطة ضوء القمر، يتحدث أحدهم مع الآخر حول الهدف الذين هم بصدد الوصول إليه، لقد عزم هؤلاء الجنس المكروه من غير المؤمنين، وكانوا متشوقين لأسر جندي المسيح المقدام، فيما

هو نائم بدون سلاح ولا يشعر بوجود أي خطر.

وعندما باتوا غير بعيدين عن خيمته، وأخذوا يستعدون لإلقاء القبض عليه، عندها تدخلت رحمة الرب، فأرسلت روح الخلاف إلى صفوفهم، حيث قال الأكراد: «عليكم المضي على أقدامكم لأسر الملك وأتباعه، في حين سوف نبقي نحن على ظهور خيولنا لنحول دون نجاتهم إلى القلعة»، لكن الغلمان ردوا عليهم قائلين: «لا، إن واجبكم يقضي عليكم المضي على الأقدام، لأن مرتبتنا أعلى من مرتبتكم، ونحن نرتضي فقط بالقيام بالخدمات التي هي وظيفتنا، وإن وظيفة الخدمة على الأقدام هي وظيفتكم وليست وظيفتنا».

وفيما هذين الفريقين يتجادلان حول من منهما الأعلى والأعظم، سبب خلافهما كثيراً من التأخير، وعندما توصلاً أخيراً حول كيف يمكن تنفيذ المحاولة الشريرة وتحقيق الغاية منها، كان الفجر قد اقترب، ففي تلك اللحظة دفعت ارادة سماوية واحداً من الجنويين للخروج مبكراً نحو الحقول، حيث ارتعب لسماعه أصوات الرجال والخيول المتقدمة، فعاد مسرعاً نحو المعسكر، ورأى في الوقت المناسب الخوذ وهي تعكس الضوء الذي نزل عليها، ودخل مندفعاً إلى المعسكر، وهو يصرخ «إلى السلاح، إلى السلاح».

واستيقظ الملك بفعل الصوت والضجة، وقفز مندهشاً من فراشه، فلبس لأمته، واستدعى رجاله للانقاذ.

بحق فضائل الرب كلها، هل هناك انسان حي ما كان ليرتجف بمثل هذا الانذار المفاجيء؟ واندفع العدو بدون مبالاة، فرجال مسلحون انقضوا على غير مسلحين، وأكثرية أخذت تقاتل أقلية، لأن رجالنا لم يكن لديهم الوقت الكافي للتسلح، أو حتى لارتداء الملابس، وبناء عليه تقدم الملك مع كثيرين آخرين — بحكم طوارئ تلك اللحظة —

بدون دروعهم وواقيات أطرافهم، تقدموا للقتال، وكان بعضهم حتى بدون كزاغنداتهم.

وبينما تمكن رجالنا من تسليح أنفسهم مسرعين، وبأفضل ما استطاعوه وقتها، ازداد اقتراب الترك، وكان الملك قد امتطى فرسه، مع عشرة فرسان آخرين فقط هم: الكونت هنري إيرل أوف ليستر، وبار ثلميودي مورتمير، ورالف دي موليون، وأندرو دي ثشافين، وجيرالد دي فينفال، وروجر دي ساسي، ووليم دي لي ايتانغ de L' ETang، وهيوغ دي فيلينوف Villeneuve وكانوا مرافقين شجعان، ومعهم هنري لي تايوس Tyois، حامل راية الملك، فهؤلاء وحدهم الذين كان لديهم خيول، وكان حتى بعض هؤلاء منحطين وضعفاء، وغير معتادين على استخدام السلاح.

وببراعة اصطف الناس العاديون في صفوف وأرتال كل منهم مع قائد يقودهم، وتمركز الفرسان على مقربة من البحر، وكانت كنيسة القديس نيقولا على يسارهم، لأن الترك وجهوا حملتهم الرئيسية في هذا الاتجاه، ووقف الجنويون والبيازنة خلف حدائق الربض، وقد اختلطت بعض العساكر بهم.

من الذي يمكنه أن يصف حملات الكفار المخيفة؟ فقد انقض الترك أولاً وهم يزعمون زعقات مرعبة، ويرمون بحراهم، ويطلقون سهامهم، وأعدّ رجالنا أنفسهم بأفضل ما استطاعوا لتلقي حملتهم الشديدة، فقد كان كل واحد منهم قد ثبت ركبته اليمنى على الأرض، فبذلك كان يمكنهم التماسك والصمود معا بشكل أفضل، والحفاظ على أوضاعهم، وحنوا أرجلهم اليسرى، وحملت أيديهم اليسرى ترستهم أودرقهم، ومدوها أمامهم، وأمسكوا بأيديهم اليمنى رماحهم حيث ثبتوا أزجتها في الأرض، وسلطوا أسننتها الحديدية نحو العدو، مهددة له، ووضع الملك الخير بشؤون الحرب، بين كل رجلين، كانا مغطين بترسيهما، رامي زنبورك،

وخلفه واحد آخر ليشد الزنبورك بأقصى سرعة ممكنة، فما أن يطلق الرجل الواقف في الأمام رميته حتى يكون الآخر قد هياً رمية أخرى، وتبين أن هذا فيه فائدة عظيمة لرجالنا، وسبب ضرراً بالغاً للأعداء.

وهكذا جرى إعداد كل شيء بشكل جيد وبقدر ما سمح الوقت الضيق به، واصطف جيشنا الصغير بصورة نظامية، وسار الملك واستعرض جميع الصفوف، وحث كل رجل ليكون صامداً، وأن لا يتزلزل، وقال: « الشجاعة، يارجالى البواسل، ولا تتركوا حملة الأعداء تزعجكم، تحملوا تقلبات الحظ، ولسوف تتصرون عليهم، كل شيء يمكن للرجل الشجاع تحمله، المصاعب تلقي الضوء على فضائل بني البشر، ومثل ذلك من المؤكد أن اليسر يلقي الظلال عليها، ليس هناك مكان للفرار إليه، لأن العدو محيط بنا، وفي كل محاولة للفرار استدعاء لموت مؤكد، وبناء عليه كونوا شجعاناً، ودعوا حالة الطوارئ هذه تشحذ شجاعتكم وتشد من عزيمتكم، أيها الرجال الشجعان عليكم إما الانتصار بنبل، أو الموت بمجد، الشهادة منحة علينا استقبلها طائعين راغبين، لكن قبل أن نموت، دعونا مادمنا على قيد الحياة، أن نفعل ما يمكن أن يكون انتقاماً لموتنا، وأن نقدم الشكر للرب في أن كان نصيبنا الموت شهداء، هكذا ستكون خاتمة تعبنا ونهاية حياتنا، وآخر معاركنا».

وما كاد يكمل التفوه بهذه الكلمات حتى انقض الجيش المعادي عليهم بحدة وشدة، وكان مقسماً إلى سبعة أفواج في كل منها حوالي ألف فارس، واستقبل رجالنا حملتهم وأقدامهم اليمنى مغروسة بثبات في الرمل، وظلوا لا يمكن زلزلتهم، وشكلت رماحهم سوراً ضد العدو، وكان من المؤكد أنه سيخرق الصفوف ويمر بين رجالنا، لو أنهم تخلوا عن مواقفهم درجة واحدة.

وأدرك رجال الصف الأول من الترك، وهم يتقدمون، أن رجالنا وقفوا صامدين، لذلك تراجعوا قليلاً، ذلك أن رماطنا أمطروهم بزخات من

النشاب، قتلت عدداً كبيراً من الناس، وعقرت خيولاً كثيرة، وتقدم على الفور صف آخر من الترك، وفق الطريقة نفسها، ومرة جديدة جرى صده، وردّه إلى الخلف، وجاء الترك على هذه الشاكلة يشبهون الصاعقة، مرة تلو أخرى، متظاهرين بالحملة حتى يضغطوا على رجالنا للترشح والتراجع، لكن عندما باتوا على مقربة منهم، وعلى وشك الالتحام بهم، عطفوا أعنة خيولهم وابتعدوا في اتجاه آخر.

ولدى ادراك الملك وفرسانه الذين معه لهذا الحال، غمزوا خيولهم وحملوا على وسط الأعداء، وفرقوهم يمناً ويسرة، وطعنوا برماحهم أجساد عدد كبير منهم، ثم أخيراً شدوا خيولهم وأوقفوها لأنهم وجدوا أنفسهم توغلوا كثيراً خلال صفوف الترك، والتفت الملك من حوله، فرأى إيرل ليستر النبيل قد سقط من على ظهر حصانه، وهو يقاتل بشجاعة على قدميه، وما أن رأى هذا حتى اندفع لانقاذه، وانتزعه من أيدي الأعداء، ووضعه مكانه على حصانه.

ونشبت إثر هذا معركة مخيفة، وزحفت حشود الترك، واستخدمت كل جهد لتدمير جيشنا الصغير، وأثار نجاحنا حفيظتهم، فاندفعوا نحو الراية الملكية الحاملة لصورة الأسد، ذلك أنهم كانوا يؤثرون قتل الملك على قتل ألف رجل آخر، وفي وسط المعركة رأى الملك رالف دي موليون، وقد أمسكه الترك وجروه أسيراً، فغمز حصانه نحوهم وخلصه من بين أيديهم في لحظة واحدة، وأعادته إلى الجيش، وكان الملك عملاقاً كبيراً أثناء القتال، وكان موجوداً في كل مكان على أرض المعركة، الآن هنا، والآن هناك، حيثما احتدم القتال مع الترك أكثر، ولقد قاتل بشجاعة بلغت حداً، أن ما من انسان مهما كان شجاعاً، إلا كان سيرضخ له عن جدارة، ويعترف بتقدمه وتفوقه.

فقد قام في ذلك اليوم بأعظم الأفاعيل الشجاعة، ضد جيش الترك المخيف، وقتل بسيفه عدداً منهم، وكان سيفه يلمع مثل البرق، فقد فلق

بعضهم إلى قسمين من خوذهم إلى أسنانهم، بينما فقد بعضهم الآخر رؤوسهم، وأذرعهم، وأطرافهم، التي بترت بضربة واحدة.

وفيما الملك يعمل هكذا بنشاط لا يصدق في القتال، زحف تركي نحوه، وكان يمتطي مهراً كميتاً، وقد بعثه سيف الدين صاحب « الكرك Archadia »، وكان رجلاً واسع الكرم، لولا أنه رفض تبني الأيمان المسيحي، وبعث هذا الرجل الآن إلى الملك، هدية منه تشريفاً له، عبارة عن فرسين أصيلين، ورجاه بحرارة قبولهما وأن يستخدمهما، وإذا ما عاد سالماً ومعافى من تلك المعركة يتذكر الهدية ويعوض عنها وفق الطريقة التي يراها، وتسلم الملك الهدية، وبعد ذلك عوض بنبل المهدي، فهكذا هي الشجاعة يصدر تقديرها حتى عن عدو، حيث جاء هذا الأكرام من تركي هو أشد أعدائنا، اعترافاً منه بشجاعة الملك وتقديراً لبسالته المتميزة، وكان الملك في تلك اللحظة بحاجة ماسة لهذه الهدية، ومع ذلك اعتذر عن قبولها وقال إنه لن يأخذ أي عدد من الخيول مثلها بالجودة من أي إنسان، فكيف من عدو مثل سيف الدين، مع أنه بحاجة ماسة إليها في تلك اللحظة.

واستعر القتال الآن واحتدم، لأن عدداً كبيراً هاجم عدداً صغيراً جداً، وغطت وجه الأرض كميات هائلة من الحراب والنشاب التي أطلقها المسلمون، فقد رموا كمية متنوعة في وقت واحد ضد رجالنا، الذين جرح كثير منهم، وبذلك ازداد ثقل القتال أكثر من ذي قبل، وانسحب رجال الشواني في الشواني التي جلبتهم، وهكذا في قلقهم على سلامتهم ضحوا بسمات شجاعتهم، وتعالى بالوقت نفسه الصراخ بين الترك، وهم يناضلون في سبيل من سيحتل البلدة أولاً، أملين بقتل الذين سيجدونهم من رجالنا في داخلها.

وسمع الملك الصراخ، فاصطحب معه فارسين فقط، واثنين من حملة الأقواس العقارة، وتصدى هناك للترك، وتمركز بنبل في واحد من الشوارع

الرئيسية، وانقض بشجاعة عليهم، فقتل الخيالة وفق طريقته الملكية، وغنم فرسين، وأرغم بقية الترك الذين وجدوا في البلدة على الفرار على الرغم من مقاومتهم، وتفرقوا في اتجاهات مختلفة، واستهدفوا أن تكون نجاتهم عبر طرق فرعية وليس عبر الطرق العادية، وأمر الملك أيضاً باصلاح الجزء الذي تهدم من الأسوار وإحسان الإفادة منه، ووضع خفراء للمراقبة والحراسة خشية أن تتعرض البلدة مرة ثانية للهجوم.

وما أن انتهت هذه الأمور بالحل المناسب حتى نزل الملك باتجاه الشاطيء، حيث التجأ عدد كبير من رجالنا إلى ظهور السفن، وحث الملك هؤلاء بأدلة مقنعة على العودة إلى القتال والمشاركة مع البقية في كل ما قد ينزل عليهم، وترك خمسة رجال على ظهر كل شيني للحراسة، وقاد البقية لمساعدة جيشه المضغوط عليه بشدة، وما أن وصل حتى انقض بكل عنف على أكثف صفوف العدو، ورد الأعداء إلى الخلف وهزمهم، حتى الذين كانوا بعيدين ولم يلمسهم غلبتهم حشود الجنود وهم يتراجعون.

ولم تكن هناك حملة قط مثل هذه الحملة قام بها فرد لوحده، حيث خرق صفوف العدو وتوغل إلى وسط الجيش المعادي، وقام بأعمال مقاتل شجاع ومتميز، وطوقه الترك على الفور وحاولوا التغلب عليه، وكان في الوقت نفسه أن فقد رجالنا الملك ولم يعودوا يروه، وخافوا أن يكون قد قتل، وعندما اقترح واحد منهم وجوب التقدم نحو الأمام للعشور عليه، بات من الصعب ضبط صفوفنا والحفاظ عليها، ولوحدث واختل نظام عساكرنا، لتعرضوا بدون شك إلى الدمار.

غير أن الملك رتشارد الذي اعتاد على القتال منذ نعومة أظفاره، والذي لا يمكن عدّ رولاند الشهير مساوياً له، بقي غير مرئي حتى في وسط الأعداء، وكان جسده، كأنه صنع من نحاس أصفر، لا يمكن التأثير عليه بأي نوع من أنواع السلاح، وكان حاملاً بيده اليمنى سيفه

يقارع به، فقد حمل حملة سريعة حطم بها الصفوف على الجانبين، فهكذا كانت أفاعيله وسط حشد الترك، لم يكن يخشى شيئاً، بل دمر كل الذين كانوا من حوله، يحرف الرجال أمامه بسيفه، وكأنه حصّاد يحصد القمح بمنجله.

من الذي يستطيع أن يصف هذه الأفاعيل؟ فكل من تلقى ضربة واحدة منه لم يحتج إلى ضربة ثانية، وهكذا كانت فعالية شجاعته التي لاشك أنها ابتهجت لأنها وجدت فرصة للتعبير عن نفسها، وقطع السيف الذي ضرب به الرجال والخيول سواء، وفلقهم إلى منتصفهم، وكان كلما وجد نفسه قد ابتعد أكثر عن رجاله، كلما استهدف الأعداء التغلب عليه، وهناك كانت شجاعته تزداد اشراقاً ووضوحاً.

فبين الأعمال الشجاعة التي قام بها في تلك المناسبة، أنه قتل بضربة واحدة رائعة واحداً من أشهر أمراء الأعداء وأعلامهم مكانة وأكثرهم ثراء، وبدأ هذا الرجل من خلال حركاته وكأنه يقول: إنه ذاهب ليفعل شيئاً رائعاً، وبينما كان يوبخ البقية لجنهم، غمز حصانه، وحمل حملة عنيفة على الملك، الذي لوح بسيفه عندما رآه قادماً، وبضربة واحدة لم يقطع رأسه فقط بل كتفه وذراعه الأيمن، واصطك الترك بالرعب أمام هذا المشهد وأفسحوا الطريق على جميع الجوانب، ولم يتجرأوا برميهم بسهامهم حتى من مسافة بعيدة، وعاد الملك الآن سالماً دون أن يصاب بأذى، عاد إلى رفاقه وشجعهم أكثر من ذي قبل وأعطاهم الأمل بالنصر.

وكان شخص الملك مغروساً كله بالنشاب، مثل غزال طعن من قبل الصيادين، وكانت تجافيف فرسه مغطاة بالسهام بكثافة، وعاد من الصراع كرجل شجاع، وكان صراعاً مريراً، لأنه امتد من الصباح حتى غياب الشمس.

وبفضل الرب نجا رجالنا من الدمار، وعاد الجيش التركي إلى صلاح

الدين الذي هزأ برجاله سائلاً باستخفاف: «أين الملك رتشارد Ric؟»
ذلك أنهم وعدوه بحمله إليه أسيراً، وتابع يقول: «من منكم الذي أسره
أولاً، وأين هو، لماذا لم تجلبوه وتحضروه أمامي؟» ورد عليه واحد من
الأثراك الذي جاء من أقصى بقاع الأرض بقوله: «في الحقيقة يامولاي،
إن الملك رتشارد الذي تسأل عنه ليس موجوداً هنا، فنحن لم نسمع قط
منذ بداية الخلق أنه وجد فارس قط مثله، في شجاعته وخبرته في
السلاح، فهو المتفوق بأفاعيله، وهو لانظير له، فهو الأول زحفاً، والأخير
تراجعاً، لقد بذلنا غاية جهودنا لأسره، لكن عبثاً كان، لأن ما من واحد
يمكنه أن ينجو من سيفه، فقتاله مميت، وأن تشتبك معه معناه الموت،
فأفاعيله فوق طبيعة البشر».

كيف أقام الملك رتشارد هدنة مع صلاح الدين

ومن جراء التعب والجهد الكبير الذي بذل في المعركة، سقط الملك رتشارد مريضاً ومثله سقط عدد آخر ممن أنهكوا أنفسهم في القتال، ولم يكن هذا بسبب القتال فقط، لكن من الروائح التي انبعثت من أجساد الموتى التي تفسخت، فأفسدت المناطق المجاورة، وكادت أن تسبب الموت للأحياء.

وبعد تقلب طويل للأمور، وكان وقتها الملك قلقاً حول صحته، بعث إلى قريبه الكونت هنري مع الداوية والاسبتارية، وإلى هؤلاء وصف حالة الضعف التي حلت بجسده، واشتكى أنه في ظل الأجواء الفاسدة، والوضع السيء للدفاعات، لا بد له من مغادرة المكان بالحال ودونها تأخير، ثم عين بعضهم للذهاب وتسليم المسؤولية عن عسقلان، في حين يبقى بعضهم لحراسة يافا، لأنه هو نفسه سوف يذهب إلى عكا ليشفى، فهذا ضروري جد الآن، واعترض الجميع على هذه الشكوى بقلب واحد وصوت واحد، قائلين إنهم لن يستطيعوا حماية يافا أو أي حصن آخر بعدما يذهب، ولدى إصراره على الرفض، اعتزلوه ولم يعودوا يعملون بالتوافق مع الملك.

وغضب الملك رتشارد وتضايق من هذا المسلك، وتألم بحرقة أن ما من واحد تعاطف مع نواياه أو رغباته، وعندها بدأ يبحث عما ينبغي أن يفعله، غير أنه وصل من خلال مناقشاته كلها إلى المحصلة نفسها، وهي أنه ليس هناك واحداً بينهم متعاطف مع سوء حظه، وعندما رأى أن الجميع تخلى عنه، وأن ما من واحد بات يهتم أدنى اهتمام بالقضية العامة، أمر أن يعلن أن على الذين يودون تسلم العطاء من الملك القدوم إليه، جميعاً لتقديم عونهم له، وجاء على الفور ألفين من الرجال، وخمسين

من الفرسان، لكن صحة الملك بدأت تزداد سوءاً حتى أنه قنط من التعافي، وبناء عليه، وهو قلق على كل من الآخرين وعلى نفسه، رأى أن أفضل (الخطط التي اقترحت عليه) هي أن يطلب عقد هدنة، ولا أن يترك البلاد فريسة للفوضى المدمرة، مثلما فعل آخرون كثر بالبحار عائدين إلى بلادهم.

واحتار الملك، وتردد حول أفضل ما يمكنه القيام به، فطلب سيف الدين، أخي صلاح الدين ليتوسط بينهما للحصول على أحسن شروط هدنة في إمكانه الحصول عليها، وكان سيف الدين رجلاً كريماً جداً، قدم في كثير من المناسبات احتراماً كبيراً وتشريفاً للملك لما تمتع به من فضائل شخصية، وقام الآن بحماس عظيم بالعمل للحصول على أفضل هدنة للملك رتشارد، وفق الشروط التالية: بالنسبة لعسقلان، التي كانت دوماً سبباً لازعاج حكومة صلاح الدين، ينبغي هدمها، وأن لاتعاد عمارتها خلال ثلاث سنوات، تبدأ من عيد الفصح المقبل، لكن عند انتهاء هذه المدة، يمكن لمن يستحوذ عليها أن يعيد تحصينها، وأن يسمح للفرنجة بسكنى يافا بدون مقابل أو ازعاج مع جميع المنطقة الملاصقة لها على شاطئ البحر وفي الجبال، وينبغي مراعاة السلام بدقة بين الفرنجة والمسلمين، وكل واحد من الفريقين يمتلك الحرية في الذهاب والمجيء إلى حيث يريد؛ وأن ينال الحجاج حرية الوصول إلى الضريح المقدس بدون أي دفع أو تحصيل أي مال منهم مهما كان نوعه؛ وأن يسمح بحمل التجارات للبيع في جميع أنحاء البلاد، وبممارسة التجارة ومتابعتها بدون اعتراض.

وعرضت هذه المعاهدة وهي مكتوبة على الملك رتشارد، الذي أعطى موافقته عليها، ذلك أنه رأى أنه في وضعه الضعيف، مع القليل من العساكر من حوله (وأيضاً على بعد ميلين عن العدو) ليس في قدرته تأمين شروط موائمة أفضل.

وعندما أقر الملك الأمور وفق ما وصفت، بعث برسلى إلى صلاح الدين، ليعلموه بحضور عدد كبير من المقدمين لديه، أنه طلب الهدنة لمدة ثلاث سنوات، بقصد العودة لزيارة بلاده وجمع المزيد من الرجال والمال، ليعود بعد ذلك لانقاذ جميع أراضي القدس وانتزاعها من دولته، إذا امتلك وقتها صلاح الدين الشجاعة لمواجهة على أرض المعركة، وعلى هذا رد صلاح الدين قائلاً لتشهد على شريعتي المقدسة، والله القادر، أنه يكبر هذا الموقف العظيم من الملك رتشارد، وأنه يقدر نبلة وجودته بشكل عام، حتى أنه افترض دوماً لو أنه أرغم على فقدان ممالكه كلها، لآثر أن يفقدها لصالحه وليس لصالح أي ملك آخر رآه قط.

وبعدما كتبت شروط الهدنة وتأكدت بالآيمان من على الجانبين، ذهب الملك إلى حيفا، وهو في أحسن حال حيث كان يمكنه تناول الدواء حتى يبرأ.

وفي الوقت نفسه، شرع الفرنسيون الذين كانوا يتمتعون بالراحة منذ زمن طويل في عكا، بالاستعداد للعودة إلى وطنهم، لكن مع أنهم عارضوا الهدنة بمرارة، رغبوا الآن قبل مغادرة البلاد إكمال حجهم بزيارة ضريح ربنا.

وتذكر الملك تقاعسهم عن تقديم المساعدة له في يافا، وفي مناسبات كثيرة أخرى، فبعث برسلى يطلبون أن لايسمح صلاح الدين أو سيف الدين لأي واحد بزيارة الضريح المقدس إذا لم يجلب جواز سفر منه شخصياً أو من الكونت هنري، وغضب الفرنسيون لهذا غضباً عظيماً، وأخفقوا في تحقيق هدفهم، ومالبثوا أن عادوا إثر هذا إلى بلادهم، لا يحملون شيئاً معهم غير الملامة والعار.

وعندما رأى الملك أن الشطر الأعظم من الفرنسيين، الذين بذلوا غاية جهدهم للتشهير به، قد عادوا إلى وطنهم، وأن أفواه شتائمهم ونقده قد

أغلقت، أمر أن يعلن أن كل من يرغب يمكنه زيارة ضريح ربنا، وأن يجلب تقدماته للمساعدة على ترميم أسوار يافا.

وانتظم الناس الآن في ثلاث مجموعات لزيارة القدس، ووضعت كل مجموعة تحت قيادة قائد منفصل، وقاد المجموعة الأولى أندرو دي كافني، وقاد الثانية رالف تيسن Teissun وقاد هيوبرت أسقف سالسبري المجموعة الثالثة، وتقدمت المجموعة الأولى نحو القدس تحمل رسائل من الملك، لكن نظراً لذنوبهم، لقد وقعوا في مكيدة وهم في طريقهم، لأنهم عندما وصلوا إلى سهل الرملة، بعثوا برسلك ليخبروا صلاح الدين حتى يعطيهم الأمان في ذهابهم وإياهم، وأنهم يحملون رسائل من الملك رتشارد، وكان الرسل رجالاً نبلاء، ويتسمون بالنشاط، لكن في هذه المناسبة، كانوا متقاعسين، وأهملوا القيام بواجبهم، وكانت أسماء هؤلاء: وليم دي روك Roches ، وجيرارد دي تورنفال Tour- neval ، وبيتر دي براتل Pratelles .

وعندما وصلوا إلى «برج الجنود»، توقفوا هناك للحصول على التصريح من سيف الدين من أجل متابعة سيرهم والتقدم نحو الأمام، غير أنهم ناموا، وظلوا نائمين حتى غياب الشمس، ووجدوا عندما أفاقوا أن جميع الحجاج، الذين جاءوا لصالحهم، قد مروا، وجازوا أمامهم.

وعندما اجتاز أفراد الجمع كله السهول وكانوا يقتربون من الهضاب، نظر أندرو دي كافني والبقية إلى الخلف، فرأوا رسلهم قادمين بعدهم بأقصى سرعة ممكنة لهم، وعندما رأوا هذا توقفوا وهم مضطربين، مقدرين أنهم كانوا في خطر عظيم، وأنهم عرضة للقتل، لأن جيش الترك لم يكن قد غادر بعد، ورسلكم الذين توجب عليهم جلب الأمان لهم من عند المسلمين كانوا الآن خلفهم، ولهذا عندما وصل هؤلاء، لامهم الآخرون لإهمالهم، وطلبوا منهم الإسراع بالسير أمامهم، وقد فعلوا حسبما أمروا.

وذهب الرسل بسرعة كبيرة نحو القدس، ووجدوا حوالي الألفين من الترك معسكرين خارج المدينة، وسألوا عن سيف الدين وبحثوا عنه، وعندما وجدوه شرحوا له ما حدث، وقد وبخهم بلطف، وقال لهم: من الواضح أنهم لم يقدرُوا قيمة حياتهم حماقة منهم، لأنهم جاءوا إلى وسط جيش معادي بدون جواز سفر أو أمان من أي نوع.

وكان الوقت وقت مغيب الشمس، ووصل بقية الحجاج، دون أن يعرفوا ما ينبغي فعله، ولم يكن لديهم سلاح لحماية أنفسهم، وكشر الترك وقطبوا نحوهم وهم يمرون، وكان واضحاً من نظراتهم كمية الحقد المخزنة في قلوبهم نحوهم، لأن الوجه يعكس دوماً ما في العقل، وشعر رجالنا في تلك اللحظة بالقلق والاضطراب، وودوا أنفسهم لو عادوا ثانية إلى صور أو حتى إلى عكا، التي تركوها للتو، وهكذا أمضوا الليل قرب أحد الجبال في حالة رعب عظيم.

ومثل في اليوم التالي بعض الترك أمام صلاح الدين، وسألوه بالحاح أن يسمح لهم بالانتقام من الفرنجة (لمقتل رفاقهم، وأبائهم، وأخوانهم، وأولادهم، وأقربائهم الذين قتلوا قرب عكا وفي أماكن أخرى) الذين هم الآن في متناول أيديهم، وقالوا إنهم لن يجدوا مرة أخرى فرصة أحسن من هذه.

وبعث صلاح الدين وراء مقدمي الترك للتشاور معهم حول هذا الطلب، وعلى الفور كان المشطوب وسيف الدين وبدر الدين دلدرد في حضرته، وعندما عرض الموضوع عليهم، كان رأيهم بالإجماع وجوب ترك الفرنجة يأتون ويذهبون من دون أذى أو عاقبة، وقالوا لصلاح الدين: « ستكون وصمة عار كبيرة لسمعتنا، إذا ما تدخلنا في المعاهدة التي أبرمت فيما بينك وبين ملك انكلترا، أو خرقناها، فوقتها ستظل مصداقية المسلمين محط شك وتساؤل» .

ونتيجة لسماع هذه الآراء والملاحظات، أعطى صلاح الدين الأوامر على الفور بوجوب العناية بالفرنجة ومرافقتهم في الذهاب إلى المدينة ولدى عودتهم دونما ازعاج أو مضايقة، وبناء على طلب من سيف الدين، أوكل إليه القيام بهذه المهمة، وامتلك الحجاج تحت حمايته حرية الوصول إلى الضريح المقدس، وعوملوا بكرم زائد، وعادوا بعد هذا مبتهجين إلى عكا.

كيف رأى الحجاج القدس وكيف عاد الملك رتشارد إلى وطنه

ولدى عودتهم كانت المجموعة الثانية متوقفة فيما بين قلعة النطرون والرملة، فانطلقت يقودها رالف تيسون، وكان الآن صلاح الدين كما ذكرنا من قبل ، قد مركز رجاله ليحرسوا الطرقات بيقظة، وللانتباه إلى أن الحجاج هم في طريقهم إلى القدس ، ونتيجة لهذه التدابير ارتحلنا بكل حرية ودون التعرض للمضايقة، وعبرنا المناطق الهضبية ووصلنا إلى جبل صموئيل، فمن هناك رأينا مدينة القدس عن بعد، فجئنا على ركبنا وقدمنا الشكر للرب، كما هي عادة الحجاج، ورأينا من البقعة نفسها جبل الزيتون.

وتقدمنا بعد هذا ونحن مبتهجين، والذين امتلكوا خيولاً تقدموا أمامنا مسرعين حتى يمكنهم تحقيق رغبتهم بالتسليم على الضريح المقدس، زيادة على هذا، أخبرنا هؤلاء الخيالة الذين تقدموا أمامنا، بأن صلاح الدين سمح لهم برؤية صليب الصليبوت الحقيقي وبتقبيله، وهو الذي كان قد حمل من قبل إلى المعركة.

لكن نحن الذين كنا على الأقدام، ووصلنا بالأخير، رأينا ما استطعنا رؤيته، وكان أول ما رأيناه مكان قيامة ربنا، حيث تقدم منح الغفران، لكن بما أن المسلمين كانوا يأخذون هذه التقدّمات، لم نقدم إلا القليل، وأعطينا شطراً إلى الأرقاء الفرنجة والسريان، الذين رأيناهم في عبوديتهم يقومون بتنفيذ الواجبات المعينة لهم، وتابعنا من هناك إلى جبل أكرا - Calvary (الجمجمة) حيث صلب ربنا ، وحيث يوجد هناك حجرة أثبت بوساطتها ربنا في الجلجلة.

وبعدما قبلنا هذا بتبجيل، تابعنا نحو الكنيسة المبنية على جبل صهيون، فعلى الجانب الأيسر كان المكان الذي انتقلت فيه مريم، الأم المقدسة للرب، من هذا العالم إلى الرب، وحينما هذا المكان بدموع منهمرة على خدودنا، ثم سارعنا لنرى المائدة المقدسة التي تنازل المسيح فوقف ليأكل خبزاً، وقبلنا هذه أيضاً بحرقه، ثم غادرنا معا مستعجلين، لأنه لم يكن آمناً بالنسبة لنا الذهاب إلى أي مكان، فيما عدا على شكل كتلة واحدة، خشية من غدر غير المؤمنين لأن الترك خنقوا بشكل سري ثلاثة رجال أو أربعة في الممرات الملتوية.

وبادرنا من هناك مسرعين إلى ضريح مريم المباركة — أم الرب — في وسط وادي يهو شافاط، قرب سلوان، وقبلناه بتعبد، وقلب خافق، ودخلنا بعد هذا، بفكر ليس متحرراً من الاضطراب، إلى غرفة القبو التي سجن فيها ربنا ومخلصنا في الليلة التي كان سيصلب في صباحها، وحينما هذه الغرفة بتضرع، بينما انهمرت دموعنا على خدودنا، ثم غادرنا مسرعين، في الوقت الذي لم يبتعد فيه الترك ولو قليلاً، وحزنا للقذارة التي تلوثت بها الأماكن المقدسة بوساطة خيول غير المؤمنين الذين استخدموا هذه الأماكن كاصطبلات، وودعنا القدس الآن، وعدنا إلى عكا.

ولم تكن المجموعة الثالثة التي قادها أسقف سالسبري، بعيدة الآن عن القدس، وأرسل صلاح الدين شعبه لاستقبال الأسقف بحفاوة، وأخذه إلى حيثما شاء وإلى أي مكان أراد أن يزوره من الأماكن المقدسة، زد على هذا، تقديراً منه لحكمته، ولأخلاقه الحميدة، ولفضائله الأخرى (التي كانت معروفة منذ زمن طويل من قبل صلاح الدين) طُلب منه الإقامة في قصر السلطان، واستضيف وأنفق عليه من قبله، ورفض الأسقف أن يقول: « بدون أي كلفة، لأننا فقط حجاج »، ووجه صلاح الدين خدامه نحو اظهار كل عناية بالأسقف وبرجاله، وأرسل إليه بهدايا

كثيرة، وسمح له بعد هذا برؤية صليب الصلبوت، ودعاه إلى لقاء معه، حتى يمكنه أن يعبر عن نفسه قبل المغادرة، وقد جلسا وتحادثا معا لوقت طويل.

وسأله صلاح الدين عن ملك انكلترا، وعن الذي يقوله الفرنجة عن مسلميه، وأجابه الأسقف: « صدقاً، فيما يتعلق بمولاي الملك سأقول ما تتطلبه العدالة: إنه لانظير له بين جميع فرسان العالم سواء بالنسبة للشجاعة أو كرم الاعطاء، ذلك أنه متميز في كل شيء فيما يتعلق بكل صفة رفيعة، وبإيجاز، إن مولاي، برأيي المتواضع، لو أراد أي إنسان — وأنا لا أرى لديك ذنوب — أن يقرن ما بين سجايك وسجاي الملك رتشارد، ويمزج فيما بينهما، لن يجد رجلين آخرين في العالم يمكن مقارنتهما بكما».

وأصغى صلاح الدين بأناة إلى الأسقف ورد عليه بقوله: « إنني أعرف منذ زمن طويل أن ملككم رجل له مكانة عالية، وشجاع، لكنه غير حكيم، إن لم نقل أحمق، في رميه نفسه مراراً في المخاطر، وإظهاره عدم اهتمام كبير بحياته، وبالنسبة لي، مهما كانت ممتلكاتي واسعة، أؤثر أن يكون لدي ثروات واسعة، وحكمة، ومرونة، بدلاً من أن أظهر شجاعة متطرفة، وتهوراً».

ثم تحول الحديث نحو أمور عادية بينهما، وأخبر صلاح الدين الأسقف أن بإمكانه أن يطلب أي شيء يوده، فذلك سيعطى له، ورد عليه الأسقف بأن سأله إذا كان بإمكانه الحصول على مهلة حتى اليوم التالي لكي يرى ما ينبغي أن يسأله، وأجيب إلى طلبه هذا، ثم سأل إذا كان من الممكن استبدال الطريقة البدائية للقداصات التي يقدمها السريان، وهي لاتعدو أنصاف قداسات تنفذ أمام ضريح ربنا، وذلك في أن يتم وضع اثنين من الكهنة اللاتين مع شماسين أيضاً لاتين (يعيشون من تقديمات المؤمنين) وأن يسمح لهؤلاء بتقديم القداصات بالتعاون

المتساوي مع السريان، وطلب أيضاً أن يكون هناك عدداً متساوياً في بيت لحم وفي الناصرة، وكان هذا الالتباس عظيم الأهمية، ومرضياً للرب كما نعتقد، ووافق السلطان على الطلب، وعين الأسقف اثنين من الكهنة في الأماكن السالفة الذكر مع اثنين من الشمامسة، يقدمون القداسات للرب، حيث لم يكن هناك من أحد قبلهم، وإثر هذا حصل الحجاج على إذن المغادرة من السلطان، وعادوا من القدس إلى عكا.

أما وقد أكمل الناس الآن حجهم الذي نذروا أنفسهم له، وقد أكملوا اعداد اسطولهم للعودة إلى الوطن، نشروا أشرعتهم للريخ، وعهدوا بأنفسهم إلى سفنهم، وأقلعت السفن بسرعة، وتفرقت السفن باتجاهات مختلفة وفقاً لتنوع الرياح.

وتقاذفتهم الأمواج لوقت طويل، ووصل بعضهم إلى موانئ مختلفة سالمين، وسأقت بعضهم إلى المخاطر فتحطمت سفنهم، ومرة ثانية مات آخرون أثناء سفرهم، ووجدوا قبورهم في أعماق المحيط، وأصيب بعضهم الآخر بأمراض غير قابلة للشفاء ولم يبرأوا ولم يعودوا إلى أوطانهم، زد على هذا، تحمل آخرون بسلام حتى النهاية، وعانوا من خلال فقدان آبائهم، وأخوانهم وأقربائهم، وأصدقائهم، الذين هلكوا من المرض أو من السيف، وذاقوا نكهة الشهادة، وخرقت آلام متنوعة صدورهم كما لو أن ذلك جاء بفعل السيف.

لقد عانى كل واحد بطريقته الخاصة من نوع من أنواع الشهادة، وباختصار عرض كل واحد حمل قلباً ساذجاً ونفساً مؤمنة نفسه لهذا الحج الطويل حباً بالرب، واعتاد بعضهم ممن يحبون الهذر وكثرة الكلام على الشكوى أن الحجاج قدموا قليلاً من المنفعة لأراضي القدس، لأنهم لم يحرروا المدينة لكنهم لم يكونوا يعرفون ما يقولون، لأنهم كانوا يبحثون في أشياء ليس لديهم معرفة شخصية بها ولاخبرة، وعلى كل حال، نحن الذين عرفنا كل شيء ورأيناه بأمر أعيننا، ينبغي أن نمنح الثقة والتصديق

لرواياتنا حول المتاعب والشقاء الذي تحمله هؤلاء الرجال.

ونصرح بثقة، على مسمع من الذين كانوا أيضاً حضوراً، أن مائة ألف من الفرنجة قد هلكوا في ذلك الحج، وذلك لسبب واحد ومقصد هو الأمل بالحصول على الثواب الرباني، فلهذا السبب فصلوا أنفسهم عن النساء، ورأوا أن من الشرور التضحية بطهارتهم للحصول على الصحة البدنية، ونعلم بشكل أكيد أنه نتيجة لاجتماع الأمراض والمجاعة مات أكثر من ثلاثمائة ألف اثناء حصار عكا وبعد ذلك، ومن ذا الذي يشك — على كل حال — في خلاص أرواح مثل هؤلاء الرجال النبلاء والرائعين، الذين سمعوا يومياً القداسات من شفاه قساوستهم، ومن المؤكد أن نفترض أن هؤلاء قد ذهبوا إلى الجنة.

وغدت سفينة الملك رتشارد جاهزة، وقد زودت بكل الضروريات من سلاح ومؤن، وأعد ذلك من أجل الرحلة، ثم قام الملك بدافع من كرمه الخالص، وبرأي من عقله النبيل لوحده، أقدم على تخليص وليم دي بريتل (الذي عرض نفسه للأسر حتى ينقذ الملك) بمبادلته بأكثر من عشرة من النبلاء الترك، مع أن هؤلاء كانوا على استعداد لأن يدفعوا وهم مسرورين مبلغاً كبيراً من المال لفداء أنفسهم، لكن كرم الملك ما كان ليتوقف بأي حال أمام أي معيق.

وبات الآن كل شيء جاهزاً، والملك على وشك الاقلاع، هنا (قرر قبل أن يذهب أن لا يترك أي شيء خلفه يمكن أن يؤثر على سمعته) أمر بأن يعلن للجميع أن كل من له ادعاء نحوه ينبغي أن يتقدم به، وأن جميع ديونه سوف تدفع بالكامل، لابل أكثر من الكامل، لتجنب أي معيق أو شكوى فيما بعد.

ولكم كانت التنهدات والدموع كثيرة هناك عندما رفع الاسطول الملكي مراسيه، ودعي للملك بكثير من التبريكات لأعماله المثيرة النافعة،

ولفضائله الظاهرة، ولكرمه الكبير، وللمحاسن الكثيرة التي اجتمعت في شخص واحد، وارتفعت أصوات العويل، وردد الجميع وهم يبيكون: «يا قدس، حرمت الآن من كل أمان، كيف فقدت المحامي عنك، من الذي سوف يحميك لو أن الهدنة خرقت، طالما أن الملك رتشارد قد غادر؟» هذه كانت كلمات كل واحد، عندما صعد الملك ظهر السفينة وأقلع، ذلك أن صحته لم تكن عادت كما ينبغي، لذلك كان موضوع قلقهم جميعاً.

وسارت السفينة طوال الليل مهتدية بنور النجوم، وعندما جاء فجر النهار، نظر الملك نحو الخلف، بأعين نحو البلاد التي غادرها، وبعد تأمل طويل وتفكير عميق، رفع صوته بالدعاء وسمعه عدد من الناس يقول: «أدعك أيتها الأرض المقدسة للرب، وإذا ما منحتني العناية السماوية الحياة، لعلني أتمكن برضا الرب أن أقدم لك العون، وأن أكون في أحد الأيام، كما أنوي، المدافع عنك والمحامي».

وبمثل هذه الكلمات حث الملاحين على نشر أشرعتهم للريح، جاهلاً لما هو بانتظاره من مشاق وأحزان، وغير عارف بالمآسي التي سيعاني منها بسبب الخيانة، التي حيكت لإلقائه بالسجن من قبل ليوبولد صاحب النمسا(*)، فقد استولى أخوه الايرل جون على ميراثه، وجرى بظلم اغتصاب قلاعه في نورماندي، واعتدى خصومه بوحشية على حقوقه، ولم ينج من أسره إلا بدفع فدية.

(*) — بالاضافة إلى ما تقدمت روايته عن أسباب اعتقال ليوبولد صاحب النمسا لرتشارد، في المجلد المتقدم، وكذلك في المجلد الثامن الحاوي لذييل نارينخ وليم الصوري، يقال إن قرابة قامت ما بين اسحق صاحب قبرص وزوجته من جهة وليوبولد من جهة أخرى، وذلك بالاضافة الى مشكلة اغتيال كونرادمركيز صور، وكانت سفينة رتشارد قد أعاققتها العواصف، لذلك حاول إكمال سفره متخفياً برأ، لكنه كشف وألقي القبض عليه في فينا، حسبما تقدم بالتفصيل.

- ١٠٠٥ -

واسترد أخيراً أراضيهِ ومملكة آباته، وأعادها إلى الهدوء والاستقرار، ثم
عبر إلى نورماندي لينتقم لنفسه من اعتداءات ملك فرنسا، الذي كان
خصمه، وبعد ما هزمه مراراً، استرد بالقوة والسيف والرمح حقوقه
المسلوبة، لابل زادها.

انتهى هنا كتاب حملة الملك رتشارد إلى الأراضي المقدسة التابعة للقدس.

- ١٠٠٧ -

رحلة حج سيولف الى القدس
(١١٠٢-١١٠٣م)

مدخل

المخطوطة الوحيدة المعروفة من رحلة حج سيولف Saewulf هي التي أنقذها ماثيوباركر رئيس أساقفة كانتبري، من التهديم العام لمكتبات الدير خلال حكم هنري الثالث، وأدوارد الخامس، ومنحها إلى مكتبه كلية المسيح في كمبردج، حيث حملت الرقم ١١١، وقد قام السيد. ت. رايت بنسخ نسخة عنها، وترجمها، وترجمته لها موجودة في مكتبه بوهن، ونشرت للمرة الأولى من قبل م. دي أفيزاك في «مجموع الرحلات والمذكرات للجمعية الجغرافية» الجزء الرابع، باريس ١٨٣٩، وبما أن هذه الطبعة غير متوفرة، تطلبت الحاجة إعادة نشر الأصل بعناية اعتماداً على مخطوطة كمبردج، وتولى هذا العمل السيد أ. روجر، وتحتوي المخطوطة نفسها على سبع قطع من مخطوطات قديمة، وفي الحقيقة رواية سيولف نفسها قطعة، فقدت شطراً كبيراً من مطلعها، وخاتمتها أيضاً مفقودة. وكاتبها سيولف غير معروف تاريخياً، لكن م. دي أفيزاك قد استخرج عدداً من الأدلة، أمكن بوساطتها تحديد تاريخ الحج بشكل مؤكد، فإيتانها على ذكر كل من الملك بلدوين، وريموند صاحب طولوز على أنها كانا معاً في الأرض المقدسة، يعيد تاريخها إلى السنوات الأولى من القرن الثاني عشر، لأن بلدوين جرى تنويجه في ٢٥-كانون الأول سنة ١١٠٠، وتوفي ريموند في ٢٨ شباط سنة ١١٠٥.

وذكر سيولف أماكن على الساحل كانت ماتزال في أيدي المسلمين، وبين ما كان بأيدي الفرنجة مدينة طرطوس التي استولى عليها ريموند، وكانت عكا التي سهاها عكرون-ماتزال بأيدي المسلمين، ومعروف أن ريموند قد استولى على طرطوس في آذار سنة ١١٠٢، في حين لم يتم الاستيلاء

على عكا حتى ١٥-أيار ١١٠٤، ومرة أخرى لقد بدأ سيولف رحلة عودته في يوم عيد الحصاد، وجاء عيد الحصاد لعام ١١٠٤ في الخامس من حزيران، أي بعد الاستيلاء على عكا، وحل عيد الحصاد لعام ١١٠٢ يوم ٢٦-أيار، بعد أكثر من شهرين من الاستيلاء على طرطوس، ولا بد على هذا أن تاريخ عودته قد وقع فيما بين ١١٠٢ أو ١١٠٣، وكان قد بدأ من إيطاليا في يوم أحد، الذي كان عيد القديسة ميلدرد mildred في ١٣ تموز، وحل ١٣ تموز يوم أحد في سنة ١١٠٢، وعيد الحصاد التالي في سنة ١١٠٣ حل في ١٧-أيار، ووصل م.دي أفيزاك الى هذه المحصلة دون تحديد التاريخ تماماً، الأمر الذي يعطينا إياه الذي استنسخ نسخة عن المخطوطة، فقد قرأ السيد رايت عبارة Tertio idus jut كما يلي Tertio uero milliarii، وكان لحسن الحظ بالنسبة له أن البولاندست Bollandists قد وضعوا عيد القديسة ميلدرد يوم ١٣-تموز، حسبما هو ظاهر على تقويم وستمنستر Missal، فهذا ما استخرجته منذ زمن وجيز «جمعية هنري برادشو» وليس يوم ١٤ من الشهر نفسه حسبما أعطاه تقويم انكليزي قديم نشر من قبل السيد ماسكل «Monumenta rituolia» ج ٣ ص ٢٠١، أو في عشرين شباط، وهو التاريخ الذي أعطاه ألبان بتلر، فهذا التاريخ الأخير هو يوم تسلم آثارها في بلجيكا، لأنها كانت قد حملت بعيداً من ديرها في ثانت ThaneT التي نهبها الدانيون، وبتبني تاريخ ١٣-تموز، نكون قد حددنا تاريخ سيولف بدون أي شك.

وذهب م.دي أفيزاك الى الاعتقاد أن سيولف هو فقط «a nom de guerre» وأنه ناله بسبب سفرائه المتواليه مثل «كلب البحر» لدينا، لكن «ولف» وجد بالأسماء الانكليزية كثيراً، مما يجعل هذا الافتراض غير صحيح.

واستخدم سيولف اصطلاحات مثل: «hora وdies egyptiaca»

egyptiaca»، ونعلم من دو كانج أن هذه الأيام والساعات قد وضعت في بعض التقاويم القديمة للإشارة إلى أنهم تواريخ نحس، وأطلق عليهم «مصريات» لأنهم نقلوا من كتاب فلك مصري، وقد قال المصريون إن الحظ سيكون حظاً عاثراً إذا ما فصد الإنسان أو تولى القيام بأي عمل هام في هذه الأيام، وأدان القانون الكنسي الأخذ بمراعاة الأوهام بقوله: «ينبغي عليك عدم مراعاة الأيام التي تدعى الأيام المصرية» الخ (Decret 26.Q.caus.7.c.16)، وبناء عليه قال وليم أوف نيوبرا: «رسم رتشارد الأول في لندن من قبل بلدوين رئيس أساقفة كانتبري، في الثالث من أيلول، الذي هو قد عرف من المعتقدات القديمة الكافرة بأنه يوم نحس - Malus vel aegyptiacus الخ، ووردت الإشارة إلى هذه «الأيام المصرية» في التقاويم المسيحية القديمة المعروفة بـ Almonac، أي التقاويم التي نشرت في حوالي سنة ٣٣٦م ثم أعيد نشرها في سنة ٣٥٤م من قبل فوريوس دايونيسيوس فيلوكالوس Furius Dionysius Filocalus، واستخرج م. دي أفيزاك من واحد من هذه التقاويم أن ١٣ و ٢٢ تموز كانا من أيام النحس هذه وهذين كانا اليومين اللذين أقلع فيهما سيولف من مونوبولي ثم أقلع ثانية في البحر من برنديزي.

وفيا يلي التواريخ التي ورد ذكرها في رحلة حجنا:

١١٠٢، ١٣ - تموز، أقلع من مونوبولي قرب باري.

١١٠٢، ٢٢ - تموز، بدأ ثانيه من برنديزي.

١١٠٢، ١ - آب، وصل إلى جزيرة سيفالونيا cephalonia.

١١٠٢، ٩ - آب، وصل إلى كورنيثا.

١١٠٢، ٢٣ آب وصل إلى نيغروبونت Negropont

- ١٠١١ -

١١٠٢ ، ١٢ - تشرين أول، نزل في يافا

١١٠٣ ، ١٧ - أيار، عاود الاقلاع من يافا

١١٠٣ ، ٢٣ - حزيران، وصل الى رودس

١١٠٣ ، ٣٠ - حزيران، وصل الى رودس في الطريق الى القسطنطينية.

وليس من المؤكد فيما إذا كان سيولف رجل دين أو علماني، ومن الواضح أنه كان رجلاً تقياً جداً، ومشتاقاً لرؤية الأماكن التي سمع عنها وقرأ حولها في الأناجيل، ولم يخطر على باله مناقشة الأشياء التي أخبره بها المسيحيين السوريين أو الشك بها، لكنه قدم رواية صحيحة بقدر إمكانه حول الأماكن والأشياء التي رآها.

رواية عن

حج سيولف الى القدس والى الأرض المقدسة

في سنتي ١١٠٢ و ١١٠٣ لتجسيد ربنا

هنا بداية الرواية المؤكدة عن وضع القدس

كنت أنا سيولف المذنب الحقيير فعلا، على طريقي الى القدس من أجل الصلاة عند ضريح ربنا، ومع أنني ذهبت على الطريق المباشر مع آخرين كانوا ذاهبين الى هناك، لم أستطع عبور البحر المفتوح وذلك إما بسبب أنني كنت مثقلاً بذنوبي، أو لأن السفينة كانت بدائية، ولهذا قررت أن أدون فقط أسماء الجزر التي مررت بها.

وقد نزل بعضهم في فاروم (١) Varum، وبعضهم الآخر في بارلوم Barlum (٢)، وبعضهم في سيونتوم (٣) Sipontum، أو في ترانوم (٤) Tranoom، ونزل بعضهم حتى في أوترنت (٥) otrente، وفي ميناء أبوليا الجنوبي الأقصى، ولقد صعدنا الى ظهر السفينة في مونوبولي، التي هي على مسافة يوم من باروم (٦) Barum، يوم الأحد ١٣ - تموز، وهو يوم عيد القديسة ميلرد العذراء (٧)، ولم يكن وقتاً سعيداً، حسبنا تبرهن فيما بعد لنا، ولولا أن رحمة الرب لم تحمنا، لكننا غرقنا، ففي اليوم نفسه، عندما كنا على وجه البحر، بعيداً عن الميناء، عانينا من تحطم السفينة بسبب عنف الأمواج، لكن بفضل عناية الرب عدنا سالمين الى الشاطئ.

وعندها ذهبنا الى براندك (٨) Brandic، ومجدداً صعدنا في يوم بؤس ظهر السفينة نفسها، لكن أمكن ترميم بعضها، ونزلنا على جزيرة إغريقية، حملت المدينة فيها مع الجزيرة نفسها اسم كورفي (٩) curphi، ليلة ما قبل عيد القديس جيمس الرسول (١٠)، ووصلنا من هناك الى الجزيرة التي تدعى كافالانيا (١١) caphalania، حيث

جرفتنا عاصفة كبيرة، يوم الأول من آب، فهناك مات روبرت غويسكار (١٢)، ومات هناك أيضاً مرافقونا، مما سبب لنا حزناً كبيراً، وأقلعنا بعد ذلك من هناك، وأبحرنا حتى وصلنا الى بولي بوليس (١٣) Polipolis ثم وصلنا الى جزيرة بتراس (١٤) patras الجميلة، ودخلنا الى مدينتها من أجل الدعاء لأندرو الرسول المبارك الذي عاني هناك ودفن، لكن نقل بعد ذلك الى القسطنطينية، ووصلنا من بتراس عشية عيد القديس لورانس (١٥) الى كورنثيا، فهناك كان الرسول بولص المبارك قد بشر بكلمة الرب، وكتب رسالة الى بعض (المؤمنين به)، وعانينا هناك من متاعب عديدة، وجزنا من هناك الى مرسى هوستا (١٦) Hosta، وذهبنا إثر ذلك، بعضنا على قدميه وبعضنا الآخر على ظهور الحمير في رحلة يومين الى طيبة، التي هي مدينة تدعى بشكل عام ستين stinae، ووصلنا في اليوم التالي الى نغروبونت عشية عيد القديس بارثلميو الرسول، واستأجرنا هناك سفينة أخرى، وتبعد أثينا، التي بشر بها بولص الرسول، مسافة يومين عن أحواز كورنثيا، فهناك ولد ديونيسوس Dionysius وتعلم، وأمن بعد ذلك بالرب بوساطة بولص المبارك (١٧)، ويوجد هناك في كنيسة العذراء مريم المباركة، زيت في مصباح يشتعل بشكل دائم، دون أن ينقص مطلقاً.

ووصلنا بعد ذلك الى جزيرة تدعى بيتاليون (١٨) petalion، ومن هناك الى أندريا (١٩) Andria حيث يصنعون ذهباً ثمينا وفضة منظومة في خيط أو أشكال مغلفة، وملابس مطرزة بالحريز، وقد منّا من هناك الى تينوس tinos، ثم الى سيرا Syra بعددها الى ميكونيا Miconyam، ومن هناك الى نكسيا naxia، التي الى جانبها جزيرة كريت صاحبة الذكرى والشهرة، وجزنا من هناك الى كايا car- وأومرغون omargon، وساموس، وسكيو scyo وميتيلينا met-

elina، ووصلنا بعد هذا الى باتموس patmos، التي نفى إليها يوحنا الرسول الانجيلي من قبل دومشيان Domition، وحيث كتب سفر الرؤيا، وإفسوس واقعة على أحد الجوانب قرب سميرنا، التي هي على مسافة يوم واحد، والتي إليها ذهب الانجيلي نفسه، ودخل حياً الى ضريحه، وكتب الرسول بولص أيضاً رسالة الى أهالي إفسوس، ثم وصلنا الى جزيرتي ليروس Leros، وكاليمنو Calimno، ثم الى أخوس، حيث ولد جالينوس أعظم الأطباء مكانة بين الاغريق، وعبرنا من هناك بوساطة ميناء مدينة ليدو lydo المهدمة، حيث بشر تيتوس تلميذ القديس بولص الرسول، وقدمنا من هذه الى أسيوم Asum التي تدعى أرجنتيا (٢٠) Argentea.

ثم وصلنا بعد هذا الى رودس، التي قيل عنها بأنها إحدى عجائب الدنيا السبعة وهي: الكولوسوس Colossus، وهو صنم ارتفاعه مائة وخمسة وعشرين قدماً، هدمه الفرس مع جميع المقاطعة الرومانية تقريباً، عندما كانوا في طريقهم الى إسبانيا، وإلى الكولوسيين كتب الرسول بولص المبارك رسالة (٢١)، وأوصلنا من هناك سفر يوم الى باتارا Pa-tara، وهي مدينة ولد فيها المبارك رئيس الأساقفة نيقولا، ومن هناك ساقطنا في المساء المتأخر عاصفة قوية، وأطلقنا الأشرعة في الصباح التالي، ووصلنا الى مدينة كلها خرائب تدعى سينت ماري موغر ونيسي، Mogronissi، ومعنى هذا: الجزيرة الطويلة (٢٢)، واعتاد هنا أن يعيش النصاري الذين أخرجهم الترك من الاسكندرية (٢٣)، وهذا ظاهر من الكنائس والأبنية الأخرى، وقدمنا من هناك الى مدينة مايرا Myra، حيث حكم القديس نيقولا بمثابة رئيس للأساقفة (٢٤)، ومايرا هي ميناء البحر الأيحي، وبعدما تعبدنا عند مقام الضريح المقدس للقديس المذكور، وصلنا بريح طيبة الى

الجزيرة التي اسمها اكسنداكوبو Xindacopo التي معناها باللاتينية «الأشعة الستة» بسبب قوة البحر (٢٥)، وعلى مقربة منها الميناء الذي يدعى مع المنطقة المحيطة به باسم فينيكا Finica، وبعد ثلاثة أيام من السفر عبر الجزء المعرض من البحر الأدرياتيكي، وصلنا من ذلك المكان الى مدينة بافوس Paphos، وهي جزء من جزيرة قبرص، فهنا اجتمع الرسل بعد صعود ربنا، وعقدوا مؤتمراً حول الأشياء المتوجب اقرارها، والى هاهنا أرسلوا القديس برنابا الرسول للتبشير، وبعد وفاته جاء الى هاهنا القديس بطرس من يافا، وهناك تفرقت بذور كلمة الرب، قبل أن يعتلي الكرسي الرسولي في انطاكية. (٢٦)

ومن جزيرة قبرص، رفعنا مراسينا، وظلت عاصفة بحرية تتقاذفنا لمدة سبعة أيام، قبل أن نتمكن من الوصول الى مرسى، وفي إحدى الليالي كانت الرياح عنيفة جداً، الى درجة أنها أعادتنا الى قبرص، لكن بفضل من رحمة الرب-التي هي قريبة جداً من كل من يدعو بصدق- جددنا بدون كثير من المصاعب، وعدنا ثانية الى مسارنا المرغوب، ثم استبدت بنا عاصفة هائلة لمدة سبع ليالي، ولشدة خوفنا كدنا جميعاً أن نفقد الأمل، ومهما يكن الحال، عندما أشرقت الشمس في الصباح ظهر أمام أعيننا شاطئ ميناء يافا، وكما ألقينا بنا متاعبنا الكبيرة ومخاطرنا في وضع بائس كذلك فعل الأمر غير متوقع وغير المؤمل، فكان أن ضاعفت بهجتنا سرورنا مائة ضعف، وبناء عليه بعد مرور ثلاثة عشر اسبوعاً، كما كنا قد أقلعنا يوم أحدهم من مونوبولي، وكنا دوماً إما فوق أمواج البحر أو على الجزر في الأكواخ، وفي الزرائب الشاغرة، لأن الاغريق ليسوا مضيافين، هكذا نزلنا في يوم أحد وسط سرور عظيم وحمد وشكر الى ميناء يافا.

أسألكم الآن وأرجوكم جميعاً، أيها الأصدقاء الأحباء، أن تمدوا أيديكم وترفعوهم عالياً، وتصفقوا بهم، وتغنوا ببهجة تامة للرب بصوت واحد معي، وارفعوا أصواتكم معي في شكره، لأنه وهو القادر بسط رحمته عليّ

خلال الرحلة كلها، تبارك اسمه من الآن فصاعداً، ودائماً أبداً، أعيروني آذانكم أيها الأصدقاء الأعزاء، واستمعوا الى خبر الرحمة التي أظهرتها العناية الربانية نحوي ولي، ومع أنني أقل عبيده شأنًا، ففي اليوم نفسه الذي رسونا فيه قال لي أحد الناس، بدافع رباني كما أعتقد: «ياسيد، انزل الى الشاطئ» هذا اليوم، خشية ربما ستأتي عاصفة هذه الليلة أو في الصباح الباكر، ووقتها لن يكون باستطاعتك النزول الى اليابسة»، وما أن سمعت هذا حتى تملكنتني على الفور رغبة بالنزول الى الشاطئ، فاستأجرت قارباً، ونزلت الى اليابسة مع كل أغراضي، وعندما بدأت بالنزول الى اليابسة بدأ البحر يضطرب، وازداد الهيجان، وثار عاصفة عنيفة، لكن بفضل عناية الرب وصلت دونما أذى، ثم ما الذي حدث بعد؟ ذهبنا الى داخل المدينة نطلب مكاناً للإقامة، وكنا متعبين قد أنهكتنا المشاق الكثيرة، وتناولنا بعض المنشطات وارتحنا، وحدث على كل حال في الصباح الباكر، أننا عندما كنا خارجين من الكنيسة سمعنا ضجيج البحر وأصواته، وصراخ الناس، وكان الجميع يركضون، وهم مندهشين تجاه أشياء لم يسمعوها من قبل، وركضنا وكلنا خوف، مع الآخرين، ووصلنا الى الشاطئ، وعندما وصلنا الى هناك، رأينا العاصفة تسوق أمواجاً عالية مثل الجبال، وقد غمرت أجساد رجال ونساء فاقت التعداد، وقد غرقوا وألقي بهم بشكل تعيس على الشاطئ، ورأينا أيضاً سفناً وقد تصادمت مع بعضها وتحطمت الى قطع صغيرة، من الذي كان بإمكانه الإصغاء الى شيء سوى زئير البحر، مع تصادم السفن وتحطمها؟ وكانت الأصوات أعلى من صراخ الناس، ومن صرخات جميع الملاحين، وبما أن سفيتنا كانت كبيرة جداً، وبنيت بشكل متين، فقد حافظت حتى الآن على توازنها وذلك مع عدد آخر من السفن كانت محملة بالحبوب وبأنواع البضائع التجارية والحجاج القادمين أو العائدين، وحافظت حتى الآن على توازنها وسط البحر الهائج بفضل مراسيها ولكونها ربطت بالحبال، ويالهول الرعب الشرير الذي

واجهوه، وكيف ألقى ببضائعهم وقذفت بعيداً، ولا شك أن العيون التي رأت ذلك كله قدت من صخر، إذا كانت تمنعت عن البكاء، ولم يكن قد مضى وقت طويل ونحن نحدق بالذي أمامنا، عندما اقتلعت الأمواج العاتية والتيار الرهيب المراسي، وقطعت الحبال، وصارت السفن فريسة بأيدي الأمواج الهائلة، فتبددت جميع الآمال بالنجاة، تراهم الآن قد رفعوا عالياً، ثم مالبثوا أن نزلوا نحو الأعماق، وبسرعة جرى لفظهم خارج الأعماق ورميهم فوق الرمال أو فوق الصخور، وتبعثروا بشكل بائس من جانب إلى جانب، وبالتدريج تحطموا إلى قطع بقوة التيار، ولم تسمح لهم قوة العاصفة بالعودة سالمين إلى البحر، ولم يسمح لهم انحدار الشاطئ بالوصول إلى البر بسلام، وكيف يتسنى لنا الحديث عن أسى الملاحين والحجاج عندما تبددت جميع آمالهم، فقد ظل بعضهم محصوراً بالسفن، وتعلق بعضهم بالسواري، وبعضهم أمسك بشيء من البقايا، أو تعلق بقطع من الخشب، وماذا يمكنني أن أقول أكثر؟ وغرق بعضهم من الذين استبد بهم الرعب، وحدث لبعض الذين كانوا متعلقين أن قطعت رؤوسهم بوساطة أخشاب سفنهم، وقد يبدو هذا أمراً لا يصدق لكثير من الناس، ومع ذلك أنا رأيت ما حدث، وجرف بعضهم من على ظهر سفنهم، فحملوا مجدداً إلى الأعماق، وألقى بعض الذين يحسنون السباحة أنفسهم عن طواعية بين الأمواج، وبهذا غرق كثير منهم، وقليل جداً، ممن كان واثقاً بقوته، وصلوا سالمين إلى الشاطئ، وهكذا من بين ثلاثين سفينة كبيرة، ممن كان بعضه يعرف باسم دور مندي Dormundi أو غولافري Gulafri، أو كاتي (٢٧) Catti، وجميعها كانت محملة بالحجاج أو بالبضائع التجارية، بالكاد بقي سبع سفن لم تغرق عندما غادرت الشاطئ، وهلك في ذلك اليوم أكثر من ألف إنسان من كلا الجنسين، وهي أعظم كارثة أمكن لعين إنسان أن تراها في يوم واحد، ومن جميع هذه المخاطر أنقذني الرب بفضلته، له الشرف والمجد، وعالم بلا نهاية أمين.

ومضينا من يافا الى مدينة القدس ،وهي رحلة يومين،عبر طريق جبلي،وصخري،وخطر جداً ،لأن المسلمين كانوا يقيمون الكهائن دوماً لاصطياد الفرنجة،فقد كانوا يختبئون في الأماكن المجوفة في الجبال،وفي الكهوف الصخرية،يراقبون الأوضاع ليل نهار،وينتظرون دوماً الذين يمكنهم مهاجمتهم بحكم صغر تعداد المجموعة المسافرة أو مهاجمة الذين تخلفوا وراء مجموعتهم بسبب الارهاق ،ففي لحظة واحدة يمكن أن تراهم حولك في مكان ما،ثم مايلبثون أن يختفوا كلياً، (٢٨) ويمكن لكل واحد يقوم بهذه الرحلة أن يرى هذا ،آه،كم كان عدد الأجساد البشرية الملقاة على الطريق أو على أطرافه،وقد مزقت من قبل الحيوانات الضارية،وربما يتساءل بعضهم لماذا توجب أن تبقى أجساد الفرنجة هكذا دونها دفن،لكن هذا لايجوز أن يكون موضع تساؤل،لأن هناك مساحة صغيرة من الأرض،وليس من السهل الحفر بالصخور،ويضاف الى هذا،لو افترضنا وجود أرض،من هو الأحمق الذي يقوم بالتخلي عن جماعته،وينشغل لوحده في حفر قبر لمرافقه؟إنه إذا ما فعل ذلك يكون بالواقع قد تولى حفر قبر لنفسه وليس لمرافقه،وعلى ذلك الطريق ،ليس الفقير والضعيف من كان عرضة للخطر،بل حتى الغني والقوي تعرضوا للمخاطر،وقتل المسلمون أعداداً كبيرة لكن الحر والعطش قتل أكثر،فكثير هلكوا لقلة الماء ،وهلك الأكثر لأنهم شربوا كثيراً ،وعلى كل حال وصلنا نحن مع جماعتنا كلها دونما أذى،الى هدفنا المنتظر منذ وقت طويل،الحمد للرب،لأنه لم يهمل صلواتي،ولم ينأى برحمته عني. آمين.

وقام مدخل مدينة القدس في الجهة الغربية،تحت برج الملك داود،عبر الباب الذي يعرف بباب داود(٢٩)،وكنيسة الضريح المقدس التي تدعى «كنيسة الشهادة»هي أول بقعة توجبت زيارتها وليس هذا بسبب اتجاه الشوارع،بل لأنها كانت أعظم شهرة من بقية الكنائس،وهي والحق يقال جديرة بكل ما قيل عنها من قبل الأنبياء المقدسين،في جميع أنحاء

العالم، لأن كل ما تعلق بمخلصنا يسوع المسيح أنجز هناك بالفعل، وبُنيت الكنيسة نفسها، عندما عثر على صليب ربنا، من قبل رئيس الأساقفة مكسيموس، بمساعدة الامبراطور قسطنطين وأمه هيلانه (حنة)، وجاء البناء ملكياً رائعاً، وفي وسط هذه الكنيسة ضريح ربنا (٣٠)، محاط بسور قوي، ومغطى جميعه، خشية الدمار، وتتساقط الأمطار فوق الضريح المقدس، لأن الكنيسة فوقه بدون سقف، وهذه الكنيسة قائمة على سفوح جبل صهيون، مثلها بذلك مثل المدينة نفسها، وبعد هذا قام الامبراطوران الرومانيان تيتوس وفسبسيان بتدميرها انتقاماً من الرب ولكي تتحقق النبوءة الالهية، آنذاك اقترب الرب من اورشليم وحين رأى المدينة بكى عليها وقال:

«لأنه لو عرفت أنت: إن الأيام ستأتي عليك وسيحيط الأعداء بك وبأسوارك ويتزاحموا عليك من كل مكان وسيرمون بك الى الأرض وبأبنائك الذين يعيشون فيك، ولن يتركوا فيك حجراً على حجر» الخ ونحن نعرف أن خارج الباب خطوة يكون الرب.

ولكن الامبراطور هادريان أعاد بناء مدينة اورشليم، التي دُعيت هلياس (إيليا)، وكذلك هيكل الرب ووسع المدينة حتى برج داود، الذي كان قبل ذلك قد بعد كثيراً عن المدينة، وكل من يريد يستطيع أن يراه من جبل الزيتون، حيث كانت تقوم الأسوار الغربية النهائية للمدينة قبل ذلك، وإلى أي حد توسعت بعدها، وأعاد الامبراطور تسمية المدينة باسمه: «إيليا» والذي فُسِّر على أنه بيت الاله. ولكن بعضهم يقول إن المدينة قد أعيد بناؤها من قبل الامبراطور جستنيان وكذلك هيكل الرب بصورة مشابهة مثل ما هو عليه اليوم، ولكن يقولون إن ذاك رواية أخرى، وليس حقيقة أخرى، لأن السريان، الذين كان آبائهم يقطنون في تلك البلاد منذ الاضطهاد الأول، يقولون إن المدينة كانت للمرة السابعة قد احتلت ودمرت بعد آلام الرب، وصعوده الى السماء ولكنها لم تندثر

بصورة كاملة. وفي باحة كنيسة الرب يمكن رؤية أماكن القبور المقدسة، مثلما أيضاً السجن، حيث كان سجن ربنا يسوع المسيح بعد تسليمه، وذلك حسب الروايات السريانية، وبعدها بقليل إلى الأعلى يظهر المكان الذي وجد فيه الصليب المقدس مع الصليب الأخرى حيث بني بعد ذلك تكريماً من الملكة هيلانه كنيسة عظيمة، ولكنها بعد ذلك دمرت تدميراً كاملاً على أيدي الكفار، وإلى الداخل ليس بعيداً عن السجن يمكن رؤية الأعمدة المرمية التي كان قد ربط إليها ربنا يسوع المسيح في قصر الحاكم، وعذب بأقسى أنواع الشياطين، وبالقرب منها يوجد المكان حيث جرد ربنا من ثيابه من قبل الجنود، ثم يأتي المكان حيث ألبسه الجند رداء أرجوانياً، وتوجوه بتاج من شوك، واقتسموا ملابسه حسب القرعة، وبعد ذلك إقتيد إلى جبل الجمجمة حيث أراد الأب الأكبر إبراهيم قبلها أن يضحي بابنه على مذبح صنعه بناء على أمر الله. وفي المكان ذاته تم بعد ذلك تقديم ابن الاله، الذي جسده بنفسه، ضحية لاله الأب من أجل افتداء العالم، لكن صخرة الجبل ذاته هي شاهد الآلام الربانية. وإلى جانب الحفرة التي ثبت فيها صليب الرب، كثيراً من الشياطين، لأنه بدون شياطين لا يمكن تحمل موت الخالق، مثلما نقرأ في سيرة الآلام: «كذلك الصخور تفتتت»

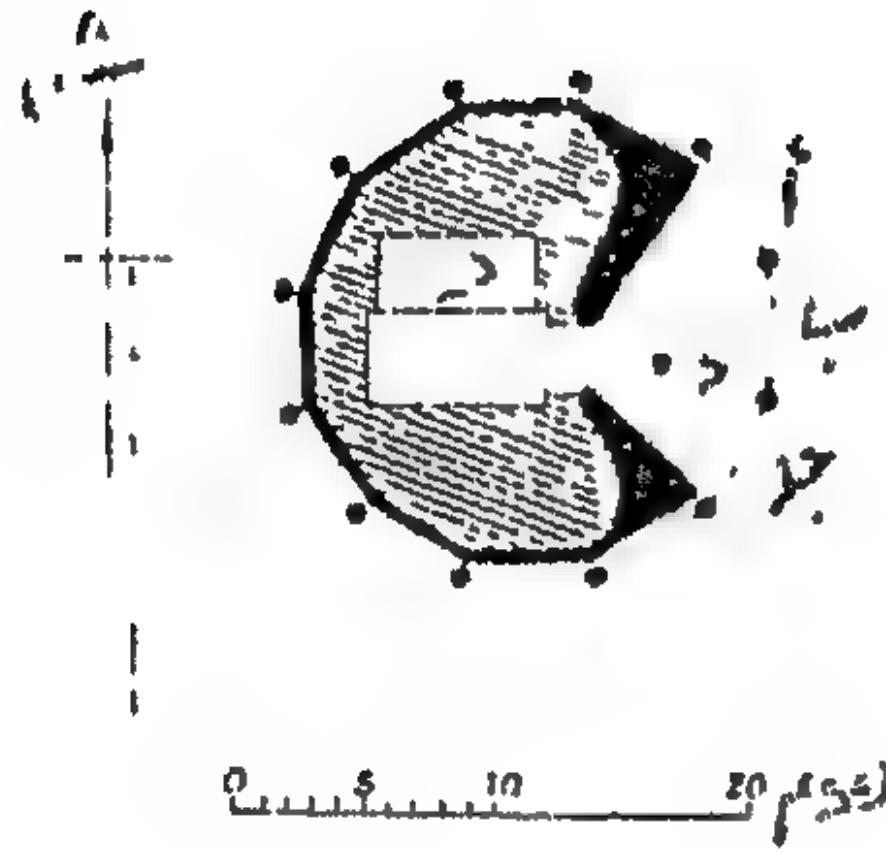
وفي الأسفل يوجد المكان المدعو الجبلجلة حيث يقال إن آدم، من جريان الدم الالهي المتساقط عليه، قد نهض من بين الموتى مثلما نقرأ في سيرة الآلام: «وكذلك ستبعث كثيراً من أجساد القديسين الذين يرقدون»، هذا ونقرأ في روايات القديس أوغسطين أن قبره في الخليل حيث يوجد إثر ذلك أيضاً ثلاثة دفنوا مع زوجاتهم: إبراهيم مع سارة، واسحق مع رفقه، ويعقوب مع ليا، وعظام يوسف مع أبناء إسرائيل جلبت معهم من مصر. وإلى جانب مكان الصليب كنيسة مريم المقدسة، في المكان الذي أخذ فيه جسد ربنا من الصليب، فدهن قبل

دفنه بالدهون ذوات الروائح الطيبة ، ولف بقطع من قماش الكتان ، أو برباطات طويلة .

وعند رأس كنيسة الضريح المقدس بقعة تدعى «البوصلة» ، فهي قد عينها ربنا يسوع المسيح نفسه بيده على أنها وسط العالم (٣١) ، وهذا ما أكدته. المزامير بقوله : « والله ملكي منذ القدم فاعل الخلاص في وسط الأرض » ويقول بعضهم إنه في هذا المكان حسبها قالوا ظهر ربنا يسوع المسيح للمرة الأولى لمريم المجدلية ، عندما كانت تبحث عنه وهي باكية ، واعتقد أنه البستان حسبها روى أصحاب الأناجيل (٣٢) .

بيعة الضريح المقدس حسبها رؤيت من قبل سيولف ودانيال

الرسم التوضيحي رقم ١



١- أ.ب.ج: الأبواب الثلاثة

د: الحجر الذي جلس عليه الملاك.

هـ: المقعد الذي مدد عليه جسد المسيح.

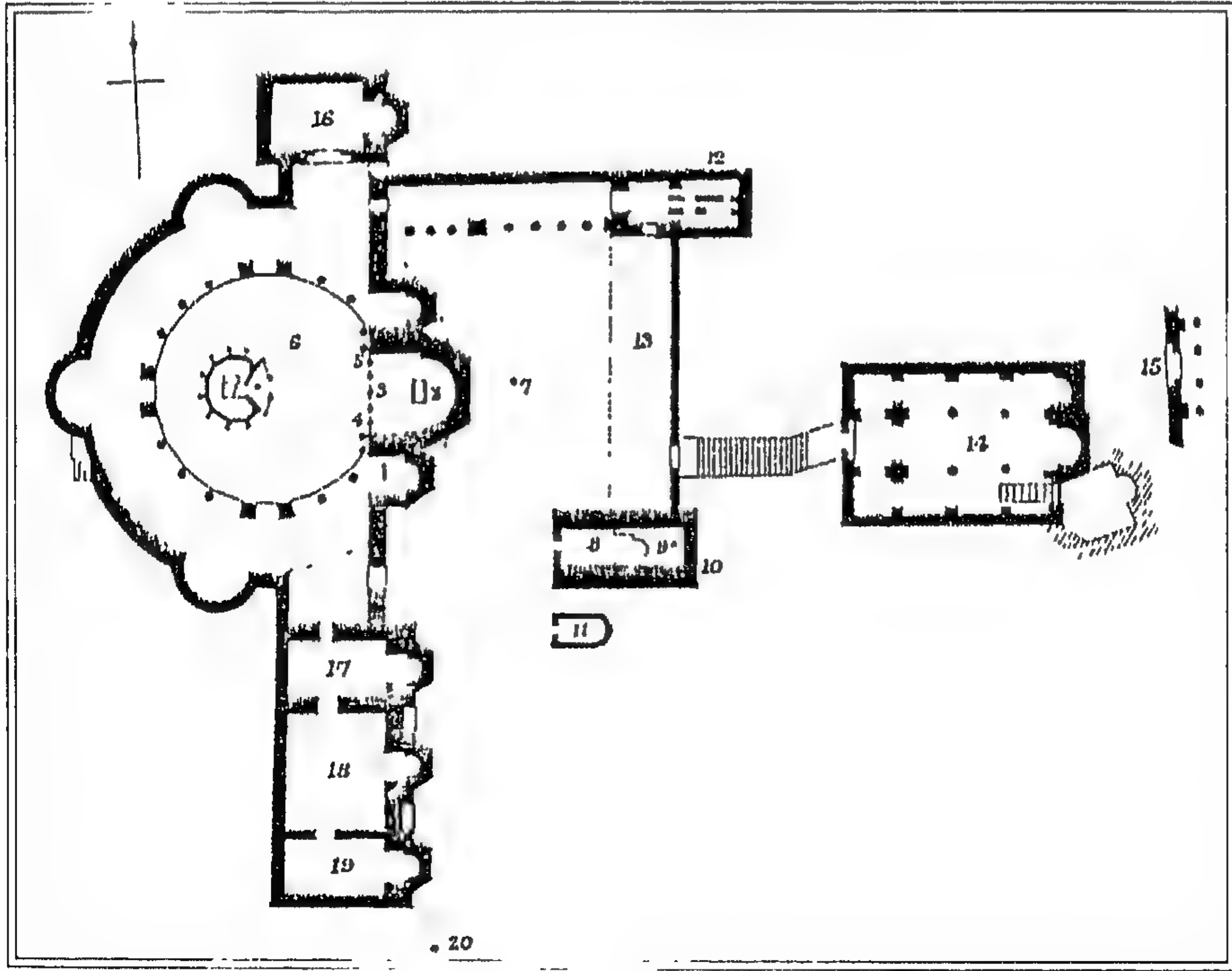
وأعظم هذه البيع قداسة موجودة في ردهة ضريح ربنا في الجانب الشرقي ، وعلى جانبي الكنيسة نفسها هناك البيعتان المشهورتان المغلقتان ، كل واحدة على جانب أي المقامتان على شرف مريم المقدسة ، والقديس يوحنا لأنهما نفسيهما شاركا في الآم ربنا، ووقفنا الى جانبه ، أحدهما على يمينه والآخر على يساره ، ومن الممكن أن نرى على جدار البيعة نفسها المكرسة لمريم المقدسة صورة لأم الرب نفسها ،

رسمت على الجانب الخارجي ، مع مواساة رائعة لمريم المصرية ، منذ زمن طويل ، وقد امتلأ قلبها بالندامة ، وهي ترجو بإخلاص مساعدة أم الرب ، وهي تتحدث إليها في الصورة المرسومة بوساطة روح القدس ، حسبما نقرأ في سيرة حياتها (٣٣) ، وعلى الجانب الآخر من بيعة القديس يوحنا ، يقوم الدير الجميل جداً المعروف باسم دير الثالوث المقدس ، حيث يوجد مكان للتعميد ، ارتبطت به بيعة القديس جيمس الرسول ، الذي نال أول كرسي أسقفي في القدس ، وجميع هذه الأماكن منظمة ومرتبطة بشكل يمكن به لأي إنسان يقف في نهاية الكنيسة أن يرى بوضوح الكنائس الخمسة من باب الى باب (٣٤).

وفي خارج باب كنيسة الضريح المقدس ، نحو الجنوب ، تقوم كنيسة مريم المقدسة ، التي تدعى باسم الكنيسة اللاتينية ، لأن القداصات يتم تقديمها للرب فيها باللاتينية ، ويقول السريان إن أم الرب المقدسة نفسها،وقفت وقت صلب ابنها،على البقعة نفسها حيث يقوم مذبح الكنيسة،ومرتبط بهذه الكنيسة كنيسة أخرى مكرسة لمريم المقدسة،وهي تدعى بارفا Parva ،وعليها يتردد بعض الراهبات حيث يتولين خدمتها وخدمة ابنها بتقوى عظيمة،وبقربها المشفى حيث الدير المشهور المقام على شرف القديس يوحنا المعمدان.(٣٥)

وتنزل في (الشارع) من ضريح ربنا، بقدر رميتي سهم، الى هيكل الرب،الواقع على الجانب الشرقي من الضريح المقدس ،وصحنه طويل جداً وعريض،وله أبواب كثيرة،لكن الباب الرئيسي الذي يواجه الهيكل،ويدعى الباب الجميل بسبب سمات العمل الحرفي فيه ولتعددده بالألوان،فهناك أبراً بطرس المقعد،عندما ذهب ويوحنا الى الهيكل في الساعة التاسعة،وهي ساعة الصلاة حسبما نقرأ في أعمال الرسل(٣٦)،ويدعى المكان الذي بنى فيه سليمان قديماً هيكل الرب بيت إيل Bethel وإلى هناك ذهب يعقوب في رحلته -ربما بناء على أوامر

الرب - واستراح هناك ، ورأى في المكان نفسه السلم الذي يلامس رأسه السموات ، ورأى الملائكة ينزلون عليه ويصعدون ، وقال كما نقرأ في سفر التكوين : « حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم » ، وهناك أقام الحجر دليلاً ، وبنى مذبحاً ، وصب الزيت عليه (٣٧) ، وفي هذا المكان نفسه ، بني فيما بعد سليمان بؤحي رباني الهيكل ، وكرسه للرب ، وكان بناءً رائعاً ولا يوجد مثيل له ، وقد زينه بشكل بهي بجميع أنواع التزيينات وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك ، وبدا بإرتفاعه وهو يساوي جميع التلال من حوله ، وتفوق على جميع الجدران أو الأبنية في لمعانه وعظمته ، ويرى في وسط ذلك الهيكل صخرة عالية وواسعة ، ومجوفة من أسفلها ، وعليها كان قدس الأقداس ، وهناك وضع سليمان تابوت العهد الذي كان فيه المن وعصا هارون التي زرعت هناك وأخضرت وأزهرت وأعطت بعض اللون.



الرسم التوضيحي رقم ٢

كنيسة القيامة

- ١- القبر
- ٢- المذبح العالي في الجهة الشرقية
- ٣- مكان وقوف الكهنة اللاتين أثناء نزول النور المقدس
- ٤- موقع الملك بلدوين
- ٥- مكان رحالتنا
- ٦- مكان الكهنة الأرثوذكس
- ٧- وسط الأرض
- ٨- مزار أكر (الجمجمة)
- ٩- الجلجلة- مكان الصلب
- ١٠- مذبح ابراهيم
- ١١- مكان النزول
- ١٢- سجن المسيح
- ١٣- المكان الذي وضعت فيه الملابس، وأدوات السخرية، والطعن، والتاج، الخ
- ١٤- كنيسة صغيرة تتعلق باكتشاف الصليب
- ١٥- الباب الذي دخلت منه مريم المصرية
- ١٦- مزار القديسة مريم
- ١٧- مزار القديس يوحنا
- ١٨- مزار الثالوث المقدس
- ١٩- مزار القديس جيمس
- ٢٠- المكان الذي وقفت عليه العذراء أثناء الصلب.

وأيضاً لوشي الوصايا ، وهنا اعتاد مولانا يسوع المسيح ، أن يستريح بعدما يكون قد أنهكه النقاش مع اليهود ، وهنا مكان الاعتراف ، حيث اعترف حواريوه به (أنه المسيح) (٣٩) وهنا ظهر الملك جبريل للكهن زكريا قائلاً له : « سيلد لك ولد في عمرك المتقدم » (٤٠) ، وابن زكريا بن براخيا هذا نفسه قد ذبح فيما بين الهيكل والمذبح ، وهناك ختن الطفل يسوع في يومه الثامن ، وسمي يسوع الذي معناه المخلص ، وهنا جرى تكريس الرب يسوع من قبل والديه مع العذراء مريم ، أمه ، في يوم الطهارة ، ووضعته بين ذراعيه الرجل الشيخ سمعان (٤١) ، وهناك أيضاً ، وجد يسوع عندما كان في الثانية عشرة من عمره جالساً وسط المعلمين يسمع منهم ويسألهم أسئلة ، وذلك حسبما نقرأ في الإنجيل (٤٢) ، ومن هناك رمى فيما بعد ، وأخرج من الهيكل الثيران والأغنام والحمام قائلاً : « مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى » (٤٣) وقال هناك لليهود : « انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه » (٤٤) ، وما يزال مرثياً في الصخرة آثار قدم ربنا ، عندما أخفى نفسه ، ومضى إلى خارج الهيكل ، حسبما نقرأ في الإنجيل ، حتى لا يرمي اليهود الحجارة نحوه ، الحجارة التي حملوها (ليرموه بها) (٤٥) ، وهناك أحضرت المرأة ، التي أمسكها اليهود وهي تزني ، إلى أمام يسوع ، حتى يجدوا شيئاً يحتجون به ليتهموه ويشتكون عليه (٤٦) ، وهناك باب المدينة في الجهة الشرقية من الهيكل الذي يدعى الباب الذهبي ، ففي هذا المكان التقى يواكيم ، والد مريم المقدسة ، بأمر من الملك ، بزواجه حنة ، (٤٧) ومن خلال الباب نفسه ، دخل الرب يسوع إلى المدينة ، أثناء قدومه من بيت عنيا يوم أحد سعف النخيل ، وحين دخل كان راكباً ظهر أتان ، والأطفال يغنون « أوصنا لابن داود » (٤٨) ومن خلال الباب نفسه عاد الامبراطور هرقل منتصباً من بلاد فارس ومعه صليب الرب ، لكن في البداية تساقطت الأحجار ضد بعضها وأغلقت الباب ، وصار الباب منطقة لتجمع أكوام من الفضلات ، حتى

تواضع الامبراطور نفسه ، بعد ما تلقى لوماً من الملاك، وترجل من على ظهر حصانه ، ونظف المدخل لأجله ، وفي صحن هيكل الرب ، في الجنوب ، هناك هيكل سليمان ، بحجم رائع وفي جهته الشرقية هناك مكان مهبط الوحي ، ويحتوي على غرفة ليسوع المسيح وحمامه ، وفراش أمه المباركة ، وذلك حسب روايات السريان .

وتذهب من هيكل الرب نحو الشمال، إلى كنيسة القديسة حنة، أم مريم المباركة، فهناك عاشت مع زوجها، وهناك ولدت ابنتها مريم التي هي أم أعظم الناس محبة، مخلص جميع المؤمنين، وعلى مقربة من هناك بركة الإبراء، التي اسمها بالعبرانية بيت حسدا، وكان لها خمسة أروقة، فعنها نقرأ في الإنجيل، فأعلى منها بقليل كان المكان الذي شفيت فيه المرأة من قبل مولانا بلمسها طرف ثوبه، عندما كان مطوقاً بحشد كبير من الناس، وكانت المرأة تعاني من صدور الدم منها منذ اثنتي عشرة سنة، ولم تحصل على الشفاء بوساطة الأطباء (٤٩).

وتذهب من كنيسة القديسة حنة خلال الباب الذي يؤدي إلى وادي يهوشافاط (جهنم) فألى كنيسة مريم المباركة في الوادي نفسه، إلى حيث حملت بعد موتها بتشريف عظيم من قبل الرسل حتى تدفن، وضرحتها والحق يقال جدير بالتبجيل والتشريف العظيم من قبل المؤمنين.

ويتولى الرهبان هناك خدمة مولانا يسوع المسيح وأمه ليلاً ونهاراً، وهناك بركة قدرون، وكان أيضاً جيسماني، إلى حيث ذهب مولانا مع حواريه قبل الساعة التي تعرض فيها للخيانة، ذهب من جبل صهيون عبر بركة قدرون، وهناك موقع نوع من أنواع الوحي في البقعة التي ترك فيها بطرس وجيمس ويوحنا حيث قال: « امكثوا هنا واسهروا معي »، وتابع تقدمه نحو الأمام، وسجد وصلى، وجاء إلى حواريه فوجدهم نائمين (٥٠)، وهناك ما يزال من الممكن رؤية الأماكن التي نام فيها الحواريون، وكل مكان منفرد بنفسه، فجيسماني عند سفح جبل الزيتون ،

وبركة قدرون دونها بين جبل صهيون وجبل الزيتون ، وكأنه يفرق بين الجبلين، لكن البقعة المستوية بين الجبلين تدعى وادي يهوشافاط، وإلى الأعلى قليلاً فوق جبل الزيتون هناك مكان وحي، في موقع صلى فيه ربنا، وذلك حسبما نقرأ في الآلام : « وانفصل عنهم نحو رمية حجر. وإذا كان في جهاد كان يصلي بأشد الحاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض» (٥١) ثم يمكنك أن (تري) أكلداماك، وهو الحقل الذي شري بثمن الرب، وهو أيضاً قائم عند سفح جبل الزيتون، ملاصق للوادي، على بعد ثلاث أو أربع رميات قوس من جيسماني باتجاه الجنوب، وهناك عدد لا يحصى من الأوابد الجديرة بالزيارة.

وهذا الحقل قائم على مقربة من قبري الأبين المقدسين: سمعان العدل، ويوسف جد ربنا، وجرى بناء هذين القبرين منذ زمن قديم على شكل برجين منقورين بالصخر من جذر الجبل نفسه، وتمضي بعد هذا مروراً بأكلداماك إلى النبع الذي يعرف باسم بركة سلوان، حيث قام رجل أعمى بناء على أمر من ربنا، فغسل عينيه، وكان ربنا قد صنع طينا بوساطة بصاقه ثم دهن له عينيه (٥٢).

وتذهب من كنيسة مريم المقدسة المذكورة أعلاه بوساطة طريق منحدر إلى أعلى نقطة تقريباً من جبل الزيتون، نحو الشرق، إلى المكان الذي صعد فيه ربنا إلى السماء على مشهد من حواريه.

والبقعة محاطة ببرج صغير، وبناية كبيرة مقام هناك مذبح فوق البقعة، وهي أيضاً محاطة بسور من جميع الجوانب، ويوجد في المكان الذي وقف فيه الرسل مع مريم المباركة — أمه — وهم يعجبون من عروجه، مذبح كنيسة القديسة مريم، ووقف إلى جانبهم رجالان بلباس أبيض فقالا: «أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء» (٥٣) الخ، وقرب ذلك على رمية حجر كتب ربنا الدعاء الرباني باصبعه شخصياً على الرخام بالعبرية، فهذا ما ذكره السريان، وبني هناك كنيسة

جميلة جداً، غير أنها دمرت فيما بعد كلياً من قبل الكفار، لأن جميع الكنائس كانت خارج الأسوار.

وكنيسة روح القدس موجودة على جبل صهيون خارج السور إلى الجنوب بقدر رمية سهم، فهناك تلقى الرسل وعد الأب، أي روح قدس الفارقليط، في يوم عيد الحصاد، وهناك صنفوا الشريعة، وفي تلك الكنيسة مقام فيه توفت مريم المباركة، وفي الجانب الآخر من الكنيسة هناك مشهد قائم على البقعة التي ظهر فيها ربنا يسوع المسيح، بعد قيامته، إلى الرسل، وتدعى الجليلية، وقال هو نفسه للرسل: «بعد أن أقوم ثانية، سأذهب قبلكم إلى الجليلية»، وحمل هذا المكان اسم الجليلي، بسبب أن الرسل الذين عرفوا باسم الجليليين، غالباً ما ارتاحوا هناك (٥٤).

والجليل مدينة كبيرة قرب جبل الطور، على مسيرة ثلاثة أيام من القدس، ويقوم على الجانب الآخر من جبل الطور المدينة التي تدعى طبرية، وتأتي بعد هذا إلى كفرناحوم والناصرة قرب بحر الجليل وبحر طبرية، إلى حيث عاد بطرس والرسل الآخرون، بعد قيامة ربنا، إلى صيدهم، وحيث أظهر ربنا نفسه لهم على بحر طبرية (٥٥)، وإلى جانب مدينة طبرية السهل الذي بارك فيه الرب يسوع الخمسة أرغفة مع السمكتين، وأطعم بهم بعد ذلك أربعة آلاف رجل، وذلك حسبما نقرأ في الانجيل (٥٦)، لكن دعوني أعود إلى مابدأت به.

وفي جليلية جبل صهيون حيث اختبأ الرسل واجتمعوا خوفاً من اليهود، وكانت الأبواب مغلقة، وقف يسوع بينهم في وسطهم وقال: «سلام لكم» (٥٧) وأظهر لهم نفسه مرة ثانية هناك عندما وضع توما اصبعه في جنبه وفي مكان المسامير (٥٨)، وهناك تعشى مع حواربيه قبل آلامه، وغسل أقدامهم، وماتزال هناك المائدة التي أكل عليها العشاء، وهناك أيضاً آثار القديس ستيفن، ونيكودامیوس، وجماليل، وعبيدو، وقد

وضعوا هناك بتشريف من قبل البطريرك القديس يوحنا بعدما تم العثور عليهم (٥٩)، وأحجار القديس ستيفن موجودة خارج السور على بعد رميتي سهم أو ثلاث رميات، وهناك كنيسة جميلة بنيت على الجانب الشمالي، وقد هدمت هذه الكنيسة تماماً من قبل الكفار (٦٠)، ومثل هذا كنيسة الصليب المقدس، التي تبعد حوالي الميل من القدس على الجانب الغربي، في مكان قطع منه الصليب المقدس، وهي مبجلة جداً، وجميلة جداً، لكنها تعرضت للافساد من قبل الكفار، علماً أنه لم يهدم سوى القليل منها، باستثناء الأبنية والخلوات من حولها، وتحت سور المدينة في الخارج، على منحدرات جبل صهيون، توجد كنيسة القديس بطرس التي تدعى جاليكانتوس Gallicantus (أو عرف الديك)، حيث أخفى نفسه في كهف عميق جداً، مايزاك من الممكن رؤيته، وذلك بعد ما أنكر ربنا، وبكى هناك لما اقترفه من جريمة بكاء مريراً جداً.

وعلى الجانب الغربي لكنيسة الصليب المقدس، وعلى مسافة ما يقارب الثلاثة أميال، هناك دير جميل جداً وواسع كثيراً مكرس على شرف القديس سابا، الذي كان واحداً من الاثني وسبعين حوارياً، أي حوارياً ربنا يسوع المسيح، ويعيش الآن هناك أكثر من ثلاثمائة راهب ارثوذكسي على شكل جماعة، ويعبدون ربنا والقديس، وجرى تمزيق القسم الأعظم من الرهبان من قبل المسلمين، لكن بعضهم مازال يعيش داخل أسوار المدينة، قرب برج داود في دير آخر مكرس للقديس نفسه (٦١)، وتعرض الدير الآخر للهدم كلياً.

وتبعد مدينة بيت لحم، في اليهودية، مسافة ستة أميال عن القدس، في الجهة الجنوبية، ولم يبق هناك شيئاً قابلاً للسكنى بوساطة المسلمين، بل كل شيء قد عيث به، مثلما حدث للأماكن المقدسة الأخرى خارج أسوار مدينة القدس، باستثناء دير العذراء مريم المقدسة، أم الرب، وهو دير عظيم ومشهور، وفي تلك الكنيسة نفسها هناك مغارة تحت مكان

جوقة المرتلين، وفي وسطه يمكن أن ترى البقعة التي ولد فيها ربنا، وهي قائمة بعض الشيء إلى اليسار، وأسفل قليلاً هناك على اليمين، قرب مكان ولادة ربنا المعلق الذي وقف أمامه الثور والأتان، وذلك عندما وضع ربنا الرضيع أمامهما في المزود، والحجرة التي استراح عليها رأس مخلصنا في الضريح جلبت إلى هنا من القدس من قبل القديس الراهب جيرومي، وغالباً ما يمكن رؤيتها في المزود، والقديس جيرومي نفسه مدفون تحت المذبح في الشمال من الكنيسة نفسها، والأبرياء الذين قتلهم هيرود وهم رضع عوضاً عن المسيح الرضيع، مدفونهم في الجانب الجنوبي من الكنيسة تحت مذبح، ومدفون أيضاً هناك سيدتان مقدستان جداً هما: باولا وابنتها العذراء يوستوخيوم Eustochiom ، وهناك مائدة رخامية أكلت عليها العذراء مريم المباركة مع الحكماء (المجوس) الثلاثة عندما قدموا لها هداياهم، وهناك بئر في الكنيسة، ملاصق إلى مغارة ولادة ربنا، وقد قيل سقط فيه نجم (٦٢)، وقيل أيضاً هناك حمام العذراء مريم المباركة.

وبيت عنيا هو المكان الذي أقيم فيه لازاروس من قبل ربنا بعدما كان ميتاً، وهذا المكان واقع على مسافة تقارب الميلى من المدينة نحو الشرق، على الجانب الآخر من جبل الزيتون، وهناك تقوم كنيسة القديس لازاروس، التي من الممكن أن نرى فيها ضريح عدد كبير من أساقفة القدس، وتحت المذبح المكان الذي غسلت فيه مريم المجدلية قدمي ربنا يسوع بدموعها، ومسحتها بشعرها، وقبلت قدميه، ودهنتها بالدهون.

وبيت فاجي هو المكان الذي أرسل منه ربنا حواريه أمامه إلى المدينة، وهو قائم على جبل الزيتون، لكن نادراً ما يمكن رؤيته بشكل مطلق.

وأريحا هي المكان الذي خرج منه إبراهيم (٦٣)، وهي على مسافة حوالي العشرة مراحل من القدس، والمنطقة خصبة جداً بالأشجار،

وبجميع أنواع النخيل وكل أنواع الفواكه، وهناك بئر النبي الياس He- lisseus الذي كان مالح الماء كثيراً، ولذلك كان غير قابل للشرب، والمنطقة حوله جرداء وبلا مزروعات، لكنه تحول إلى الحلاوة (٦٤)، بعد ما باركه ووضع ملحاً فيه.

وتمضي من هناك صعوداً إلى جبل مرتفع حيث صام ربنا لمدة أربعين يوماً، وهناك على بعد ثلاثة أميال حيث حاول الشيطان فيما بعد إغواءه.

ويقع نهر الأردن على مسافة تقارب الأربع مراحل إلى الشرق من أريحا، ومن ذلك الجزء من الأردن وصولاً حتى البحر الأدرياتيكي (المتوسط)، أي إلى الميناء الذي يدعى يافا، تقع المنطقة التي تدعى يهودا، ويقوم على الجانب الآخر من الأردن العربية Arabia ، وهي منطقة معادية جداً للمسيحيين (الفرنجة)، وليست صديقة لكل من يعبد الرب، ويقع هناك الجبل الذي ذهب منه إيليا Helias إلى السماء في عربة من نار. ومن الأردن مسيرة ثمانية عشر يوماً إلى جبل سيناء، حيث تجلّى الرب لموسى في نار العليقة المشتعلة، ثم صعد به بعد ذلك، بناء على أوامر الرب، وصام أربعين يوماً والعدد نفسه من الليالي، وتسلم من الرب اللوحين من الحجارة، وقد كتباً باصبع الرب ليعلم بني إسرائيل الشريعة والوصايا الموجودة في هذين اللوحين.

والخليل هي المدينة التي دفن فيها البطارقة المقدسين: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، وكل واحد منهم معه زوجته، وآدم الإنسان المخلوق الأول، دفن هناك، وقبره قائم على مسافة أربع مراحل من بيت لحم نحو الجنوب، وهناك حكم الملك داود لمدة سبع سنوات قبل أن يستحوذ على مدينة القدس من أسرة الملك شاول، وكانت مدينة الخليل عظيمة جداً وجميلة للغاية، لكنها الآن مهتمة بوساطة المسلمين، وفي الجزء الشرقي منها أبدة البطارقة المقدسين، أقيمت في العصور القديمة ومحاطة بحاجز قوي، وكل واحد من القبور واسع بقدر كنيسة كبيرة، وفي داخله ناسين،

واحد للرجل والآخر لزوجته، وهم ممددون بشكل عجيد وبوضع مشرف، وإلى الوقت الحاضر تملأ روائح البلسم والعطور الثمينة التي دهنت بها الأجساد المقدسة، خياشيم الذين يذهبون إلى هناك بشكل طيب جداً، ودفنت عظام يوسف — التي حملها بنو إسرائيل، تنفيذاً لما أوصاهم به، فجلبوها معهم من مصر — بالأسفل أدنى من البقية في الطرف الأقصى من القلعة، وماتزال البلوطات اللواتي وقف إبراهيم في ظلهن، ورأى الشباب الثلاثة قادمين عبر الطريق، حية، ويحملن أوراقاً، وذلك اعتماداً على ما قاله السكان المحليين، وذلك ليس بعيداً عن القلعة المذكورة أعلاه (٦٥).

والناصرة هي مدينة الجليل، وفيها تلقت العذراء مريم المباركة من الملاك تحيات ميلاد ربنا، وهي على مسافة حوالي الأربعة أيام سفراً من القدس، ويمر الطريق إليها خلال شكيم، مدينة السامرة، التي تعرف الآن باسم نابلس، وفيها تسلم القديس يوحنا المعمدان من هيروود الحكم بقطع رأسه، وهناك أيضاً بثر يعقوب، الذي وصل إليه يسوع وهو متعب من رحلته، فجلس إلى جانب البئر المذكور، وطلب إعطائه الماء ليشرب من امرأة سامرية جاءت إلى هناك لنضح الماء، فلم تعطه حسبما نقرأ في الإنجيل (٦٦)، ومن شكيم يمكن للانسان أن يسافر إلى قيسارية فلسطين، ومن قيسارية إلى حيفا Cayphas ومن حيفا إلى عكارون، وتقع الناصرة على بعد حوالي الثمانية أميال إلى الشرق من عكارون (٦٧)، وكانت مدينة الناصرة شبه مدمرة وقد أصبح عاليها سافلها بوساطة المسلمين، ومع ذلك فإن الدير المشهور فيها يشير إلى مكان بشارة ربنا، وما يزال النبع القائم قرب المدينة تتفجر منه المياه نقية، وما برح — كما كان من قبل — محاطاً بأعمدة رخامية وببلاط، ومن هذا النبع نضح الطفل يسوع مع أطفال آخرين الماء مراراً لاستخدام أمه.

وجبل الطور، هو الجبل الذي صعد به ربنا، وتجلى أمام بطرس، ويوحنا،

وجيمس، وهو واقع على مسافة تقارب الأربعة أميال من الناصرة باتجاه الشرق، وهو جبل كثير الأعشاب والأشجار، وهو قائم منتصب في وسط سهل الجليل الأخضر والعظيم الاستواء، وهو أعلى من جميع الجبال من حوله لمسافة بعيدة، وماتزال الديرة الثلاثة التي بنيت قديماً على قمته قائمة، وأحد هذه الديرة مكرس على شرف ربنا يسوع المسيح، والثاني على شرف موسى، والثالث، وهو أبعد قليلاً، على شرف إيليا، ووفقاً لما قاله بطرس: « يارب جيد أن نكون هنا، فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظال: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة » (٦٨).

ويقع بحر الجليل أو بحر طبرية على مسافة تقارب الستة أميال إلى الشمال الشرقي، ومساحة هذا البحر عشرة أميال طولاً، وخمسة أميال بالعرض، ومدينة طبرية قائمة على الشاطيء في أحد الأطراف، وهناك في الطرف الآخر جرزيم وبيت صيدا، وهي مدينة أندرو وبطرس، ويمتد من طبرية سهل جنسار حوالي الأربعة أميال نحو الشمال، وهناك أظهر ربنا نفسه إلى حواربيه، عندما كانوا يصطادون، وذلك حسبما جاء في الانجيل (٦٩)، ومن جنسار وعلى مسافة تقارب الميلين إلى الشرق يقوم الجبل الذي أطعم عليه الرب خمسة آلاف رجل من خمسة أرغفة وسمكتين، ويدعى ذلك الجبل من قبل السكان المحليين باسم مائدة الرب، وعند سفح هذا الجبل كنيسة القديس بطرس، وهي كنيسة جميلة جداً، مع أنها مهجورة، ومن الناصرة إلى قانا الجليل (كفر كنا) — حيث حول ربنا الماء إلى خمر أثناء حفل زواج — مسافة تقارب الستة أميال إلى الشمال، وهي قائمة على رابية، ولم يبق هناك شيئاً فيما عدا الدير الذي يدعى أرشيتركليني (٧١) Architrclini.

وفيما بين الناصرة وقانا الجليل، في منتصف الطريق قريه تدعى رومة، حيث يجري الترحيب بجميع القادمين من عكا إلى طبرية، وتكون الناصرة على اليمين وطبرية على اليسار، ومن طبرية سفر يوم نحو

الشمال حيث جبل لبنان (٧٢)، فمن سفوحه تنبع مياه نهر الأردن من نبعين يدعي أحدهما « أر » والثاني « دن » وتلتقي مياه هذين النبعين، فتكونان نهراً سريع الجريان اسمه « الأردن »، وهذا الجبل قائم بجوار قيصريه مدينة فيليب (بانياس) التيرا آرخ Tetrareh (حاكم ولاية صغيرة)، وإلى أحوازها جاء يسوع وسأل حواريه قائلاً: «من يقول الناس إني أنا ابن الانسان؟» (٧٣). وذلك حسب رواية الإنجيل، وجريان نهر الأردن من منبعه سريع جداً، ويصب في بحر الجليل في إحدى النهايات، ويفتح بقوة اندفاعه لنفسه ممراً عند النهاية الأخرى، ويستمر بالجريان مسافة ثمانية أيام ثم يصب في البحر الميت، ومياه الأردن بيضاء، وتشبه الحليب أكثر من شبهها جميع أنواع المياه، ومن الممكن رؤية ذلك وتتبعه طوال الطريق حتى البحر الميت.

وبعدما دخلنا إلى كل واحد من الأماكن المقدسة في مدينة القدس وأحوازها بقدر ما كان بوسعنا وقدمنا تعبدنا وتبجيلنا، صعدنا ظهر سفينة في يافا، في يوم عيد الحصاد، من أجل العودة إلى الوطن، لكن لخوفنا من المسلمين، لم نتجراً على الأبحار داخل عرض البحر الأدرياتيكي (المتوسط) كما فعلنا عندما قدمنا، ذلك أننا كنا خائفين من اسطولهم، ولذلك مررنا عبر مدن الساحل التي احتل الفرنجة بعضها، وأسماء هذه المدن هي: أقربها إلى يافا أتسوف Atsuph أو أزتوس Azotus في اللاتينية (٧٤)، ثم قدمنا إلى قيسارية فلسطين، وبعدها إلى مدينة كيفاس (٧٥)، ويمتلك هاتين المدينتين بلدوين الذي هو زهرة الملك، ويلي هاتين المدينتين مدينة أكراس، وهي مدينة حصينة جداً، واسمها أيضاً أكارون (٧٦)، ويأتي بعد هذا صور وسيغيت وهما صور وصيدون (٧٧)، وعقب هذا مدينة جيوبلت (٧٨)، ثم بيروت (٧٩)، وكذلك طرطوسا (٨٠)، التي يمتلكها الدوق ريموند، وبعد ذلك جبيل (٨١)، ثم طرابلس وبعدها ليك (٨٢)، وقد مررنا بهذه المدن وجزناها (٨٣).

وفي يوم الأربعاء التالي لعيد الحصاد عندما كنا مبحرين فيما بين حيفا وعكا فوجئنا بظهور ست وعشرين سفينة مسلمة أمام نظرنا، وكانت هذه السفن تابعة للأمير مدينتي صور وصيدا، وهي متوجهة نحو مصر، وتحمل جيشاً لمساعدة الفاطميين Chaldeans في حربهم ضد ملك القدس (٨٤)، وتحلى عبا اثنتان من السفن التي جاءت معنا من يافا، وهما محملتان بالحجاج وتركنا سفينتنا لوحدها، لأنها كانتا أخف من سفينتنا، وبوساطة جهود المجدفين وصلتا إلى قيسارية، وأبحرت السفن الإسلامية نحونا وطوقت سفينتنا، وتوقفت على بعد رمية سهم منا، وفرحوا بوقوع مثل هذه الغنيمة في أيديهم، وعلى كل حال كان رجالنا على استعداد للموت في سبيل المسيح، وحملوا أسلحتهم، وحصنوا سفينتهم بقدر ما سمح لهم الوقت، وأوقفوا الرجال المسلحين للدفاع عنها، فقد كان تحت إمرة قيادتنا حوالي المائتين من الرجال القادرين على الدفاع عنها، وبعد انتظار حوالي الساعة، وبعدما عقد مُقَدِّم الأعداء مجلساً حربياً، أمر واحداً من ملاحيه أن يصعد إلى أعلى صواري السفينة، فمن هناك كان بإمكانه التأكد مما كان يجري في سفينتنا، وما الذي كنا نقوم به، وعندما تفهم من الملاح قوة دفاعاتنا، حرك أشرعته وانطلق نحو البحر المفتوح، وهكذا انقذنا الرب، بفضل نعمته في ذلك اليوم من أعدائنا، وتمكن شعبنا من أهل يافا من الاستيلاء فيما بعد على ثلاث من هذه السفن نفسها، وأغنوا أنفسهم بأسلابها.

وأبحرنا على مقربة من ساحل سورية وفلسطين بقدر ما استطعنا، ووصلنا بعد ثمانية أيام إلى ميناء القديس أندريا Andrea في جزيرة قبرص، وأبحرنا من هناك في اليوم التالي نحو رومانيا (بيزنطة)، ومررنا بميناء القديس سمعان ثم بميناء القديسة مريم، ووصلنا بعد عدة أيام إلى ميناء أنطاكية الصغرى (٨٥)، وغالباً ما تعرضنا أثناء تلك الرحلة لهجمات القرصان، لكن بفضل الحماية الربانية لم نفقد شيئاً سواء من

جاء هجمات الأعداء أو من تقلب أحوال المناخ، ثم وجهنا مسارنا على طول خط ساحل رومانيا، ومررنا بمدينتي: ستاميرا (٨٦) Stamirra ، وباتراس Patras (أوبترا، وهي مدينة) القديس نيقولا، ووصلنا إلى جزيرة رودس قبل عشية عيد القديس يوحنا المعمدان (٨٧)، مع شيء من المصاعب، لأن خليج مدينة ساتالوس (٨٨) Satalus كاد أن يبتلعنا، لولا أن رحمة الرب قامت بالدفاع عنا، واستأجرنا في رودس سفينة أصغر حتى نتمكن من السفر بسرعة أكبر، وعدنا ثانية إلى رومانيا، ثم وصلنا إلى مدينة ستروملو (٨٩) Stromlo وهي مدينة جميلة جداً، وكانت مدمرة كلياً من قبل الترك، وجرت اعاقتنا هناك لأيام كثيرة بوساطة رياح معاكسة قوية.

ثم وصلنا إلى جزيرة ساموس، واشترينا من هناك ما احتجنا إليه من المؤن الضرورية، وهذا ما كنا قد فعلناه في جميع الجزر، ثم لامسنا جزيرة سكيو Scio وتركنا هناك سفينتنا وكذلك رفاقنا، وبدأنا رحلتنا إلى القسطنطينية، من أجل أن نصلي هناك، وعبرنا في اليوم التالي مدينة سميرنا العظيمة، ووصلنا إلى جزيرة ميتيلينا Metelina ، ثم إلى تنيت (٩٠) Tenit، وكان هناك في منطقة رومانيا فيما مضى مدينة طروادة القديمة جداً، وكانت خرائبها مازال تشاهد — حسب روايات الاغريق — مغطاة مساحة أميال كثيرة.

ثم حولنا مسارنا، فقدمنا إلى جزيرة البحر الذي يدعى ذراع القديس جورج (٩١)، الذي يفصل فيما بين بلاد رومانيا وبلاد مقدونيا، وأبحرنا في هذا البحر فوصلنا إلى سينت فيموس Phemus ، وهنا صارت بلاد الاغريق على يميننا ومقدونيا على يسارنا، وتقوم مدينة الأسقف القديس فيموس على أحد جانبي الذراع في مقدونيا، بينما تقوم مدينة أخرى تدعى سامثي (٩٢) Samthae على الطرف الآخر في بلاد الاغريق، وعلى هذا فإن ثلاث رميات قوس عقار بإمكانها أن تحمل الرمية من

المدينة الأولى إلى المدينة الثانية، ويطلق على هاتين المدينتين اسم مفتاحي القسطنطينية، ثم أبحرنا إلى مدينة كاليبولي (٩٣)، وبعدها اجتزنا القديس جورج وبانيادوس (٩٤) Paniados ، فسهل مقدونيا الشهير، ووصلنا إلى مدينة روثوستوك (٩٥) Rothosto ، وكان ذلك بعد عيد القديس ميكايل، ثم تحركنا من هناك فيما بعد ووصلنا إلى راكليا (٩٦) Raclea ، وهي مدينة جميلة، ويذكر الاغريق أن هيلين خطفت من هناك من قبل باريس الاسكندر.

حواشي رحلة حج سيولف

- ١ — باري.
- ٢ — بارليتا.
- ٣ — سيونتوم ممثلة الآن بـ «مانفردونيا» التي على مقربة منها قرية اسمها زابونتا.
- ٤ — تراني.
- ٥ — أوترانتو.
- ٦ — تقع مونوبولي على بعد حوالي العشرين ميلاً من باري، ولقد جرى تقدير رحلة اليوم الواحد بعشرين ميلاً.
- ٧ — انظر المدخل.
- ٨ — برنديزي.
- ٩ — كورفو.
- ١٠ — ٢٤ تموز.
- ١١ — سيفالونيا.
- ١٢ — مات روبرت غويسكارد في جزيرة سيفالونيا سنة ١٠٨٥، وكان وقتها يعد العدة للهجوم على القسطنطينية.
- ١٣ — من المعتقد أن هذا الاسم تصحيف باليوبولس Palaeopolis، أو هو اسم لمدينة قديمة، وتقع خرائب اليس على بعد خمسة أميال داخل البر، وهناك على كل حال مكان يدعى باليوآخيا، في خليج بتراس، من الممكن أنه كان على الطريق المباشر.
- ١٤ — غالباً ما دعيّت الأماكن التي كان الوصول إليها يتم بحراً

باسم «جزر» من قبل بقية رحالة العصور الوسطى.
١٥ — ٩ — آب.

١٦ — ليفادي أوستا تصحف إلى ليفادوسترو.

١٧ — أعمال الرسل: ١٧ / ٣٤.

١٨ — جزر بيتالي ليست بعيدة عن ماراثون.

١٩ — قامت أندروس وتينوس، وسيرا وميكونوس وناكسوس كلها على الطريق إلى كريت.

٢٠ — يبدو أنه أبحر على محاذاة جزر: أمورغو، وساموس، وسيكو، وميتايلين وهكذا إلى سميرنا، ثم رجع إلى باتموس وليرو، وكالمنو وكوس، (أوستانشيو) وليدو (التي لا بد أنها غندوس قرب رأس كريو) وآسوم (لعلها جزيرة سيمي) وهكذا إلى رودس.

٢١ — غلطة وقع فيها أكثر الناس معرفة.

١٢٢ ربما ماكرونيسوس أريد بها جزيرة كاكافا.

٢٣ — المقصود هنا اسكندرونة السورية.

٢٤ — كان القديس نيقولا من أبناء باتارا، وتسلم أسقفية ميرا، وهناك توفي سنة ٣٤٢، وتم نقل رفاة إلى باري سنة ١٠٨٧، من قبل أحد التجار، الأمر الذي أحدث اثارة عظيمة في ايطاليا كلها، وكان قبره فارغاً عندما زاره سيولف.

٢٥ — لعل جزيرة خيلدونيا هي نتوء بحري يحمل الاسم نفسه عند نهاية خليج فينيكا، وربما هي تسمية خطأ لـ «اكسندا كوبو».

٢٦ — هناك مزج بين العملين: ١٣ / ٢ — ٤ و ٢٢ / ١٥، وعمر

القديس برنابا بشكل عام طويلاً، وإذا كان القديس بطرس قد جلس على كرسي أنطاكية لمدة سبع سنوات، تبعاً للقديس غريغوري الكبير، وخمس وعشرين سنة في روما، لا بد أنه مضى إلى أنطاكية خلال سنوات ثلاث من صعوده.

٢٧- من شبه المؤكد أن دورمندي هي دورمونس، التي ذكر جيبون أن الامبراطور الكسيوس كومينوس امتلك فيها اسطولا جيداً، وقال: « كانت هذه الشواني الخفيفة العائدة للامبراطورية البيزنطية تمتلك صفين من المجاذيف، وفي كل صف خمسة وعشرين مقعداً، ووضع لكل مقعد مجذافين وصفت المجاذيف على جانبي السفينة ». (تدهور وسقوط — الفصل ٥٣).

وربما كانت الكاتي شبيهة بسفن النقل النروجية التي كان لكل منها مؤخرة ضيقة، ووسط عميق وهي ما تزال تعرف باسم كات. ولعل الغولافري نوع من أنواع الشواني، لكن ليس من الهين شرح الاسم.

٢٨- ينبغي أن نتذكر أن بلدوين لم يكن ملكاً للقدس أكثر من عامين، وأن عكا وعسقلان كانتا ما تزالان بأيدي المسلمين، وتراجع رواية الراهب دانيال المقبلة فهو قدم رواية مماثلة بعد أربع سنوات.

٢٩- اسمها الآن باب يافا.

٣٠- انظر الرسمين التوضيحيين رقم ١ / ورقم ٢ / .

٣١- المزامير: ٧٤ / ١٢ . انظر الرسم التوضيحي ٧ / ٢ .

٣٢- يوحنا: ٢٠ / ١٥ .

٣٣- حكّت القديسة مريم المصرية بنفسها ما حدث فقالت: « تابعت المضي في طريقي الشرير حتى بلغت التاسعة والعشرين من

العمر، وشاهدت عدداً من الأشخاص متوجهين نحو البحر، فسألت إلى أين هم ذاهبون، وأخبرت أنهم كانوا على نية الاقلاع للسفر إلى الأرض المقدسة، للاحتفال بالقدس بعيد تمجيد الصليب الرائع، أي صليب مخلصنا (تأسس سنة ٣٢٥م).

فأقلعت معهم، متطلعة نحو فرصة جديدة للاستمرار في إغوائي، وكان الجميع في يوم العيد ذاهبين إلى الكنيسة، فاختلطت بالخشدة لأذهب إلى الكنيسة، حيث عرض الصليب المقدس أمام المؤمنين لمشاهدته وتبجيله، لكن وجدت نفسي غير قادرة على دخول المكان ومعاينة من قبل قوة غير مرئية، وحدث هذا لي ثلاث مرات أو أربع، وتراجعت نحو زاوية الساحة وبدأت أقدر بنفسي ما سبب هذا وما هو مصدره، وقدرت عن جد أن حياتي الآثمة لا بد أنها السبب، وانهمرت دموعي وشرعت أضرب صدري الآثم وأبكي وأنوح، وشاهدت هنا فوق صورة لأم الرب، فثبت ناظري عليها، وخاطبت بنفسي العذراء المقدسة، ورجوتها الحصول على طهارة كاملة لضمان نفسي الآثمة والمحملة بثقل من الموبقات، والتمست منها التمكن من الدخول إلى الكنيسة من أبوابها حتى أشاهد الصليب المقدس لمخلصي، واعدة من تلك اللحظة أن أكرس نفسي للرب في الحياة الحاضرة، آخذه إياها كفيلاً لي في هذا التغير لحياتي، وبعد هذه الصلاة الصعبة شعرت بروحي بانفراج سري وزوال حزني، وحاولت مجدداً الدخول إلى الكنيسة، فدخلت إليها بكل سهولة وصرت في وسطها، وتمتعت وابتهجت بتعبدتي للخشبة الثمينة للصليب الرائع الذي يجلب الحياة للإنسان، وتقديراً مني — بناء عليه — لرحمة الرب التي لا تقدر، واستعداده لتقبل المذنبين حتى يتوبوا، ألقيت بنفسي على الأرض، وبعدما قبلت البلاط بدموع نهضت ومضيت نحو صورة أم الرب، وجثوت هناك على ركبتني، ورجوت وساطتها وأن تكون دليلي، وبعدما أنهيت صلاتي، خيل إليّ

سماع صوت يقول: (إذا ما ذهبت إلى ماوراء نهر الأردن سوف تجدني هناك الراحة والمواساة)» وقد أمضت هناك سبعة وأربعين سنة في أعمال التوبة والاستغفار، وتلقت القديس الأخير من القديس زوسيموس Zo-simos قبل أن تتوفى في سنة ٤٣١. (انظر Actass, Bolland, IN2 April)

٣٤ — انظر الرسم التوضيحي رقم ٢.

٣٥ — تأسست رهبانية الاسبتارية في سنة ١٠٩٩، بعد انتخاب غود فري دي بوليون. وكان جيرارد، كونت دي أفنسس أول مقدم أعظم لهذه الرهبانية، وغدت رهبانية عسكرية في سنة ١١١٨، وكان مقرها قريباً من الضريح المقدس. (كنيسة القيامة).

٣٦ — أعمال الرسل: ١ / ٣ — ٨.

٣٧ — التكوين: ١٧ / ٢٨ — ١٨.

٣٨ — يبدو أن سيولف لم يكن على دراية بالعهد القديم بقدر ما كان متعمقاً بالعهد الجديد، فقد قال قبل قليل إن معنى ايليا «بيت الرب»، ولعله مزج هذا مع «بيت ايل» التي معناها «بيت الرب». وسنرى حول هذا المزج في المستقبل روايات جون أوف وورزبيرغ وثيودورك، وفوكاس.

٣٩ — أعمال الرسل: ١١ / ٣ ؛ ٢١ / ٥.

٤٠ — لوقا: ١٣ / ١.

٤١ — لوقا: ٢٨ / ٢.

٤٢ — لوقا: ٤٦ / ٢.

٤٣ — متى: ١٣ / ٢١.

- ٤٤ — يوحنا: ١٩ / ٢ .
٤٥ — يوحنا: ٥٩ / ٨ .
٤٦ — يوحنا: ٣ / ٨ .
٤٧ — انظر انجيل جيمس الأبوغرفاوي — الاصحاح: ٤ .
٤٨ — متى: ١٥ / ٢١ .
٤٩ — يوحنا: ٢ / ٥ ، الخ .
٥٠ — متى: ٣٦ / ٢٦ ، الخ .
٥١ — لوقا: ٤١ / ٢٢ — ٤٤ .
٥٢ — يوحنا: ١٧ / ٩ .
٥٣ — أعمال الرسل: ١ / ١١ .
٥٤ — يبدو أن سيولف كان دليhle في البداية سريانيا، غير أنه عندما تعرف على الجليل الصحيح أضاف هذا الايضاح وبين أن قانا هي في الجليل .
٥٥ — يوحنا: ٣ / ٢١ — ٤ .
٥٦ — متى: ٣٢ / ١٥ — ٣٨ . «سبعة أرغفة وقليلاً من السمك» .
٥٧ — يوحنا: ١٩ / ٢٠ .
٥٨ — يوحنا: ٢٧ / ٢٠ .
٥٩ — في سنة ٤١٥ ، من قبل الكاهن لوسيان في كافا جمالا على نحو عشرين ميلاً من القدس (انظر: تلمونت Tillemont . ج ٢ ص ٥ ، الخ) . وكرس تاريخ الثالث من آب تخليداً لهذه الحادثة، وكان أبيباس

ابن جماليل.

٦٠ — اكتشفت هذه الخرائب مع بلاط فسيفسائي جميل لهذه الكنيسة أول واحدة مجاورة لها في سنة ١٨٨١، من قبل الميجر كوندر.

٦١ — في الدير الأخير أمام الراهب دانيال ووجد راهباً كان دليلاً أفضل من السرياني الذي رافق سيولف، وتبعاً للراهب دانيال لقد كان دير القديس يوثيموس هو الذي تخرب. توفي القديس سابا في ٥ — كانون أول سنة ٥٣٢ عن عمر ٩٤ سنة.

٦٢ — لابد أن السريان بذلوا جهداً كبيراً لاقتناع سيولف بهذه الحكايات، ومع هذا روى الحكاية نفسها جون ماندفيل في سنة ١٣٢٢.

٦٣ — انظر التكوين: ٣/١٣. وفي ١٣/١٠ مقارنة هذا السهل مع الفردوس.

٦٤ — الملوك: ٢/٢/٢١ — ٢٢.

٦٥ — التكوين: ٤/١٨.

٦٦ — يوحنا: ٤/٦ — ٧.

٦٧ — عكا.

٦٨ — متى: ٤/١٧.

٦٩ — يوحنا: ٤/٢١.

٧٠ — هناك حجرة تدعى «حجرة المسيح» موجودة على قرني حطين.

٧١ — أرشيتركليني تعني «بيت حاكم العيد».

٧٢ — جبل الشيخ (حرمون).

٧٣ — متى: ٣/١٦ —.

٧٤ — أرسوف.

٧٥ — حيفا.

٧٦ — عكا.

٧٧ — صور وصيدا.

٧٨ — جبيل.

٧٩ — بيروت.

٨٠ — طرطوس. وقد استولى عليها ريموند كونت طولوز في ١٢ —
آذار سنة ١١٠٢، وقد توفي أثناء حصار طرابلس في حوالي سنة ١١٠٨.

٨١ — جبلة.

٨٢ — اللاذقية.

٨٣ — الترتيب ينبغي أن يكون: يافا. أرسوف. قيسارية. حيفا. عكا.
صور. صيدا. بيروت. جبيل. طرابلس. طرطوس. جبلة. اللاذقية.

٨٤ — كانت الخلافة الفاطمية قد أرسلت حملة في هذه الآونة
للتفريغ عن عسقلان التي كان الملك بلدوين يحاصرها، وكان العرب في
هذه الآونة يقاتلون في الجزيرة مدينة الرها، وكانوا قد هزموا تانكرد مع
الصليبيين عند حران، وأسروا كل من جوسلين وبلدوين دي بورغ، وكان
الأمير بوهيموند بن روبرت غويسكارد محصوراً في أنطاكية، وقد نجا منها
بتظاهره بالموت.

٨٥ — كانت هناك بلدة على الساحل قرب جبل كراغوس، تدعى
أنطاكية الصغرى.

٨٦ — مايرا MYRA .

٨٧ — ٢٣ — حزيران.

٨٨ — هي أضايا الحالية، انظر أعمال الرسل: ١٤ / ٢٤.

٨٩ — هي الآن سترانبالي Stranpali.

٩٠ — تينيدوس Tenedos.

٩١ — مضيق الدردنيل، وقد دعا آسيا الصغرى باسم بلاد الاغريق ورومانيا ، وفي هذا اشارة فقط إلى الأماكن التي كانت ماتزال تحت حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية.

٩٢ — كان هناك عذراء قديسة اسمها يوفيميا هلكت في خلقيدون بأعمال تعذيب ديوكليسيان وفي كنيستها الكبرى (بازيكليا) عقد مجمع خلقيدون المسكوني، وعلى اسمها كرسى عدة كنائس في القسطنطينية ، ومن الممكن أن مدينة كرسى على اسمها حيث تقوم الآن قلعة أوروبا، في حين إن سامثي (ربما المقصود هو اينانسي أو ايناثي) تقوم الآن حيث قلعة آسيا على الطرف الآخر من مدخل الدردنيل.

٩٣ — غاليبولي.

٩٤ — بانادوس.

٩٥ — رودوستو.

٩٦ — اراكيا، من قبل هرقليا .

— ١٠٤٧ —

رحلة حج الراهب الروسي دانيال
(١١٠٦ — ١١٠٧)

مدخل

يعود تاريخ رحلات حج الروس إلى الأرض المقدسة إلى أواخر القرن العاشر، عندما تحول الروس إلى المسيحية، وهناك ايماء مبكرة، يعود تاريخها إلى ١٠٢٢، وردت في ترجمة القديس ثيودوسيوس من كييف، إلى وجود حجاج روس في فلسطين، لكن أول المعروفين من هؤلاء هو القديس فارلام Varlaam الذي كان راعياً للدير في كييف، وأنه زار القدس سنة ١٠٦٢م، وأقدم رواية حج روسية إلى الأرض المقدسة وصلتنا هي رواية حج دانيال الذي كان راعي دير روسي، وهو لا نعرف شيئاً مؤكداً حوله، ويمكن أن نستخلص من اشارته الى نهر سنوف Snov ، على أنه نهر يمتلك كثيراً من سمات نهر الأردن، على أنه جاء من منطقة تشيرنغوف Tchernigov ، في روسيا الصغرى ، التي يجري فيها نهر سنوف، ومن المفترض أنه كان دانيال نفسه الذي كان أسقف سورييف Suriev في ١١١٥، والذي توفي في ٩ - ايلول ١١٢٢م.

وكان دانيال معاصراً لنسطور، الذي هو أقدم صاحب حوليات روسية، وروايته هي واحدة من أعظم الوثائق الروسية أهمية مما يعود الى بداية القرن الثاني عشر، ويبدو أن سماتها الأصلية أكسبتها شعبية واسعة جداً، حيث هناك ما يزيد على خمس وسبعين مخطوطة منها، أقدمها تاريخه ١٤٧٥. ومن الممكن تحديد تاريخ الحج بشيء كبير من اليقين، باستخراجه من مواد دانيال نفسه، فهو قد أتى على ذكر الدوق الروسي الأعظم ميخائيل سيفا توبولك اشعيا سلافووتش Michel Sviatopolk Isiaslavowitsch (١٠٩٣ - ١١١٥)، وبلدوين ملك القدس (١١٠٠ - ١١١٨)، وذكر أيضاً أن عكا كانت بحوزة الفرنجة، وبما أنه

تم الاستيلاء على هذه المدينة في ٢٦ — أيار ١١٠٤، لا بد أن تاريخ الرحلة كان فيما بين ١١٠٤ و ١١١٣. ومن الممكن اجراء تدقيق أكثر، فقد حدثنا دانيال أنه رافق بلدوين في حملته ضد دمشق، ويعتقد أن هذه الحملة وقعت فيما بين ١١٠٦ و ١١٠٨، ومرة أخرى تحدث عن الهجمات التي تعرض لها الحجاج من قبل مسلمي عسقلان، وأتى وليم الصوري على ذكر إحدى هذه الهجمات على فرنجة كانوا يعبرون من يافا إلى القدس سنة ١١٠٧ (تاريخ أعمال أنجرت فيما وراء البحار — ط. باريس ١٨٧٩ ج ١ ص ٣٨٤)، وينبغي أن نلاحظ أخيراً، أنه في اللحظة التي يصف فيها دانيال احتفال النور المقدس، ليس هناك إشارة إلى بطريك لاتيني، وأن واحداً من الأساقفة احتل هذا الموقع، أي أن فولتشر أوف تشارترز جرى تعيينه لمنصب البطريركية، ومامن أحد يعرف بوجود بطريك لاتيني بالقدس أثناء فصيح سنة ١١٠٧، لأن دوغوبرت ترك المدينة في سنة ١١٠٣، وأن ايبريمار Ebremar، الذي كان وكيله أو بديله أخذ الطريق إلى روما في نهاية سنة ١١٠٦، وعلى هذا كان اسبوع الفصح الذي أمضاه دانيال في القدس، لا بد أنه كان اسبوع عام ١١٠٧، وأن حجه ربما كان فيما بين سنتي ١١٠٦ و ١١٠٧ م.

والميدان الواسع الذي تغطيه رواية دانيال، أوسع من الميدان الذي غطته رحلة الحج المتقدمة، فضلاً عن هذا تلقي التفاصيل الكثيرة التي تقدمها، الضوء على أوضاع البلاد بعيد عدة سنوات من الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، ثم إن المصادقية التي كتبت فيها تعطيها قيمة أكبر، لم تكن ملاحظة من قبل، وسافر دانيال بشكل مكثف في فلسطين غربي الأردن، وزار معظم الأماكن المقدسة والمعابد والأديرة، ولأنه زود نفسه في كل مكان بأفضل الأدلة، لقد كتب وصفاً دقيقاً لكل مارآه، وذكره في رحلته أنه لم يصف شيئاً لم يره بعينه، وهذا مؤيد من خلال الشواهد الداخلية في روايته، لأنه عندما لم يستطع زيارة مكان ما، ذكر بصراحة

أنه اعتمد على الآخرين بالنسبة لمعلوماته، وبالمناسبة ألقى الراهب الروسي بعض الأضواء الغريبة على الأوضاع غير المستقرة للبلاد، والمخاطر التي كان المسافرين يتعرضون لها على الطرقات خلال السنوات الأولى من تاريخ المملكة اللاتينية، ففي اللد على الطريق الرئيسي من يافا إلى القدس، اعتاد الحجاج على امضاء الليل في خوف عظيم من إمكانية تعرضهم لغارات المسلمين من عسقلان، وغالباً ما نشط قطاع الطرق على الطريق من القدس إلى أريحا، وكمنت جماعات مسلمة من عسقلان فوق التلال المكسوة بالغابات قرب بركة سليمان، بانتظار الذين كانوا يسافرون من بيت لحم إلى القدس، وكانت الجبال الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم مليئة بقطاع الطرق إلى حد أن دانيال ورفاقه توجب عليهم السفر تحت حماية واحد من المقدمين المسلمين، فما من أحد كان بإمكانه السفر من القدس إلى بحيرة طبرية بدون حراسة مسلمة، وهاجم المسلمون من بيسان الرحالة عندما كانوا يقطعون مخاضات الأنهار، وقتل المسلمون الفرنجة الذين كانوا يسافرون من جبل الطور إلى الناصرة، ولم يكن بالإمكان زيارة لبنان بسبب نشاط المسلمين، ونعلم من الرحلة أيضاً أن النمور وحمير الوحوش كانت مازال تعيش في براري يهودا، وأن الأسود بأعداد كبيرة كانت موجودة في أحراش وادي الأردن، وفي الوقت نفسه ازدهرت زراعة النخيل — التي اختفت — في مناخ أريحا وبيسان شبه الاستوائي.

وتنبع أهمية رواية دانيال أيضاً من كون أن كاتبها لم يكن فقط عضواً في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، بل راعياً لواحد من الأديرة، ولأنه كان كما هو مفترض رجلاً مثقفاً وفهيمياً، وقد كتبت بروح تقية مؤمنة، كما هو متوقع من رجل هو رجل دين أرثوذكسي، وليس فيها أدنى أثر لروح عدوانية تجاه الديانة اللاتينية، ورافق دانيال أثناء حجه راهب من دير القديس سابا الأرثوذكسي «وكان رجلاً تقياً ومتقدماً بالسن، ومتمكناً من

معرفة الكتابات المقدسة»، وكان دانيال ضيفاً مرحباً به في عدد كبير من الأديرة الأرثوذكسية في أرجاء البلاد، وكانت تقاليد هذه الأديرة هي تقاليد الكنيسة الشرقية المحلية، التي أشار إليها سيولف، مع التقاليد السريانية الأخرى، ومن المؤكد أنه كان يعرف الأنجيل الأبوغرافوي بأشكالها الاغريقية، ونقل من الانجيل الأبوغرافوي المعزوي إلى جيمس، الذي صدرت عنه كثير من التقاليد، وكانت العلاقة فيما بين الكنيستين اللاتينية والأرثوذكسية في هذه الآونة علاقة صداقة حميمة، ورفع ملك القدس الخلافات إلى رجال الدين الأرثوذكس وإلى رهبان القديس سابا ضمن ملاحظات هامة خاصة، وكان رجال الدين الأرثوذكس مسؤولين عن كنيسة القيامة، واحتفظوا بمفاتيح أبواب الضريح، وفي أثناء احتفالات الفصح وضعت المصابيح الأرثوذكسية على الضريح نفسه، في حين علقت المصابيح التي عادت إلى اللاتين فوقه، وهناك توافق بين وصف دانيال ووصف فولتشر أوف تشارترز (١١٠١م) لنزول الضوء، أو النار المقدسة، فقد كان فولتشر حاضراً مناسبة الذكرى هذه، عندما لم تشعل النار المقدسة المصابيح حتى أحد الفصح، وكلاهما وصف اللهب بأنه كان وردي اللون، وذكر أن جميع الموجودين شاركوا الأرثوذكس بصراخهم «Kyrie Eleison»، وذكر دانيال أن الأرثوذكس واللاتين قرأوا قداس سبت الفصح مع بعضهم، وقال فولتشر بأن الفرنجة قرأوا كل مقطع باللاتينية أولاً، ثم قرأ الأرثوذكس المقاطع نفسها بالاغريقية، وجاء في الرواية الفرنجية عن الاحتفال بأن البطريك هو الذي فتح باب الضريح، في حين جاء بالرواية الروسية أن الذي تولى ذلك واحد من الأساقفة اللاتين، ويتضح هذا الاختلاف بغياب البطريك اللاتيني أثناء زيارة دانيال.

ومادة دانيال على العموم صحيحة، لكنه اقترف بعض الأخطاء أحياناً، وتظهر بعض أخطائه جهلاً بالكتابات المقدسة التي لم تكن

معتمدة لديه أو لدى دليله، الراهب المثقف من دير القديس سابا، ويمكن أن نعزو الأخطاء الجغرافية إلى جهل عام بتلك الحقبة، ومن هذه الأخطاء جعله كفر ناحوم على شاطئ البحر قرب الكرمل، وأن اللد هي الرملة وأن قيصريّة فيليب (بانياس) هي قيسارية فلسطين، وأن السامرة هي نابلس، وأن باشان هي بيسان، وأن الأسقفيات العشرديكابولس Decapolis كانت بلدة، وهناك أوهام أخرى، من الصعب أن نجد لها تسويغاً، من ذلك على سبيل المثال: الرواية الطريفة عن معركة قرب أريحا، توقفت خلالها الشمس عندما كان يوشع يتغلب على عوج ملك باشان، وقد قال بأن المعركة قد وقعت في بيسان، وكذلك مزج فيما بين مرقص: ١٦/١ — ١٨ مع ١٩/١ — ٢٠. هذا وقليل من الاعتماد يمكن أن يكون على المسافات والمساحات التي وردت في النص، وكانت نصوص الرحلات الرومانية قد أهمل استخدامها، والمسافات في هذه الرحلات هي تقديرية، بينما هي في رحلة راهبنا في غالب الأحيان مغلوبة بسبب تصحيقات لحقت بالنص أو أن النص كتب على سرعة، ومعلوماته غير كاملة، المهم أن الأخطاء كثيرة، وبالنسبة لإعطاء اتجاه الأماكن، اعتاد دانيال على اعتماد وضع الشمس في الانقلابين الشتوي والصيفي، وكان هذا الاستخدام من بقايا الأيام الخوالي، عندما كانت تقام حجرة اشارة لتسجيل أقصى انحراف للشمس نحو الشمال والجنوب، وكانت البهجة تعم عندما يتم الاعلان أن نقطة شروق الشمس بدأت تعود نحو الشمال.

وبدأ دانيال رحلته من القسطنطينية، فمناها ذهب بحرّاً إلى يافا، وقد زار على الطريق عدة أماكن مثل إفسوس وقبرص، ويبدو أن رحلته كانت بلا حوادث، واعتنى بشكل خاص بالمواقع التي دفن فيها مختلف القديسين والرجال المقدسين، وأتى على ذكر «الغبار المقدس» الذي ينبعث كل سنة من قبر القديس يوحنا، والصليب المعلق وسط الهواء

فوق جبل ترودوس في قبرص، ووصف الطريقة التي جمع بها صمغ الميعة في جبال ليكيا Lycia وسافر من يافا عبر اللد التي وجدها مهجورة، ثم مرّ بالنبي صموئيل، وقال هي أرماتم Armathem (راماثيم زوفيم Ramathaim Zopnim) ثم وصل القدس، ووقف في أعلى جبل سكوبوس، حيث شاهد المدينة المقدسة كاملة، فترجل من أجل الصلاة، ثم وقد امتلأ بغبطة عظيمة، تابع سيراً على الأقدام، فجاز بكنيسة وضريح القديس ستيفن، إلى باب يافا الحالي، حيث اعتاد جميع الرحالة على دخول القدس، في ظل القلعة، أيام حكم الفرنجة.

واتخذ الراهب مقراً له في الميتوشيا Metochia، أو «بيت الحجاج» في دير القديس سابا، قرب برج داود، وكان هذا الدير مشغولاً الآن من قبل الرهبان الأرثوذكس (الاغريق) الذين نجوا لتوهم من مقتلة عند دير القديس سابا — الآن مارسابا — الأكثر شهرة، والواقع خارج الأسوار، وزار بمساعدة دليل كان من رهبان الدير، الأماكن المقدسة، ووصفه لهذه الأماكن، قبل أن يقوم الفرنج بأية أعمال بناء ضخمة، مفيد جداً، وروايته أغنى من رواية سيولف الذي زار القدس قبله بأربع سنوات أو خمس، وذكر عدداً من الأماكن المقدسة الأقل شأنًا مثل «مدفن ارميا» و«بيت أوريا» و«منازل يودس وبولص»، التي لم يرد ذكرها لدى الحاج الأنكلو- سكسوني، ووصفه لكنيسة القيامة والضريح المقدس ومجموعة الأماكن المقدسة حول القيامة جدير بالعناية، وكذلك وصفه لقدس الأقداس «قبة الصخرة»، ولقد ذكر بأن البناء تولاه واحد من قادة المسلمين اسمه أمور Amor وهو تصحيف واضح لاسم الخليفة عمر فاتح القدس، وتقدم الحكايات الطويلة التي جمعت حول قبر العذراء في وادي قدرون، وحول الكنيسة فوق جبل صهيون، التي من المفترض أنها كانت بيت القديس يوحنا الانجيلي شرحاً موضعاً لنوعية المعلومات التي قدمها الأدلاء المقدسيون في أوائل القرن الثاني عشر لحاج من حجاج

الكنيسة الشرقية.

وقام دانيال من القدس برحلتين: الأولى إلى الأردن، وبراري اليهودية، وكانت الرحلة الثانية إلى بيت لحم والخليل، حيث لم يكن الصليبيون قد بنوا بعد كنيستهم مع دير القديس شارتون Chariton، وبعدها عاد من الخليل إلى القدس حصل على إذن من الملك بلدوين سمح له بموجبه بمرافقة القوات التي كانت على وشك الانطلاق للهجوم على دمشق، بقيادة الملك نفسه، ويبدو أن الطريق الذي سارت عليه العساكر هو عبر: البيرة، لُبْن، نابلس، التياسير ثم بيسان، حيث كانت قد وقعت هناك بعض الأحداث المتعلقة بحياة ربنا، من ذلك شفاء الأعميين من أهالي بيسان، وزحف الجيش إلى جسرين كانا قرييين من ينابيع الأردن، وشكلت هذه الينابيع بالنسبة لدانيال نهريين هما «أر» و«دن» اللذان يصدران عن بحيرة طبريا، ويبدو أن الجسرين كانا على مقربة من النقطة التي يغادر فيها الأردن الآن البحيرة، حيث مازال بالإمكان رؤية آثارهما، ويعرفان باسمي: جسر السيد، وهو مخرب الآن، وقائم تحت نقطة لقاء النهرين: «أر» و«دن»، ثم يخرجان من البحيرة ويشكلان جزيرة اسمها «الكرك»، والموقع الوحيد المعروف لجسر آخر هو موقع «جسر الجامع»، لكن في هذه الحالة علينا أن نفترض أن النهرين اللذين التقيا هما الأردن واليرموك، وهما المعنيان بالذكر، وعندما عبر بلدوين الأردن، ذهب دانيال إلى طبرية، وأمضى هناك عشرة أيام في زيارة الأماكن المقدسة على حدود بحيرة طبرية، ويبدو أنه لم يستطع مغادرة أحواز البحيرة، وكان فقط قادراً على رؤية أطراف بحيرة الحولة، التي دعاها باسم بحيرة جنسارث Gennesareth ، ورأى الراهب الروسي بأن الأردن أول مخرجه من بحيرة طبريا، وقد لاحظ وجود جزء منه فوق البحيرة، وهو عريض عرضه عرض نهر، ويتدفق من بحيرة جنسارث، وذهب دانيال من طبرية إلى جبل الطور حيث سمع حكايات غريبة

حول كهف «ملكي — صادق»، وكانت الناصرة آنذاك بيد اللاتين، وكذلك قانا الجليل وعكا، وبعد ما ارتاح لمدة أربعة أيام في عكا، سافر جنوباً عبر حيفا وقيسارية ونابلس فبيت ايل إلى القدس.

وبعدما شاهد احتفال نزول «النور المقدس» في كنيسة القيامة، يوم سبت عيد الفصح لسنة ١١٠٧، بدأ الحاج الروسي رحلة العودة نحو وطنه، وبعدما سافر عبر دير الصليب، فعين كارم، بلد زكريا ومكان ميلاد يوحنا المعمدان، مر بعمواس التي كانت مهدمة من قبل المسلمين، ووصل إلى يافا، ومنها توجه إلى أرسوف، فقيسارية فحيفا، ومن ثم إلى صور، فصيدا، فبيروت، ولاندري إن كان نزل إلى بيروت أو إلى السويدية ميناء مدينة أنطاكية، وفي جميع الأحوال ساير الساحل عن قرب، وبعدما سلبه القراصنة أمام ساحل ليكيا قرب باتارا Patara ، وصل أخيراً سالما إلى القسطنطينية.

رحلة حج راعي الدير الروسي دانيال في الأرض المقدسة

(حوالي : ١١٠٦ — ١١٠٧)

أنا دانيال، راعي الدير الروسي، والعبد غير الجدير، والأقل بين الرهبان، شعرت بالضييق بسبب ذنوبي الكثيرة، وأعمال الصالحة غير الكافية، فاستولت علي — أولاً — فكرة رؤية مدينة القدس المقدسة مع أرض الميعاد، ثم استبدت بي الفكرة، وبت عديم الصبر مشتاقاً لرؤية الأماكن المقدسة: ولقد زرت الجليل كله، وجميع الأماكن المقدسة حول مدينة القدس المقدسة، التي مشى عليها المسيح ربنا بقدميه، وحيث أظهر نفسه بوساطة معجزات رائعة.

ولقد رأيت جميع هذه الأماكن بعيني الخاطئتين، وتفضل الرب برحمته بتمكينني من رؤية ما تطلعت بشوق منذ سنين طوال إلى رؤيته؛ اغفروا لي يا أخواني، ويا آبائي وياسادتي، أخطائي، وتجاوزوا عن جهلي وسذاجتي في الوصف (الذي أنا مقبل على القيام به) الذي سأقوم به لمدينة القدس المقدسة، في الأرض المباركة، والطريق الذي يقود إلى الأماكن المقدسة. وكل من قام بهذه الرحلة بتواضع وبخوف من الرب، لن يذنب بحق الرحمة الربانية، فلقد سرت على هذا الطريق المقدس، مع أنني لا أستحق ذلك، سرت بضعفي كله وبكسلي، بدون عائق، وسلمت نفسي لكل شر من الشرور، لكن أملني برحمة الرب وبدعواتكم لصالحني، أن سأنال عفو ربنا يسوع المسيح عن ذنوبي التي لا تعد ولا تحصى، ولقد وصفت الأماكن المقدسة بدون تفاخر بأي شيء جدير بالشواب، وهذا التفكير بالحقيقة بعيد عني، لأنني لم أفعل شيئاً جيداً خلال رحلتي، وفقط صدوراً عن حبي لهذه الأماكن المقدسة توليت كتابة ما رأيته بعيناي، وذلك حتى أتذكر كل ما سمح لي الرب برؤياه، دونما اعتبار لعدم

جدارتي، وخشية من مثل ذلك الخادم الكسول الذي دفن مهارات سيده دون ترجمتها إلى شيء نافع، قمت بكتابة هذه الرحلة للمؤمنين، من أجل أنهم لدى سماعهم لوصف الأماكن المقدسة، يمكنهم تصورهم في أذهانهم، ومن داخل أرواحهم، وبذلك يحصلون من الرب على الثواب نفسه مثل الذين زاروهم.

فلقد وصل كثير من الناس الأفاضل إلى الأماكن المقدسة، من خلال قيامهم بأعمال جيدة، والاحسان إلى الفقراء، وصلوها دون أن يغادروا أوطانهم، وبذلك جعلوا أنفسهم أهلاً لثواب أعظم من ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، وهناك بعض الناس الذين أنا مقدمهم، قد زاروا مدينة القدس المقدسة والأماكن المقدسة، فتفاخروا بأنفسهم وكأنهم قد فعلوا شيئاً جديراً بالثناء، وبذلك خسروا ثمار تعبهم، ومرة ثانية هناك آخرون قاموا بالحج، وعادوا دون رؤية كثير من الأشياء الثمينة، لتشوقهم بالاسراع بالعودة إلى وطنهم، لأن هذه الرحلة لا يمكن القيام بها بسرعة، كما أنه من غير الممكن الاسراع بالمرور بجميع الأماكن المقدسة في القدس والمواقع الأخرى.

١ — القدس ودير القديس سابا

ثم وصلت أنا الراهب دانيال غير الجدير إلى القدس، ومكثت هناك ستة عشر شهراً في بيت حجاج دير القديس سابا، وبذلك كنت قادراً على زيارة وتفحص جميع الأماكن المقدسة، وليس من الممكن زيارة جميع الأماكن المقدسة وتفحصها من دون دليل جيد وترجمان، وبناء عليه دفعت كل ما كان بإمكانني دفعه من وسائل المتاحة جائزة للذين كانوا على دراية كاملة بالأماكن المقدسة وقادرين على اطلاعي عليها، مع المواقع الأخرى، حتى أتمكن من رؤية كل تفصيل، وفي هذا المقام، وتبعاً له، كنت ناجحاً.

وبنعمة من الرب، وجدت في دير القديس سابا، رجلاً تقياً جداً، ومتقدماً بالعمر، كان واسع المعرفة بالكتابات المقدسة، فقد حنن الرب قلب هذا الرجل المقدس ليحبني أنا غير الجدير، ولقد كان هو الذي أراني بعناية كبيرة جميع الأماكن المقدسة، في كل من القدس وجميع أرجاء البلاد، وأخذني إلى بحيرة طبرية، وإلى الطور، والناصرية، والخليل، والأردن، وعظفاً منه علي، قادني — مع أنه عانى من تعب عظيم — إلى عدد كبير من الأماكن المقدسة، التي سأحدث عنها فيما بعد.

٢ — الطريق إلى القدس

هذا هو الطريق الذي يقود (من القسطنطينية) إلى القدس، هناك ثلاثمائة فرسخ (روسي) من القسطنطينية إلى البحر الكبير، وسائرنا الشاطئ المتعرج، وقطعنا مائة فرسخ (كل فرسخ = ٥٠٠ قدم) إلى جزيرة بيتالا Petala (مرمرة)، وهي أول جزيرة في البحر الضيق (بحر مرمرة)، ويقوم على هذا الطريق بلدة واسعة هي هرقلية (إيريغلي)، حيث يوجد ميناء واسع، وهناك مقابل هذه البلدة، زيت مقدس (اسفلت) ينبع من أعماق البحر، لأنه في هذه البقعة جرى اغراق كثير من الشهداء المقدسين من قبل معذبيهم.

ويقولون هناك مائة فرسخ من بيتالا إلى غاليبولي، وثمانين (الصحيح ثلاثين) من غاليبولي إلى بلدة أبيدوس، التي يقابلها مدينة دفن فيها القديس يوثيموس الأصغر.

ومن هناك إلى كرايت Crite مسافة عشرين فرسخاً، وبعدها يدخل الإنسان إلى البحر الكبير، فينعطف نحو اليسار ليؤم القدس، ونحو اليمين إلى جبل (أثوس) المقدس، وسالونيك وروما.

وهناك ثلاثين فرسخاً من كرايت إلى جزيرة تندوس Tenedos، التي هي أول جزيرة يصلها الإنسان في البحر الكبير، وهنا يرقد الشهيد

المقدس أفنوديموس Avnudimos.

وكان على الشاطئ المقابل لهذه الجزيرة في الماضي بلدة كبيرة اسمها تراوس Troas (اسكي ستامبول)، وإليها قدم الرسول بولص للتبشير، وقد عمّد جميع المنطقة.

ويوجد مائة فرسخ فيما بين تندوس، وجزيرة ميتيلين Mitylene ، وهناك دفن مطران ميتيلين المقدس (القديس جورج ٨١٦م)، ومن هناك إلى جزيرة كيوس مائة فرسخ، وفي هذا المكان يرقد القديس ايزودور الشهيد، وتنتج هذه الجزيرة، اللبان، والخمور الجيدة، ومختلف أنواع الخضروات.

٣- مدينة إفسوس (عرب سوس)

يوجد ستين فرسخاً من جزيرة كيوس إلى إفسوس، ويشاهد في إفسوس قبر القديس يوحنا الانجيلي، ويثور في يوم ذكرى موته غبار مقدس من قبره، حيث يجمعه المؤمنون ليكون شفاء من كل داء، وعلى مقربة منه هناك الكهف الذي ترقد فيه أجساد السبعة النائمين، الذين ناموا لمدة ثلاثمائة وستين سنة، فقد سقطوا نائمين أيام حكم الامبراطور ديكوس Decius وأفاقوا في أيام الامبراطور ثيودوريوس، ويوجد في الكهف نفسه (آثار) ثلاثمائة من الآباء المقدسين مع القديس الاسكندر، وضريح مريم المجدلية هو هنا أيضاً وكذلك رأسها، ويرقد هنا أيضاً الرسول تيموثي Timothy المقدس، الذي كان حوارياً للقديس بطرس، داخل تابوت قديم، ومحفوظ في الكنيسة القديمة صورة العذراء المقدسة، ورفضت هذه الكنيسة مع أولئك (الآباء) المقدسين بدعة نسطور.

ويمكن للمرء أن يشاهد هنا أيضاً حمام ديوسكوريدس Dio-scorides حيث عمل القديس يوحنا الانجيلي مع بروكورس Prochorus في بيت رومانا Romana ، ورأينا أيضاً الميناء الذي اسمه «الميناء

الرخامي»، حيث لفظ البحر القديس يوحنا الانجيلي، وقد بقينا هناك لمدة ثلاثة أيام.

وتقوم بلدة إفسوس بين الجبال، وتبعد عن البحر مقدار أربعة فراسخ، وفيها وفرة من كل شيء، وتعبدنا هناك القبر المقدس، ثم ارتحلنا من هناك مسرورين في ظل حماية نعمة الرب وصلوات يوحنا الانجيلي. وهناك أربعين فرسخاً من إفسوس إلى ساموس، والبحر هناك مليء بالأسماك، والجزيرة خصبة جداً.

٤ — جزيرة باتموس

لقد قدرنا وجود عشرين فرسخاً من ساموس إلى جزيرة إيكاريا Icar-ia (نيكاريا الآن)، ومن هناك إلى جزيرة باتموس Patmos ستين فرسخاً، وتقع هذه الجزيرة في طرف البحر، وهي الجزيرة التي كتب فوقها القديس يوحنا الانجيلي انجيله عندما نفي مع بروكورس؛ ثم جاءت جزر: ليروس Leros (ليرو) وكاليمينوس Calimnos (كالمنو) ونيسرا Nicera (نيسرو) وجزيرة كوس Cos (كوس KQs)، التي هي واسعة جداً ومكتظة بالسكان، وغنية بالقطعان، وجئنا أخيراً إلى تيلوس Telos المشهورة بالنسبة لتعذيب هيرود، وتحتوي على كهف يحترق، وهويبا بعد تنقيته، ويستخدم لاشعال النار*، وبعيداً على مسافة من هناك جزيرة خرقية (خلقي)، وجميع هذه الجزر مسكونة بالناس، وهي غنية بقطعان المواشي، وتبعد الواحدة عن الأخرى عشرة فراسخ أو أكثر، وجزيرة رودس أيضاً جزيرة كبيرة جداً، وخصبة جداً، وهنا أمضى الأميرالروسي أولغ، Oleg

* — الصحيح أن الينابيع الكبريتية في نيسرو، وأخطأ الراهب حين ذكرهم في تيلوس.

شتائين وصيفين (١٠٧٩)، وهناك مائتي فرسخ من ساموس إلى جزيرة رودس، وستين فرسخاً من رودس إلى مكري Makri (تلمسوس Tel-messus القديمة على الساحل الجنوبي لـ «ليكيا»).

وتنتج بلدة مكري هذه والمنطقة المحيطة بها امتداداً حتى مايرا اللبان الأسود والميعة، وهي تخرج من الشجرة بأشكال مختلفة، وتجمع بوساطة آلة معدنية حادة، وتدعى الشجرة باسم «زغيا Zygia» وهي تشبه شجرة الألدرد Alder ، وهناك نوع آخر من الشجر يشبه الحور الرجراج، يدعى «راكا Raka» ، وهناك حشرة كبيرة، من أكبر أنواع اليسروع، تعيش في أسفل الشجرة تحت الجذع، ويسقط الغبار الناجم عن عمل الحشرة مثل الدقيق على الأرض، مشكلاً صمغاً مثل صمغ شجرة الكرز، ويجمع هذا الصمغ ويمزج مع ما تنتجه الشجرة المتقدمة، ثم يتم غلي الجميع داخل وعاء نحاسي، وبهذه الطريقة يحضرون لبان الميعة، ويبيع إلى التجار داخل أوعية جلدية.

وقدروا وجود أربعين فرسخاً فيما بين مكري وبلدة باتارا، التي ولد فيها القديس نيقولا، فهي موطنه وبلده، ومنها إلى مايرا أربعين فرسخاً، ويحتوي هذا المكان الأخير قبر القديس نيقولا، وهناك ثلاثين فرسخاً من بلدة مايرا إلى خلدونيا Chelidonia (شيلدان بورون في أقصى خليج أضاليا) ومائتي فرسخ من هذا المكان إلى جزيرة قبرص الواسعة.

٥- جزيرة قبرص

هذه الجزيرة واسعة جداً، ومكتظة بالسكان، وفيها جميع أنواع المنتجات، وفيها عشرين أسقفاً، ومطران واحد، ومالا يمكن عدّه من الآثار، فهنا يرقد القديس ايبيفانوس Epiphanius (٣٨٢م)، والرسول برنابا، والقديس زينو، والقديس فيلا غريوس Philagrius وهو الأسقف الذي عمده بولص الرسول.

٦ - الجبل الذي أقامت عليه القديسة هيلانة صليبا

يوجد هنا جبل عظيم الارتفاع (اسمه جبل ترودوس Troodos) أقيم على قمته صليب من الخشب القبرصي من قبل الامبراطورة القديسة هيلانة (حنة) لطرد الأرواح الشريرة ولشفاء جميع أنواع الأمراض، ووضعت في الصليب واحداً من الأظافر المقدسة للمسيح، وظهر في هذه البقعة العديد من المعجزات وعملت هناك وعلى مقربة من الصليب، ومازال هذا يحدث حتى اليوم الحالي، وهذا الصليب معلق بالهواء دون أن يستند على أي شيء في الأرض، فهو مربوط من قبل روح القدس ومدعوم منها، وعبدت أنا الذي لا أستحق هذا الشيء المقدس والعجيب، ورأيت بعيني الخاطئتان النعمة الربانية الملقاة على هذا المكان، واكتشفت هذه الجزيرة بشكل دقيق وتعرفت إليها.

٧ - البلسم

وبخور البلسم موجود هناك، وهو ينزل من السماء، وهم يجمعونه من الأشجار. وينمو كثير من هذه الأشجار فوق الجبال، وهي ليست أعلى من نباتات الأعشاب الطبية، فعلى هذه يسقط البلسم الجيد، ويكون هذا خلال شهري تموز وأب.

ويسافر الانسان بوساطة البحر مسافة أربعمئة فرسخ من قبرص إلى بلدة يافا، والمسافة من القسطنطينية إلى جزيرة رودس ثمانمئة فرسخ، ومن جزيرة رودس إلى يافا ثمانمئة فرسخ أيضاً، وبذلك تكون المسافة التي يتوجب على المرء عبورها بحراً إلى يافا ألفاً وستمئة فرسخ.

ويافا ليست بعيدة عن القدس، وهي قائمة على شاطئ البحر، والرحلة منها إلى القدس تكون براً، والمسافة بينهما هي ثلاثين فرسخاً، وهناك عشرة فراسخ فوق أرض منبسطة إلى القديس جرجس (اللد)، فقد بنيت هناك كنيسة كبيرة كرسيت على اسم القديس جرجس، وهي

تحتوي في داخلها على مذبح وضريح القديس الذي استشهد هناك، وهناك عدد كبير من الينايع في هذا المكان، وعلى مقربة منها يأتي الحجاج للراحة ولإمضاء الليل في خوف عظيم، لأن المكان مهجور وليس بعيداً عن بلدة عسقلان، التي يخرج المسلمون منها فيقتلون الحجاج على طريقهم، وهناك خوف عظيم جداً من هذا المكان يدفع المرء إلى حد اللجوء إلى الجبال.

ويقدر أن وجود عشرين فرسخاً من القديس جرجس إلى القدس، والطريق هو في منطقة جبلية وعرة، وهو طريق مخيف ومقلق جداً.

٨ - جبل النبي صموئيل

هناك على مقربة من القدس، وعلى يمين الطريق من يافا، جبل مرتفع يحمل اسم أرما ثم Armathem (النبي صموئيل)، ويوجد على هذا الجبل قبر النبي صموئيل، وقد عثر عليه هناك، وكذلك قبر والده إلقانه Elkanah، وقبر مريم المصرية، وكان المكان والقرية موطن هؤلاء الأشخاص المقدسين، والبلدة محاطة بسور، ولهذا دعيت باسم أرما ثم.

٩ - القدس

تقوم مدينة القدس المقدسة في واد وعرة، وفي وسط جبال صخرية عالية، وأول شيء يراه الإنسان عندما يقدم إلى المدينة هو برج داود (قرب باب يافا)، ثم إلى الأمام قليلاً جبل الزيتون، فقدس الأقداس (الصخرة)، فكنيسة القيامة التي فيها الضريح المقدس، وأخيراً المدينة بأكملها، وعلى بعد حوالي الفرسخ أمام القدس هناك جبل منبسط بعض الشيء، وهو الذي عندما يتم الوصول إليه يترجل كل مسافر، فيرسم علامة الصليب، ويتعبد القيامة المقدسة على مرأى من المدينة.

ويمتلئ كل مسيحي بهجة عارمة لدى مشاهدته لمدينة القدس المقدسة، وتنهمر الدموع من عينيه بإيمان، وما من أحد يمكنه أن يختار

سوى البكاء عندما يرى هذه الأماكن التي طالما اشتاق إليها، حيث تحمل ربنا المسيح الآلام في سبيل محو ذنوبنا، وهكذا بعد الشعور بهذه البهجة تتم متابعة الرحلة إلى القدس على الأقدام.

وإلى اليسار، على مقربة من الطريق، تقوم كنيسة الشهيد الأول، القديس اسطفان، ففي هذا المكان رماه اليهود بالحجارة، وقبره مرئي هناك، وهناك أيضاً جبل صخري وعرا نشطروقت صلب المسيح ويدعى المكان جيها Gehenna (الجلجلة)، وهو على رمية حجر من سور المدينة.

ويدخل الحجاج بعد هذا مدينة القدس المقدسة، وهم ممتلئين بهجة من الباب القائم قرب بيت داود، ويتجه هذا الباب نحو بيت لحم، ويدعى باب بنيامين، ولدى دخول المدينة هناك طريق عابر لها، ويقود نحو اليمين إلى قدس الأقداس (قبة الصخرة)، وإلى اليسار نحو كنيسة القيامة الحاوية للضريح المقدس.

١٠ — كنيسة قيامة الرب

كنيسة القيامة ذات شكل دائري، وفيها اثني عشر عموداً من الحجارة الضخمة، وست سوارى، ومبلطة بالألواح رخامية جميلة جداً، ولها ستة مداخل، وشرفات مع ستة عشر عموداً، وتحت السقف، فوق الشرفات، جرى تمثيل الأنبياء بالفسيفساء كما لو أنهم أحياء، ومطوق أعلى المذبح بصورة المسيح بالفسيفساء، وهناك عند المذبح العالي تمثيل لآدم بالفسيفساء، ويمثل الفسيفساء فوق القوس صعود ربنا، وهناك «بشارة» بالفسيفساء على الأعمدة على جانبي المذبح، وقبة الكنيسة ليست مغلقة بأقبية حجرية، بل مشكلة من إطار مصنوع من العوارض الخشبية، وهكذا فإن الكنيسة مفتوحة بالأعلى، والضريح المقدس موجود تحت القبة المفتوحة.

وهاكم وصف الضريح المقدس: هو عبارة عن مغارة صغيرة منحوتة بالصخر، ولها مدخل منخفض إلى درجة أنه من الصعب بالنسبة للانسان أن يمر من خلاله، وهو رакع على ركبتيه، وارتفاعه ليس كبيراً، وبالنسبة لمساحته فالطول يساوي العرض، وهو ليس أكثر من أربعة أذرع، وعندما يدخل الانسان إلى المغارة بوساطة الممر الصغير، يمكن للانسان أن يرى على الجانب الأيمن نوعاً من أنواع المقاعد (نضد)، قد من صخرة الضريح، فعلى هذا النضد مدد جسد ربنا يسوع المسيح، وهو مغطى بالألواح الرخامية، ومن الممكن رؤية هذه الصخرة المقدسة التي يقبلها جميع النصاري، من خلال ثلاث فتحات صغيرة مستديرة، قائمة على أحد الجوانب، وهناك خمسة مصابيح زيتية تشرق ليل نهار، وهي معلقة في ضريح ربنا، والنضد الذي رقد عليه جسد المسيح هو أربعة أذرع بالطول وذراعين بالعرض، وذراع ونصف الذراع بالارتفاع، وعلى ثلاثة أقدام أمام مدخل المغارة هناك الحجرة التي جلس عليها الملاك الذي ظهر للنساء وأعلن هن قيامه المسيح، والمغارة المقدسة مغطاة من الخارج برخام جميل، وهي قائمة مثل منصة، ومحاطة بإثني عشر عموداً من الرخام نفسه، ويعلوها برج جميل يقوم فوق الأعمدة، وينتهي بقبة مغطاة بألواح فضية مذهبة، تحمل في أعلاها تمثالاً فضياً للمسيح، على ارتفاع عادي، وقد وضع الفرنجة هذا التمثال، وهذا البرج قائم تماماً تحت القبة المفتوحة، وله ثلاثة أبواب منفذة بصورة بارعة على شكل شعرية، وبوساطة هذه الأبواب يدخل الانسان إلى الضريح المقدس، وعلى هذا إن هذه المغارة، هي التي تمثل ضريح الرب، وقد وصفتها تبعاً لشهادة السكان القدماء، الذين يعرفون الأماكن المقدسة بشكل دقيق.

وشكل كنيسة القيامة دائري، ومقاسها ثلاثين سغنس Sagenes (يساوي كل سغنس سبعة أقدام انكليزية) في كل اتجاه، وفيها حجر واسعة في الجزء العلوي يعيش فيها البطريك، ووجدوا أن المسافة فيما بين

مدخل الضريح وجدار المذبح العالي تساوي اثني عشر سغنس، وخلف المذبح فيما وراء الجدار هناك «صرة الأرض»، وهي مغطاة ببناء على (قبته) تمثيل للمسيح بالفسيفساء مع هذا النص «يتخذ قدمي وحده مقياساً للأرض وللسماء».

١١ - مكان مركز الأرض الذي صلب فيه المسيح

هناك اثني عشر سغنس «من صرة الأرض» إلى المكان الذي صلب فيه ربنا، وإلى النهاية، ومكان الصليب نحو الشرق، فوق صخرة مستديرة مثل رابية صغيرة، أعلى من ارتفاع رمح، ويوجد في ذروتها، في الوسط فتحه محفورة عمقها ذراع واحد، ومحيطها أقل من قدم، فها هنا نصب صليب ربنا.

وترقد تحت هذه الصخرة جمجمة آدم الانسان الأول، وفي الوقت الذي صلب فيه ربنا، وعندما أسلم الروح فوق الصليب تصدع حجاب الهيكل، وتفتت الصخرة وتبعثرت، وانفتحت الصخرة القائمة فوق جمجمة آدم، وجرى الماء والدم للذان صدرا عن جنب المسيح نحو الأسفل من خلال الصدع فوق الجمجمة وبذلك تمت إزالة ذنوب البشر وغسلها، ومازال هذا الصدع موجوداً حتى هذا اليوم، ومن الممكن رؤية هذه الهبة المقدسة على يمين مكان الصليب.

١٢ - الجمجمة

ويحيط بهذه الصخرة المقدسة مع بقعة الصليب جدار، وهما مغطيتان ببناء مزين بفسيفساء رائعة، ويوجد على الجدار الشرقي تمثيل أشبه بالحياة لعملية صلب المسيح، لكن أعلى من الحجم الطبيعي، وعلى الجانب الجنوبي تمثيل رائع مماثل للنزول من الصليب، وهناك أيضاً بابين، ويصعد الانسان سبع خطوات إلى البابين، وخطوات كثيرة بعد ذلك، والأرض مبلطة برخام رائع، ويوجد دون مكان الصليب، حيث ترقد

الجمجمة بيعة صغيرة، مزينة بالفسيفساء بشكل جميل، وتعرف باسم الجمجمة، وفي هذا اشارة إلى مكان الجمجمة، والمسافة فيما بين بقعة الصليب ومكان النزول من الصليب خمسة سغنس، وفي جوار مكان الصليب، على الجانب الشمالي المكان الذي انتزع فيه رداء ربنا، وملاصق له البقعة التي وضعوا فيها على رأسه تاج الشوك، واستهزاءً أو سخرية منه ألبسوه رداء ارجوانيا.

١٣ - مذبح ابراهيم

وملاصق لهذا المكان مذبح إبراهيم، الذي قدم عليه ذبيحة للرب، وذبح كبشاً عوضاً عن اسحق، وإلى هذا المكان نفسه الذي اقتيد إليه اسحق، تمّ حمل المسيح بمثابة أضحية، وصلب من أجل خلاص المذنبين، والمكان الذي ضرب فيه المسيح ربنا على الوجه يبعد سغنسان عن هذه البقعة، وثلاثة سغنس من هناك موقع السجن الذي دخله المسيح، وبقي فيه لبعض الوقت حتى حضر اليهود الصليب ونصبوه، وهو الصليب الذي صلب عليه، وجميع هذه الأماكن موجودة تحت السقف نفسه، وإلى جانب بعضها، على الطرف الشمالي.

ويوجد خمسة وعشرين سغنس من سجن المسيح إلى المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليب، والحربة، والاسفنجة، والقصبه، والمسامير، وتاج الشوك، ويقوم الضريح المقدس، ومكان الصليب، وجميع الأماكن المقدسة في منطقة مجوفة من الأرض، حيث ترتفع على الجانب الغربي أعلى الضريح المقدس ومن مكان الصليب، وليس بعيداً من هناك، فوق مرتفع هناك البقعة التي وصلت إليها العذراء المقدسة مسرعة وهي تتبع المسيح باكية، وخاطبته بالكلمات التالية وهي حزينة جداً في قلبها: « إلى أين أنت ذاهب يا بني؟ لماذا أسرع بخطاك؟ هل أنت مضغوط عليك لتصل إلى عرس آخر مثل ذاك العرس في قانا الجليل، يا بني ويا إلهي؟ لاتذهب صامتا هكذا عني، عني أنا التي

ولدتك، قل كلمة لعبدتك».

وعلى كل حال عندما وصلت الأم المقدسة إلى ذلك المكان، ورأت من فوق أن ابنها قد تعرض للصلب، استولى عليها رعب شديد، وسقطت على الأرض، وغلبها حزنها وأساها، وبذلك تحققت نبوءة سمعان، فقد تقدم له أن قال متنبئاً للعدراء المقدسة: «هذا الطفل معين لسقوط ثم لرفع كثيرين في إسرائيل، ولسوف يخرق سيف روحك عندما سترين ابنك وهو يصلب» (لوقا: ٣٤ / ٣٥).

ووقف عدد كبير من أصدقاء يسوع ومعارفه في هذا المكان، ينظرون من بعيد، وكان بينهم مريم المجدلية، ومريم أم جيمس، وسالومي، وكذلك الذين قدموا من الجليل مع يوحنا وأم يسوع، وهكذا وقف جميع أصدقاء يسوع وأقربائه ينظرون من بعيد حسبما قال النبي متنبئاً: «وقف أصدقائي وأقربائي بعيداً عني».

وتقع هذه البقعة على بعد مائة وخمسين سغنس إلى الغرب من مكان الصلب، وتدعى «سبودي» Spudi التي ترجمتها «وجد العذراء المقدسة». وهناك الآن دير مكرس للعدراء المقدسة، ولكنيسته سقف من خشب.

١٤ — برج داود

وهناك مائتي فاثوم Fathoms (قامة) من هناك إلى برج داود وبيته، والبرج قائم حيث كان بيته، وهو المكان الذي نظم فيه النبي وكتب مزاميره، وقد بني بشكل غريب بأحجار ضخمة، وهو مرتفع كثيراً، وشكله رباعي، وهو متين شكله لا يرام، وكأنه حجر واحد من أسفله إلى أعلاه.

ويحتوي على وفرة من الماء، وخمسة أبواب حديدية، وتقود مائتا درجة إلى قمته ويجري تخزين كميات هائلة من القمح في هذا البرج، ومن

الصعب جداً الاستيلاء عليه، ويشكل الدفاع الأساسي للمدينة، وهو محروس بعناية كبيرة، ولا يسمح لانسان بدخوله إلا تحت الاشراف، وبنعمة من الرب، سمح لي أنا غير الجدير كليا، بالدخول إلى هذا البرج المقدس مع اسد سلاف، فهو كان الوحيد الذي سمح له بالدخول معي.

١٥ — بيت أوريا:

وكان على مقربة من هذا البرج بيت أوريا، الذي سبب داود قتله حتى يستحوذ على زوجته، التي رآها وهي تستحم، وعلى رمية حجر من هذا البرج يوجد الآن « بيت حجاج » القديس سابا، وموضع الحمام من الممكن رؤيته حتى اليوم الحاضر.

ويبعد المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليب المقدس عشرين سغنس إلى الشرق، وذلك على مقربة من مكان الصלב، وقد بني فوق الموقع كنيسة واسعة جداً، ولها سقف خشبي، وعلى كل حال لا يوجد الآن شيء سوى كنيسة صغيرة، ويوجد باتجاه الشرق باب كبير، وهو الباب الذي أتت إليه مريم المصرية راغبة بالدخول إلى الكنيسة وتقبيل (الصليب)، لكنها منعت من الدخول بوساطة روح القدس، وبعدها استغاثت بالعدراء المقدسة، التي كانت صورتها في الرواق قرب الباب، كانت قادرة على دخول الكنيسة، وتقبيل الصليب المقدس، وخرجت من هذا الباب في طريقها إلى صحراء الأردن، وعلى مقربة من هذا الباب يمكن رؤية المكان الذي تعرفت فيه القديسة هيلانة إلى الصليب الحقيقي الذي رد إلى الحياة العذراء الميتة، وعلى مسافة قصيرة من هناك، باتجاه الشرق، يوجد البراتوريوم Praetorium (عند النهاية الشمالية للحرم الشريف حيث كانت ثكنة عثمانية) إلى حيث جلب الجنود يسوع إلى بيلاطيس، فقام بيلاطيس هذا وغسل يديه وقال: « إني بريء من دم هذا البار ». (متى: ٢٧ / ٢٤)، وجعل يسوع يتعرض للجلد ثم سلمه إلى اليهود، وهناك أيضاً السجن اليهودي، الذي أطلق

منه الملاك سراح بطرس الرسول المقدس في الليل، وكان حوش يهوذا الذي خان يسوع في هذه البقعة، وهي الآن مشعثة وملعونة، حيث ما من انسان يجرؤ على سكناها خوفاً من اللعنة، وعلى مسافة قريبة نحو الشرق نأتي إلى البقعة التي شفى فيها يسوع المرأة التي كانت تنزف دماً، وملاصق لهذا المكان الحفرة التي ألقى فيها النبي إرميا، وكان بيته هناك، وكذلك حوش الرسول بولص حينما كان يهودياً.

وعلى مسافة قصيرة من هناك باتجاه الشرق، وبعيداً بعض الشيء عن الطريق بيت يوشيم Joachim وحنة، وهناك تحت المذبح مغارة صغيرة منحوتة بالصخر، فهناك ولدت العذراء المقدسة، وهناك أيضاً القبرين ليوشيم المقدس وحنة.

١٦ — بركة الغنم

ليس بعيداً عن رواق سليمان، توجد بركة الغنم، فهناك شفى المسيح المقعد، ويقوم هذا المكان إلى الغرب من بيت القديس يوشيم وحنة، وهو على رمية حجر منه، وملاصق له، باتجاه الشرق يقوم باب المدينة الذي يقود إلى جيسماني. (هو الآن باب ستي مريم).

١٧ — كنيسة قدس الأقداس

تقع كنيسة قدس الأقداس (قبة الصخرة) على بعد رميتي سهم من كنيسة قيامة المسيح، وداخل قدس الأقداس رائع ومزين بشكل فني بالفسيفساء، وفي الحقيقة جمالها لا يمكن وصفه، وشكلها دائري، وخارجها مغطى بألوان جميلة جداً، ولروعته لا يمكن للمرء أن يوفيه حقها بالوصف، والجدران وكذلك الأرض مغطاة بألواح من الرخام الثمين، ويوجد تحت الإطار الدائري اثني عشر عمود حجري ضخمة، وثمانية أعمدة أصغر، وهناك أربعة أبواب مغطاة بألواح من النحاس المذهب، وداخل القبة مزين بأشكال جميلة ورائعة من الفسيفساء، وفي

الخارج مغطاة بنحاس مذهب، ويوجد تحت هذه القبة نفسها مغارة قدت من الصخر، فهناك قتل النبي زكريا، وكان من قبل يمكن رؤية قبره وعلامات الدم، لكن ليس الآن، وما يزال هناك تحت القبة صخرة خارج المغارة، وعلى هذه الصخرة رأى يعقوب في منامه سلماً يصل إلى السماء، وملائكة الرب يصعدون عليه وينزلون، وعندما أفاق يعقوب اضطرع مع الملاك وقال: « ما هذا المكان إلا بيت الله وهذا باب السماء » (التكوين: ٢٨ / ١٠ — ٢٢)، وعلى هذه الصخرة نفسها رأى النبي داود ملاكاً واقفاً وبيده سيف مشهر يضرب به شعب اسرائيل، ودخل إلى المغارة وبكى وخاطب الرب بدعائه قائلاً: « يارب أنا الذي أخطأت.... وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ » (صموئيل : ٢ / ٢٤ / ١٧)، ومقياس الكنيسة ثلاثين سغنس بكل طريق، ولها أربع مداخل، ولقد جرى تدمير كنيسة قدس الأقداس، ولم يبق شيء من البناء القديم العائد لسليمان ما عدا الأساسات الأصيلية العائدة للهيكل التي بدأ داود بإرسائها، والمغارة مع الصخرة القائمة تحت القبة هما الأثران الوحيدان الباقيان من البناء القديم، لأن الكنيسة الحالية بنيت من قبل رئيس المسلمين الذي اسمه عمر.

١٨ — بيت سليمان

وكان هناك أيضاً بيت سليمان، وكانت له واجهة كبيرة ذات جمال مدهش وعظمة، مغطاة بالواح رخامية، وهو قائم على أقواس، وكان مزوداً بصهاريج واسعة، وكانت المخادع مزينة بشكل فني بوساطة الفسيفساء، وبصفوف رائعة الجمال من الأعمدة الرخامية، وقامت القاعات فوق هذه الأعمدة بشكل بارع وأصيل، والبيت كله مغطى بالرصاص.

وباب هذا القصر مغطى بشكل جميل وفني بالرصاص، ومزين بالفسيفساء والنحاس المذهب، ويدعى «الباب الجميل»، وهنا شفى

بطرس ويوحنا المعاق، وما يزال هذا المكان قائماً حتى الآن قرب الباب، وهناك ثلاثة أبواب أخرى، ويدعى الباب الخامس باسم باب الحواريين (الباب الذهبي)، وقد بني بقوة وببراعة من قبل النبي داود وهو مغطى بالواح نحاسية مذهبة، ومن الخارج مغطى بشكل متين بوساطة ألواح من الحديد، وهناك أربعة مداخل لهذا الباب، وهي مع برج داود وحدها المتبقية من البلدة القديمة، والباقي هو جديد، ذلك أن مدينة القدس القديمة قد هدمت أكثر من مرة.

ومن هذا الباب دخل المسيح إلى القدس عندما جاء من بيت حنينا مع لازاروس الذي أقامه من الموت، ويقوم بيت حنينا في الشرق، مقابل جبل الزيتون، ومن هذا الباب إلى كنيسة قدس الأقداس هناك مائة وثمانية سنغس.

١٩ — قرية بيت حنينا

بيت حنينا بلدة ذات منطقة صغيرة قائمة في وادي خلف الجبل، وتبعد فرسخين عن القدس إلى الجنوب، ولدى دخول الإنسان من باب البلدة يرى على اليمين مغارة، فيها قبر القديس لازاروس، وهناك أيضاً زنزانة وقع فيها مريضاً ومات، وهناك أيضاً كنيسة كبيرة عالية في وسط البلدة كانت مزينة بالطلاء بشكل بهي، وقالوا إنها تبعد اثني عشر سنغس عن كنيسة قيامة لازاروس، القائمة إلى الغرب من الكنيسة، بينما الكنيسة نفسها متجهة نحو الشرق، وخارج البلدة، باتجاه الغرب، هناك نبع ماء لطيف، ينبع من مكان عميق تحت الأرض، ينزل إليه بدرجات، وعلى مسافة فرسخ من بيت حنينا، على جانب القدس، هناك برج، أقيم على البقعة التي التقى فيها مرثى يسوع، وفي هذا المكان أيضاً ركب يسوع ظهر أتان بعدما أقام لازاروس.

٢٠ - قرية جيسماني

جيسماني قرية ملاصقة للقدس، وهي تحتوي على ضريح العذراء المقدسة، وهي قائمة فوق جدول قدرون في «وادي الدموع»، فبين نقطتي الصيف والشتاء تشرق الشمس في القدس.

٢١ - أبواب المدينة

على بعد ثمانية سنغس من أبواب المدينة المكان الذي حاول فيه اليهودي أوخونياس Okhonias أن يلقي أرضاً من على النعش جسم العذراء المقدس الذي كان محمولاً من قبل الحواريين ليدفن في جيسماني، لكن الملاك قطع يديه بسيفه، ووضعهما على النعش، وكان هناك ديراً في هذا المكان فيما مضى، لكن جرى تدميره من قبل الكفار.

٢٢ - مكان ضريح العذراء المقدسة

وقدروا وجود مائة سنغس بين هذا المكان وبين ضريح العذراء المقدسة، وهذا الضريح قائم في واد، داخل مغارة صغيرة قدّت من الصخر، مع مدخل منخفض إلى حد يصعب فيه على انسان واقف المرور فيه، وفي نهاية المغارة، أمام المدخل، يمكن للانسان أن يرى نضد صغير قدّ من الصخر، ففوق هذا النضد وضع الجسد المقدس لسيدتنا المقدسة جداً التي هي أم الرب، وقد قامت وانتقلت من هناك دون أن يلحقها فساد إلى الفردوس، وارتفاع هذه المغارة بقدر قامة رجل، وهي بعرض أربعة أذرع وبالطول نفسه، ويحمل واقع المغارة من الداخل منظريّة صغيرة، لها واجهة مغطاة بألواح رخامية جميلة، وكان مبني من قبل هناك كنيسة كبيرة بمناسبة صعود العذراء المقدسة بعد ما قامت فوق قبرها، والمكان في الوقت الحالي مشعث مخرب من قبل الكفار.

٢٣ - الكهف الذي جرت خيانة المسيح فيه

يبعد الكهف الذي سلم فيه المسيح إلى اليهود من قبل يهوذا مقابل ثلاثين قطعة من الفضة عشرة سغنس عن ضريح العذراء المقدسة، وهو قائم على الجانب الآخر من جدول قدرون، عند سفح جبل الزيتون، وليس بعيداً عن هذه البقعة، باتجاه الجنوب، وعلى رمية حجر، يقوم المكان الذي أمضى فيه المسيح الليلة التي سلم بها لليهود ليصلب، وهناك صلى لأبيه وقال: «يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس» (متى: ٢٦ / ٣٩)، ويقوم الآن في هذا المكان كنيسة صغيرة. وعلى بعد مقدار رمية سهم يوجد قبر يهوشافاط، وكان ملكاً لليهود، ولهذا السبب يُدعى هذا الوادي باسم وادي يهوشافاط.

وفي الوادي نفسه أيضاً ضريح القديس جيمس أخو الرب.

ويقع جبل الزيتون إلى الشمال الشرقي من القدس، وهو جبل مرتفع جداً، عندما يتسلقه الانسان من جهة جيسماني، والمسافة أكثر من ثلاث رميات سهم، لكن من جيسماني إلى الأب نسطور رمية سهم واحد.

٢٤ - المكان الذي بدأ فيه المسيح بتعليم حواريه

جرى بناء كنيسة كبيرة في هذا المكان، ويوجد تحت المذبح كهف علم فيه المسيح حواريه الصلاة للرب، ومن هنا إلى قمة جبل الزيتون، حيث حدث صعود الرب، مسافة تسعين سغنس.

٢٥ - جبل الزيتون

المكان الذي حدث فيه صعود ربنا قائم فوق قمة جبل الزيتون، ويوجد على الجانب الشرقي رابية صخرية صغيرة، كان فوقها صخرة مستديرة، ارتفاعها أعلى قليلاً من ركبة الانسان، ومن فوق هذه الصخرة صعد ربنا المسيح إلى السموات، وهذا المكان المقدس مغلق بشكل

دائري، ومبسط بألواح رخامية، ومحاط بغرف على شكل أقبية، وبني في وسط داخل الفناء بيعة دائرية صغيرة، وهي مكشوفة للسماء وبدون بلاط، وتحت هذه القبة المفتوحة تقوم الصخرة التي وقفت عليها قدما ربنا ومعلمنا، وقد بني فوق هذه الصخرة مذبح من ألواح الرخام، وإنه هنا في هذا المكان يترأسون الآن القداست، وتقع هذه الصخرة تحت المذبح المقدس، وهي مغلفة بالرخام، وبذلك يمكن للانسان أن يرى الجزء العلوي منها وهو الذي يقبله المسيحيون، ولليعة بايين، وعلى الانسان أن يصعد اثنتين وعشرين درجة حتى يصل إلى مكان صعود الرب.

ويشرف جبل الزيتون على القدس، ومن على ذروته يمكن للانسان أن يرى كل شيء في المدينة: قدس الأقداس، وجميع المنطقة امتداداً حتى بحر سدوم، والأردن، لابل حتى إلى ما وراء النهر، وذلك بقدر ما جبل الزيتون هو أعلى الجبال قرب القدس.

٢٦ - مدينة القدس

القدس مدينة كبيرة، ومحاطة بأسوار متينة، وقد بنيت على شكل مربع، أطرافه الأربعة متساوية الطول، وهي محاطة بعدد من الوديان الوعرة، والجبال الصخرية، وهي مكان بلا ماء تماماً، ولا يجد الانسان قرب القدس، لانهر، ولا آبار، ولا ينابيع، اللهم باستثناء بركة سلوان، وبناء عليه لا يملك سكان البلدة مع قطعانهم سوى ماء المطر للاستخدام، وعلى الرغم من ذلك ينمو القمح بخصب في تلك المنطقة الصخرية التي تفتقر إلى المطر، لكن بفضل رضا الرب ورحمته مواسم القمح والشعير ممتازة، ففي بزر مكيال واحد يحصد الانسان تسعين ضعفاً أو مائة. أو ليست مباركة الرب ملقاة فوق هذه الأرض المقدسة؟ وفي أحواز القدس هناك وفرة من الكروم، وأشجار الفاكهة، وشجر التين، وشجر الجميز، وشجر الزيتون، وشجر الخروب، وما لا يحصى عدّه من الأشجار الأخرى.

ويوجد فوق جبل الزيتون، في الجانب الجنوبي، قرب مكان الصعود، كهف عميق يحتوي على قبر القديسة فيلاجيا Pelagia المحظية، وعاش هناك رجل عمودي ومستقيم جداً.

٢٧ — الطريق الذي يقود إلى الأردن

يمر الطريق إلى الأردن فوق الجانب الشمالي الشرقي من جبل الزيتون، وهذا الطريق متعب جداً وخطير، ومعدوم الماء، وغالباً ما يطرأ قطاع الطرق على هذه الجبال الصخرية المرتفعة والشعاب المخيفة.

وقالوا هناك ستة وعشرين فرسخاً من القدس إلى الأردن، بما في ذلك خمسة عشر إلى كوزيبيا (دير القلط)، حيث صام القديس يوشيم بسبب عقمه، وهذا المكان هو إلى جانب مجرى مسيل قرب الطريق وعلى اليسار.

ومن كوزيبيا إلى أريحا خمسة فراسخ، ومن أريحا إلى الأردن ستة فراسخ كبيرة، وذلك عبر سهل رملي صعب، هلك عليه كثير من الحجاج بسبب الحرّ والعطش، وليس بعيداً عن هناك بحر سدوم الذي يصدر أبخرة محرقة ويحيط به جو متتن، مما يسبب دماراً لجميع المناطق المجاورة، وقبل الوصول إلى الأردن تأتي إلى دير القديس يوحنا المبشر، وهو قرب الطريق، وقائم فوق جبل.

٢٨ — جبل حرمون

يقع جبل حرمون على مسافة تقارب العشرين سغنس من الدير، وهو على يسار الطريق، وهو هضبة رملية، صغيرة وليست كبيرة، والمسافة من حرمون إلى دير القديس يوحنا القديم هي رميتي سهم واسعتين، وكان هناك أربع كنائس واسعة مكرسة للقديس يوحنا المبشر.

٢٩ — المكان الذي رآه فيه البحر وهرب وحيث ينعطف الأردن عائداً

هناك ليس بعيداً عن هذه الكنيسة، وفوق مرتفع على الجهة الشرقية،

بيعة صغيرة فيها مذبح، ويبين هذا المكان الذي تولى فيه يوحنا المُبَشِّر تعميد ربنا يسوع المسيح، ويصل الأردن إلى هذه البقعة، وعندما رأى خالقه مقترباً للتعميد، ترك مجراه، واستدار مرعوباً عائداً، وكان بحر سدوم فيما مضى يصل حتى مكان التعميد، لكنه الآن على مسافة تقارب الأربعة فراسخ، وعلى هذا رأى البحر الرب عارياً في وسط مياه الأردن، فهرب مرعوباً، واستدار نهر الأردن عائداً حسبما قال النبي: «لماذا هربت أيها البحر؟ وأنت أيها الأردن لماذا استدرت عائداً؟» (المزامير: ٥/٦٤).

٣٠- المكان الذي عُمد فيه المسيح

يبعد المكان الذي تعمد فيه المسيح عن نهر الأردن مسافة رمية حجر صغير من قبل الانسان.

٣١- مكان الاستحمام

هنا «مكان الاستحمام» في نهر الاردن، وهنا يستحم جميع المسيحيون الذين يزورون البقعة، والمخاضة التي تقود إلى العربية قائمة هنا فوق الأردن، ففي هذا المكان نفسه تقدم مياه الأردن أن التفت عائدة، فيما مضى من الزمن أمام الاسرائيليين، ويمر جميع الناس فوق أرض جافة، وهنا أيضاً ضرب اليسايوس Eliseus الماء بعباءة الياس، وعبر الأردن على أرض جافة، وهنا أخيراً عبرت مريم المصريه الماء لتسلم القربان المقدس من الأب زوسيموس Zosimus، وبعدما تسلمت جسد المسيح عادت عبر الطريق نفسه إلى الصحراء.

٣٢- الأردن

نهر الأردن نهر سريع: الضفة على الطرف الأقصى المقابل جرفية منحدره جداً، وعلى هذه الجهة منبسطة، والماء متوحد كثيراً، لكنه مقبول الطعم، ولايستطيع الانسان أن يشرب كثيراً من هذا الماء المقدس، لأنه

لا يضر، ولا يعكر المعدة.

ويشبهه نهر الأردن في كل مجال نهر سنوف، فله العرض نفسه والعمق، وله التعرجات نفسها والمجرى السريع، وعمقه أربعة سغنس في مكان الاستحمام فأنا جربت ذلك وقسته بنفسي، وعبرت إلى الضفة الأخرى من نهر الأردن وتجولت طويلاً هناك، وعرض نهر الأردن، هو عرض نهر سنوف نفسه عند مصبه، وعلى هذا الطرف من الأردن، قرب مكان الاستحمام هناك نوعاً من أنواع الغابة ذات الأشجار الصغيرة، مثل الصفصاف، وبعيداً على محاذة الشاطيء هناك نوعاً من أنواع الشجيرات ليست مثل الموجود لدينا، لكن أكثر شبهاً بصفصاف الصحراء، وهناك أيضاً الكثير من القصب، والخلجان الصغيرة الكثيرة، كما الحال في نهر سنوف، والحيوانات البرية كثيرة، والخنازير الوحشية كثيرة جداً، وهناك كثير من النمور والأسود، وعلى الطرف الآخر من الأردن، بعيداً عن الشاطيء، هناك جبال وعرة، وعند سفوح الجبال هناك جبال أخرى لونها شديد البياض، وتمتد هذه نزولاً حتى الأردن، وتدعى المنطقة الواقعة على الطرف الآخر من الأردن باسم زبلون ونفتالي.

٣٣ — كهف القديس يوحنا المعمدان

ليس بعيداً عن النهر، وعلى رميتي سهم نحو الشرق، يوجد المكان الذي حمل منه النبي الياس إلى السماء في عربة من نار، وهنا أيضاً كهف القديس يوحنا المعمدان، ويجري هنا جدول جميل فوق حصاة ويصب بالأردن، والماء حلو جداً، وبارد كثيراً، وقد شرب منه يوحنا المبشر بالمسيح، عندما سكن في هذا الكهف المقدس.

٣٤ — كهف النبي الياس

ويوجد هنا كهف رائع آخر، ومن الممكن رؤيته، وهو الكهف الذي سكنه النبي الياس مع حواريه اليسايوس (إليجا)، ولقد رأيت — برحمة

من الرب — هذه الأماكن كلها بعيني الخاطئين، وسمح لي الرب بزيارة الأردن المقدس ثلاث مرات، وكنا هناك أيضاً يوم عيد الغطاس، ولقد رأينا تبريكات الرب تنزل على مياه الأردن، وكان على طرف النهر عدد لا يحصى من الناس، وغنوا بشكل جميل جداً جميعاً أثناء الليل، وأشعلت نماذج كثيرة من المشاعل، وتمت تبريكات الماء في منتصف الليل، ونزلت آنذاك روح القدس فوق مياه الأردن، وكان هذا يمكن رؤيته من قبل النخبة فقط، ولم تر حشود الناس شيئاً، مع أن كل مسيحي شعربيهجة عارمة وباشراق في قلبه، وعندما صرخوا: « تقبل الرب التعميد بالأردن » قفز جميع الناس إلى الماء، وتعمدوا بماء الأردن في وسط الليل، مثلهم في ذلك مثل المسيح.

وعلى الطرف الأقصى من النهر هناك جبل مرتفع كثيراً يمكن رؤيته من مسافة من على كل جانب، فعلى هذا الجبل مات موسى، على مشهد من أرض المعباد.

والمسافة هي فرسخ واحد من دير القديس يوحنا إلى دير القديس جبراسيموس، والمسافة نفسها من هذا الدير الأخير إلى قلمونية، أي دير العذراء المقدسة، فهنا أمضت العذراء المقدسة الليل مع يسوع المسيح، ويوسف، وجيمس أيام فرارهم إلى مصر، وأنذاك لقبت هذا المكان بقلمونية، الذي يعني «المسكن الجيد»، ومازال روح القدس ينزل هناك حتى اليوم الحالي على صورة للعذراء المقدسة، وهذا الدير الصغير قائم عند مصب نهر الأردن، حيث يصب في بحر سدوم، وهو محاط بأسوار، ويسكنه عشرون راهباً، وعلى بعد فرسخين من هناك يقوم دير القديس يوحنا خريسوستوم Chysostom (عند قصر حجلة ، أوتل الكرسي)، وهو محاط بسور ومشهور بغناه.

٣٥ - بلدة أريحا

والمسافة من هناك إلى أريحا هي فرسخ واحد فقط ، وكانت هذه فيما مضى مدينة واسعة وقوية جداً ، استولى عليها يوشع بن نون وهدمها بشكل كامل ، وهي في الوقت الحالي مجرد قرية مسلمة ، وفيها بيت زكريا ، وجزع شجرة تسلق عليها ليرى فيما إذا كان المسيح ما يزال موجوداً ، وهناك أيضاً مسكن شوناميت SHunamite الذي أعيد ابنه إلى الحياة من قبل اليسايوس ، والأرض حول أريحا خصبة جداً ومنتجة ، وسطح الأرض مستو وجميل ، وفي تلك الأحواز كميات من أشجار النخيل العالية وجميع أنواع أشجار الفواكه ، وتنتشر عدة ينابيع فوق المنطقة وهناك الكثير من الأقنية ، وهي مياه (عين السلطان) اليسايوس ، التي جعلها النبي عذبة المذاق .

وعلى مسافة فرسخ من أريحا باتجاه الشمال الشرقي ، المكان الذي ظهر فيه ميكائيل رئيس الملائكة إلى يوشع بن نون ، بحضور جيش بني اسرائيل ، فعندما رفع يوشع رأسه رأى أمامه رجلاً مسلحاً مرعباً فقال له : « هل لنا أنت أو لأعدائنا » ؟ فأجابه رئيس الملائكة قائلاً : « أنا ميكائيل ، قائد جيوش الرب ، وقد أرسلني الرب لعونك ، كن جريئاً ، وأنت سوف تسحق أعدائك وزيادة على هذا قال له : « اخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت واقف عليه هو مقدس (يشوع : ٥/١٣ - ١٦) ثم سقط يشوع على وجهه فوق الأرض ، وتعبد الرب .

وقد أقيم فوق هذا المكان دير وكنيسة ، وقد كرسا على اسم القديس ميكائيل ، وفي هذه الكنيسة اثنتي عشرة صخرة نقلت من مجرى نهر الأردن ، عندما تراجع مياها النهر أمام بني اسرائيل ، لتكون ذكرى لذراريهم ، وكان الكهنة الذين حملوا تابوت عهد الرب ، قد جمعوا من الصخور ما يساوي عدد أسباط بني اسرائيل ، ويعرف هذا المكان باسم

جلجال، وهنا عسكر الاسرائيليون بعد عبورهم للأردن .

٣٦ - جبل جبعون

إلى الغرب من هذا المكان يوجد جبل يدعى جبعون (جبع) (جبل قرنطل) الذي هو جبل مرتفع وواسع جداً ، ففوق هذا الجبل توقفت الشمس عن الحركة لمدة نصف يوم ، حتى يتمكن يوشع بن نون من الانتصار على أعدائه عندما قاتل ضد عوج ملك باشان وجميع ممالك كنعان ، وعندما سحقهم يوشع تماماً غابت الشمس .

٣٧ - الكهف الذي صام فيه المسيح أربعين يوماً

وعلى جبل جبعون هذا نفسه هناك كهف مرتفع كثيراً ، فيه صام ربنا المسيح لمدة أربعين يوماً وعندما كان جائعاً فيما بعد ، اقترب منه الشيطان ، ورغب في أن يغريه وقال له : « إذا كنت أنت ابن الرب فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً » (متى : ٤ / ٣) .

وعلى مسافة قريبة ، أي على نصف فرسخ من جبعون هناك بيت النبي الياس ، وكذلك كهفه وبثره .

ويقع دير القديس ثيودوريوس (دير دوسي أو العبيدية أي خربة دير ابن عبيد) على بعد ستة فراسخ من القدس ، وهو قائم على جبل ، وكان محاطاً بسور ، ومن الممكن رؤيته من القدس ، ويوجد في داخل الدير كهف واسع ، أمضى فيه الحكماء المجوس الليل عندما هربوا من هيرود ، وترقد الآن فيه هناك بقايا القديس ثيودوريوس مع بقايا عدد من الآباء المقدسين وذلك بالاضافة الى بقايا أم القديس سابا وكذلك بقايا أم القديس ثيودوريوس .

٣٨ - دير القديس سابا

ويقولون هناك ستة فراسخ من هذا الدير الى دير القديس سابا

ويواجهه كلا الديرين الجنوب ، ويقوم دير القديس سابا في وادي يهوشافاط أو «وادي الدموع» ، الذي يبدأ من عند القدس، ويعبر جيسماني ، ويدخل في الدير، وينتهي في بحر سدوم ، وبنعمة من الرب وضع دير القديس سابا رائع يعجز المرء عن وصفه ، وقعر الوادي صخري جاف ، يرعب الناظر اليه وهو عميق جداً ، وهو مغلق بجدران عالية من الصخور، عليها تم اثبات حجار الخلوات وحفظت بيد الرب بشكل مدهش ومرعب، وهذه الخلوات مربوطة بالجروف التي تحلق فوق قعره الصخري المرعب ، وهي مثبتة على الصخور مثل النجوم في قبة السماء .

وهناك ثلاث كنائس وسط الخلوات ، وهناك في الجانب الغربي تحت صخرة مغارة مدهشة تحتوي على كنيسة مكرسة للعدراء المقدسة ، وكشفت هذه المغارة الى القديس سابا بوساطة عمود من نار، فقد كان آنذاك يسكن وحيداً منقطعاً في قعر الوادي ، وتبعد الخلوة التي سكن القديس بها بالأصل نصف فرسخ عن الدير الحالي ، ومن هناك أراه الرب بوساطة عمود من نار، المكان المقدس ، الذي يقوم فيه الآن دير القديس سابا ، ويقع قبر القديس سابا بين الكنائس الثلاث ، على بعد أربعة سنخس من الكنيسة الرئيسة ، وهو مغطى الآن بمزار جيد البناء ، وترقد هناك بقايا عدد كبير آخر من الآباء المقدسين منهم : الأسقف القديس يوحنا الصامت ، والقديس يوحنا الدمشقي ، والقديس ثيودوروس الرهاوي ، وحفيده ميخائيل ، والقديس أفروديوس، وعدد كبير آخر من القديسين، وبقاياهم محفوظة بشكل تام، ويصدر عنها روائح طيبة بلا حدود ، ورأيت أيضاً بئر القديس سابا ، الذي دلته عليه أتان حمار الوحش في إحدى الليالي ، في قعر ذلك الوادي ، أمام خلوته ، ولقد شربت من ماء هذا البئر الذي هو بارد جداً ومقبول ، ولا يوجد في تلك الأطراف لا نهر ولا مجرى ماء ولا بئر غير بئر القديس سابا ، ويقع المكان

في وسط جبال صخرية وعرة وجرداء ، والمنطقة من حوله كلها جافة بسبب الحاجة الى الماء ، ولا يمتلك النساك الذين يعيشون هناك سوى مياه الأمطار.

وعلى مسافة قصيرة من الدير وباتجاه الجنوب ، هناك مكان يدعى روبا RUVA، وذلك ليس بعيداً عن بحر سدوم، وهو مغلق بوساطة جبال عالية، تحتوي على الكثير من الكهوف، رقد فيها بعدما سكن عدد من الآباء المقدسين، في هذه الصحراء المرعبة، ويعيش هناك أيضاً الكثير من النمور وحمار الوحش. وبحر سدوم بحر ميت، لا يحتوي على أي كائن حي سواء من الأسماك أو القواقع أو الأسماك الصدفية، وإذا ما حمل المجرى السريع للأردن أية أسماك إليه، لا يمكنها العيش هناك ولو لساعة واحدة، بل تهلك على الفور، وينبع اسفلت أحمر اللون من قعر البحر، ويتجمع على شكل كتل كبيرة على الشاطئ، وهذا البحر يصدر روائح كريهة مثل الذي يصدر عن الكبريت المحترق، فجهنم الحمراء تقع تحت هذا البحر.

٣٩- دير القديس يوثيموس

ويقف على بعد ثلاثة فراسخ الى الشرق من دير القديس سابا، وخلف الجبل، دير القديس يوثيموس Euthymius (خربة مردو أو خان السحل، أو خان أخضر) وماتزال آثاره ترقد هناك مع آثار عدد كبير من الآباء المقدسين الآخرين، وهذا الدير قائم في وادي، ومحاط على مسافة منه بجبال صخرية وعرة، وكان بالعادة محاطاً بسور، ويمتلك كنيسة جميلة وعالية، وكان دير القديس ثيوكتستوس theoctistus (خربة الزرنق) ملاصق له تماماً، عند سفح الجبل ، الى الجنوب، من دير يوثيموس، وهذه الأماكن كلها مخربة بوساطة الكفار.

٤٠- جبل صهيون

صهيون جبل واسع ومرتفع، وهو يواجه الجنوب، ومنحدراته من جانب القدس لطيفة جداً، وعليها بني قديماً مدينة القدس القديمة، التي دمرت من قبل نبوخذ نصر، ملك بابل، في أيام النبي إرميا، وجبل صهيون في هذه الأيام قائم خارج أسوار المدينة، الى الجنوب من القدس، وكان على جبل صهيون هدايت القديس يوحنا الانجيلي، وقد بني هناك كنيسة كبيرة ذات سقف خشبي، والمسافة بين سور المدينة، والكنيسة المقدسة لجبل صهيون تقارب رمية حجر لطيفة، وخلف مذبح هذه الكنيسة توجد الحجرة التي غسل فيها المسيح أقدام حواريه.

٤١- بيت يوحنا الانجيلي الذي جرى فيه تناول العشاء المقدس

ونمشي من هذه الغرفة باتجاه الجنوب، ونصعد الى حجرة أخرى بوساطة درج، سقفها مدعوم بوساطة أعمدة، وهي مزينة بالفسيفساء، كما أن هذه الحجرة مبلطة، ومثلها مثل كنيسة فيها مذبح قائم في النهاية الشرقية، ولقد حدث في بيت يوحنا الانجيلي أنه تمّ العشاء المقدس للمسيح مع حواريه، وهنا كان أن قال يوحنا وهو متكئ على صدر المسيح: «مولاي، من هو الذي سوف يخونك؟» (يوحنا: ١٣ / ٢٥)، وفي هذا المكان نفسه نزلت الروح القدس على الحواريين يوم عيد الحصاد، ويوجد في هذه الكنيسة نفسها، في الطابق الأرضي، حجرة منخفضة أخرى، ظهر فيها المسيح في وسط حواريه، مع أن الباب كان مغلقاً، وقال: «سلام لكم» (يوحنا: ٢٠ / ١٩)، وهنا أيضاً ارتبك توما في اليوم الثامن، وأرونا هناك صخرة مقدسة جلبوها من جبل سيناء بوساطة ملاك، وعلى الجانب الآخر من الكنيسة، نحو الغرب، هناك حجرة أخرى أيضاً موجودة في الطابق الأرضي، فيها أسلمت العذراء المقدسة الروح، ووقعت هذه الحوادث كلها في بيت القديس يوحنا الانجيلي.

وكان هناك بيت كيفاس، حيث أنكر بطرس المسيح ثلاث مرات، قبل أن يصبح الديك، ويقوم هذا المكان الى الشرق من صهيون.

٤٢- المكان الذي أنكر فيه بطرس المسيح ثلاث مرات، فبكى بحرقة

وليس بعيداً من هناك، على السفوح الشرقية للجبل، هناك مغارة عميقة ينزل إليها الانسان باثنتين وثلاثين درجة، فهناك بكى بطرس بحرقة (بعد) انكاره، وبُنيت كنيسة فوق هذه المغارة وأطلق عليها اسم الرسول بطرس المقدس.

٤٣- بركة سلوان

وأبعد قليلاً الى الجنوب، عند سفح الجبل، توجد بركة سلوان، حيث رد المسيح البصر الى رجل أعمى.

٤٤- حقل الفاخوري

عند سفح جبل صهيون نفسه هناك حقل الفاخوري، (الخزاف) الذي اشتروه، والمسيح ثمنه، ليكون مدفنًا للغرباء، وهو في الجانب الآخر من الوادي، أسفل جبل صهيون، والى الجنوب من ذلك الجبل، وهناك كثير من الكهوف محفورة على جوانبه، وفي هذه الكهوف قبور جاهزة تماماً، وهي منحوتة بشكل جميل في الصخور.

وهم يدفنون هناك الرحالة الغرباء بلا مقابل، ولا يسمحون بأخذ أي شيء من هذا المكان المقدس، لأنه شري بدم المسيح

٤٥- بيت لحم

تقع مدينة بيت لحم المقدسة على بعد ستة فراسخ الى الجنوب من القدس المقدسة، وهي على بعد فرسخين عبر السهل الى المكان الذي ترجل فيه ابراهيم من على ظهر مطيته، وترك هناك خدمه الصغار مع الأتان، وأخذ ابراهيم ابنه ليضحى به، وطلب منه أن يحمل معه الخشب

والنار، ثم قال له اسحق: «هوذا النار والخطب ولكن أين الخروف للمحرقة؟» وأجابه ابراهيم: «الله يرى له الخروف للمحرقة». (التكوين: ٢٢ / ٧-٨)، وسار اسحق وهو مبتهج على الطريق المؤدي الى القدس، وحمل الى المكان نفسه الذي صلب فيه المسيح فيما بعد ، وعلى بعد فرسخ واحد فقط من هناك توجد البقعة التي رأت فيها العذراء المقدسة رجلين ، بكى أحدهما والآخر ضحك ، وبني فوق المكان كنيسة ودير ، وكرسا للعذراء المقدسة ، لكنهما الآن مهدمان من قبل الكفار ، ومن هناك الى ضريح راحيل أم يوسف مسافة فرسخين .

٤٦ - الكهف الذي ولدت فيه العذراء المقدسة المسيح

وعلى بعد فرسخين من هناك يوجد المكان الذي شعرت فيه العذراء مريم بآلام المخاض ، فترجلت من على ظهر أتانها ، وهناك صخرة كبيرة ، استراحت عليها بعدما ترجلت ، ثم تابعت رحلتها سيراً على الأقدام حتى الكهف المقدس ، وفي ذلك الكهف ولدت المسيح ، والمسافة من تلك الصخرة الى مكان ميلاد المسيح ، تساوي رمية سهم جيدة .

٤٧ - كنيسة ميلاد المسيح

هي كنيسة كبيرة على شكل صليب لها سقف خشبي قائمة فوق مغارة المهد ، والسقف مغطى تماماً بالرصاص ، وداخله مزين بصور من الفسيفساء ، وفيها خمسون عموداً رخامياً ضخماً ، ومبلطة بألواح من الرخام الأبيض ، ولها ثلاثة أبواب ، وطولها حتى المذبح الكبير خمسين سغنس وعرضها عشرين سغنس ، وتحت المذبح الكبير هناك المغارة والمزود حيث حدثت ولادة المسيح ، وهذه المغارة عبارة عن كهف جميل وواسع ، وتنزل درجاً بسبع درجات حيث باب المغارة المقدسة ، الذي له مدخلين ، وتهبط من كل مدخل سبع درجات ، وإذا دخلت الى المغارة المقدسة بواسطة الباب الشرقي ، يمكنك أن ترى على الطرف

الأيسر، فوق الأرض، المكان الذي ولد عليه ربنا المسيح، ويوجد فوقه مذبح يقيمون من عليه القداس.

٤٨ - مزود المسيح

يقوم مكان الميلاد على الجانب الأيسر، ومقابل ذلك الى اليمين قليلاً مهد المسيح تحت صخرة قائمة على الجانب الغربي، ففي هذا المهد المقدس وضع ربنا المسيح، ولف بأقمشة رخيصة بالية، وهو الذي عانى لخلاصنا، وهذين المكانين - مكان الولادة والمهد متلاصقين إلى جانب بعضهما بعضاً، ويفصل بينهما ثلاث سغنس، وهما موجودان في المغارة نفسها المغطاة بالفسيفساء والمبلطة بشكل جيد، وتحت الكنيسة عدد من الكهوف يرقد فيها بقايا الكثير من القديسين، وعند مخرجك من الكنيسة، هناك على اليمين كهف عميق قائم تحت الكنيسة، فيه دفنت بقايا الأبرياء المقدسين ومن هناك نقلت هذه البقايا إلى القسطنطينية، ويحيط بالكنيسة سور مرتفع، وقام مكان الميلاد فوق جبل غير مسكون ومهجور، وهو الآن محاط بالأسوار، ويشير إلى مكان ميلاد المسيح، الذي يدعونه بيت لحم، وكانت بيت لحم القديمة مكاناً صغيراً أمام المكان الفعلي لميلاد المسيح، وهناك في أيامنا عمود صومعة والصخرة التي ارتاحت عليها العذراء المقدسة، فهنا كانت بيت لحم القديمة.

وتدعى المنطقة المحيطة باسم أفرانه وأرض يهودا، التي قال عنها النبي: «أما أنت يا بيت لحم، أرض يهودا، لست الأدنى بين المدن الرئيسية ليهودا، لأنه منك سوف يخرج القائد الذي يقود شعبي شعب اسرائيل» (ميخا: ٥/٢)، وأحواز بيت لحم هي جبال وهي جميلة جداً، فالسفوح المنخفضة للجبال مغطاة بأشجار الفواكه، والزيتون والتين، وأشجار خروب تفوق الحصر، والكروم كثيرة قرب بيت لحم، وهناك العديد من الحقول الخصبة في الوادي.

وليس بعيدا عن كنيسة المهدي ، وخارج الأسوار ، وعلى مسافة رمية سهم نحو الجنوب هناك مغارة كبيرة ، محفورة في الجبل ، وفيها سكنت العذراء المقدسة مع المسيح ويوسف .

٤٩ - بيت يسي والد داود

وعلى رمية سهم الى الشرق من بيت لحم هناك مكان اسمه بيت إيل ، وهو بيت يسي والد داود ، فهناك كان ، وحدث في هذا البيت أن قام النبي صموئيل بمسح داود ملكاً لبني اسرائيل ، مكان شاول .

٥٠ - بئر داود

وهناك أيضاً بئر داود الذي رغب مرة في الشرب من مائة ، وهو قرب المكان الذي أعلن فيه الملائكة للرعاة عن ميلاد المسيح ، فعلى بعد فرسخ الى الشرق من مكان الميلاد هناك في السهل البقعة القائمة عند سفح الجبل ، ففيها أعلن الملائكة المقدسين عن ميلاد المسيح للرعاة ، وكان يوجد هناك كهف بني عليه وأحيط بكنيسة جميلة ، أطلق عليها اسم القديس يوسف ، وكان إلى جانبها دير جميل ، وجرى تدمير هذه الأماكن من قبل الكفار ، ويقوم هذا المكان وسط سهل جميل حيث الحقول خصبة جداً ، وحيث الزيتون كثير جداً ، ويدعون هذا السهل باسم أغيا بيمينا (حقل الرعاة) أي « المرعى المقدس » ويمتلك دير القديس سابا أرضاً هناك ، قائمة على سفح الجبل الى جانب بيت لحم .

٥١ - الكهف وبلوطات ممرا

وتقوم الخليل ، والكهف المزدوج وبلوطات ممرا الى الجنوب من بيت لحم ، والمسافة من القدس الى الخليل هي ثمانية وعشرين فرسخاً ، ويمر الطريق ببيت لحم الذي يقولون إن المسافة إليها ستة فراسخ ، وهناك ثلاثة فراسخ من هذه المدينة الى نهر إيثام Etham (وادي أرطاس) ففي هذا النهر قال النبي داود في المزمور : « أنت جففت أنهار

ايثام : لك النهار ، والليل لك أيضاً » (المزامير : ٧٤ / ١٥ - ١٦) .

ومجرى هذا النهر جاف جداً هذه الأيام ، لكنه يجري تحت الأرض ويعاود الظهور قرب بحر سدوم ، الذي يصب فيه ، وهناك على الطرف الآخر من النهر جبل وعمر مرتفع ، وهو مغطى بغابة واسعة وكثيفة ، والطريق عبر هذا الجبل الموحش خطيرة ، وينقض المسلمون ، مستفيدين من هذا الممر ، على الذين يغامرون في مواجهة المخاطر بأعداد صغيرة ، وبالنسبة لي هياً الرب لي جماعة كبيرة وجيدة ، وبذلك كنت قادراً على عبور هذا المكان المخيف بدون معيقات ، وليس بعيداً عن ها هنا بلدة عسقلان ، التي يقدم منها المسلمون بأعداد كبيرة ، ويهاجمون المسافرين في هذا الممر وعلى هذا الجبل ، وفي هذه الغابة الكثيفة قتل أبسلوم بن داود ، فقد كان هارباً من وجه جيوش أبيه ، وحمله بغله الى أكثف مكان في الغابة ، وأمسكه أحد الأغصان من شعره فبقي معلقاً الى الشجرة ، وتلقى ثلاث رميات في قلبه ، وعلى هذه الصورة مات على الشجرة وقالوا بوجود عشرة فراسخ من هناك الى بئر حلفاء ابراهيم وستة فراسخ من هذا البئر الى بلوطات ممرا .

٥٢ - الموضوع نفسه

وتقوم هذه البلوطات على جبل مرتفع الى جانب الطريق ، على الجهة اليمنى ، ومنظرهن منظر رائع ، وبلط الرب حول جذورهن الأرض برخام أبيض مثل أرضية كنيسة ، وإنه لأمر رائع أن ترى هذه البلوطات المقدسات منتصبات قائمات من وسط هذه الصخور ، وقمة الجبل هذا حول الشجرات عبارة عن أرض مفتوحة بدون صخور ، وإلى جانب هذه البلوطات ، بإتجاه الشرق ، نصبت خيمة ابراهيم ، والبلوطات ليست عالية جداً لكن كثيرات العقد ولهن أغصان كثيرة محملة بالثمار ، والأغصان ليست عالية الى حد أن الانسان الواقف على الأرض يستطيع أن يلامسهن ، ومحيطهن حسبما قسته بنفسه هو

سغنسان ، وارتفاع الجزع حتى الغصن الأول سغنس ، ولا يستطيع الانسان إلا أن يعجب نحو هذه الأشجار الرائعة التي توجت هذا الجبل المرتفع لمثل هذا العدد الكبير من القرون ، وهي لم تقع ولم تهترى ، بل ما تزال صامدة محفوظة من قبل الرب ، وكأنهن قد زرعن الآن ، وهناك بارك الثالوث المقدس ابراهيم وزوجته ساره ، عندما كانا متقدمين بالسن ، ورزقهما بولدهما اسحق ، وأرى الثالوث المقدس أيضاً ابراهيم النبع الذي يشكل في هذه الأيام بئراً عند سفح الجبل ملاصقاً للطريق ، وتدعى جميع المنطقة المحيطة بالبلوطات باسم ممرا ، ويقولون هناك فرسخان من هناك الى الخليل .

٥٣ - جبل الخليل

الخليل هي جبل مرتفع ، يوجد عليه بلدة واسعة جداً ، وأبنيتها قديمة جداً ، وسكن الجبل فيما مضى أعداد كبيرة من السكان ، لكنه الآن مشعث ، وكان أول من سكن جبل الخليل هو كنعان بن حام حفيد نوح الذي جاء بعد الطوفان وبناء برج بابل ، واستوطن جميع المنطقة من حول الخليل ، ولهذا السبب دعيت أرض كنعان ، وهذه هي الأرض التي وعد الرب بها ابراهيم عندما كان في بلاد الرافدين في حران حيث كان بيت أبيه . وقال الرب لابراهيم : « اذهب من بلادك وبيت أبيك ، واسكن في أرض كنعان ، وأنا سوف أعطي تلك الأرض إليك وأجعلك مخصباً دوماً وسأكون معك » (التكوين : ١٢ / ١) ، وفي الوقت الحالي هذه الأرض والحق يقال هي أرض ميعاد الرب والعطاء له مع جميع الأشياء الجيدة : القمح ، والكروم ، والزيتون وجميع أنواع الخضروات تنمو فيها بوفرة ، والقطعان كثيرة ، فالأغنام وبقية الحيوانات تلد مرتين في السنة ، وهناك أعداد واسعة من الغزلان تعيش بين صخور هذه الجبال الجميلة ، وسفوح هذه الجبال مغطاة بالكروم وبأعداد لا تحصى من أشجار الفواكه من زيتون ، وتين وخروب ، وتفاح وتوت

وأشجار أخرى ، وجميع أنواع الخضار ، التي هي هنا من أفضل وأكبر مما هو موجود في بقية الأرض ، فما من مكان تحت السماء يعادلها ، والماء في هذه البلاد رائع ويتوافق مع مذاق كل انسان ، وجميع المناطق المحيطة بالخليل متميزة بجمالها وبخصبها الذي لا يمكن وصفه ، وعلى جبل الخليل كان هناك أيضاً بيت داود ، الذي عاش فيه ثمانية أعوام ، وعندما طرد من قبل ابنه ايسلوم ، ويقع كهف الخليل المزدوج على نصف فرسخ فقط من الخليل ، وهو محفور بالصخر ويحتوي على قبور : ابراهيم واسحق ويعقوب ، واشترى ابراهيم هذا الكهف المزدوج من عفرون الحثي ، ليكون مدفناً لجميع أولاده وكان ذلك عندما جاء من بلاد الرافدين الى أرض كنعان ، وكان هذا الكهف المزدوج ، الذي اشتراه ليكون مدفناً له ولأسرته أول شيء استحوز عليه ، ويحيط بالكهف حصن قوي وصغير ، وقد بني بشكل رائع من حجارة منحوتة شكلت أسواراً عالية ، والكهف هو داخل الحصن ، وجميع الاطار المحيط به مبلط بألواح رخامية بيضاء ، وتحت هذا البلاط يوجد الكهف المنحوت حيث يرقد : ابراهيم واسحق ويعقوب ، وأولاده ، وزوجاتهم : سارة ورييكا (رفقة) ، وليس راحيل ، لأنها دفنت الى جانب طريق بيت لحم ، وهذه الأضرحة مفصولة عن بعضها بعضاً داخل الكهف ، وكل واحد منها محاط ببيعة مستديرة صغيرة وضريح ابراهيم وكذلك ضريح زوجته سارة الى جانبي بعضهما ، وكذلك الحال بالنسبة لقبري اسحق وزوجته رييكا ، ويعقوب وزوجته ليا .

٥٤ - قبر يوسف

قبر يوسف « الأثير » موجود خارج المبنى ، وهو على رمية حجر من الكهف المزدوج ، ويحمل هذا المكان في هذه الأيام اسم « القديس ابراهيم » وعلى مقربة من هذه البقعة ، وعلى بعد فرسخ من الكهف المزدوج باتجاه الشرق ، هناك جبل مرتفع صعبه الثالث المقدس مع

ابراهيم الذي رافقهم من بلوطات ممرا ، وعلى قمة هذا الجبل هناك مكان جميل سجد فيه ابراهيم الى الأرض ، وتعبث الثالث المقدس ، وقدم إليهم الدعاء التالي :

٥٥ - دعاء ابراهيم

« فتقدم ابراهيم وقال : : أفتهلك البار مع الأثيم . عسى أن يكون خمسين باراً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشى لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشى لك أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً . فقال الرب : إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم ، فأجاب ابراهيم وقال : إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة . فقال لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين . فعاد يكلمه أيضاً وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون . فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم . عسى أن يوجد هناك ثلاثون . فقال : لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين . فقال : إني شرعت أكلم المولى . عسى أن يوجد هناك عشرون . فقال : لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط ، عسى أن يوجد هناك عشرة . فقال : لا أهلك من أجل العشرة » (بالأصل : خمسة).

وصمت إبراهيم ولم يتجرأ أن يجيب ، وأرسل الثالث المقدس من هذا الجبل اثنين من الملائكة إلى سدوم لتمكين لوط ابن أخي إبراهيم من الفرار من المدينة ، وهناك قدم إبراهيم أضحية إلى الرب ، ورمى قمحاً في النار ، وبناء عليه يدعى هذا المكان «أضحية إبراهيم» ، وهو قائم على ارتفاع معتبر ، ومنه يمكن رؤية جميع بلاد كنعان.

والمسافة من «أضحية إبراهيم» إلى وادي «جرزنووا» Greznowa فرسخ واحد، وكذلك من وادي جرزنووا إلى عتبات الأناضول. (أندرو؟)

٥٦ - ضريح لوط في سيجور

ومن هناك إلى سيجور فرسخين، وهناك يمكن رؤية ضريح ابنتيه، وهما مدفونتان في ضريحين منفردين، ويوجد في هذا الجبل كهف واسع اتخذ لوط مع ابنتيه ملجئاً، وهناك أيضاً بقايا مدينة تعود إلى السكان الأول لهذه البلاد، وهي قائمة على أعالي هذا الجبل، ويدعى المكان سيجور، وعلى فرسخ من سيجور، باتجاه الجنوب، هناك عمود حجري، هو زوجة لوط، وهناك مسافة فرسخين من هناك إلى سدوم، ولقد رأيت هذا كله بعيني، لكن لم يكن بإمكانني الذهاب إلى مكان سدوم خوفاً من الكفار، ومنعني المؤمنون من الذهاب إلى هناك قائلين: «ليس هناك شيئاً مفيداً لتراه هناك، وستنال فقط الازعاج والتعب، لأن روائح التبن منتشرة هناك وسوف تجعلك مريضاً، ونتيجة لذلك عدنا إلى «القديس إبراهيم» وبحماية الرب ورحمته وصلنا إلى مزار الكهف المزدوج بصحة جيدة، وبجلنا هذه الأماكن المقدسة واسترحنا هناك لمدة يومين، وحمداً للرب وجدنا جماعة كبيرة متوجهة إلى القدس، فالتحقنا بها، وقمنا بالرحلة معاً مسرورين وبدون خوف، وهكذا وصلنا سالمين إلى مدينة القدس المقدسة. وحمدنا الرب الذي سمح لنا نحن الذين لانستحق بزيارة هذه الأماكن، التي من غير الممكن وصف قداستها بأية طريقة من الطرق لا بالكلام ولا بالكتابة.

وإلى الجنوب من بيت لحم، يقوم دير القديس شارتون (خربة الخرتون) على نهر ايسام المتقدم ذكره، وهوليس بعيد من بحيرة سدوم، في وسط جبال وعرة، وفي مكان مهجور، وهذا المكان مخيف، وأجرد، وهو محروم من الماء تماماً، يقوم أمامه جرف صخري وعر، وكان الدير محاط بالأسوار، وفي داخل المزار هناك كنيستين، تحتوي الكبيرة منهن قبر

القديس شيراتون، ويوجد خارج الأسوار كهف مقبرة واسع يحتوي على بقايا آباء مقدسين، رقدوا هناك، وقد يصل عددهم إلى أكثر من سبعمائة، وبين بقايا عدد كبير هناك بقايا القديس سرياقوس المعترف، الذي مايزال جسده محفوظ بحالة سليمة مع قبري يوحنا وأركاديس ابني اكزنفون، وعنهما تصدر روائح طيبة، وقد منّا احترامنا إلى هذا المكان المقدس وتسلقنا الجبل فرسخاً إلى الجنوب من الدير.

وهناك مكان ناعم في الحقل، حمل منه الملاك النبي حبقوق المقدس، عندما كان يحمل طعاماً وشراباً إلى الخواصيد، وجلبه إلى بابل، إلى عرين (الأسد) العائد للنبي دانيال، وبعدما أشبع دانيال وأزال جوعه وأطفأ عطشه، حمله عائداً في اليوم نفسه والساعة نفسها إلى الخواصيد حيث أعطاهم غداءهم، وبني على البقعة نوع من أنواع المزارات إحياء لذكرى هذه المعجزة، ذلك أن بابل تبعد عنها مسافة أربعين يوماً، وهناك أيضاً قرب هذا المكان كنيسة كبيرة لها سقف خشبي، مكرسة للأنبياء المقدسين، ويوجد تحت الكنيسة كهف كبير، يرقد فيه في ثلاثة صناديق بقايا اثني عشر نبياً هم: حبقوق، ناحوم، ميخا، حزقيا، عوبيدا، زكريا، حزقيال، اسمايل، ساول، باروخ، عاموس، وهوشع، وعلى الجبل المجاور هناك قرية كبيرة جداً، مسكونة من قبل عدد كبير من المسلمين والمسيحيين، وهي القرية التي ولد فيها الأنبياء المقدسون، وحيث بيوتهم أيضاً، وأمضينا ليلة هناك بحماية نعمة الرب، واستقبلنا استقبالاً جيداً من قبل المسيحيين الساكنين هناك، وبعدما استرحنا ليلة جيدة هناك استيقظنا باكراً، حتى نمضي إلى بيت لحم، وحمل مقدم المسلمين سلاحه ورافقنا وحرسنا حتى وصلنا إلى بيت لحم، وصاحبنا إلى كل مكان، ولولاه لما كان بإمكاننا السفر في هذه الأماكن بسبب وجود أعداد كبيرة من المسلمين يقطعون الطريق في الجبال، وهكذا وصلنا بسعادة إلى بلدة بيت لحم المقدسة، وبعدما عبدنا مكان ميلاد المسيح، أمضينا الليلة

هناك وعدنا مسرورين إلى مدينة القدس المقدسة.

٥٧- المكان الذي قتل فيه داود جالوت

وإلى جوار القدس، وعلى رمية سهم إلى الشرق من برج داود يوجد المكان الذي قتل فيه داود جالوت، وهو في سهل قرب صهريج ماء (قلعة جالوت)، ومن الممكن أن يرى الآن هناك حقل قمح جميل.

وعلى رمية سهم من هناك الكهف الذي ترقد فيه بقايا عدد كبير من الشهداء الذين قتلوا في القدس أيام حكم هرقل، ويدعى هذا المكان باسم حاجيا ماملا.

٥٨- المكان الذي نمت فيه شجرة الصليب المقدس

المسافة من هذا المكان إلى مكان الصليب المقدس هي فرسخ واحد، والمكان هذا قائم إلى الغرب من القدس، خلف جبل، فمن هناك قطعوا أعواد الصليب، الذي سميت إليه القدمين المقدسين لربنا يسوع المسيح، ومحاط هذا المكان بأسوار، يقوم في وسطها كنيسة كبيرة، مكرسة للصليب المقدس، وهي مزينة بالرسومات بشكل ثري، وعند المذبح العالي، ودونه، يوجد جذع الشجرة المقدسة مغطى بالواح رخامية بيضاء، ومترك هناك فتحات صغيرة مستديرة، يمكن من خلالها رؤيته، وهناك يقوم الدير الاسباني.

٥٩- بيت زكريا

هناك أربعة فراسخ من هذا الدير إلى بيت زكريا، القائم عند سفح جبل غربي القدس، وإلى بيت زكريا هذا جاءت العذراء المقدسة لتحيي اليزابث، وما أن سمعت اليزابث صوت مريم حتى قفز طفلها في داخلها لسروره وصاحت بصوت مرتفع: «مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة

بطنك. فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليّ». (لوقا: ١/٤٢). وولد في هذا البيت نفسه يوحنا المبشر، وتشغل هذا المكان الآن كنيسة، ولدى دخولك إلى هناك، باتجاه اليسار، تحت المذبح المنخفض، هناك كهف صغير، فيه ولد يوحنا المبشر، والمكان كله محاط بحصن حجري.

٦٠ — الجبل الذي التجأت إليه اليزابث مع المبشر

على نصف فرسخ من هناك، وعلى الطرف الآخر من الوادي المليء بالأشجار، يقوم الجبل الذي هربت إليه اليزابث مع ابنها وقالت: «تسلم أيها الجبل الأم والطفل»، وانفتح الجبل، ومنحهما مأوى، وعندما وصل جند هيرود الذين كانوا يطاردونها إلى هذا المكان، لم يبصروا أحداً، وعادوا خائبين، ومكان هذا الحادث يمكن أن يرى في الصخرة حتى هذا اليوم، وتقوم فوقه كنيسة صغيرة، يوجد تحتها مغارة صغيرة، عند المدخل إليها هناك كنيسة أخرى صغيرة، وينبع من هذه المغارة نبع ماء (عين ستي مريم عند عين كارم) شربت من مائه اليزابث ويوحنا أثناء اختفائهما في الجبل، حيث بقيا، برعاية أحد الملائكة، حتى وفاة هيرود، وهذا الجبل، القائم إلى الغرب من القدس، مرتفع جداً، ومغطى بغابات كبيرة، ومحاط بعدد كبير من الوديان، وتدعى أورويني (لوقا: ١/٣٩)، وفي هذا الجبل أيضاً اتخذ داود ملجئاً، عندما عذبه الملك شاول وهرب من القدس.

٦١ — رامة

تقوم رامة على فرسخين إلى الغرب من هذا الجبل، وعن رامة هذه قال النبي إرميا: «صوت سمع في الرامة نوح بكاء مر. راحيل تبكي على أولادها، وتأبى أن تتعزى على أولادها لأنهم ليسوا بموجودين» (إرميا: ٣١/١٥).

ورامة وادي واسع توزعت فيه قرى كثيرة، وتحمل جميع الأحواز هناك اسم رامة، وهي تشمل أراضي بيت لحم، وإلى رامة كان الملك هيرود قد بعث الجنود لقتل الأبرياء المقدسين.

٦٢ - عمواس

عندما يوجه الانسان خطواته باتجاه الغرب، يصل بعد أربعة فراسخ إلى عمواس، حيث ظهر المسيح إلى لوقا وكليوباس في اليوم الثالث بعد القيامة، وكانا ذاهبين من القدس إلى البلدة، ولاحظاه عندما قطع خبزة، وكانت بلدة واسعة، وقد بنيت هناك كنيسة، وقد هدمت الآن من قبل الكفار، وبلدة عمواس بلدة مهجورة، وهي قائمة خلف جبل إلى اليمين، ليس بعيداً عن الطريق الذي يقود من القدس إلى يافا.

٦٣ - اللد

من عمواس إلى اللد أربعة فراسخ عبر السهل، وكانت فيما مضى بلدة كبيرة اسمها اللد، لكن اسمها الآن هو الرملة، وهنا حدث أن شفى بطرس إنياس Eneas الذي كان ممدداً لمرضه على فراشه.

٦٤ - يافا

من اللد إلى يافا عشرة فراسخ مستمرة عبر السهل، وفي هذه المدينة أقام الرسول بطرس طابيثا Tabitha من الموت، وهنا صام بطرس أيضاً، وعندما صعد إلى أعلى البيت في حوالي الساعة التاسعة رأى ملاءة مربوطة من الزوايا الأربعة نزلت من السماء، وعندما وصلت إليه رأى أنها مليئة بوحوش الأرض وبجميع أشكال الأشياء الزاحفة، وخاطبه صوت من السماء قائلاً: «قم يا بطرس اذبح وكل». فقال بطرس: كلا يارب لأنني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه أيضاً صوت ثانية: ماطهره الرب لاتدنسه أنت» (أعمال الرسل: ١٠/١٣ - ١٥)، وهناك الآن كنيسة عند هذه البقعة تدعى كنيسة القديس بطرس، وبلدة يوبا

قائمة على شاطئ البحر، وتصل الأمواج إلى أسوارها، وتعرف الآن باسم يافا بلغة الفرنجة، ومن يافا إلى أرسوف ستة فراسخ.

٦٥ - قيسارية فيليب

من أرسوف إلى قيسارية فيليب (اقرأ: قيسارية فلسطين) أربعة وعشرين فرسخاً عبر طريق يجري على طول شاطئ البحر، وفي قيسارية هذه عمّد الرسول بطرس المقدس كورنيليوس Cornelius، وليس بعيداً عن هذه المدينة، على مسافة فرسخين إلى الجنوب، هناك جبل عاش عليه الأب مارتيان Martinian، وإليه جاءت المحظية لأغوائه.

٦٦ - كفر ناحوم

تبعد قيسارية فيليب ثمانية فراسخ عن كفر ناحوم، وكانت كفر ناحوم (عثليت) فيما مضى هامة جداً، وبلدة مكتظة السكان، لكنها في هذه الآونة مهجورة، وقائمة ليس بعيداً عن البحر الكبير، وعن كفر ناحوم هذه قال النبي: «الويل لك يا كفر ناحوم، سوف ترتفعين إلى السماء، ولسوف تنحدريين إلى أعماق الجحيم»، وفي هذه المدينة سوف يظهر المسيح الدجال، ولهذا السبب هجرها الفرنجة.

٦٧ - جبل الكرمل

المسافة من كفر ناحوم إلى جبل الكرم تقارب ستة فراسخ، وعلى هذا الجبل عاش النبي الياس المقدس، وغذي من قبل غراب أسود، وهنا أيضاً ذبح كاهن بعل قائلاً: «إنني أحرق برائحة طيبة لمولاي الرب»، وهذا الجبل مرتفع جداً، وعلى حوالي الفرسخ عن البحر الكبير، وتقارب المسافة من جبل الكرمل إلى حيفا فرسخاً واحداً.

٦٨ - بلدة عكا

المسافة فيما بين حيفا وعكا هي خمسة عشر فرسخاً، وعكا بلدة واسعة،

متينة البناء وتمتلك ميناء جيداً، وكانت بيد المسلمين، وهي الآن محتلة من قبل الفرنجة، وهناك من عكا إلى بلدة صور عشرة فراسخ، والمسافة نفسها من صور إلى صيدا، وقرية الصرفند ليست بعيدة عن صيدا، ففي الصرفند أعاد النبي ابن الأرملة إلى الحياة.

٦٩ - بلدة بيروت

المسافة بين صيدا وبيروت هي خمسة عشر فرسخاً، وفي هذه البلدة خرق اليهود صورة المسيح بحربة فاندفع منها الدم والماء، ووقتها تحول عدد كبير من الناس وتعمدوا باسم الآب والابن وروح القدس، وإلى بلدة بيروت هذه نفسها جاء يوحنا وأركاديوس ولدي اكزنفون ليدرسا الفلسفة، ومن بيروت إلى جبيل عشرين فرسخاً، ومن جبيل إلى طرابلس أربعين فرسخاً، ومن طرابلس إلى نهر السويدية ستين فرسخاً.

٧٠ - أنطاكية الكبرى

تقوم أنطاكية الكبرى على النهر المذكور أخيراً، وهي على ثمانية فراسخ عن البحر، وعلى بعد مائة فرسخ منها لوديكية Laodicea ، ثم تأتي أنطاكية الصغرى، وكانينورس Kaninoros ، ومافرونوروس Mav-ronoros، وبلدة ساتاليا (أضاليا) الصغيرة، وجزيرة خيلدونيا الصغيرة، وجميع هذه البلدات قائمة على شاطئ البحر، ولهذا لم نلق المراسي حتى خيلدونيا، وتابعنا سيرنا من هناك إلى بلدة مايرا، وقرب هذه البلدة واجهنا أربعة غلايين، تحمل قراصنة، هاجمونا وسلبونا، ومن هناك وجهنا طريقنا نحو القسطنطينية، التي وصلناها بصحة جيدة.

٧١ - الجليل وبحر طبرية

الطريق يقود هنا من القدس إلى الجليل باتجاه بحر طبرية، وجيل الطور والناصرية، وجميع المنطقة محدودة من قبل بحر طبرية الذي يدعى بحر الجليل، وهو قائم باتجاه الشمال الشرقي من القدس، وتبعد بلدة

طبرية مسيرة أربعة أيام عن القدس للانسان المسافر على قدميه، والطريق خطر جداً ومرهق، فالانسان يسير لمدة ثلاثة أيام عبر طرق جبلية، وفي الأمام يتبع المسافر وادي الأردن، ويتجه دوماً باتجاه الشرق حتى ينابيع الأردن في مكان يصدر فيه هذا النهر عن البحر.

ولقد كان هذا الطريق الذي عبرته بعون الرب أثناء رحلتي، وكان بلدوين أمير القدس وقتها متوجهاً للحرب ضد دمشق، والسير عبر الطريق إلى بحر طبرية، لأنه الطريق الذي يؤدي إلى دمشق، وعندما علمت بأن الأمير سوف يأخذ هذا الطريق، ذهبت إليه، وحييته وقلت له: «أرغب رغبة عظيمة في أن أذهب معكم حتى بحر طبرية لكي أزور الأماكن المقدسة هناك»، وسمح لي الأمير بكل سرور بالذهاب معه وأمرني أن أنضم إلى حاشيته، وسرت شخصياً سروراً عارماً بهذا الأذن، واشترت حيوانات للركوب، وهكذا اجتزنا بدون خوف أو رعب هذه الأماكن الخطرة بصحبة عساكر الأمير، لأنه بدون مرافقة لا يستطيع المرء عبورهم، والقديسة هيلانة وحدها التي استطاعت أن تنجز ذلك.

وبناء عليه إليكم وصف طريق طبرية: المسافة من القدس إلى «بئر العذراء المقدسة» هي عشرة فراسخ، ومن هذا البئر إلى جبال جلبوع (لبّان) مسافة أربعة فراسخ، وعلى هذه الجبال كان مقتل الملك شاؤول وابنه يوناثان، وهي جبال مرتفعة، صخرية، جرداء وعرة وبلاماء، حتى الندى لا ينزل عليها، ومن هذه الجبال إلى «بئر داود» مسافة فرسخين، ومن البئر إلى «كهف داود» أربعة فراسخ، ففي هذا الكهف وضع الرب الملك شاؤول في يدي داود، الذي لم يقتله بل قطع أطراف رداة، وانتزع منه سيفه وأحزمته.

والمسافة من هناك إلى جبال شكيم أربعة فراسخ وكذلك إلى «جب يوسف» (عورتا)، ورعى على هذه الجبال أبناء يعقوب قطعان أبيهم، وإلى هناك جاء يوسف «صاحب الخطوة» ليحمل إلى أخوته تحيات أبيهم

يعقوب ووده وتبريكاته، لكنهم ما أن رأوه حتى انقضوا عليه، وأمسكوه وألقوه في الجب، الذي مازال موجوداً حتى الآن، وهويشكل صهريجاً عميقاً، مبني بشدة بوساطة حجارة كبيرة، وحدث أن أمضيا الليل في هذا المكان، الذي هو ليس ببعيد عن الطريق الرئيسي وقائم إلى اليمين منه.

٧٢— وقالوا: هناك عشرة فراسخ من هنا إلى قرية يعقوب التي تدعى سكر، Sichar (العسكر)، وبئر يعقوب موجود هناك، وهو بئر واسع وعميق، وماؤه بارد وطيب المذاق، وتكلم عند هذا البئر المسيح مع امرأة سامرية، وهناك أمضينا الليلة.

٧٣— السامرة

قرب هذا المكان، وعلى بعد نصف فرسخ منه تقوم مدينة السامرة (شكيم أي نابلس)، وهي واسعة جداً، وفيها وفرة بجميع الأشياء الجيدة، وهي قائمة فيما بين جبلين عاليين جداً، ويجري في البلدة عدد من الينابيع الجيدة ذات الماء البارد، والبلاد خصبة بجميع أنواع أشجار الفواكه مثل: التين، واللوز والخروب، والزيتون، وهي تحيط بالسامرة مثل غابة كثيفة، والحقول المجاورة غنية بجميع أنواع الحبوب، والمنطقة كلها جميلة بشكل مدهش، ونتاجها من الزيتون كبير، وكذلك من النبيذ، والقمح والفواكه، وبكلمة موجزة تجلب مدينة القدس جميع مؤناتها وأطعمتها من هذا المكان، وتدعى بلدة السامرة في هذه الأيام باسم نابلس.

وعلى بعد فرسخين من هذه البلدة، وباتجاه الغرب تقوم سبسطية، وهناك مكان مغلق صغير يحتوي على سجن القديس يوحنا المعمدان، وفيه جرى قطع رأس هذا المبشر بالمسيح بناء على أمر من الملك هيرودس، ومن الممكن رؤية قبره هناك، وأقيم هناك كنيسة حملت اسم المبشر،

وكذلك دير فرنجي غني جداً.

٧٤ — بلدة أرماتيا

تقع بلدة أرماتيا Arimathea (رامة) التي تضم قبري القديس يوسف، والقديس مالايل على بعد أربعة فراسخ، وهي قائمة بين الجبال إلى الغرب من السامرة، وقد بني هناك بناء صغير مغلق، ويوجد فوق قبر يوسف هناك كنيسة ذات سقف خشبي، وهم يدعون هذا المكان باسم أرماتيا، واتجاه الطريق من السامرة إلى بحر طبرية هو نحو الشمال الشرقي.

٧٥ — بلدة بيسان

ومن السامرة إلى بلدة بيسان هناك ثلاثين فرسخاً، وهناك عاش عوج ملك بيسان الذي قتل من قبل يوشع بن نون، قرب أريحا، وهذا مكان مربع جداً وخطير، وينبع من البلدة سبعة أنهر، وعلى أطرافهم شعراء كثيفة، وهناك في هذه البلدة حدائق عظيمة من شجر النخيل، وهذا المكان والحق يقال مربع، ومن الخطورة بمكان المرور به، فهناك يعيش مسلمون أشداء وقساة بأعداد كبيرة، ويستغلون مخاضات الأنهار لمهاجمة المسافرين، ويوجد في هذه الأجزاء الكثير من الأسود، وبيسان ليست بعيدة عن الأردن، ويفصل هذه البلدة عن الأردن عدد كبير من المستنقعات ذات الماء الآسن، وتصب هذه الأنهار في الأردن، وهناك تكثر الأسود، وعلى مقربة من البلدة هناك على الجانب الشرقي كهف عجيب طبيعي له شكل صليب، ومنه ينبع نبع يجري في داخل خزان عجائبي، لم تصنعه الأيدي، بل خلقه الرب، واستحم في هذا الخزان المسيح نفسه مع حواريه، ومن الممكن رؤية الحجر الذي جلس عليه حتى اليوم، واستحمنا نحن المذنبين الذين لانستحق هناك، وإلى بلدة بيسان هذه نفسها جاء اليهود إلى المسيح، جالبين فلساً وسألوه: «هل هو شرعي أن ندفع الجزية أم لا؟» غير أنه سأهم: «رسم من هذا؟ أعط لقيصر

الأشياء التي لقيصر، وإلى الرب الأشياء التي للرب» ثم توجه بالخطاب إلى بطرس، وقال المسيح له: «امض وألق بخيظك بالبحر، وافتح أول سمكة تسحبها من الماء، فستجد هناك قطعة نقد ذات أربعة دراهم، فادفعها لهم غني وعنك»، وشفى المسيح قرب بيسان الرجل الأعمى الذي تبعه وسأله أن يشفيه.

٧٦ - نهر الأردن

ومن بيسان إلى منابع الأردن وبيت تعشير متى هناك عشرين فرسخاً، وتتجه دوماً نحو الشرق، ويعبر الطريق سهولاً على طرف الأردن، الذي ماؤه حلو المذاق ونقي حتى منابعه، وينبع الأردن من بحر طبرية على شكل نهريْن، يتدفقان بشكل رائع، ويدعى أحد هذين النهريْن «أر» والآخر «دن» وهكذا يصدر الأردن عن بحر طبرية على شكل نهريْن، يبتعد أحدهما عن الآخر ثلاث رميات سهم، وبعد مسيرهما منفصلين لحوالي النصف فرسخ، يعاودان الاتحاد بمثابة نهر واحد، يدعى نهر الأردن، وذلك من اسمي الفرعين، وجريان نهر الأردن سريع جداً وقوي، والماء نقي جداً، وهو يشبه كثيراً نهر سنوف في عرضه وعمقه ومستنقعات مائه الآسن، والأسماك عند نبعه كثيرة، وهناك جسرَيْن من الحجارة بنيا بشكل شديد فوق قناطر، يمر من خلالها الماء ويتدفق، ويمتدان فوق الفرعين.

٧٧ - بيت تعشير متى

وكان بيت تعشير متى حواري المسيح قريب من هذين الجسرين، لأن جميع الطرق التي تتجه إلى دمشق وبلاد الرافدين تلتقي هناك، وتغدى الأمير بلدوين مع عساكره قرب هذين الجسرين، وعسكرنا أيضاً معه قرب منابع الأردن واستحممنا في بحر طبرية، ثم ارتحلنا بعد ذلك وسرنا على طول شواطئ ذلك البحر دونما خوف من أي خطر، وزرنا جميع

الأماكن المقدسة التي داسها المسيح ربنا بقدميه، وواحد مذهب مثلي، سمح له الرب بالمرور خلال جميع بلاد الجليل ورؤيتها، وهو أمر لم أتجرأ أن أمل به، وتجولت قدماي المذنبتان فوق جميع الأراضي المقدسة التي تشوقت كثيراً لرؤيتها، ووصفت هذه الأماكن المقدسة بأمانة وصدق، وبدون كذب، فقط كما رأيتهم. ولم يستطع عدد كبير ممن زاروا هذه الأماكن تفحصهم والتعرف إليهم بشكل دقيق، وروى آخرون لم يصلوا إلى هذه الأماكن المقدسة، أكاذيب وحكايات مخترعة، وبالنسبة لي أنا المذنب، منحني الرب التعرف إلى رجل تقي متقدم بالسن، وواسع المعرفة كثيراً، وتقي، وأمضى ثلاثين سنة في الجليل، وعشرين سنة في دير القديس سابا، وقدم هذا الرجل جميع الأوصاف الموجودة في الضريح المقدس، فكيف لي، أنا المذنب، أن أقدم الشكر بما فيه الكفاية للنعمة التي أبدت نحوي.

وبقينا طيلة ذلك اليوم قرب الجسر، وعند المساء، عبر الأمير بلدوين مع عساكره الأردن وزحف نحو دمشق، في حين ذهبنا نحن إلى بلدة طبرية، حيث مكثنا لمدة عشرة أيام حتى عاد الأمير من حملته إلى دمشق، وزرنا خلال هذه المدة جميع الأماكن المقدسة القائمة على شاطئ بحر طبرية.

٧٨ - بحر طبرية

يمكن للإنسان أن يجوز حول بحر طبرية وكأنه بحيرة، والماء حلو المذاق كثيراً، ولا يمكن للإنسان مطلقاً أن يشرب كثيراً منه، وطول هذا البحر خمسين فرسخاً، وعرضه عشرين، وهو مليء بالأسماك، ويحتوي بشكل خاص على سمك مثل الشبوط، مما كان المسيح مغرم به كثيراً، والذي هو متفوق على جميع أنواع الأسماك بطعمه، وقد أكلت أنا نفسي منه مراراً خلال اقامتي في البلدة، وهو نوع السمك نفسه الذي أكل المسيح منه بعد قيامته، عندما جاء إلى حواربيه وهم يصطادون السمك

وقال لهم: «أيها الأولاد أليس لديكم مانأكله؟» وأجابوه «كلا»، فقال لهم: «أرموا الشباك على الجانب الأيمن»، (يوحنا: ٢١ / ٥ - ٦).

٧٩ - منابع الأردن

يوجد من منابع الأردن والجسرين إلى المكان الذي استحم فيه المسيح، والذي استحمت فيه العذراء المقدسة، والذي استحم فيه الحواريون، ستة فراسخ، ومن أماكن الاستحمام المقدسة هذه إلى بلدة طبرية فرسخ واحد، وبلدة طبرية واسعة جداً، طولها فرسخان وعرضها فرسخ واحد، وقائمة على شاطئ البحر، وصنع ربنا المسيح هناك عدداً من المعجزات، ويرون في وسط البلدة المكان الذي شفى فيه المجذوم، وهناك أيضاً كان بيت حماة بطرس، وقد دخله يسوع وشفاهها من الحمى المستمرة، وقد بنوا هناك كنيسة مستديرة كرسوها للرسول بطرس، وهناك أيضاً بيت سمعان المجذوم، والمكان الذي غسلت فيه المحظية قدمي ربنا يسوع المسيح الطاهرتين بدموعها، وجففتها بشعرها، وبذلك تلقت الغفران لذنوبها الكثيرة، وفي هذه البلدة بالذات شفى المرأة المقعدة، وهناك حدثت معجزة قائد المائة، وهنا أيضاً أنزلوا الرجل المريض من خلال السقف المحطم، وهنا كان محسناً إلى المرأة الكنعانية، وينبع نبع بارد جداً، ماؤه نقي، ويخرج من كهف تراجع إليه المسيح عندما رغبوا في جعله ملكاً للجليل، وقام بمعجزات أخرى كثيرة في هذه البلدة، وفي هذه البلدة نفسها ضريح النبي إلياس بن يهوشافاط، ويوجد أيضاً قرب الطريق ضريح يوشع بن نون، وهناك على مقربة من البحر، باتجاه الشرق، وعلى رمية سهم من البلدة، صخرة كبيرة وقف عليها المسيح، عندما علم الناس، عندما بادروا إليه مسرعين من شواطئ صور وصيدا، ومن المدن العشرة، ومن الجليل، وأرسل من هناك الناس إلى حواربيه الذين عبروا في قارب إلى الجانب المقابل، بينما بقي يسوع، ومشى بعد ذلك على وجه الماء وكأنه يسير على الأرض، ووصل إلى الناس على

الشاطئ المقابل قبلهم، وعندما وصل هؤلاء ووجدوا يسوع هناك قالوا له: «أيها المعلم متى وصلت؟»، فأجابهم: «هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع»، (متى: ١٩/٢٦)، ويوجد عشرة فراسخ عبر البحر من هذا المكان إلى طبرية، فهناك بقعة من الأرض مرتفعة تبعد فرسخاً عن البحر.

٨٠ — المكان الذي أشبع المسيح فيه خمسة آلاف رجل

وهذا المكان قائم في سهل مغطى بالعشب: هناك أشبع المسيح خمسة آلاف رجل، دون عدد النساء والأطفال، أشبعهم بخمسة أرغفة، وعبوة اثنتي عشرة سلة من الكسر.

٨١ — المكان الذي ظهر المسيح فيه لحواريه للمرة الثالثة بعد قيامته

ليس بعيداً عن شاطئ بحر طبرية، عند سفح جبل، يقع المكان الذي ظهر فيه المسيح لحواريه للمرة الثالثة بعد قيامته، ووقف إلى جانب البحر، وقال لهم: «أيها الأولاد هل لديكم مانأكله» وأجابوه: «لا» فقال لهم: «ارموا الشبكة على الجانب الأيمن كما أخبركم، ولسوف تجدون»، (يوحنا: ٢١/٥ — ٦).

ورموا وكانوا الآن غير قادرين على سحبها لما فيها من أعداد هائلة من الأسماك، وعندما جلبوها إلى اليايسة وجدوا مائة وثلاث وخمسين سمكة، ورأوا قرب الشبكة خبزاً وناراً وسمكاً مشوياً، وأكل المسيح الوجبة، وأعطاهم ما تبقى، ويوجد هناك كنيسة مكرسة في هذا المكان على اسم الرسل المقدسين، وعلى مقربة من هناك بيت مريم المجدلية المقدسة، التي استخرج منها يسوع سبعة شياطين، ويدعى هذا المكان المجدل.

٨٢ — بلدة بيت صيدا

ويوجد في الجبال على بعد قليل، مدينة بيت صيدا، وهي مدينة أندرو

وبطرس، وهي أيضاً المكان الذي جلب فيه ناثان ايل إلى بطرس وأندرو.
٨٣ — المكان الذي جاء إليه المسيح متجهاً نحو حواريه الذين كانوا
يصطادون السمك

ويوجد على شاطئ البحر مكان اتجه منه المسيح نحو أندرو وبطرس
ولدي زبداي، اللذان سحباً شبكتهما وجمعاهما، وهناك لاحظا يسوع فتركا
قاربهما وشبكتهما وتبعاه، وكانت قرية زبداي، والد يوحنا ملاصقة
للبحر، وكذلك بيت القديس يوحنا الانجيلي، وهناك طرد المسيح فرقة
من الشياطين من انسان، وأمرهم أن يدخلوا داخل قطع من الأوز
أغرقوا أنفسهم في البحر.

وتقوم قرية كفرناحوم على مسافة قصيرة من هناك، ويجري على مقربة
نهر كبير يصدر من بحيرة جنسار (الحولة)، ويصب في بحر طبرية،
وبحيرة الحولة واسعة جداً هي أربعين فرسخاً في الطول والعرض، وعلى
مقربة من هذه البحيرة بلدة اسمها الحولة، وهي السبب في أن البحيرة
تدعى الحولة.

٨٤ — بلدة ديكابولس

وهناك بلدة أخرى هناك، تحمل اسم ديكابولس (الأسقفيات العشر)،
وعلى مقربة من البحيرة مكان وعظ فيه يسوع الناس الذين جاءوا إليه
من الأسقفيات العشر، ومن شاطئ صور وصيدا، وأتى الانجيل على ذكر
هذه البقعة، وصنع يسوع قرب البحيرة عدداً كبيراً من المعجزات
الأخرى.

٨٥ — جبل لبنان

وعلى الطرف الآخر من البحيرة، باتجاه الشمال الشرقي، هناك جبل
واسع ومرتفع قمته مغطاة بالثلج حتى أثناء الصيف: إنه يدعى لبنان.

وهو ينتج بخور لبنان والراتنج الأبيض، وينبع من هذا الجبل، جبل لبنان اثني عشر نهراً واسعاً، يسير ستة منها باتجاه الشرق وستة باتجاه الجنوب، وتصب الستة الأخيرة في بحيرة الحولة، وتتجه الستة الأخيرة باتجاه انطاكية الكبرى، وتدعى هذه البلاد بلاد الرافدين، أي البلاد القائمة بين النهرين، وحران التي خرج منها إبراهيم، واقعة فيما بين هذين النهرين، وتغذي هذه الأنهار بحيرة طبرية بشكل واسع، فمنها يصدر ذلك النهر الواسع الذي يصب في بحر طبرية، ويزيد من حجم ماء البحيرة التي — كما قلت أعلاه — يصدر منها نهر الأردن.

ولم أستطع الوصول إلى جبل لبنان خوفاً من الكفار، لكنني كنت فكرة جيدة عنه من خلال أدلائي المسيحيين الذين عاشوا هناك، ولم يسمحوا لي بالذهاب إلى هناك، لأن عدداً كبيراً من الكفار يسكنون في ذلك الجبل، ورأيناه فقط، ورأينا أحواز بحيرة الحولة عن بعد، ويوجد بين بحر طبرية وبحيرة الحولة، فرسخان، وتقع الحولة إلى الشمال الشرقي من بلدة طبرية.

١٦ — جبل الطور

يقع جبل الطور والناصرة إلى الغرب من بحر طبرية، وهناك ثمانية فراسخ واسعة إلى جبل الطور، وماعلى الانسان سوى أن يعلو ظهر أحد الجبال ويتسلق آخر ارتفاعه خفيف، ويعبر بقية الطريق السهل وصولاً حتى الطور، وجبل الطور عمل رائع من أعمال الله، لا يستطيع الانسان أن يصفه فهو جميل جداً، ومرتفع كثيراً، وعظيم للغاية، وله شكل كومة قش، ويرتفع بشكل جليل في وسط سهل رائع، وهو منفصل عن بقية الجبال الأخرى، ويجري نهر في السهل عند سفحه، وتنمو على سفوحه جميع أنواع الأشجار: زيتون، وتين، وأشجار الخروب بأعداد كبيرة، وهو أعلى من جميع الجبال الأخرى من حوله، وهو منفصل تماماً عنها، ومساحته معتبرة، وهو يقف بشكل جليل في وسط سهل مسكون،

ومستدير بعناية مثل كومة قش، ويساوي ارتفاعه من القمة إلى الأسفل أربع رميات سهم، وأكثر من ثمان رميات من القاعدة حتى القمة، وهو وعر وهذا يجعل تسلقه منهك وصعب، وينبغي تسلقه بشكل حلزوني على طريق وعر جداً، فقد بدأنا بتسلقه في الساعة الثالثة من النهار، وتسلقنا بكل نشاط، وبصعوبة وصلنا إلى قمة هذا الجبل المقدس في الساعة التاسعة، وفي أعلى نقطة منه، نحو الجنوب الشرقي، هناك بقعة مرتفعة مثل رابية صخرية، أخذت شكل قمة مخروطية، وهذا هو مكان تغيير هيئة المسيح، ربنا، وتجليه على الجبل، ويوجد هناك في الوقت الحالي كنيسة جميلة مكرسة للتجلي، وكنيسة أخرى إلى جانبها باتجاه الشمال، وهي مكرسة للنبيين المقدسين: موسى وإلياس.

٨٧- المكان الذي تغيرت فيه هيئة المسيح

يحيط بمكان تجلي المسيح وتغيير هيئته أسوار حجرية متينة مع بوابات معدنية، وكانت المنطقة من قبل مقر أسقفية، وهي الآن مقر دير لاتيني، ووفرت ذروة الجبل مكاناً منبسطاً جيداً، لكنه صغير قائم أمام هذا الموقع المغلق، وإنه والحق يقال لنعمة عظيمة من الرب أن وفرة من الماء يمكن وجودها على هذا الارتفاع، كما أن الجبل كله مغطى بحقول جميلة مع أعداد كبيرة جداً من أشجار الفواكه، والمنظر من القمة واسع جداً وفسيح.

٨٨- كهف ملكيصادق

ويجعلونك ترى على جبل الطور موضع منبسط، عنده كهف غير اعتيادي قد في الصخر، مثل قبوله نافذة صغيرة في سقفه، وفي قعر الكهف وباتجاه الشرق هناك مذبح، وباب الكهف صغير جداً، وتنزل إليه بوساطة درجات من الجهة الغربية، وتنبت أمام المدخل شجرات تين صغيرة، وهناك من حولهن أنواع أخرى من الأشجار، وكان هنا فيما

مضى غابة واسعة، لكن الموجود الآن شجيرات صغيرة فقط، وسكن ملكيصادق المقدس في هذا الكهف الصغير، وهناك زاره ابراهيم ودعاه ثلاث مرات قائلاً: «رجل الرب» فخرج ملكيصادق حاملاً خبزاً ونبيداً، وبنى مذبحاً في الكهف، وقدم قرباناً من الخبز والنبيد حمله الرب إلى السموات، وهناك بارك ملكيصادق إبراهيم، الذي تولى قطع أظافره وقص شعره، لأن ملكيصادق كان كثيف الشعر، ومن هنا جاءت بداية القداس مع الخبز والنبيد عوضاً عن الخبز الفطير، حسبما قال النبي: «أنت كاهن دوماً بناء على أمر ملكيصادق» (المزمور: ١٠٩ / ٤).

ويقع هذا الكهف على رمية سهم جيدة إلى الغرب من المكان الذي تغيرت فيه هيئة المسيح، وأبدوا نحونا في دير التجلي المقدس كثيراً من الاحترام، وبعدها استرحنا هناك وتغدينا زرنا كنيسة التجلي المقدس، وتعبدنا المكان المقدس حيث تغيرت هيئة ربنا المسيح، وبعد ما قبلناه بحب وسرور كبير، وبعدها تلقينا التبريكات من راعي الدير ومن جميع الرهبان، غادرنا الدير المقدس، وقمنا برحلة زرنا فيها جميع الأماكن المقدسة في ذلك الجبل المقدس، ويمر الطريق المؤدي إلى الناصرة، والقائم إلى الغرب من جبل الطور، من أمام كهف ملكيصادق، وللمرة الثانية زرنا تائبين الكهف المقدس، وانحنينا بأنفسنا أمام المذبح المقدس الذي شيد من قبل ملكيصادق وإبراهيم، وهذا المذبح موجود في هذا الكهف حتى هذا اليوم، وغالباً ما جاء ملكيصادق المقدس إلى هناك للقيام بالقداس، وأكد هذه الحقيقة لي جميع المؤمنين الذين يعيشون فوق هذا الجبل والذين يعبدون (المغارة)، ووقتها حمدنا الرب الذي سمح لنا نحن المذنبين والذين لانستحق، برؤية هذه الأماكن المقدسة، وأن نقبلهم بشفاهنا المذنبية، ونزلنا بعد ذلك من جبل الطور إلى السهل، وارتحلنا لمسافة فرسخين نحو الغرب باتجاه الناصرة.

ومن جبل الطور إلى الناصرة هناك خمسة فراسخ، فرسخان عبر السهل

وثلاثة عبر الجبل، حيث الطريق منهك، فهو ضيق ووعر جداً، واعتاد المسلمون غير الأتقياء، الذين توزعت قراهم فوق الجبال والسهل، على الخروج من مواطنهم وقتل الرحالة فوق هذه المرتفعات الصعبة، ومن الخطر الجواز من هناك من دون مرافقة جيدة، الأمر الذي لم يتوفر لنا هذه المرة، لأننا كنا ثمانية أفراد فقط بدون سلاح، لكن وقد وضعنا ثقتنا بالرب، فقد حمانا برحمته، وأعاننا بصلوات سيدتنا العذراء المقدسة، فوصلنا سالمين معافيين إلى مدينة الناصرة المقدسة، حيث تمّ بوساطة تدخل الملاك جبرائيل الإعلان لسيدتنا العذراء المقدسة، وحيث تربى يسوع ونشأ.

٨٩ — بلدة الناصرة

الناصرة بلدة صغيرة قائمة في واد في قلب الجبال، ويمكن رؤيتها فقط عندما يصبح الانسان فوقها، وترتفع في وسط البلدة كنيسة واسعة وعالية، فيها ثلاثة مذابح، ولدى دخولك لها تجد على الجانب الأيسر، أمام مذبح صغير كهف صغير لكن عميق وله باين صغيرين، واحد في الشرق والآخر في الغرب، ومن خلالهما يمكن الدخول إلى المغارة والوصول إليها، وإذا مادخل الانسان من الباب الغربي، يجد على الجانب الأيمن حجرة، لها مدخل ضيق، فيها عاشت العذراء المقدسة مع المسيح، ولقد نشأ وتربى في هذه الحجرة المقدسة، التي تحتوي أيضاً على الفراش الذي تمدد عليه يسوع، وهو منخفض كثيراً إلى درجة بدا فيها وكأنه على سوية الأرض.

٩٠ — ضريح يوسف خطيب العذراء

لدى الدخول إلى الكهف نفسه بوساطة الباب الغربي، يجد المرء على يساره ضريح يوسف قرين مريم، الذي أدخل إلى هناك باليدين المقدستين للمسيح، وتتساقط نقاط من الماء الأبيض، مثل زيت مقدس،

من الجدار، قرب هذا الضريح، ويجمعها الناس من أجل معالجة المرضى.

٩١-الكهف حيث جلست العذراء المقدسة

في الكهف نفسه، قرب الباب الغربي، يوجد المكان الذي جلست عليه مريم العذراء المقدسة تغزل لونا أرجوانيا، أي تصنع خيطاً أرجوانيا، وعندها مثل أمامها رئيس الملائكة جبرائيل مرسلاً من قبل الرب.

٩٢-المكان الذي أعلن فيه رئيس الملائكة الأخبار الطيبة الى العذراء

المقدسة

لقد ظهر أمام ناظرها بعيداً قليلاً عن المكان الذي كانت العذراء المقدسة جالسة عليه، وهناك من الباب الى المكان الذي وقف عليه جبرائيل ثلاثة سغنس، وأقيم فوق هذا المكان مذبح صغير مستدير على عمود، وتقام هنا القداسات.

٩٣-بيت يوسف خطيب العذراء

كان المكان الذي يحتله الكهف المقدس، بيت يوسف، وكل شيء حدث في ذلك البيت، وفوق الكهف هناك كنيسة مكرسة للإعلان، وكان هذا المكان قد هدم من قبل، وتولى الفرنجة إعادة البناء بعناية فائقة، ويعيش هنا أسقف لاتيني غني جداً، والمكان المقدس تحت إشرافه وحكمه، وقد استقبلنا بحفاوة، وقدم لنا لحماً وشراباً وأمضينا الليل في هذه البلدة، ونمنا جيداً، ونهضنا في الصباح التالي، فذهبنا الى الكنيسة لتقديم الاحترام للمعبد، ودخلنا الى الكهف وتعبنا الأماكن المقدسة فيه، ثم غادرنا بعد ذلك البلدة، وتوجهنا باتجاه الشمال الشرقي فوصلنا الى بئر عميق جداً، فيه ماء كثير البرودة، وينزل الانسان اليه بوساطة عدة درجات، وهذا البئر مغطى بكنيسة مستديرة مكرسة لرئيس الملائكة جبرائيل.

٩٤-بئر الإعلان الأول

هناك رمية سهم جيدة من بلدة الناصرة الى هذا البئر المقدس فقرب هذا البئر تلقت العذراء المقدسة الاعلان الأول من رئيس الملائكة، وكانت قد جاءت لتنضح الماء، وعندما ملأت ابريقها، سمع صوت الملاك غير المرئي قائلاً: «أحييك، أيتها المليئة بالنعمة، الرب معك»، ونظرت مريم من حولها، ولم تر أحداً، لكنها سمعت الصوت فقط، فتناولت الإبريق وعادت مندهشة قائلة لنفسها: «مامعنى هذا الصوت الذي سمعته دون أن أرى أحداً؟»، وبعد عودتها الى بيتها في الناصرة جلست على البقعة المتقدم ذكرها، وأخذت تغزل خيوط الأرجوان، ووقتها ظهر رئيس الملائة جبرائيل إليها، ووقف على المكان المذكور أعلاه، وأعلن لها عن ميلاد المسيح، وقالوا هناك خمسة فراسخ من الناصرة الى قرية ايساو Esau (مشهد ما بين الناصرة وكفر كنا)

٩٥- قانا الجليل

والمسافة من هذه القرية الى قانا في الجليل هي فرسخ واحد ونصف الفرسخ، وقانا في الجليل قائمة على الطريق الرئيسي، فهناك غير المسيح الماء الى نبيذ، وواجهنا هناك قافلة كبيرة كانت ذاهبة الى عكا، وبسرور التحقنا بها، وتوجهنا الى عكا، التي كانت بالعادة بلدة إسلامية، لكنها الآن في حوذة الفرنجة، وهي مدينة محصنة على شاطئ «البحر الكبير»، ولها ميناء جيد: والبلدة مزودة بشكل جيد بكل شيء، وتقع عكا الى الجنوب من الناصرة، والمسافة منها إليها ثمانية وعشرين فرسخاً واسعاً.

وبقينا أربعة أيام في عكا، وبعدما استرحنا بشكل جيد، وجدنا قافلة كبيرة متوجهة الى مدينة القدس المقدسة، فانضممنا إليها بأنفسنا، وسافرنا معاً بكثير من السرور، ووصلنا الى حيفا، ومن هناك زرنا جبل الكرمل، وعلى ذلك الجبل كهف القديس إلياس، النبي المقدس، وتعبدنا فيه، ثم سافرنا الى كفرناحوم، وذهبنا من بلدة كفرناحوم الى قيسارية فيليب (اقرأ: فلسطين)، وسائر الطريق شاطئ البحر العظيم، أحياناً فوق

السهل، وأحياناً فوق الرمال وصولاً حتى قيسارية، وأمضينا ثلاثة أيام في تلك البلدة التي عمّد فيها بطرس الرسول كورنيليوس Corelius الذي عاش فيها.

وتوجهنا من قيسارية باتجاه اليسار لنزور السامرة، والمسافة فيما بين البلدين هي عشرين فرسخاً، ووصلنا في اليوم التالي، في حوالي منتصف النهار الى السامرة، وذلك أننا سرنا ببطيء بسبب الحر الذي أزعج كثيراً المسافرين على أقدامهم أثناء سيرهم، وأمضينا الليل أمام بلدة السامرة قرب بئر يعقوب، حيث تحدث المسيح مع امرأة سامرية.

٩٦-القدس

وعندما استيقظنا التحقنا مجدداً بالطريق الذي جئنا عليه من القدس، ووصلنا أخيراً الى المدينة المقدسة سعداء، وفي سرور عارم، وسمح لنا الرب بالقيام بهذه الرحلة دونما أي ضرر، ومنحنا بالوقت نفسه فضل أن نرى بأعيننا جميع الأماكن المقدسة التي زارها المسيح ربنا من أجل خلاصنا، وسمح لنا نحن المذنبين أن نلقي نظرة على هذه الأماكن المقدسة، والترحال على أرض الجليل الرائعة وفي جميع فلسطين، ورحلنا في جميع أرجاء فلسطين بحماية من الفضل الرباني وحراسة من صلوات العذراء المقدسة دون أن يلحقنا أذى، واسم فلسطين تعرف به جميع المنطقة الواقعة حول القدس، وبتأييد من عون الرب زرنا جميع هذه الأماكن دون أن نواجه الكفار أو الحيوانات الضارية، ولم يلحق بنا أي شر، ولم أعان من أي مرض البته، بل كنت مثل نسر يحلق عالياً، وشعرت بنفسني أنني مؤيد من قبل النعمة الربانية، ومدعوم بقوة الأعظم علواً، وإذا كنت سأتفاخر بأي شيء فبعون المسيح، وبضعفي كما يقول الرسول: «صارت قوتي كاملة بضعفي» (أخبار الأيام الثاني: ١٢/٩)، كيف لي أن أنوه يامولاي بما فعلته لأجلي أنا المذنب البائس، بالسماح لي بزيارة هذه الأماكن المقدسة ورؤيتها، وهكذا تمكنت بعون الرب من تنفيذ كل

مارغبته بقلبي، وبتفحص جميع الأماكن الذي سمح لي برؤيتها، أنا عبده المسكين الذي لأستحق.

سامحوني يا أخواني، ويا آبائي ويا سادي، ولا تزدروا الجهل الذي قادني الى وصف الأماكن المقدسة في القدس وفي أرض الميعاد بكلمات بسيطة ، وبدون براعة أدبية ، وإذا لم أكن قد كتبت وفق طرائق العلماء، على الأقل ليس هناك كذب ، وأنا لم أصف شيئاً لم أراه بعيني نفسي .

٩٧- النور المقدس وكيفية نزوله على الضريح المقدس

فيما يلي وصف للنور المقدس الذي ينزل على الضريح المقدس ، حيث تطفئ الرب فأراه لي أنا عبده السيء والذي لا يستحق، لأنني رأيت بكل صدق بعيني المذنبين كيفية نزول النور المقدس على الضريح المخلص لربنا يسوع المسيح ، وخطأ وصف العديد من الحجاج تفاصيل نزول ذلك النور المقدس ، فبعضهم قال بأن روح القدس ينزل على الضريح المقدس على شكل حمامة ، وقال آخرون بأن البرق من السماء هو الذي يشعل المصابيح فوق ضريح الرب ، وهذا غير صحيح لأنه لا يرى في تلك اللحظة لا حمامة ولا برق ، بل تهبط النعمة الربانية غير مرئية من السماء وتضيء مصابيح ضريح ربنا وأنا سوف أصف فقط بشكل كامل من الصدق ما رأيته ، ففي يوم الجمعة ، بعد العشاء ، نظفوا الضريح المقدس ، وغسلوا جميع المصابيح الموجودة هناك ، وملأوا المصابيح بزيت صاف بدون ماء ، وبعدما وضعوا الفتائل، تركوا المصابيح بدون إشعال ، وثبتوا الأختام إلى الضريح في الساعة الثانية من الليل، وأطفأوا بالوقت نفسه جميع المصابيح وحوامل الشموع في كل كنيسة من كنائس القدس وفي يوم الجمعة نفسه ، دخلت أنا الذي لأستحق في الساعة الأولى من النهار

إلى حضرة الأمير بلدوين ، وانحنيت أمامه حتى الأرض ، ولدى رؤيته لي وقد انحنيت، أمرني بطريقة صديقة بالاقتراب منه وقال : « ما الذي تريده أيها الراهب الروسي » ؟ ذلك أنه عرفني وأعجب بي ، لأنه كان رجلاً لطيفاً جداً ، ومتواضعاً ، وليس متكبراً ، وقلت له : « يا أميري ويا مولاي ، اسمح لي من أجل محبة الرب ، وتقديراً لأمرأى روسيا ، في أن أضع مصباحي على الضريح المقدس باسم جميع بلاد روسيا ، » ثم إنه بلطف خاص ورعاية أعطاني الأذن في أضع مصباحي على ضريح الرب ، وبعث بواحد من أعيان حاشيته معي الى المسؤول عن حفظ القيامة ، والى حافظ مفاتيح الضريح المقدس .

وطلب مني المسؤول عن القيامة مع حافظ المفاتيح أن أجلب مصباحي مليئاً بالزيت ، وشكرتها وبادرت مسرعةً ببهجة عارمة فاشتريت مصباحاً كبيراً جداً من الزجاج ، وبعدها ملأته بالزيت الصافي ، حملته قبيل المساء الى الضريح المقدس ، وقد وجهت الى حافظ المفاتيح المتقدم الذكر ، الذي كان لوحده في مزار الضريح ، وبعدها فتح لي الباب المقدس ، أمرني بخلع حذائي ثم سمح لي بالدخول الى الضريح المقدس وأنا حافي القدمين ومعني المصباح الذي حملته ، ووجهني لوضعه فوق ضريح الرب ، وقد وضعته بيدي الخاطئتين على البقعة التي تشغلها القدمان المقدسان لربنا يسوع المسيح ، وكانت المصابيح الاغريقية موضوعة حيث رقد الرأس ، ووضعت المصابيح العائدة لدير القديس سابا ولجميع الديرية ، فوق مكان الصدر لأن العادة جرت أن يضع الاغريق وكذلك دير القديس سابا مصابيحهم هناك كل عام ، وبفضل من الرب اشتعلت هذه المصابيح الثلاثة في تلك المناسبة ، لكن المصابيح العائدة للفرنجة ، والمعلقة فوق الضريح لم تتلق النور ، وكنت بعدما وضعت مصباحي فوق الضريح المقدس وبعدها تعبدت وقبلت بدموع التوبة والتقوى المكان المقدس الذي تمدد عليه

جسد ربنا يسوع المسيح، بعد هذا كله تركت الضريح المقدس مليئاً بالبهجة، وعدت الى حجرة خلوتي.

واحتشد الجميع في اليوم التالي، وهو يوم السبت المقدس، في الساعة السادسة من النهار، أمام كنيسة القيامة المقدسة، وتجمهر الأجانب والمحليون من جميع البلدان: من القاهرة ومن انطاكية، ومن كل جزء من أجزاء العالم، واجتمعوا في ذلك اليوم في أعداد لا تحصى، وملأت الحشود المكان المفتوح حول الكنيسة وحول مكان الصليب، وكان الضغط مرعباً، والجيشان عظيمًا الى درجة ان عددا كبيرا من الاشخاص اختنقوا في وسط ازدحام الناس الذين وقفوا وبأيديهم مشاعل غير مشتعلة، ينتظرون فتح أبواب الكنيسة، وكان الكهنة لوحدهم في داخل الكنيسة، وانتظر الكهنة وكذلك الحشود، وصول الأمير مع حاشيته، وما أن فتحت الابواب حتى اندفع الناس يدفعون بعضهم بعضا ويصطدمون بالمناكب، وملأوا الكنيسة والشرفات، ذلك ان الكنيسة لم يكن بإمكانها استيعاب مثل هذه الحشود، واضطر جزء كبير من الناس الى البقاء في الخارج حول الجلجلة ومكان الجمجمة، وامتدادا حتى البقعة التي اقيمت فوقها الصلبان، وامتلا كل مكان بحشد لا يعد ولا يحصى، وصرخ الناس في داخل الكنيسة وفي خارجها بدون توقف مردين <<Kyrie eleison>> «ارحمنا يارب»، وكان الصراخ عاليا الى درجة ان المبنى كله ردد الاصوات وتنفس بها، وبكى المؤمنون وسكبوا دموعا كثيرة، حتى الذي امتلك قلبا من حجر ما كان بإمكانه التمتع عن البكاء، وكان كل واحد يبحث في اعماق نفسه، ويفكر بذنوبه ويقول بشكل سري في قرارة نفسه: « هل ستمنع ذنوبي نزول النور المقدس؟ » وبقي المؤمنون هكذا ينوحون بقلوب مثقلة، وبدا الأمير بلدوين نفسه نادما ومتواضعا جدا، يذرف سيلا من الدموع من عينيه، ووقفت حاشيته من حوله واجهة قرب المذبح العالي، مقابل الضريح.

ففي حوالي الساعة السابعة من يوم السبت غادر الأمير بلدوين بيته، وسار على قدميه نحو ضريح ربنا، وبعث إلى نزل القديس سابا من أجل راعي دير القديس سابا ورهبانه، وبناء عليه انطلق راعي الدير يتبعه الرهبان وسار نحو الضريح المقدس، وذهبت أنا غير الجدير معهم، وعندما وصلنا إلى الأمير حينئذ جميعاً، ورد علينا التحية ووجه راعي الدير وأنا العبد الحقير، لنمشي إلى جانبه، في حين مضى رعاة الديرة الآخرون والرهبان أمامه، وسارت الحاشية من ورائه، وهكذا وصلنا إلى الباب الغربي لكنيسة القيامة، لكن الازدحام الشديد أعاقنا ولم نستطع الدخول، وبناء عليه أمر الأمير بلدوين عساكره بتفريق الحشود وفتح طريق لنا، ونفذوا هذا وفتحوا الزقاق إلى الضريح، وبهذه الوسيلة تمكنا من الجواز من خلال الحشد، ووصلنا إلى الباب الشرقي للضريح المقدس العائد لربنا، واتخذ الأمير مكاناً له إلى اليمين قرب درابزون المذبح العالي، أمام الباب الشرقي للمذبح، ففي هذه البقعة هناك مكان مرتفع مخصص للأمير، وأمر الأمير راعي دير القديس سابا أن يتخذ موقعا له خلف الضريح ومعه رهبانه والكهنة الأرثوذكس، أما بالنسبة لي، أنا الإنسان الوحيد، فقد وجهني لأجلس نفسي أبعد قليلاً، فيما وراء أبواب الضريح المقدس، أمام المذبح العالي، حتى أستطيع أن أرى من خلال الأبواب الضريح، وكانت هذه الأبواب التي عددها ثلاثة، مغلقة ومختومة بالخاتم الملكي، ووقف الكهنة اللاتين إلى جانب المذبح العالي.

وفي الساعة الثامنة بدأ الكهنة الأرثوذكس، الذين كانوا وراء الضريح المقدس بإنشاد تراتيل قداس العشاء، ومعهم رجال الدين، والرهبان، والنساك، وشرع اللاتين الواقفين إلى جانب المذبح العالي يتمتمون مثلهم ويرددون بعدهم، وبينما كان الجميع يغنون على هذه الصورة بقيت في مكاني صارفاً انتباهي نحو مراقبة أبواب الضريح، وعندما بدأوا يقرأون الـ <<paroemia>> (نص مقدس خاص بالأرثوذكس يقرأ

عادة عشية الفصح) لأجل السبت المقدس، وفي أثناء قراءة المقطع الأول، ترك الأسقف يتبعه الشماس المذبح العالي، وذهبا نحو أبواب الضريح، ونظرا من خلال الكوة، وعندما لم يريا الضوء عادا، وعندما شرعوا بقراءة المقطع السادس من الـ **<<paroemia>>** ، عاد الأسقف نفسه الى باب الضريح المقدس، لكنه لم يرتغيرا، وبدأ الناس جميعا ييكون ويصرخون **<<Kyrie eleison>>** ، التي معناها «ارحمنا يارب» وفي نهاية الساعة التاسعة، عندما بدأوا يترنمون بقطعة من أغنية الخروج، جاءت سحابة صغيرة فجأة من الشرق، ووقفت فوق القبة المفتوحة للكنيسة، وتساقط مطر لطيف فوق الضريح المقدس وبللنا مع الذين وقفوا وراء الضريح، وفي هذه اللحظة أضاء النور المقدس الضريح المقدس، الذي أشع بنور باهر، وضياء رائع، وعندها فتح الأسقف الذي تبعه أربعة شماسه أبواب الضريح، ودخله ومعه شمعدان الأمير بلدوين ليشعله أولا من قبل النور المقدس، ثم عاد بعد ذلك الى الأمير الذي غير مكانه، وأمسك الشمعدان بيديه وهو مسرور غاية السرور، وأشعلنا شمعداناتنا من شمعدان الأمير، وأمرنا الشعلة الى كل انسان في الكنيسة.

ولا يشبه هذا النور المقدس اللهب العادي، لأنه يحترق بطريقة عجيبة رائعة، ويعطي ضياء لا يمكن وصفه، ولونا أحمر يشبه لون الزنجفر «كبريتيد الزئبق»، ومكث الناس جميعا واقفين، وبأيديهم الشمعدانات المشتعلة، وهم يرددون بصوت مرتفع وبسرور عارم: «لقد رحمنا الرب» ولا يمكن لانسان أن يشعر بسرور يضاهي السرور الذي يشعر به كل مسيحي في اللحظة التي يرى فيها نور الرب المقدس، والانسان الذي لم يشارك في روعة ذلك اليوم لن يصدق الرواية التي دونتها والحاوية لكل ما شاهدته، وفقط الرجال العقلاء والمؤمنين هم الذين سيضعون كامل الثقة في تصديق هذه الرواية، وهم الذين سوف يستمعون بسرور إلى جميع

التفاصيل المتعلقة بالأماكن المقدسة، والصادق بالقليل سوف يكون صادقاً بالكثير، لكن بالنسبة للشريرو عديم الثقة يبدو الصدق دوماً بالنسبة له كذب، ويشهد الرب والضريح المقدس لربنا على رواياتي وعلى شخصي المتواضع، وكذلك يفعل رفاقي من روسيا، ومن نوفغورد، وكيف وهم: ايزياسلاف، وايفانوفتش، وغوروديسلاف، وميخائيلوفتش والاثنين كاشكتش، وعدد كبير آخر ممن كان هناك في اليوم نفسه.

وأعود إلى روايتي: وما أن أشع النور في الضريح المقدس حتى توقف الغناء، وصرخ الجميع: "Kyrie Eleison"، وتحركوا جميعاً نحو الكنيسة بسرور عارم، يحملون الشمعدانات المشتعلة في أيديهم، ويتولون حمايتهم من الريح، ووقتها ذهب كل إنسان إلى بيته، وبعدما أشعل الناس مصابيح الكنائس بوساطة شمعداناتهم، بقيوا هناك لإكمال قداس العشاء، في حين بقي الكهنة لوحدهم وبدون مساعدة أكملوا قداس العشاء في داخل كنيسة الضريح المقدس الكبيرة، وعدنا ونحن نحمل الشمعدانات المشتعلة إلى ديرنا مع راعي الدير والرهبان، وأكملنا قداس العشاء هناك، ثم توجهنا نحو خلواتنا، ونحن نحمد الرب لأنه تنازل فأرانا نحن الذين لا نستحق نعمه الربانية، وتلقينا التحليل، وإثر ذلك انطلقنا في حوالي الساعة الأولى من النهار في التوجه نحو الضريح المقدس، وقد حمل الراعي بيده الصليب والرهبان ينشدون ترتيلة: «رفضت أيها الواحد الخالد الذهاب إلى القبر»، وبعدما دخلنا إلى الضريح المقدس غطينا ضريح الرب المانح للحياة بالقبلات والدموع المنهمرة، وشممنا بوجد ونشوة العطر الذي خلفه حضور روح القدس وحدقنا بإعجاب بالمصابيح التي كانت ما تزال مشتعلة بعظمة رائعة وضياء عظيم، وأخبرنا الحافظ للضريح المقدس وحامل المفاتيح وراعي الدير بأن المصابيح الثلاثة التي وضعت في الأسفل على الضريح المقدس قد اشتعلت، وكانت الخمسة مصابيح الأخرى المعلقة فوق الضريح

مشتعلة، لكن نورهم اختلف عن نور الثلاثة الأولى، ولم يملكوا ذلك الإشعاع الرائع، ثم غادرنا فيما بعد الضريح بوساطة الباب الغربي، وكنا عندما سرنا نحو المذبح العالي قد قبلنا الكهنة الأرثوذكس، وتلقينا التحليل، وإثر هذا غادرنا هيكل القيامة المقدسة مع راعي الدير والرهبان، وعدنا إلى ديرنا للاستراحة حتى وقت القداس.

وفي اليوم الثالث بعد قيامة ربنا، ذهبت بعد القداس إلى حافظ مفاتيح الضريح المقدس وقلت: «بودي أخذ مصباحي»، وقد استقبلني بلطف، وجعلني أدخل إلى الضريح لوحدي تماماً، ورأيت مصباحي على الضريح المقدس ما زال مشتعلاً بلهب الضوء المقدس، وسجدت أمام المكان المقدس، وباستغفار غطيت المكان المقدس، حيث تمدد الجسد النقي لربنا يسوع، بالقبل والدموع، ثم قمت بعد هذا بقياس طول الضريح وعرضه وارتفاعه حسبها هو الآن، وهو أمر لم يكن بإمكان أحد القيام به من قبل، وأعطيت «حافظ مفاتيح» ضريح الرب بقدر ما استطعت، وقدمت له بقدر ما توفر لي من إمكانيات، وذلك مجرد هدايا صغيرة وبسيطة، ولدى رؤية حافظ المفاتيح مقدار حبي للضريح المقدس، أزاح الألواح التي تغطي بعضاً من الضريح المقدس، حيث تمدد رأس المسيح، وقطع كسرة من الصخرة المقدسة، وأعطائها إليّ بمثابة تذكار مباركة، ورجاني بالوقت نفسه ألا أقول شيئاً حولها في القدس، وبعدها قبلت ضريح الرب ثانية، سلمت على حافظ المفاتيح، وحملت مصباحي وهو مليء بالزيت المقدس، وغادرت الضريح المقدس مليئاً بالغبطة، وغنياً بالنعمة الربانية، وحاملاً بيدي هدية من المكان المقدس، وذكرى من الضريح المقدس لربنا، ومضيت في طريقي مسروراً وكأنني الحامل لثروة واسعة، وعدت إلى خلوتي مليئاً بالغبطة.

والرب يشهد والضريح المقدس أنني لم أنس في هذه الأماكن المقدسة أسماء الأمراء الروس والأميرات مع أولادهم، وكذلك لم أنس الأساقفة

ورعاة الدير والنبلأء؁ أو أبنائى الروحىىن وجميع المسىءىىن؁ فقد تذكرت كل واحد؁ وصليت أولاً من أجل جميع الأمراء؁ ثم من أجل ذنوبى؁ والشكر لفضل الرب؁ الذى سمح لى؁ أنا الشخص غير الجدير لأن أكتب أسماء الأمراء الروس فى دير القديس سابا؁ حيث يصلون الآن من أجلهم فى أثناء القداسات؁ ومن أجل زوجاتهم وأولادهم؁ وها كم هى أسماؤهم: ميخائىل سفىاتوبولك Sviatopolk [دوق كييف الأعظم: ١٠٩٣ — ١١١٣]؁ وفاسيلى فلادمير؁ وداود سفىاتوسلافتش Sviatoslavitsch؁ وميخائىل أولغ بانكراسى Pancrace وسفىاتوسلافتش Svi-atoslavitsch؁ وغلب Gleb أوف منسك؁ واحتفظت فقط بهذه الأسماء التى كتبته فى الضريح المقدس؁ وفى جميع الأماكن المقدسة؁ وذلك دون تعداد بقية الأمراء الروس الآخرين والنبلأء؁ وأقمت خمسين قداساً من أجل الأمراء الروس وجميع المسىءىىن؁ وأربعين قداساً من أجل الموتى.

علّ تبريكات الرب؁ والضريح المقدس وجميع الأماكن المقدسة تكون مع الذين يقرأون هذه الرواية بإيمان وحب؁ وعلهم يتلقون من الرب الجوائز نفسها مثل الذين قاموا بالحج إلى هذه الأماكن المقدسة؁ وسعداء هم الذين شاهدوا وآمنوا؁ وسعداء ثلاثة أضعاف الذين لم يروا ومع ذلك آمنوا؁ فبالإيمان حصل إبراهيم على أرض الميعاد؁ لأنه والحق يقال يعدل الإيمان الأعمال الصالحة؁ وباسم الرب لا تلوموا أخوانى وسادقى جهلى وسذاجتى؁ ومن أجل خاطر الضريح المقدس لربنا لا تفسدوا هذه الرواية؁ فلعل الذى يقرأ بحب يتلقى الجزاء من ربنا ومنقذنا يسوع المسيح؁ وليكن سلام الرب معكم جميعاً حتى نهاية الدنيا. آمين

– ۱۱۲۳ –

فیتیلوس

مدخل

قسم الكونت دي فوغ Vogue (في ملحق لعمله العظيم "كنائس الأرض المقدسة") أوصاف الأماكن المقدسة التي كتبت خلال العصور الوسطى إلى فئتين: الفئة الأولى وهي التي تضم ما يمكن أن يعد انطباعات شخصية، وهو ما يمكن أن ندرجه الآن تحت عنوان رحلات، وتضم الفئة الثانية مؤلفات مختصرة لمؤلفين مجهولين، يمكن أن ندرجها الآن تحت عنوان أدلة (ج. دليل)، وهي قد صممت لتزود الحجاج بالمعلومات التي يتطلبونها، أو لتساعد الذين لا يمكنهم الذهاب للحج، لتكون لديهم بعض الأفكار عن مشاهد الأرض المقدسة، وأشهر كتب الفئة الأولى كتاب أركولف Arcolfus ، الذي عدّ كتاباً معتمداً في بابه من الأيام التي كتب فيها (حوالي سنة ٦٧٠م) حتى حل محله كتب أخرى كتبت بأعداد كبيرة في أيام الحروب الصليبية، مثل كتب: سيولف Saewulf، وجون أوف وورزبيرغ Wurzburg ، وجون فوكاس، وولبراند فون أولدنبرغ Wilbrand Vonoldenburg ، وتواريخ الأخبار العسكرية مثل كتب ألبرت دي أكس، وغيوبرت دي نوغت، ووليم الصوري، وفولتشردي تشارترز، وجاك دي فيتري، الخ. وبالنسبة للفئة الثانية لدينا كثيراً مما يمثلها، وعندما تعقد مقارنة فيما بين الكتابات التي كتبت أيام الحروب الصليبية، أو بعدها، يتضح على الفور أنها جميعاً استقت إلى أبعد الحدود من مصدر عام، فقد جرى نقل وتكرار بعض النصوص كاملة من قبل واحد ثم آخر، فآخر، وتبين للكونت دي فوغ أثناء أبحاثه وجود نماذج عدة من هذه الأدلة، عدلت أو غيرت من قبل كتاب خاصين لتوائم العصر، مع أوضاع الكتاب نفسه، ولاثنين من هذه الفئة أهمية خاصة، وأول نموذج منها ممثل في الكتاب الذي هو قيد الترجمة، ويعود بتاريخه إلى بداية القرن الثاني عشر، وهو يظهر أوضاع

البلاد عند بداية الحروب الصليبية، وصنف الآخر في حوالي سنة ١١٨٧، وهو يشير إلى التغييرات التي أحدثها الاحتلال اللاتيني لمدينة القدس المقدسة (سوف تتم إن شاء الله ترجمة كل النماذج المتوفرة)، وصنف النموذج الأول باللاتينية، والنموذج الثاني هو نموذج نورماندي — فرنسي.

وأقدم نسخة لدليل من الفئة الأولى، مما أمكن للكونت دي فوغ أن يحصل عليه، قد كتب فيما بين سنوات ١١٥١ و ١١٥٧، وهو موجود في مخطوطة من مخطوطات المكتبة الوطنية في باريس (المكتبة الامبراطورية — المخطوطات اللاتينية رقم ١٢٩، ٥)، وذلك في نهاية تاريخ الراهب روبرت، ويبدو أن هذا المجلد قد كتب فيما بين السنوات المتقدمة أعلاه، ذلك أن قائمة الأمراء التي فيه تتوقف عند البطريك فولتشر (١١٤٦ — ١١٥٧ م)، والملك بلدوين الثالث (١١٤٤ — ١١٦٢)، وكونت ريموند الثاني صاحب طرابلس (١١٥١ — ١١٨٧ م)، ويبدو أن الرسالة ترقى إلى تاريخ أبكر من هذا، فهي متقدمة على بناء جوقة المرتلين في الضريح المقدس (القيامة)، وجاءت بعد وقت قصير من تأسيس أخوانية رهبان الداوية، والتاريخ الذي اختتمت به كما يبدو أصلاً وتوقفت عنده هو من عهد بلدوين الثاني (ربما سنة ١١٣١)، وأضيفت الإشارات إلى الملك فولك والملك بلدوين الثالث من قبل كاتب متأخر، وعلى هذا يمكن أن نفترض أن تاريخها هو حوالي سنة ١١٣٠، ومصنفها غير معروف كلياً، ومع أنها معروفة تحت اسم فيتيلوس، من المؤكد تماماً أنه لم يكن كاتبها، وارتبط اسم الرسالة باسمه فقط بسبب أنه تولى إخراج نسخة تولى هو تحريرها، والرسالة الأصل كانت معروفة قبله، وهذا يمكن استنتاجه من نصها، وفيتيلوس نفسه نعرف القليل عنه، ويكتب اسمه أحياناً "فريتيلوس Fretellus" والشيء الوحيد المؤكد حوله أنه كان رئيس شمامسة في أنطاكية في حوالي سنة ١٢٠٠ م، ولقد اختصر النص الأصيل

اختصاراً كبيراً في النسخة التي حررها، خاصة في وصف صحراء التيه، والأساطير، والتاريخ الطبيعي، وغير الأجزاء الواضح أنها ترقى إلى تاريخ أبكر، مثل ذكر بناء كنيسة في صور فهو قد أحل كلمة أسست محل كلمة تبني، وأضاف بعض الخصوصيات الأخرى، ووصلتنا نسخ أخرى من الرسالة، فقد نشرليون ألاتيوس Leon Allatius في سنة ١٦٥٣ كتاباً تحت اسم Eugesippus وهو وصف للأماكن المقدسة، وهو على الرغم من عدد من التصحيفات نص فيتيلوس نفسه، وهي حقيقة ذكرها م.دي فوغ، ليظهر السهولة الكبيرة التي نسبت بها هذه الرسالة إلى مؤلفين آخرين.

وفي التفاتة نحو الرسالة نفسها، نجد من الصعب قول كثير من الثناء على ترتيب موادها، وفي هذا المجال لا يختلف كاتبنا الذي لا نعرفه عن كثير من كتاب الحجاج، ويبدأ وصفه برواية عن مدينة القدس مع أماكنها المقدسة، والمواقع المقدسة في أحواضها، وأشار إلى مختلف البقاع في المدينة المقدسة، التي يتعامل معها غالبية الحجاج، ثم يأخذنا إلى بيت لحم استطراداً بشكل غريب وهو ما يزال يتحدث عن القدس وعن وادي يهو شافاط، وجبل الزيتون، ثم مرّ بشكل سريع إلى الأردن قرب أريحا، والبحر الميت، والخليل وأحواضها، ثم عاد إلى البحر الميت، ويأتي هنا على حديث طويل حول طريق الخروج، وفي أثناءه ذكر بعض الأساطير العجيبة، وقدم تفاسير غريبة حول أسماء المحطات في صحراء التيه، وجرى تبني هذه الشروح آنذاك للإثارة، وظلت هكذا حتى أوقات قريبة نسبياً، وبعد إكماله لهذه القائمة، والاشارة إلى بعض الأماكن التي كانت هامة في الأيام الأولى لاحتلال أرض الميعاد، نقلنا إلى دمشق، عاصمة سورية، ثم تابع نحو ينابيع الأردن، وأحواضها حتى بحيرة طبرية، والناصره، وجبل الطور، والسامرة، وشكيم، والقدس، وجاءت إشارته هنا إلى المدينة المقدسة عابرة، حيث جاز من هذه المحطة إلى بيت لحم

والمناطق المجاورة لها، وعاد من الجنوب إلى القدس، وقدم رواية متخلفة نوعاً ما حول تاريخها، ووضعها الطبوغرافي، ووصف إلى بعض الحدود مواقعها المقدسة، وعبر من القدس نحو الشمال، غير أنه عاد ثانية إلى بعض المواقع الجنوبية حول الخليل، ثم أخذنا من هناك إلى أريحا، وذلك قبل أن يتابع سيره عبر اللد إلى الشاطئ، فسايره إلى قيسارية، وعكا، وصور، وصيدا، وبيروت، وبعيداً حتى طرابلس، وختم رسالته بتجديد الإشارة إلى القدس، وأولى ذكر برج داود اهتمامه بربطه باسم غود فري دي بويلون، وأقحم هنا الأسطر التي كتبت على قبره في كنيسة القيامة، وهذه هي الإشارة الوحيدة حول هذا النقش معروفة بالنسبة إلينا، وأتى على ذكر خلفاء غود فري في فقرة ختامية ذكر فيها رواية عن الملك بلدوين الأول، وقد حذفناها مجازاة لما قام به م. دي فوغ.

وتنبع الأهمية الرئيسية لهذه الرسالة المجهولة المؤلف — كما أشرنا من قبل — من أنها تقدم لنا وصفاً لأوضاع الأماكن المقدسة أيام بداية الحروب الصليبية، ففي الحديث عن كنيسة القيامة — على سبيل المثال — ذكر المؤلف أن مقر جوقة المرتلين كان قيد البناء، وكان الدخول إلى البناء المستدير ما يزال ممكناً عبر أربعة أبواب في الجهة الشرقية، وتبنى الرواة الذين جاءوا من بعده أوصافه ونقلوها خطوة خطوة، وهذا من الممكن رؤيته بمقارنة بعض الفقرات المتعلقة بوصف شمال فلسطين لدى ما جاء عند جون أوف وورزبيرغ (الذي ستأتي ترجمة نصه فيما بعد إن شاء الله)، والتشابه بين النصين كثيراً وقريباً، وليس من المفيد الإشارة إليه بالتفاصيل هنا في الحواشي.

واعتمدت الترجمة على النص الذي ألحقه م. دي فوغ بكتابه، الذي تقدمت الإشارة إليه، (كنائس الأرض المقدسة، تأليف الكونت مليكيور دي فوغ، باريس ١٨٦٠، ص ٤١٢ - ٤٣٣)، واعتمد في إخراجه لهذا النص على مخطوطتين من رسالة فيتيلوس، ترقيان إلى القرن الثالث عشر،

وذلك مع المخطوطة الأقدم التي تقدم ذكرها، وإحدى المخطوطتين موجودة في المكتبة الوطنية (الامبراطورية) في باريس، (F.de s.victor,no 574,Fo,172)، والأخرى موجودة في المكتبة الامبراطورية في فينا (مخطوط — مجموع رقم ٦٠٩)، وجرى في حالة أو حالتين إكمال وصف القدس من قبل الكونت دي فوغ، والاستعانة بكتاب غريب، وجده في المكتبة الوطنية (الامبراطورية) حوى رواية عن الحملة الصليبية الأولى، ووضع هذه الإضافات في الحواشي، وعلى العموم تمت ترجمة حواشي م. دي فوغ، وجرت الإفادة من نصوص الرحلات التي سترجم، ومن كتاب لي سترانج «فلسطين في ظل الحكم الإسلامي». هذا وجرى تزويد هذه الرسالة بمصور للقدس خلال القرن الثاني عشر، أيام جون وورزبيرغ وثيوديرك، أي بعد ثلاثين أو أربعين سنة من تاريخ تحرير رسالتنا الحالية.



القدس (مخطط القرن الثاني عشر)

JERUSALEM (PLAN OF THE TWELFTH CENTURY).

وضع مدينة القدس والأماكن المقدسة في داخل المدينة نفسها أو في أحوازها

مدينة القدس قائمة في المنطقة الهضبية ليهودا، في بلاد فلسطين، ولها أربعة مداخل: في الشرق وفي الغرب، وفي الجنوب وفي الشمال.

ويقع في الشرق الباب الذي ينحدر الإنسان منه إلى وادي يهوشافاط، ويذهب الإنسان عبره إلى جبل الزيتون، وإلى نهر الأردن، ويقع في الغرب باب داود، الذي تواجه إطلالته البحر، ومن ثم عبر عسقلان، وفي الجنوب يقع الباب الذي يدعى باب صهيون، فعبره يخرج إلى مقربة القديسة مريم فوق جبل صهيون، وفي الشمال هناك الباب الذي يدعى باب القديس اسطفان، لأنه هناك رمي بالحجارة خارج المدينة، وهذا الباب نادراً ما يفتح، ذلك أننا دخلنا إلى المدينة المقدسة عبر باب داود، الموجود على يمين الداخل منه برج داود، وهو لم يكن بعيداً عنا عندما دخلنا، ويقع برج داود على الجانب الغربي، ويعلو بارتفاعه فوق المدينة كلها.

يقوم هيكل الرب على مسافة قريبة، ويواجه اتجاه شروق الشمس، في الجزء الأكثر انخفاضاً من المدينة فوق وادي يهوشافاط، وله أربعة أبواب: باب من الشرق، وباب من الغرب، وباب من الجنوب، وباب من الشمال، وأعلى نقطة فيه هي في صخرته في الوسط، حيث هناك مذبح، وهناك جرى تقديم الرب من قبل والديه وتسلمه القديس سمعان، وإلى هنا اعتاد أن يصعد عندما كان يتولى وعظ الناس.

ويقع ضريح الرب في أسفل المدينة، على يسارنا قليلاً ونحن ذاهبون إلى الهيكل، وكنيسة الضريح المقدس (القيامة) مستديرة الشكل، وبنائها جميل، ولها أربعة أبواب، فتحتها مواجهة لاتجاه إشراق الشمس، وضريح

الرب قائم في وسطها، وهو محمي بما فيه الكفاية، ومزين بشكل معقول، وفي خارجها، في الجهة الشرقية هناك موقع الجمجمة، وهو المكان الذي صلب فيه الرب، ويصعد الإنسان هناك ست عشرة درجة حيث يجد صخرة عظيمة، فهناك أقيم صليب المسيح، وفي الأسفل الجلجلة، حيث انساب دم المسيح إلى الأسفل من خلال وسط الصخرة، ومقام هناك مذبح مكرس على اسم القديسة أم الرب، وخارج هذا، وعبره في مواجهة لإتجاه مشرق الشمس، يقوم المكان الذي وجدت فيه هيلانة المباركة الصليب المقدس، وهناك مبنى كنيسة واسعة، [يوميء هنا إلى شرفة جوقة المرتلين في القيامة التي كانت يومها قيد الإنشاء] وفي الجانب الآخر وعبره في مواجهة الساعة السادسة (أي الجنوب) هناك مشفى للفقراء والمعاقين، وكذلك كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وبجوارها كنيسة القديسة مريم اللاتينية، ويوجد في الكنيسة المشار إليها أعلاه، أعنى كنيسة المبارك يوحنا إبريق من الحجر حول فيه الرب الماء إلى نبيذ.

وكما سلف بنا القول يتفوق هيكل الرب بجماله على جميع الكنائس، وهناك فيه أيضاً إبريق ماء مصنوع من الرخام، فيه حول أيضاً الماء إلى النبيذ في قانا الجليل، وأسفل الصخرة القائمة في وسط الهيكل، البقعة التي كان فيها مرة قدس الأقداس، وإليها ينزل الإنسان ببضع درجات، وهناك كان زكريا يصلي عندما أعلن له الملاك جبرائيل عن ولادة المبارك يوحنا المعمدان، وهناك أيضاً المكان الذي كان الرب جالساً فيه عندما جلب إليه الفريسيون المرأة التي أمسكت وهي تزني، وعلى الجانب الأيمن أيضاً قصر سليمان [المسجد الأقصى]، وهناك مقابل اتجاه إشراق الشمس، إلى جانب القصر المذكور أعلاه، كنيسة القديسة مريم، حيث ينزل إليها الإنسان درجات كثيرة، فهناك مهد المخلص، وحمامه وفراش أمه، وعلى الطرف الأيسر (أي الشمال) للهيكل، فيما وراء الأسوار كنيسة القديسة حنة، أم أم المسيح، وفي الخارج قيل هناك بركة الغنم.

وليس بعيداً، خلف أسوار المدينة، إلى الجنوب هناك الكنيسة التي تدعى كنيسة مريم جبل صهيون (جامع النبي داود)، حيث غادرت المباركة جداً الجسد، وفيها مكان يدعى الجليلية، حيث ظهر المسيح بعد القيامة إلى حواريه، ووقتها لم يكن توما موجوداً هناك، وفي الكنيسة المتقدم ذكرها، في الشرق، يوجد المكان الذي ظهر فيه ثانية بعد ثمانية أيام، وكانت الأبواب مغلقة، ولقد ظهر لحواريه، ووقتها كان توما حاضراً وقال: «سلام لكم»، وأراهم يديه، وجنبه، ومنحهم أن يلمسوه، حسبما روى الانجيلي، وإلى الأعلى يصعد الإنسان بدرج إلى المكان الذي تعشى فيه مع حواريه، وفيه المائدة نفسها التي تعشى عليها، وهناك أعطاهم جسده ودمه للأكل في سبيل التحلل من الذنوب، وهناك أنارت روح القدس الحواريين في يوم عيد الحصاد، وعلى الطرف الأيسر هناك كنيسة القديس ستيفن، حيث دفن من قبل البطريرك يوحنا، بعدما جلب من كفر جمالا (بيت الجمال)، وأسفل قليلاً هناك جبل أكلدماك، أي حقل الدم، فهناك يدفن الغرباء، وعلى الطرف الآخر من الجبل، على منحدراته تقوم كنيسة القديس بطرس، حيث عندما صاح الديك بكى بحرقة لذنبه بالإنكار، وفي الأسفل أيضاً هناك نبع، يدعى بركة سباحة سلوان، حيث بناء على أمر من الرب، استرد الرجل الذي ولد أعمى بصره، ولا تمتلك مدينة القدس ماء للحياة غير هذا الماء.

وبيت لحم هي مدينة داود، وهي على بعد مرحلتين كبيرتين من القدس، في مقابل الساعة التاسعة (أي الجنوب الغربي)، وفيها كنيسة القديسة مريم، وهي مبنية بجمال معتبر، وفيها السرداب الذي حملت فيه العذراء مريم المباركة جداً بمخلص العالم، وفيه المزود الذي وضع فيه المسيح، وأمام السرداب مائدة رخامية أكلت عليها العذراء مع الملوك الثلاثة، وما يزال أمام ذلك السرداب البئر الذي فيه ماء بارد وحلو المذاق، وقد قيل فيه سقط النجم الذي قاد الحكماء الثلاثة إلى مدخل

ذلك السرداب، زد على هذا إن الذين يخرجون من الكنيسة يجدون قرب الباب سردابين آخرين، أحدهما أعلى من الآخر، ويرقد في السرداب العالي باولا المقدسة جداً، ويرقد عند قدميها ابنتها، أقصد العذراء المقدسة جداً، يوستوخيوم Eustochium، وينزل الانسنان الى السرداب المنخفض بوساطة كثير من الدرجات، وهناك الضريح الذي يرقد فيه الجسد المقدس لأرميا المبارك كثيراً، والطبيب المشهور، وهذه هي بيت لحم التي أيضاً أمر فيها هيرود بذبح الرضع بشكل وحشي.

وتقع الكنيسة التي تعرف باسم كنيسة القديسة مريم في وادي يهو شافاط، وتقوم في وسط الوادي بين القدس وجبل الزيتون، حيث يوجد ضريح القديسة مريم أم الرب، فهناك قبر جسدها المقدس جداً، الرسول يوحنا المبارك، ويوجد خارج الكنيسة المكان المسمى جيسماني، حيث السرداب الذي خان فيه يهوذا الرب الى اليهود، وعلى بعد حوالي رمية حجر باتجاه اليمين مكان وحي حيث صلى لأبيه في ساعه الآلامه، وصار عرقه مثل نقاط من الدم تتساقط نحو الأرض، وظهر له ملاك لطمأنته ومواساته، وعلى قمة ذلك الجبل مكان وحي، ومن هناك صعد الرب الى السماء، وبالجوار هناك كنيسة أخرى حيث عمل الرب الصلاة (الرقية) الربانية، وإلى جانبها بيت فاج، الذي كان فيما مضى قريه للكهنة، وعلى بعد ميل واحد في مواجهة الساعة الثالثة تقوم قرية بيت حنينا، حيث أقام المخلص لازاروس الميت، وهنا ضريحه وهنا أيضاً كنيسة مريم المجدلية، التي كانت فيما مضى بيت شمعون المجدوم، حيث أعفاها الرب من ذنوبها.

ونهر الأردن بعيد بعض الشيء عن القدس، وعلى حوالي العشرين ميلاً، والرحلة اليه متعبة بما فيه الكفاية، زد على هذا، تبعد مدينة أريحا مرحلتين عن الأردن، ويأتي الأردن الآن من الشمال، ويجري نحو الجنوب، وإلى جانب الأردن تقوم كنيسة القديس يوحنا المعمدان، حيث

يوجد فيها نحو عشرين راهباً أرثوذكسيا يعبدون الرب، وتقع العريية فيها وراء الأردن.

وليس بعيداً عن المكان الذي جرى تعميد الرب فيه يقع البحر الميت، حيث يصب نهر الأردن، وكان يوجد هنا أربعة مدن هي: سدوم، وعاموره، ودوم، وساعور، التي أهلكت بعدالة حكم الرب، ويعرف البحر الميت بهذا الاسم لأن مامن شيء يمكنه العيش فيه، ولا يمكن للأسماك أن تسبح فيه أو تعيش، كما لا يمكن لأي مخلوق الشرب منه، وإذا ما طار أي طائر فوق هذا البحر، ووقع فيه فإنه يموت، ويدعى هذا البحر أيضاً باسم نهر الشيطان، ويقع الجبل الذي صام فيه الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة على مسافة ثلاثة أميال من أريحا.

وصف الأماكن القائمة حول القدس

كانت حبرون من قبل حاضرة فلسطين منذ ما بعد الفيضان حتى وصول بني اسرائيل، وكانت مكان سكنى العمالقة، ومدينة كهنوتية، ومدينة مأوى لسبط يهوذا، وهي واقعة على بعد ستة أميال عن القدس باتجاه الجنوب، على تخوم صحراء اليهودية، وحدث في هذه المنطقة أن خلق الله القادر أبانا آدم، والمكان محفوظ تحت أبدة بعضها اصطناعي وبعضها طبيعي، وتأسست حبرون من قبل من قبل العمالقة قبل سبع سنوات من تأسيسهم لمدينة تنيس في مصر، ودعيت حبرون بهذا الاسم من خلال ممرا Mambre صديق ابراهيم، وهناك جبل مشرف على المدينة يحمل الاسم نفسه، وعند سفحه عاش ابراهيم لمدة طويلة، وما يزال موجوداً هناك البلوطات التي ظهر له عندها الملائكة الثلاثة، وقد تعبد واحداً منهم، حيث أخبرنا أن الثالوث المتحد، يتوجب إجلاله، وعندما اقتربوا إما بفضل الضيافة أو بفضل الحب، ليأخذوا أماكنهم الى مائدته، وضع هو أمامهم عجلًا من قطيعه مع حليب وزبدة، ومدفوع بهذه الرؤيا، بنى أول مذبح للرب، وعليه ضحى له بمحبة، ويحتفل سنوياً الى جانب البلوطات المتقدّمات الذكر، احتفالاً عظيماً باسم الثالوث المقدس، وتبعاً لما ذكره إرميا انتشرت البلوطات منذ ذلك الوقت نزولاً الى أيام الامبراطور ثيودوسيوس، ومن الجذوع الحالية، تنمو كما يقال على جذورها، ومهما كانت جافة تبرهن أنها ماتزال تحتفظ بخواصها الدوائية، الى حد لو أن راكباً حمل معه قطعة منها فإن حصانه لن يخذله، وتدعى حبرون Arba ومعنى هذا بلغة المسلمين أربعة، وإليها يضاف كلمة «قرية» التي معناها باللغة نفسها «مدينة»، وهكذا صار اسم المدينة «قرية الأربعة» وأول هؤلاء الأربعة آدم المخلوق الأول، ثم يليه الآباء الرئيسيين: ابراهيم، واسحق ويعقوب، فهؤلاء يرقدون مدفونين في كهف مزدوج في حقل

عفرون، ومعهم زوجاتهم الأربع: حواء، وسارة، ورفقه، وليا، وحبرون واقعة قرب وادي الدموع، وحمل وادي الدموع هذا الاسم، لأن آدم ناح على ابنه هابيل لمدة مائة سنة، وولد له في حبرون شيث، الذي سيلد منه المسيح، وكذلك أبناء وبنات.

ويرى في حبرون الحقل الذي قيل من ترابه صيغ آدم، ومن هناك نقل من قبل الرب الى الجنوب ليملك في جنات عدن، التي معناها بالآغريقية والعبرية «نبع البهجة»، ونرى في التواريخ القديمة أنه بعد سقوطه، ساقه الرب من هناك الى حبرون، بدون فخر، بل على شكل نفي، فعاد ليعمل بجد في تربيته المحلية، وللتعاسة والعمل بالفلاحة.

ويحفر الذين يقطنون قرب تلك المنطقة في الحقل المذكور أعلاه، ويأخذون ترابه للبيع في بعض أجزاء مصر وشبه جزيرة العرب، حيث هناك حاجة اليه، لأنه يستخدم في أماكن كثيرة بمثابة دواء وتوابل، ومهما حُفر هذا الحقل المذكور، ومهما بلغ عمق ذلك وعرضه، نجد أنه مع نهاية السنة، قد تجدد بشكل كامل، وذلك بفضل الرحمة الربانية، ولون تربة هذا الحقل حمراء، ومن هنا ذكرت التقاليد العبرية أن آدم كان أحمر اللون، وفي حبرون كان الجدان كالب ويوشع أول من لامس أرض الميعاد المقدسة، وبعدهما انتخب داود ملكاً من قبل الرب وعمد من قبل صموئيل حكم في حبرون لمدة سبع سنوات، وعنه قال الرب: «وجدت داود رجلاً حسب قلبي» (أعمال الرسل: ١٣ / ٢٢)، وولد في حبرون ستة أولاد لداود هم: عمون صاحب أخنؤام، وسيلان صاحب أبيغل، وأبسالوم صاحب ماأخا، وأدونياس صاحب أغيس، وسافتياس صاحب أبيشال، وجتران صاحب أغلال، وكانت حبرون ملكا لكالب بن يفته الذي طرد من هناك أبناء عناق الثلاثة: شيشاي، وأخييان، وتلماي، وفي المنطقة المرتفعة من حبرون في مقابل بلاد الفلسطينيين بلدة دبير، التي كانت تحمل من قبل اسم سفر، أي مدينة الكتاب، التي استولى عليها

عنثيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال من حبرون، باتجاه الجنوب، هناك مكان قبر لوط، ابن أخي ابراهيم.

وعلى عشرة أميال من حبرون. باتجاه بلاد الفلسطينيين، توجد بير السبع، وهي مدينة جميلة وذات قدر في اسرائيل وقبل ذلك بكثير، وهي تدل على «بئر الميثاق»، فهناك أقام ابراهيم واسحق ميثاقاً مع أبيمالك، وزرع ابراهيم في بير السبع حديقة حيث كان يدعو اسم الرب السرمدى، لأنه أقام هناك لوقت طويل، ومن بعده أقام أيضاً اسحق، الذي ظهر له الرب هناك وباركه وبارك ذريته.

وعلى بعد ستة أميال، باتجاه الجنوب، يوجد بيت فاروايل - Bethel- roel فيما بين حدود يهوذا ومصر، وهي بلاد الفلسطينيين والعربية، وقد كانت فيما مضى مدينة غنية ومليئة بالسكان، وهنا سكنت أولاً أم المخلص، عندما هربت من يهوذا الى مصر مع ابنها يسوع، وذلك أخذاً بتحذيرات الملاك، وبقيادة، خطيبها يوسف.

وعلى بعد عشرة أميال من حبرون، وباتجاه الشرق، تقوم بحيرة اسفلت، وتدعى هذه البحيرة باسم البحر الميت، وأيضاً باسم بحر الشيطان، لأنه بإغوائه وإثارته جرى تدمير المدن الأربعة الأكثر تعاسة وهي: سدوم، وعموره، ودومه، وساعور، بنار الكبريت، ولاسرافهن في أحوال الترف والغواية، ولاصرارهن على انحطاطهن أغرقن في تلك البحيرة، ومعنى كلمة سدوم: الجمهور الصامت أو العميان، وعموره: خوف الناس أو اللوطة، وساعور: البحر، أو محطة البحر، ودومه: الشهوة، وبعيد البحيرة على مسافة ميل منها، وفي إطار يهوذا تقع سيجور، ومعنى سيجور: صغير أو قليل، وتعني سيجور أيضاً بلع التي معناها امتص، وكذلك زرع، وهو اسم سرياني، وبتوحيد هذين الاسمين ودمجهما معا يصبح

الاسم «بلعزرع»، وسيجور هذه هي التي فرَّ إليها لوط من سدوم، تحت قيادة الملائكة، وقد حفظت من التعرض للنار وقلب عاليها سافلها استجابة لصلواته، وفي المخرج من سيجور، تحولت زوجة لوط الى تمثال من ملح، ولهذا ما برحت تترك أثرها هناك، وحدث على بعد من سيجور في جبل مقابل يهوذا، أن لوطاً كان قد شرب كثيراً، فتمدد مع ابنتيه، فأولدهما مآب وعمون، وتدعى سيجور أيضاً باسم «قلعة النخيل»، وتدعى منطقة هذه المدن الخمسة باسم «بنتابولس» Pentapolis وذلك بسبب وجود هذه المدن الخمسة، وكانت البنتابولس، قبل أن يقلب عالي المدن سافلها مع المنطقة، وادياً مليئاً بالأشجار، ويحتوى على المدن نفسها، التي شن منها خدر لامور chodor laomor أو خدر لغومير chodolagomer ملك العيلاميين وعمرافيل Amraphel ملك شنعار Sennaar، وعروج Ariog ملك بنطش Pontus، وثدس THADES ملك الأمم، الحرب على بسا Basa ملك سدوم، وبرزسا Barsa عمورة، وسنعباب Sennaab ملك دومه، وسمبر Semeber ملك ساعور، وملك بلع، وقد هُزم هؤلاء الملوك، وسلب المنتصرون وحملوا معهم أسلاب شعب سدوم وعمورا، وكذلك أخذوا أطعمتهم، وحملوا معهم لوط ابن أخيه إبراهيم أسيراً.

وبين سيجور وأريحا تقوم المنطقة التي تعرف باسم نجدي Engadi، وهناك أيضاً كروم نجدي، حيث ينمو البلسم بشكل رائع بوفرته وخصبه، ويوجد فوق بحيرة الاسفلت الكثير من الشب وأيضاً الكثير من القطران، والشب هو ماء ملح الأرض، ويتكون في الشتاء من تمازج الفطر الغروي والماء، وينضج بوساطة شمس الصيف،.... والقطران نوع من أنواع السوائل، له رائحة قوية، وهو ضروري لدهن الجمال لإزالة الجرب، ولطلاء الكروم لطرد الحشرات التي تأكلهم، وقرب بحيرة اسفلت هناك جبل يبدو كله وكأنه من الملح، ويستخرج من البحيرة أحجار

الطواحين، وهي الآن ضرورية في تلك المناطق، ويستخرج من البحيرة الحمرة (القار) الذي يستخدمه الأطباء، والبحيرة نقية الى درجة يمكن من خلالها رؤية الأبنية والخرائب بشكل واضح، لكن ملوحتها شديدة الى درجة أنه لا يمكن لأي مخلوق تحملها، كما لا يمكن لأي طائر أن يطير عبرها، ويوجد في البحيرة جزيرة تنتج تفاحات خضرة فاقع لونها، يبدو من شكلهن أنهن شهيات جداً، لكن ما أن يمسهن الإنسان حتى يتفتتن ويتحولن الى رماد، ويخرج منهن دخان كما لو أنهن مازلن يحترقن، وغالباً ما ظهرت أخشاب الجزر مبعثرة مثل الرماد والجمرات، وكأنها تمثل المدن المحترقة، وتجلب الأخشاب من الجزر بواسطة السفن لتستخدم بالأغراض والحاجات المحلية، وإذا حدث وأمضى أحد الناس ليلة فوق البحيرة وترك زجاجة مملوءة بالنبيذ أو الماء على الأرض، يجدها في اليوم التالي وقد تحولت من الحلاوة الى المرارة وغدت غير سائغة للشرب، وهناك في البحيرة الجزيرة المواجهة لزدروم، التي زارها سابا، وأمضى فيها الصيام في خلوة، وهناك كاد أن يحترق تماماً بسبب إغواء الشيطان، وذلك بواسطة صاعقة نارية مفاجئة، وبقي بلا حياة لمدة سبعة أيام غير أنه حفظ برحمة الرب، واسترد قوته، ومع ذلك بقي فيما بعد بدون حياة، وعندما عاد الى بلده نادراً ما عرفه أخوانه أنه سابا.

ويلى مناطق اسفلت نزولاً نحو المنطقة العربية مدينة الصفا Sava القديمة التي هدمها خدر لغومير chdorlogomer، والبنتابولس المتقدمة قائمة على التخوم بين يهوذا والعربية.

وكانت العربية في أيام خروج بني اسرائيل من مصر أرضاً معزولة وواسعة، وكانت مربعة ولا يمكن المرور بها، ولأما فيها، لكن تحت قيادة موسى، وبرحمة من الرب امتلأت بالينابيع، وتحولت الى أرض خصبة جداً، وأبقى الرب بني اسرائيل في العربية لمدة أربعين سنة، في اثنتين وأربعين محطة، ولم تهترى ملابسهم خلال هذه المدة كلها،

وأشبعهم الرب من طل السماء ومن المن، وكان كل واحد منهم يجمع لأسرته وآل بيته جميع الطيبات المتنوعة واليابسة، وتوليت تبيان هذه المحطات الهامة وأحصيتهن ورتبتهن حتى أدونهن في رسالتي: ولا بد أن العبرانيين الحقيقيين قد أسرعوا لدى اجتيازهم أثناء عبورهم من الأرض الى السماء، ولدى تسابقهم في سبيل ذلك، ولا بد أنهم عندما تركوا مصر الدنيا قد دخلوا الى أرض المعياة، أي الى أرض الأب السماوية.

وكانت أول محطة هي رعمسيس، وهي مدينة داخل تخوم مصر، حيث منها دخل حشد بني اسرائيل الصحراء، في اليوم التالي لعيد الفصح، وذلك على مرأى من المصريين، الذين حرموا الى حد كبير من أنيتهم الفضية والذهبية، وتفسر كلمة رعمسيس أنها تعني: هياج أو عاصفة.

وكانت المحطة الثانية هي سكوت، حيث خبزوا للمرة الأولى خبز فطير، ولأول مرة نصبوا خياماً، ومعنى كلمة سكوت خيام العهد، أو خيام.

وكانت إيثام هي المحطة الثالثة، حيث مضى الرب أمامهم، ورأى شعبه في الليل عموداً من نار، وظللتهم الغمامة في النهار، ومعنى كلمة إيثام البهاء أو الكمال.

وكانت المحطة الرابعة هي الحيروث Fyairoth التي قبالة بعل صفون، وتعني كلمة حيروث «فم النبلاء»، وكلمة بعل صفون «رب الريح الشمالية».

وكانت المحطة الخامسة هي مارة، وعبروا البحر الأحمر بعد ثلاثة أيام، ومعنى كلمة مارا «مرارة».

وكانت إيليم هي المحطة السادسة، حيث وجدوا اثنتي عشرة عين وسبعين نخلة.

وكانت المحطة السابعة ثانية بعد بعض التجوال حول البحر الأحمر والته هناك.

وكانت المحطة الثامنة في برية سين، التي تمتد حتى جبل سيناء، ومعنى كلمة سين عليق أو كراهية.

وكانت المحطة التاسعة هي دفقة التي معناها: نبضة.

وكانت المحطة العاشرة هي ألوش، التي معناها عدم الرضا، وتبرم الاسرائيليون في البرية وتضايقوا من الجوع، وكانوا يتلقون السلوى في المساء والمن في الصباح التالي.

وكانت المحطة الحادية عشرة هي رفديم التي معناها عزل الشجاع أو إعادة القوة، وهنا عندما عطش الناس نبع الماء من صخرة حورب Oreb، وهنا حارب يوشع أمالخ Amalech ، وإلى هاهنا جاء جرتو إلى موسى، وهنا تمتم الناس ضد الرب في أثناء غياب موسى، وصنعوا عجلاً من ذهب، وعبدوه.

وكانت برية سيناء هي المحطة الثانية عشرة، ومعنى كلمة سيناء العليق، وجبل سيناء في العربية مرتفع كثيراً، ومن الصعب الوصول إليه، ويساوي طريق الصعود إليه ثلاثة آلاف وخمسمائة درجة، وقال النساك المقدسون جداً والرهبان عن سيناء، الذين سكنوا هناك إنه لم ينقطع تردد الملائكة عليها وسيرهم عليها منذ أيام موسى، ويخرج الدخان دوماً من جبل سيناء مع لمعان أضواء نارية، وقالوا عن سيناء، وما قالوه حقيقي، بأن هناك ناراً سماوية تطير حول سيناء كل يوم سبت غير أنها لا تحرق، وبعض الناس لمسها لكنها لم تؤذهم، وفي الغالب تظهر على شكل غيمات بيضاء، وتتحرك بشكل لطيف وتطوق الجبل، وتهبط أحياناً بصوت مزعج ومخيف، ووقتها يفر المقدسون الذين يسكنون هناك من خلال السرايب والخلوات الرهبانية، وهناك على قمة جبل سيناء كنيسة

مبجلة وجميلة، وهي قائمة على البقعة التي أعطى فيها الرب موسى الشريعة مكتوبة باصبعه على ألواح من الحجارة، وللكنيسة المتقدم ذكرها مكانة عالية وتبجيلاً عظيماً إلى درجة أن مامن أحد يجرؤ على دخولها، أو حتى على صعود الجبل، مالم يقيم باجراءات القبول بالاعتراف ثم بمجاهدة النفس بالصوم والصلوات، والرهبان والنساك هناك متدينون إلى درجة عالية حتى أنهم يعبدون الرب بإرادتهم لوحدهم وبدون أي ضغط جسدي أو عقلي، وسمعتهم رفيعة جداً، فهم موضع الاحترام من تخوم أثيوبيا إلى حدود بلاد الفرس، ويطرى عليهم بكل لسان شرقي، ويتصرفون بممتلكاتهم بحرية وبهدوء فيما بينهم أنفسهم، ولهم خلواتهم في أرجاء مصر وفي فارس وحول البحر الأحمر، وفي العربية التي تأتي منها كل طلباتهم ملبة بكرم زائد، وهم مبجلون جداً إلى درجة أن مامن أحد يتجرأ على التفكير بايذائهم بأي شيء، وإذا ما حدث وحاول أحد لمسهم بأي سبيل، فانه يلقي الانتقام ثقيلاً من الرب، وهم يسكنون حول الجبل، كل واحد في خلوته، ولا يعيشون بشكل جماعي بل يتشاركون بالممتلكات والمقتنيات، وفي سيناء العليقة التي ظهر فيها الرب لموسى داخل لهب نار ما تزال آثارها قائمة.

وكان اسم المحطة الثالثة عشرة هو قبروت هتأوة (قبور الشهوة)، فهناك اشتهى أبناء إسرائيل اللحم كثيراً، ولهذا السبب أثاروا غضب الرب، فقال الناس ذلك، وهلك بذلك عدد كبير، ومن هنا نال ذلك المكان اسمه.

وكانت حضيروت هي المحطة الرابعة عشرة، حيث انتقص هرون ومريم من قدر موسى لأنه تزوج من امرأة أجنبية، هي ابنة ملك أثيوبيا، فضر بامن قبل الرب، فهنا تزوج في وقت نصره العسكري في مدينة سبا Saba التي اسمها الآن مارو Maro، وذلك على مسافة من النيل فيما بين أستابوس Astabus وأستابورا Astabura، وهي مدينة تنتج كثيراً من الثروات بفعل تعاون الحرفة والطبيعة، ومعنى كلمة حضيروت إهانة أو

عدوان.

وكانت رثمة هي المحطة الخامسة عشرة، ومعنى هذا الاسم: صوت أو باقلاء، ومن هنا جرى إرسال الاثني عشر جاسوساً الى أرض الميعاد التي جلبوا منها عناقيد من العنب.

وكانت المحطة السادسة عشرة هي كاموس Camoth التي معناها : توزيع الرمان (رمون فارص).

والمحطة السابعة عشرة هي لبنة، والتي معناها باللاتينية: في الجانب والمحطة الثامنة عشرة هي رتسه التي معناها: لجام. (في سفر العدد: ٣٣ / ٢١ - رسه ومعناها ندى).

والمحطة التاسعة عشرة هي قهيلاته التي معناها: كنيسة . والمحطة العشرون هي جبل شافر (جبل الجمال) التي معناها: خيانه، أي خيانة المسيح.

والمحطة الحادية والعشرون هي عربة التي معناها: معجزة (في سفر العدد: ٣٣ / ٢٤ - حرارة ومعناها مكان الرعب).

والمحطة الثانية والعشرون هي مقهيلوت، التي معناها: في الاجتماع أي في الكنيسة.

والمحطة الثالثة والعشرون هي تاحت التي معناها: خوف. والمحطة الرابعة والعشرون هي قارح التي معناها: للخدمة أو للمرعى. والمحطة الخامسة والعشرون هي مثقة التي معناها: بهجة. والمحطة السادسة والعشرون هي حشمونة، التي معناها: سرعة. والمحطة السابعة والعشرون هي أفيروث (مسيروت) التي معناها: روابط .

أو نظام.

والمحطة الثامنة والعشرون هي بني يعقان التي معناها: أبناء الضرورة أو السحق.

والمحطة التاسعة والعشرون هي جدجاد التي معناها: رسول، أو حاد، أو ختان.

والمحطة الثلاثون هي يطبات التي معناها: طيبات أي المسيح.

والمحطة الحادية والثلاثون هي عبرونة، التي معناها: العبور.

والمحطة الثانية والثلاثون هي عصيون جابر، التي معناها: عظام الرجل .

والمحطة الثالثة والثلاثون هي برية صين، وهي قادس أو قادس بارن، ومعنى صين: مقدس. وهناك توفيت مريم أخت موسى وهرون ودفنت، وهناك ضرب موسى الصخرة بالعصا مرتين، وجرى هناك جدولين لسقاية تلك الأجزاء من العربية.

والمحطة الرابعة والثلاثون هي جبل أور في تخوم أرض أدوم، وهناك توفي هرون في مكان اسمه هورث.

وفي منطقة أور هناك جبل اسمه جبل عدن، الذي يعرف أيضاً باسم «جبل الرمل»، لأنه قائم في منطقة رملية، وهو جبل يصعب الوصول إليه، وله ارتفاع رائع، مشيد بشكل طبيعي وكأنه برج، قد فصل بشكل اصطناعي، ومحيطه أكثر من مسيرة يوم، ونادراً ما يمكن رؤية أشجار على طرفي الجبل، وتطير أنواع مختلفة وكثيرة من الطيور حول الجبل على شكل أسراب، مع أن الجبل يبدو أنه بدون خضار أو ماء، وبعيد تماماً عن الخصب، لأنه قائم في صحراء، وبالنسبة لهذا الجبل أكد الذين يعيشون على مقربة منه بشكل يقيني، أنه في إحدى المرات كان صعود الجبل مفتوحاً لاثنتين من الرجال وذلك بإرادة من الرب، وتمكن الأول بينهما

بخطوات سريعة وبحرية من اجتياز حدود الجبل، في حين لم يستطع الآخر بصعوبة الوصول إلى وسطه، فتعب وانقطع نفسه فجلس ولم يتابع تسلقه، في حين عبر الآخر الأجزاء العالية، وهو يتعجب من جمال الجبل، ومن الهدوء والسكون في البقعة، ومن نقاء الهواء، وجمال وروعة الورد، ومن روائح الأعشاب الجميلة، ومن أنواع الأحجار الثمينة في مجاري الجداول الصادرة عن الينابيع، ومن صفاء الينابيع، ومن وفرة الفواكه التي تحملها الأشجار، ومن جمال تلك الفواكه، ومن تغريد وغناء الطيور، ومن المواقع الظليلة وخضارها، ورغب وهو مبتهج، وتعهّد أن يعيش هناك وأن يموت أيضاً إذا ماسمح له الرب، ونظر من حوله فاندھش لغياب رفيقه، وبسرور عارم وبهجة، قام وهو يضحك في نفسه وصفق بيديه، فسارع نحو قمة الجبل، فدعا رفيقه، واستدعى صديقه الذي رغب تماماً في أن يسكن معه فوق ذلك الجبل، حيث — كما قال — هناك نبع دائم، ووعدّه أن ما يدعوه إليه هو جنة ثانية، وصحيح أنه ألح كثيراً على رفيقه للالتحاق به، نحن لانعرف، هل أدهشت هذا الصديق مصاعب الجبل أو أنه دفع عائداً بموجب منع رباني، فتخلّى عن الصعود والدخول وبقي حيث هو، وبعدما لاحظ وأدرك ماسمعه ومارآه، طلب الوداع من رفيقه، ونزل بعد صعوبات جمة، وعاد إلى حيث أتى، وحكى كل مارآه وماسمعه، وهناك حول جبل عدن جبال أخرى، وعدد كبير من التلال، والصخور والأكوام الحجرية، المنفصلة عن القمة نزولاً بوساطة أقواس، وكهوف وسرايب، ومغائر متنوعة قابلة للسكن، حيث قالوا بأن نساكاً أتقياء ورهباناً عاشوا فيها في الأزمان القديمة.

وينبع عند سفح جبل عدن نبع قصير وبلا جدول، وأنت إذا ما رأيت هذا النبع تظن أنه لا يكفي بكل صعوبة لإرواء فرسين أو ثلاثة، ومع ذلك إنه يكفي عدة رؤوس حيث تبرهن أن ماءه لا يزداد ولا ينضب.

والمحطة الخامسة والثلاثون هي صلمونة.

والمحطة السادسة والثلاثون هي فونون، وهاتان المحطتان لا وجود لهما في السياق التاريخي.

والمحطة السابعة والثلاثون هي عيبار على تخوم مآب، ومعناها: أكوام من العابرين.

والمحطة التاسعة والثلاثون هي أوبوت التي تغيرت فصار اسمها ماجي Magi أو فيتونس Phitons.

والمحطة التاسعة والثلاثون هي ديون جاد، التي قاتل فيها اسرائيل ضد سيمون ملك الأموريين وعوج ملك باشان، ومعنى كلمة سيمون: إغواء العين، وعوج: خاتمة، وباشان: فوضى.

(الصحيح: سيمون: يجرف كل ما أمامه، عوج: الرقبة الطويلة: الناعم أو التربة الرملية)

والمحطة الأربعون هي علمون دبلا تيم، وهنا في مواجهة أريحا موقع حشبون حيث كتب موسى سفر التثنية.

والمحطة الحادية والأربعون هي جبل عباريم في مواجهة نبوب، وفي عباريم مات موسى، وفيها دفن، غير أن معالم قبره غير ظاهرة في أي مكان، ويقول العبرانيون إن إرميا وقد أعطي رؤيا سقوط القدس، فخبأ في كهف تحت جبل عباريم تابوت العهد مع محتوياته.

والمحطة الثانية والأربعون هي سهل مآب عبر الأردن غير بعيد عن أريحا، لكن الأردن بينهما، وهناك نصبوا خيامهم التي امتدت من موطن البرية حتى بساخاتياس Bessachatais في سهل مآب حيث عسكرت اسرائيل عندما تمت مباركتها من قبل بلعام فوق جبل كرني (كرك؟) في جبل مآب، وترجمة هذه الكلمة: «جبل انفصل بسبب تمزق عنيف»، وأقام في المكان نفسه في السهل الأنف الذكر بالق — بناء على

نصيحة بلعام — امرأة للاكتراء حتى ينخدع بها اسرائيل. وهناك طعن فنحاص زمري والعااهرة برمح، وهناك جرى احصاء بني اسرائيل ودخلوا في معركة ضد المدينيين، وهناك عبروا الأردن، وبعد عبور الأردن كان أبناء رأوبين وأبناء جاد، ونصف سبط منسي أول من تسلم ملكاً في أرض الميعاد عبر الأردن، لكن يوشع نصب خيمته في الجلجال حيث وضع هناك تابوت عهد الرب، وتدل كلمة جلجال على لف أو وحي، وهنا جرى تحذير بني اسرائيل ومنعهم من جلب الأصنام إلى الأرض المقدسة: ومن هناك قدموا إلى أريحا وحاصروها، ودمروها تدميراً كاملاً، ومعنى كلمة أريحا: قمر أو انقضى.

وبين الأردن وأريحا يقوم بيت أجلا Bethagla ومعنى هذه التسمية بيت الدائرة، لأن هناك التف أولاد يعقوب حول جنازة أبيهم وهم ينوحون وذلك عندما جلبوه من مصر إلى حبرون.

وبين أريحا والجلجال أم كنخور Emecanchor التي معناها: وادي عخور، أي جيشان الناس أو الحشود، فهناك رجم عنخان حتى الموت لأنه أخذ أشياء ملعونة، وفي الجلجال ختن يوشع الناس مرة ثانية، وهم أقاموا الحجارة التي جلبوها من الأردن، لأن تابوت العهد ثبت هناك لمدة طويلة.

وتتصل العربية بأدوم في تخوم بوضترون Bostron التي هي بصرة التي كان منها برخئيل البوزي، لكن هناك بصرة أخرى في جبال أدوم، التي ذكرها إشعيا بقوله: «من ذا الآتي من أدوم بثياب حمر من بصرة؟» (إشعيا: ٦٣ / ١)، وأجزاء من أدوم هي طرخونة وعيطورة التي تطل على دمشق، ومن هاتين اتخذ فيليب — تبعاً للوقا الانجيلي — دويلة، وكان الذي أسس طرخونة هو عوص، الابن الأول لآرام، وحفيد سام، ولهذا السبب عرفت باسم بلاد عوص، ومنها جاء يعقوب البصري المبارك، الذي كان من قبل مطران أدوم، وأدوم هي جزء من سورية، وفي سورية

تقوم دمشق.

وكان أليعازرا بن وكيل ابراهيم قد أوجد دمشق في ذلك الحقل الذي قتل فيه قاتن أخاه، ولهذا السبب تعرف دمشق باسم ابنة الدم أو قبلة الدم، وكانت دمشق من قبل عاصمة سورية، لكن تلك المكانة نقلت من قبل أنطوخيوس إلى أنطاكية، وحملت سورية اسمها من سوري حفيد ابراهيم، وهو ابن قطوره Ceturah ، وتعرف دمشق أيضاً باسمها الثاني وهو أرام، وباسم ثالث هو أرفاث Arfath ، ولدمشق مكانة عالية في سورية، لأنها كانت مطرانية من قبل، وتبعاً لذكرياً عرفت دمشق باسم حدراخ، وسكن عيسو أجزاء منها، وامتلك أيضاً سعير وأدوم، ونسبة لأدوم يعرف جزء من سورية باسم أدمة، وفي سعير تقوم مدينة أدمة، وفي أدمة، ليس بعيداً عن دمشق، يقع جبل سعير، وسكن في سعير الحوريون الذين قتلهم خدر لغومر.

وفي أحواز أدمة، وعلى بعد ثلاثة أميال من الأردن يقع نهري يعقوب، وعرف بهذا الاسم بعدما عبره يعقوب عندما عاد من بلاد الرافدين، وإثر ذلك تصارع مع الملاك.

وعلى بعد أربعة أميال من دمشق يقوم المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول وخاطبه قائلاً: «شاول، شاول، لماذا أنت تعذبني؟»، ولذلك هناك أيضاً في دمشق كنيسة محترمة مكرسة على شرفه وهي تحت إدارة رئيس أساقفة أرثوذكسي.

وعلى مسافة أربعة وعشرين ميلاً من دمشق تقوم بانياس، وذلك عند سفوح لبنان باتجاه الجنوب، وهي مدينة عظيمة تدعى أيضاً باسم بانياس، وهذا الاسم مشتق من كلمة بيلينا Bilina بسبب جمال الموقع، وتعرف أيضاً باسم قيصرية فيليب، حيث تلقت من قيصر اسمه.

وعلى بعد (خمسة وعشرين) ميلاً من دمشق، وذلك باتجاه الشرق يقوم

مدخل وادي البقاع، وهناك تقوم بعلبك، وهي مدينة قائمة على موقع جميل جداً، وقد جرى تأسيسها من قبل سليمان، وبسبب خصب غابتها بمختلف الأشياء الجيدة وشهرتها، دعاها باسم «غابة لبنان»، فقد بنى فيها بيتاً من عاج، ومن هنا تعرف أيضاً باسم غابة لبنان.

وينبع عند سفح جبل لبنان فرفروأبانا، نهرا دمشق، ويفصل أبانا جبال لبنان ويتدفق عبر سهل عرقة، وفي تلك المنطقة يتصل بالبحر العظيم، وإلى هذه المنطقة انسحب يوستاخوس Eustachius المبارك، لدى اعتزاله بعدما حرم من الزوجة والأولاد.

وعرقة مدينة لاترام تقريباً، وقد أقامها عرقوس الابن السابع لكنعان، عند سفح جبل لبنان، على بعد ثمانية أميال من مدينة طرابلس، وذلك باتجاه الشرق، وتشكل عرقة بداية فينيقية، التي حدها جبل الكرمل، وهناك تبدأ فلسطين، ويشطر لبنان سورية وفينيقية، ويجري فرفر خلال سورية إلى ربلاتا (ربله) أي أنطاكية، ويتدفق قرب أسوارها ليدع نفسه فيصب في البحر المتوسط في ميناء سلوقية (السويدية) أي القديس سمعان، وذلك بعد عشرة أميال من المدينة. وعند سفح لبنان، وليس بعيداً عن بانياس هناك «أر» و«دن» فمن هذين النبعين يتشكل نهر الأردن تحت جبل جلبوع، حيث جرى تعميد المسيح من قبل يوحنا، ويمتد من جبال جلبوع إلى بحيرة الوادي الذي يجري فيه نهر الأردن، ويعرف باسم الغور.

ويطلق بالعبرية (الصحيح بالآغريقية) اسم ألون على ذلك الوادي الواسع والمستوى الذي يحده من الطرفين استمرار امتدادات جبل لبنان إلى صحراء فاران، ودون ألون هناك وادي بيسان، أي الوادي الذي يمتد من بيسان إلى الأردن.

وفي الشمال، فوق الأردن، هناك بعل، وبعل معون، وهما مدينتان لهما

شهرة واسعة، بنيتا من قبل رأوبين، ويوجد في الشمال بيت رام الذي بناه سبط جاد. وفي ألون، عبر الأردن، هناك عمون أي بيت حنينا الذي تعمد فيه يوحنا، وفي زاوية بيت حنينا هذه هناك: قرنايم وعشتاروث، فهناك - حسبما قالوا - سكن يعقوب، ويفصل الأردن فيما بين الجليل ومنطقة البترون، ومعنى كلمة الأردن: الانحدار، لأنه ينحدر دوماً عبر مجراه، ويرسل «دن» ماءه تحت أرض غالبة المنطقة من منبعه الى ميدان ليس بعيداً عن ثمان theman التي هي مطرانية سوته (الحولة)، وميدان سهل جميل وخصب، فيه تظهر قناة «دن» بوضوح فوق الأرض، ولهذا السبب عرف باسم ميدان، لأن «دن» ينبعث ثانية في منتصفه.

وعند المسلمين تطلق كلمة ميدان على الطريق الواسع، ويقابلها باللاتينية فوريوم Forum، وللسبب التالي أطلق عليه اسم ميدان، ذلك أنه في كل صيف يحتشد عدد هائل من الناس هناك، ويقيمون في ذلك السهل، وهم يحملون أو يجلبون معهم كل شيء قابل للبيع والشراء، ويكون معهم قوة كبيرة من الفرس والعرب لحمايتهم، ولإطعام قطعانهم في هذه المراعي الخصبة جداً، وتتألف كلمة ميدان من كلمتي «مي» و«دان»، فكلمة «مي» معناها عند المسلمين الماء (في اللاتينية أكوا Agua)، ومعنى كلمة «دان» نهر، ويجري نهر «دن» من سهل دان الأنف الذكر الى الحولة.

والحولة الآن جزء من أرض الحصن (جمالا Gamala)، وما يزال يرى في الحولة أبدة يعقوب، وهي مسرح عيد سنوي يرعاه ويشارك فيه الأرثوذكس والسريان والمسلمون.

وبعد الحولة نعان التي جاء منها سوفر Sophar النعماني، وينحرف «دن» المواجه لطبرية جانباً تحت مدينة جدر (أم قيس)، ويعبر السهول قرب الحمامات الطبية لسبايتوم Spinetum (الحمة) ويتحد مع

«أر» تحت جلبوع.

وفي سبايتوم انهزم جرفاس أوف باسيل، وهو الأمير الثالث لطبرية بعد تانكرد، وهو أيضاً انحدر من بيت فرنجي نبيل، انهزم أمام طغتكين ملك سورية وقد أخذه أسيراً وحمله الى دمشق، وهناك أسكر طغتكين نفسه الى أبعد الحدود، وفي هذه الحالة أمر بقطع رأسه، وبذلك حوله الى شهيد مشهور للرب، وعندما عاد الى نفسه في اليوم التالي شعر بالخجل وغضب لأنه أهلك مثل الرجل الجيد، فأمر بدفنه بدون رأسه، وأمر بقحفه فزينه بشكل جميل بالذهب وبالجواهر الثمينة واحتفظ به كتذكار عزيز عليه، ويشرب منه.

ويصبح «أر» على مقربة من بانياس بحيرة (الحولة)، ثم بعد ذلك يصير بحر الجليل الذي يبدأ بين كفرناحوم وبيت صيدا، وجاء من بيت صيدا كل من بطرس وأندرو، ويوحنا، وجيمس، وجيمس هو ابن ألفيوس وتقع على أربعة أميال من بيت صيدا كوروزين Corozain التي سوف ينتعش فيها المسيح الدجال.

وتقع جدر على بعد أربعة أميال من هاهنا، وهي مدينة رائعة، عنها قيل: «هو سكن مع سكان جدر»، ومعنى كلمة جدر: الظلام.

وتقع كفرناحوم على النهاية العليا من البحر، وعن وفائها تحدث المسيح، وعلى بعد ميلين من كفرناحوم يقع مهبط الجبل، الذي أقام فيه قداس وعظ للحشود، وهناك أيضاً أبراً المجذوم.

وعلى مسافة ميل من ذلك المهبط المكان الذي أطعم فيه الرب خمسة آلاف رجل، ولهذا السبب يعرف المكان باسم «المائدة»، ومصائب له المكان الذي أكل فيه المسيح معهم بعد قيامته.

ويقوم عبر شاطئ بحر الجليل جرجوسيا، وهو المكان الذي شفى فيه الذين تلبسهم الشياطين. وعلى يسار رأس البحر، في جوف الجبل تقوم

جنسار، ويحتوي المكان على ذهب، ومنه ينشأ مستنقع جنسار.

وعلى مسافة ميلين من جنساريقع المجدل، الذي جاءت منه مريم المجدلية، وهنا زيادة على هذا يوجد كل من زبلون Zabulon ونفطليم Nephtalim التي جاء منها طوبياس، وكان في الأجزاء العليا من الجليل هذه عشرين مدينة أعطاها الملك سليمان بمثابة هدية إلى حيرام ملك صور.

وعلى بعد ميلين من المجدل تقع مدينة سينيرث cynereth التي هي طبرية، وكان هيرود الأصغر قد أسس طبرية تشريفاً للقيصر طايبروس، وأطلق عليها اسمه، ونسبة إلى مدينة طبرية حملت البحيرة اسمها وباتت تعرف باسم بحيرة طبرية، ومحيطها يقارب رحلة يوم واحد، زد على هذا إن من سماتها نفسها أنها إذا لم تتلق قاذورات المدينة والقلاع المجاورة يصبح ماؤها غير قابل للشرب وله رائحة.

وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقوم مدينة بيت أوليا (خطأ — الإشارة هنا إلى صفد ولعل بيت أوليا الآن: مثليا) التي جاء منها يودث الذي قتل أولوفرنس Olofernes.

وعلى بعد أربعة أميال من طبرية باتجاه الشمال تقع دوثيم (لعل المراد هنا خان يوسف وتقع دوثنان قرب طولكرم) حيث وجد يوسف أخوته، وحيث هناك باعوه.

وتقع مدينة الناصرة على بعد اثني عشر ميلاً من طبرية، وهي حاضرة الجليل، وفيها نشأ يسوع وترعرع، ومعنى كلمة ناصرة هو: وردة، وفتح يسوع في الناصرة سفر يساياس Ysaïas وشرح بعضاً منه لليهود، وعند أعلى نقطة من الناصرة، تجاه الشرق، ينبع نبع رائع اعتاد يسوع في طفولته أن ينضح منه الماء لحاجيات أمه ولحاجياته.

وعلى بعد ميلين من الناصرة تقع مدينة الصفورية، وذلك على الطريق

التي تقود إلى عكا، وقد نالت اسمها من صفت الذي أسسها، وكان من الصفورية حنة المباركة أم أم المسيح.

وعلى بعد خمسة أميال من الناصرة تقوم قانا الجليل (كفر كنا)، وهي مدينة قديمة سكنها سبط أشير، وفيها حول يسوع عندما كان صبياً الماء إلى نبيذ، ومن قانا جاء شمعون الكنعاني وفيليب وناثانئيل.

وعلى بعد ميل واحد من الناصرة باتجاه الجنوب، هناك مكان يدعى Precipice (جبل قفزة)، وهو حافة جبل، رغب منها والد يسوع أن يرميها عندما اختفى عنهما.

وعلى أربعة أميال من الناصرة، باتجاه الجنوب، يقوم جبل الطور، وذلك في وسط الجليل، وهو جبل مرتفع له استدارة رائعة: وعليه تغير شكل يسوع وأظهر اشعاعه للذين كانوا معه، وعند منحدر جبل الطور التقى ملكيصادق بآبراهيم وهو عائد من قتل أمالخ وقدم له خبزاً ونبيذاً، وعلى بعد ميلين من الطور، باتجاه الشرق يقوم جبل حرمون آخر في أدوم على مقربة من سلسلة لبنان الشرقية، وتحت جبل الطور تعاهد آبراهيم وملكیصادق حول دفع العشور.

وتقع مدينة نين على بعد ميلين من الطور، وكانت فيما مضى من مدن بني إسرائيل، وعند بابها ردّ يسوع ابن الأرملة إلى الحياة، وعبر نين يقع جبل إندور (عين دور)، وفيما بين إندور والطور، في سهل نين تقوم كدوميم Kadumim، أي مسيل قيسون (نهر المقطع)، ودون ضفته هزم باراخ الأدوميين، وذلك بناء على تحريض دبورة، لأن سيسرا Sysara كان قد قتل من قبل يثيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال من الطور، باتجاه الشرق، تقوم شارون Saron (تل صارم، أو سهل ابن عامر).

وعلى بعد خمسة أميال من الطور تقوم جرزيل، أي زرعين، وهي مدينة

قديمة، وفي جرزيل حكم أهاب وجيزيل، وكان من جرزيل نبوت الذي قتل من قبل المتآمرين التابعين لجيزيل، وحدث فيما بعد أن جرزيل، قصفت من قبل يهوه وقتل سكانها، وماتزال بقاياها قائمة هناك، وعلى مقربة جرزيل يقوم سهل مجيدو، فهناك هزم يوشع وقتل من قبل ملك السامرة، وحمل جسده إلى صهيون ودفن هناك.

وعلى بعد ميل من جرزيل يقوم جبل جلبوع (فقوعة)، حيث سقط ومات كل من شاول ويوناثان، وفي جبل جلبوع هناك قرية اسمها جلبوع (جلبون).

وعلى بعد ميلين من جلبوع تقوم بيسان التي هي مطرانية الجليل، وعلى أسوار بيسان جرى تعليق رأس شاؤول، وفي الجليل قرية هلكيسي Helchisi التي جاء منها النبي ناحوم.

وعلى بعد خمسة أميال من جرزيل تقوم بلدة جنين التي تبدأ منها السامرة ويقع بين جنين ومجدو (لجون) غير (غور)، وهو المكان الذي قتل فيه ياهو ملك اسرائيل أخزيا ملك يهوذا (الملوك الثاني: ٢٧/٩).

وعلى بعد عشرة أميال من جنين تقع السامرة، التي نالت المنطقة التي من حولها اسمها، وهي قد أسسها سنحريب، ومن السامرة جاء السامريون، وكان أنطوخيوس قد هدمها تماماً ثم أعاد بناءها هيرود بن أنتباتر تشریفاً للقيصر أغسطس، وأطلق عليها اسم أوغسطة التي هي بالاغريقية سبسطية، وقد قيل بأن يوحنا المعمدان قد دفن هنا فيما بين إليجا وعوبيدا، وكان قد قتل من قبل هيرود عبر الأردن في قلعة مكروناتا Macheronta ويحكى بأن جسده قد أحرق من قبل الحوارى يوليان، وذرماده في الهواء، وكان رأسه قد حمل منذ القدم إلى الاسكندرية والذي حمله هو مارسيلوس الكاهن، ثم حمل فيما بعد إلى أكوطين، وذلك مع ثلاثة من الأبرياء، والذي حمله هو فلسيوس Felicius، وهو راهب

كان في أيام بين، وكان بين عائداً آنذاك من مقتلة أوقعها بالوندال، وبفضل فضائل يوحنا المبارك عاد إلى الحياة عشرون من رجاله كانوا قد سقطوا وقت القتال، أما اصبعه التي أشار بها ليسوع ليأتي للتعميد، فقد حملتها معها العذراء تغريس Tygris المباركة خلال جبال الألب، واحتفظ بها هناك وسط تبجيل عظيم في كنيسة مورين Maurienne، ومن سبسطية كانت الأم التي أكلت أولادها تحت ضغط الجوع، ومثل هذا حدث لمريم في القدس، وفي سبسطية تنبأ إليسيوس Eliseus، وأطعم مائة نبي في كهوف، وفي السامرة مدينة سونا Suna (سنور بين جنين وسبسطية) التي جاءت منها المرأة السامرية، ومن السامرة كان شمعون مجوس.

وعلى بعد أربعة أميال من سبسطية تقع مدينة شكيم (نابلس) التي بناها عمور Emor مع أولاده، وأطلق عليها اسم شكيم، ودعيت فيما بعد باسم نيابولس، أي المدينة الجديدة، وهناك هدم أولاد يعقوب شكيم، وقتلوا عمور لغضبهم من مضاجعته لأختهم، وفي شكيم دفنت عظام يوسف التي جلبت من مصر، وفي شكيم عند سفح جرزيم، قرب نبع، صنع يربعام العجلين الذهبيين، وقد وضع أحدهما في (دان) والثاني في بيت إيل، ويحكي السامرة والسوريون أن أربعة جبال تظلل شكيم هي: جبال، ودان في الشرق، وبيت إيل وجرزيم في الجنوب، وهذا ماكره جيروم بالنسبة للاثنين، قائلاً إنهما في أرض الميعاد عبر أريحا، يعني جبال، حيث قام يوشع بناء على أوامر موسى ببناء مذبح من حجارة غير منحوتة، وإلى جانبه جرزيم، ومن هذين يمكن سماع أصوات الذين يتبادلون تبريكات ولعنات بعضهم بعضاً.

وعبر شكيم تقع لوزان (خربة لوزة) وذلك على بعد ميل منه، وقد أسست من قبل ييوس، وهي تعرف بالعبرية باسم ألاموس ulamaus، وهنا أراد إبراهيم بناء على أمر من الملاك، أن يذبح ابنه اسحاق، وفي

حين انتظره ابنه الشاب مع الأتان عند سفح الجبل، تمت التضحية بكبش عوضاً عنه، وتقليداً لإبراهيم يقوم المسلمون بالتضحية هذه كل عام، ويضحي سلطان الفرس وهو أعظم رجل بينهم وكذلك أمير ممفيس (القاهرة) بأيديهما بجمال، وبعدما نام يعقوب في ذلك المكان، والرؤيا التي رأى فيها السلم، صار يطلق على المكان اسم «بيت إيل»، أي بيت الرب، لكن بعدما وضع يربعام العجل الذهبي هناك صارت تعرف باسم «بيت أول» أي بيت الصنم، كما أنها دعيت من قبل إبراهيم باسم «الرب يرى» وشيد يعقوب حجراً لتكون أبدة ذكرى.

وعلى بعد ميل من بيسان تقوم بلدة عسكر، وذلك على مقربة من الملكية التي أعطاها يعقوب لولده يوسف، وفيها يقوم نبع يعقوب، الذي هو بئر، وقال الانجيلي بأنه عبره تكلم يسوع مع المرأة السامرية.

وقد بنيت هناك كنيسة، وليس بعيداً عن بيسان مكان البطمة التي أخفى يعقوب تحتها الأصنام.

وعلى بعد ستة أميال من بيسان ثانزري Thanazare (تمنة) وذلك باتجاه الجنوب، وهي مدينة يوشع، حيث عاش ومات، وضريحه ما يزال في هذا المكان.

وعلى بعد عشرة أميال من بيسان تقوم قلعة صنجيل (Egidius) التي نالت اسمها من الكونت صنجيل (الكونت ريموند الرابع، كونت طولوز، كان أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى) الذي عسكر هناك مع جيش الفرنجة في اليوم الذي تقدم على رؤيتهم القدس.

وعلى بعد أربعة عشر ميلاً من القلعة المذكورة أعلاه تقع القدس، التي هي أهم حاضرة مقدسة في يهودا.

وعلى مسافة أربعة أميال من القدس تقع إفراته التي بنيت من قبل اليبوسيين، وقد سماها يعقوب فيما بعد بيت ليم (لحم)، أي بيت الخبز،

حيث هناك فيها ولد المسيح، وكان من بيت ليم (لحم): بوعز وعوفيد والد إيشا (يسي) والد الملك داود، الذي من ذريته انحدر المسيح، وفي بيت لحم، إلى جانب المهد هناك المزود الذي استلقى فيه الرضيع يسوع، وقد حمل إلى روما من قبل الملكة هيلانة، وبتشریف وضع في بازيلिका القديسة مريم الكبيرة.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، وباتجاه الجنوب أشع النجم على الرعاة عندما ولد الرب، حيث أنشد الملائكة «المجد في الأعالي»، وإلى بيت لحم جاء الحكماء (المجوس) لعبادة الرب، وهناك أيضاً جرى ذبح الرضع من قبل هيرود.

ويرقد الجزء الأكبر من الأبرياء مدفونين على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من بيت لحم.

وعلى بعد ميلين من بيت لحم وباتجاه الغرب تقوم راما (بيت جالا) التي قيل عنها: «صوت سمع في راما». وفي بيت لحم يرقد جسد جيرومي المبارك مع جسدي باولا ويوستوخيوم Eustochium.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم تقوم تقوع التي جاء منها النبي عاموس الذي يرقد جسده هناك في ضريح، ومن أحوازها حمل النبي حبقوق بوساطة الملاك إلى بابل، وفي تقوع اعتاد كثير من الأنبياء على الالتقاء للبحث في أشياء لاهوتية.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم، باتجاه حبرون تقوم كنيسة القديس كريثوث Karithoth (في خريطون قرب تقوع)، حيث عندما كان نفسه ينتقل من هذا العالم إنتقل جميع أصحابه تماماً معه، وحمل كريثوث المبارك فيما بعد إلى القدس حيث ما يزال يرى في جسده.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، وعلى الطريق المؤدي إلى القدس هناك قبراتا (قبة راحيل أو قبر راحيل)، وهو المكان الذي ماتت فيه راحيل

بعدها ولدت بنيامين، وكان موتها بآلام المخاض، فهناك دفنت من قبل يعقوب، وقد وضع يعقوب فوق قبرها اثني عشر مصباحاً، وهي ماتزال موجودة حتى الآن.

وعلى مسافة ميل من قبراتها، بين بيت لحم والقدس، وباتجاه اليمين هناك بيت عرقة، وهو المكان الذي قتل فيه الملاك في ليلة واحدة مائة وخمسة وثمانين ألفاً من جيش سنحريب، وقد هرب سنحريب وعاد إلى نينوى وقتل من قبل ولديه.

وتبعاً للتقاليد العبرية، قيل بأن أول من ولد لنوح هو ابنه سام، الذي تدعوه هذه التقاليد باسم ملكيصادق، وهو أول من أسس «سالم» بعد الطوفان حيث حكم بمثابة ملك وكاهن، واستولى اليبوسيون فيما بعد عليها وسموها «يبوس» صدوراً عن اسم جدهم ييوس، وهو الابن الثالث لكنعان، ثم جرى دمج كلمتي «يبوس» و«سالم» فباتت تدعى من قبل سليمان «يوروسلوما» وكأنها «يبوس سلمونيا»، ودعيت من قبل الشعراء «سوليا» وباسم «إيليا» من قبل «اليوس هديران» لأنه هو الذي استردها، وهي صهيون التي معناها بالعبرية «تراقب» (يقال معناها القمة أو المكان المشمس)، ومعنى كلمة أورشليم «رؤيا السلام».

والقدس هي حاضرة اليهودية، مثلما هي صرة الأرض، قائمة في وسط العالم، وبناء عليه قال داود: «والله ملكي منذ القدم فاعل الخلاص في وسط الأرض» (المزمور: ٧٤/١٢)، وتتفوق القدس على جميع مدن العالم في الصلاة والإحسان، وحكم داود في القدس ثلاثاً وثلاثين سنة بعد طرد شاؤول، ومن القدس النبي يساياس Ysaïas (زكريا) الذي نشر مع الشجرة، وكان نشره من قبل الملك منشا Manasseh ، وفي القدس جبل موريا، أي أرض بيدرخرنام اليبوسي، التي رأى داود عليها الملاك الضارب، والتي بني عليها فيما بعد الهيكل من قبل سليمان.

وبعد مرور ثلاثة آلاف ومائة وستين من آدم وألف وأربعمائة سنة من الطوفان وألف ومائتي سنة من مغادرة ابراهيم لبلاد الرافدين، وخمسمائة سنة وستين من خروج بني اسرائيل من مصر، ومائتين وأربعين سنة من تأسيس صور، بدأت أعمال البناء في هيكل الرب، وقد بنى الملك سليمان الهيكل أي بيت إيل والمذبح الذي كرس بتقوى واخلاص وانفاق لامثيل له، وهذا الذي دنسه نبوخذ نصر أيام الملك صدقيا، ونهبه نهبا كاملا، وجعل عالي المدينة سافلها، وأمر بصدقيا وأولاده بأن يقادوا أسرى أمامه إلى ربلة يعني أنطاكية، وهي أيضا قد عرفت باسمين آخرين هما حماة وأفاميا (تقع ربلة على الطرف الشرقي من العاصي على بعد خمسة وثلاثين ميلا إلى الشمال الشرقي من بعلبك)، وهنا قتل أبناء صدقيا وهو حاضر، ثم حرمه من عينيه، ودمر بعد هذا نبوزردم صهيون والهيكل تدميرا كاملا، غير أنه أعيدت عمارته فيما بعد من قبل عزرا الكاتب ونحميا في ظل حكم قورش ملك الفرس، وجرى تدمير الهيكل ثانية من قبل أنطيوخس، وأعيدت عمارته من قبل المكابيين، وتم تدنيسه من قبل بومبي، الذي مكث فيه عندما هرب من وجه يوليوس قيصر، وأخيرا جرى تدمير الهيكل الثالث من قبل تيتوس وفسبسيان، وبشأن هذا الموضوع يقولون: أعيدت عمارته من قبل هيلانة في ظل حكم الامبراطور قسطنطين، وقال آخرون: لابل الذي أعاد البناء هو الامبراطور هرقل، لابل قيل من قبل بعضهم إن الذي تولى ذلك الامبراطور جستنيان، وهناك من يقول: إن الذي فعل ذلك واحد من أمراء ممفيس في مصر، وأوقفه على اسم «الكبير» أي «الله العظيم»، فهذا ما تذكره الكتابات الاسلامية بشكل واضح تماما، لأنه عندما وصل الفرنجة لاشيء من الشريعة أو الاغريقية وجد مكتوبا عليه، ويدعى الهيكل الحالي باسم الهيكل الرابع، وأمام الهيكل الذي وجد قبله، جرى ختان الطفل يسوع، وقد عرض أحد الملائكة غرلته على شارلمان وجعله يشاهدها في الهيكل، وهو الذي جلبها إلى اكس لاشييل (آخن)، ثم جرى نقلها فيما بعد من

قبل شارل الجريء إلى أكوطين في مقاطعة بواتوقرب كاروكس Char-roux، وجرى تقديم يسوع وعرضه في الهيكل من قبل أمه، وقد تسلمه سمعان، وطرده يسوع من الهيكل الذين كانوا يبيعون ويشتررون، وهناك حرر الزانية من أيدي الذين اتهموها، ومن الهيكل جرى رمي المبارك جيمس، وفي الهيكل أعلن الملاك وكذلك أعلم زكريا بميلاد ابنه، وفيما بين الهيكل والمذبح سقط زكريا بن براهيا، وحول المسلمون فيما بعد هذا المذبح إلى مزولة، ومن الممكن رؤيته حتى الآن في القاعة، ويقع في القدس إلى جانب القديسة حنة، وليس بعيداً عن الباب الذي يمضي الانسان منه إلى يهوشافاط، بركة الغنم، وأقام يسوع في وسط القدس الفتاة من الموت، وفي القدس جرى اعدام جيمس الثاني من قبل هيرود بوساطة السيف، ومن هناك حمل إلى يافا، ومن ثم فيما بعد إلى اسبانيا، ودون موقع الهيكل يقوم الآن مكان إقامة الجنود الذين يحرسون القدس*.

وفي القدس Xenodochium أو Muscomion، وال Xeno-dochium بالاغريقية بيت استقبال للغرباء والفقراء، أما Mus-comion أي المشفى، فهو المكان الذي يجمع المرضى من الشوارع والقرى ويعتنى به بهم، ويوجد خارج أسوار القدس، فيما بين برج تانكرد وباب القديس ستيفن محطة لإيواء المجذومين، ويقال بأن هركانوس أمير اليهود أول من أسس مشفى بوساطة أموال استخرجها من ضريح داود، وفي ضواحي القدس، في وادي أبناء عنون باتجاه الجنوب، هناك مكان

* بعد استيلاء الفرنجة على القدس عام ١٠٩٩، أعطيت منطقة الحرم إلى فرسان الداوية الذين تأسس نظامهم حديثاً، وقد ترك هؤلاء قبة الصخرة بدون تغيير، غير أنهم أحدثوا تغييرات هامة في المسجد الأقصى، حيث بنوا مستودع أسلحتهم في جانبه الغربي على طول الجدار الجنوبي للمنطقة، وجعلوا اسطبلًا لخيولهم في بناء منخفض ألحق بالزاوية الجنوبية الشرقية إلى الغرب من مهد يسوع.

توفث Thopheth وهو المكان الذي كان بنو إسرائيل لا ينجحون به من عبادة أصنام الكفار، ومعنى وادي عنون هو وادي جنون، لأن العبرانيين ضحكوا هناك بأولادهم للشياطين، ويدعى هذا الوادي أيضاً باسم وادي الأوثان، لأنهم عبدوا فيه الأوثان، ووادي جيسماني هو وادي يهوشافاط، ويتصل وادي عنون بـ وادي جيسماني، ودون قصر سليمان (المسجد الأقصى) عند منعطف صهيون، وإلى حد كبير في وادي يهوشافاط، تقع بركة سباحة سلوان، التي تنبع، حسبما جاء في التقاليد العبرانية، من سيلو Sylo ويجري جدول سيلو بصمت، لأن جريانه هو تحت الأرض، وتحت سلوان هناك نبع روجل (عين أم الدرج)، وإلى جانبها دفن كما قيل بسياس، وملاصق لعين روجل « الزاحفة » وهي الحجر التي ضحى عليها أدونيا بأضاحي (انظر الملوك: ١ / ١ / ٩)، وعبر سلوان، باتجاه الجنوب بركة سمك فولر Fuller، وحقل ملاصق لحقل الفاخوري وفيه أكلداماك، حيث يجري دفن الغرباء، وعبر أكلداماك يوجد مكان جيحون حيث مسح صادوق الكاهن سليمان ملكاً، وقد قيل بأن جيمس المبارك قد دفن في وادي يهوشافاط، ومن هناك نقل إلى القسطنطينية، وفي وادي يهوشافاط وتحت أبدة معلمة جرى دفن الملك يهوشافاط.

وعلى بعد ميل من القدس هناك باتجاه البحر الميت بيت حنينا، فهناك استقبل شمعون يسوعاً ضيفاً له، وهناك أيضاً استحققت مريم غفران الذنوب، وحيث أقام يسوع أيضاً لازاروس من الموت، وفيما بين بيت حنينا وجبل الزيتون يوجد بيت فاجي.

وغسل في صهيون يسوع أقدام حواريه وتعشى معهم، وفي القدس باع يهوذا يسوع إلى اليهود، وعند منعطف جبل الزيتون المكان الذي صلى فيه يسوع لأبيه، وذلك عندما قال لبطرس: «ألا تستطيع أنت أن تصبر معي ساعة واحدة؟»، ولدى عودته من هناك إلى جيسماني، جرت خيانتة من قبل يهوذا لصالح اليهود، وقدم هناك مغلولاً إلى أناس An-

nas وكيفاس في رواق سليمان، وأخذ من هناك إلى صهيون إلى المكان الذي يدعى الـ «Litostrotosā» الذي ما يزال يرى أمام باب كنيسة، وأخذ بعد هذا إلى أكرا، وبعد إهانة كبيرة صلب فيها بين اللصوص، وفي ميدان التجار هناك كنيسة تسمى «اللاتينية»، لأن اللاتين تملكوا هذا المكان منذ أيام الرسل، وهناك المكان الذي بكت فيه الأم أولاً بعد الآلام من أجل ابنها، وكذلك فعل الحواري من أجل معلمه، ودون موقع أكرا (الجمجمة)، وباتجاه الجنوب، في مدخل الكنيسة، هناك مكان وحي، على مكان قيل بأن ثلاثة حملن اسم مريم قد بكن من أجله، بينما هو يعاني على الصليب، وليس بعيداً من هناك المكان الذي دفن فيه يوسف يسوع، وتنزل هناك في ليلة عيد الصعود على مشهد من عدد كبير من الناس، كل سنة النار المقدسة، ويجري تبجيل ضريح الرب، وفي المكان الواقع في الوسط فيما بين الضريح ومكان الآلام، ظهر يسوع لمريم المجدلية، وفي مكان يدعى السجن Carcer حبس يسوع بينما جرى اعداد الصليب له.

وعلى بعد تسعة أميال من القدس تقع يثروبولس Eutheropolis أي عمواس (خطأ والصحيح بيت جبرين)، فعلى الطريق هناك ظهر الرب إلى اثنين من حواريه عندما كانا يسيران، وظهر في جبل صهيون لحواريه أثناء غياب توما، وبعد ذلك ظهر ثانية عندما كان توما حاضراً، وفي جبل الزيتون صعد إلى الأب، وهناك يرقد أيضاً جسد بلجيا Pelagia المباركة، وقد أخذت إلى يهوشافاط من قبل الحواريين، ويحكى أن الملكين داود وسليمان مع ملوك القدس الآخرين قد دفنوا في جبل صهيون، وأمام باب القدس المتجه نحو الغرب قذف المبارك ستيفن بالحجارة، وحمل من هناك إلى صهيون ودفن مع نيقوديموس Ni-codemus.

وفيما بين القدس ويهوشافاط كنيسة، يقولون جلس فيها شاول وقت

تعرض ستيفن للقذف، وليس بعيداً عن القدس هناك كهف حمل منه
أسد في ليلة واحدة — بارادة الرب — اثني عشر ألفاً من الشهداء
الذين قتلوا من قبل خسرو Chosroes.

وعلى مسافة ميلين من هناك المكان الذي نمت فيه شجرة صلب
الرب، وليس بعيداً عن موقع الجمجمة المكان الذي عثر فيه على
الصليب المقدس، وعندما جرى البحث والتقصي عن مكان الجمجمة
بكل يقظة، أمرت هيلانة بتنظيف الموقع، وقد جرى تدمير تمثال فينوس
إلى قطع، وهو التمثال الذي وضعه هادريان هناك لإهانة المسيحيين.

وعلى محاذاة جبل الزيتون جبل العدوان حيث أغوي الملك سليمان
من قبل زوجاته فبنى هيكلاً لكموش ولمولك.

وعلى بعد ثلاثة أميال من القدس تقع عناتا، التي جاء منها أرميا
العناتي.

وعلى بعد ميل من القدس، وباتجاه جاجاس Gagas، يقع المكان
الذي يدعى سكوبس، الذي خرج إليه سبط لاوي لمواجهة الاسكندر.

وعلى مسافة خمسة أميال من القدس، وباتجاه الجنوب، تقوم البلدة
التي قدمت إليها مريم للسلام على اليزابث، وحيث يحكى بأن يوحنا قد
ولد.

وعلى ميلين من القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى نابلس يقع جبل
جبعة، ومدينة فنحاص، حيث يقال هناك دفن (المتداول هو أن القبر في
عورتا جنوبي نابلس، وجبعة هي تل عاصور).

وعلى بعد ميل من عمواس، وباتجاه الجنوب تقع جبعة، حيث يرقد
حبقوق، ومن جبعون كان شاول قد انتخب في الجلجال، وفي جبعون
فسدت زوجة لاوي.

وبين القدس وعسقلان، وملاصق لبيت حنينا يقوم موقع «أبوزر Abuezer» ، وهو المكان الذي أخذ فيه الفلسطينيون تابوت الرب. (لعل الموقع هو دير أبان إلى الشرق من عين شمس).

وموقع بيت عور موجود في أرض أبناء يوسف التي إليها طارد يوشع الملوك، وهناك بيتان تحت اسم عور وهما: بيت عور الفوقا وبيت عور التحتا، وبني سليمان الفوقا والتحتا، وملكها إلى اللاويين، وفي منطقة بيت عور ولد النبي يوثيل وكذلك دفن.

وعلى بعد سبعة أميال من القدس، وعلى الطريق المؤدي إلى نابلس تقع جبعون التي جاء منها الجبعونيون، وهناك جبعون أخرى ملاصقة لراما ورامون، وهناك استحق سليمان الوحي الرباني، ويحكى أن الشمس توقفت هناك عندما كان يوشع (بن) نون يقاتل.

وفي جبال حبرون موقع زيف (تل زيف) الذي يدعى أيضاً كرمل (الكرمل موقع منفصل قريب من تل زيف)، وهنا كانت قرية الكرمل التي جاء منها نابال، وفي الكرمل طلب داود أرغفة لرجاله الشباب من نابال، وذلك أثناء فراره من وجه شاول، وقابلته «أبيجايل» في أثناء الهبوط من الكرمل، وهدأته وأرضته بهدايا كبيرة، وبعد وفاة نابال تزوجها داود، وهناك زيف أخرى منها جاء الزيفيون: وزار يوناثان في الصحراء داود، وذلك عندما كان متخفياً من وجه شاول، وهناك استولى داود على ترس شاول (في صموئيل: ١/٢٦/١٢: أخذ داود الرمح وكوز الماء) ورمحه.

وعلى بعد ثمانية أميال من عمواس ، وعلى الطريق الذي يؤدي الى حبرون تقع مدينة كيلا (خربة كيلا) ، فهناك سكن داود في إحدى المرات .

وعلى مسافة تسعة أميال من القدس ، وعلى الطريق الذي يؤدي الى

الرملة يقوم جبل مودين (المدينة ميغومودييم) ، ومنه جاء متاثياس mattathias أبو المكابيين ، وكانت مودين في يوم من الأيام مدينة لا ترام ، ومنها كان يمكن للانسان أن يرى كل من البحرين : البحر الكبير والبحر الميت ، ويرقد في مودين متاثياس وأربعة من أولاده مع اثنين من أحفاده ، تحت آبداه ما تزال قائمة هناك .

وعلى الطريق النازل من القدس الى أريحا تقوم أدونيم التي تدعى الآن باسم الصهريج الأحمر (الخان الأحمر) ، وقد ورد، ذكرها لدى ربنا أثناء حديثه عن الرجل الذي سقط بين اللصوص .

وتقع أريحا على بعد ثلاثة عشر ميلاً من القدس ، وعبر أريحا وفي مواجهتها حدث لدى وصول الياس واليسع أن انقسم الأردن ، ولأنه ارتعب ترك اليسع رداءه ، الذي هو محفوظ في القسطنطينية ضد المرض العظيم ، وعندما كان يسوع يمشي في أريحا تسلق زكريا شجرة جميز موجودة فيها ، وكان في أريحا في أيام المبارك سابا بيتاً للضيافة ، له احسان عظيم ، وقد ترأسه ، وقد حدث فيه أنه كان يتولى رعاية صديق له من مآدبا ، وهي مدينة في العربية وكان اسمه توما ، وبينما كانا يأكلان ومعهما بولص وثيودور وهما أكثر الناس قداسة تم اعلام المبارك سابا ، أنه لا يوجد هناك نبذ ، ولا أي شراب بالفعل سوى القليل من مرق الحنظل لطبخ الخضار من أجل الإفطار ، وجلب ذلك الى أمام المبارك سابا ، وقد قام بتصفية ذلك الموجود ، وعندها تحول الى وفرة كبيرة من النبذ كانت كافية لجميع الذين كانوا موجودين في دارالضيافة لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، وأعطى بعضاً منه لتوما ولرفاقه لدى عودتهم الى موطنهم ، وجرى الاحتفاظ بكمية قليلة منه ، وقد أعادت هذه الكمية الى الصحة أشخاصاً مرضى عندما دهنوا بها ، وكان الرجل الأعمى الذي رد له الرب البصر في أريحا يجلس على جانب الطريق .

وعلى رميتي حجر من أريحا يوجد المكان الذي صام فيه يسوع لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وهو يدعى الآن باسم « الأربعين » (خلف عين السلطان) ،، وهناك أيضاً حاول الشيطان اغواءه بقوله له : « إذا كنت ابن الرب فقل تصير هذه الحجارة خبزاً » .

وعلى بعد ميلين من الأربعين « وباتجاه طبرية هناك جبل مرتفع (قرن صرطبه) منه مكن الشيطان يسوعاً من رؤية جميع ممالك العالم ، وتحت الأربعين هناك مغارة فيها ذلك النبع الذي حول اليشع ماءه الى ماء يشرب بعدما كان مرأ ، وذلك برش بعض الملح فوقه .

وعلى عشرين ميلاً من القدس تقوم اللد ، التي هي ديوبولس ، ومعنى هذا : مدينة مزدوجة (الصحيح : مدينة جوبتير) ، وفيها تمته التي كانت فيما مضى بلدة كبيرة ، وهنا جزيرهوذا غنمة عندما اضطجع مع ثامار في مكان يلتقي فيه طريقان ، وذلك على بعد ميل من تمته ، وقد أولدها فارص ورازح .

وعلى بعد أربعة أميال من اللد تقع أرماتيا Arimathia أي رمثا زو فيم Ramatha Sophim وهي مدينة القانه وصموئيل ، ومنها حسبما قال الانجيلي ، كان يوسف ، وهناك دفن ، وقد حمل جسده فيما بعد الى بيت لحم من قبل أحد البتلهميين ، هو الآن أسقف ، ووجد معه الأربطة التي أنزل بها يوسف يسوع من على الصليب ، وأحد المسامير العائدة للرب ، والأربطة والمسمار معروضان في بيعة الملك في القدس .

وعلى بعد ميلين من اللد، وباتجاه البحر، تقوم قلعة بلنيا Balnea حيث نحت نيكوديموس من الخشب ما يشبه شكل المخلص، وهذا الشكل يبجل الآن في لوكا Lucca في ايطاليا .

وعلى بعد ميلين من اللد، وعلى شاطئ البحر تقع يافا التي أقام فيها بطرس طابيتا ، وحيث ظهرت «الملاءة» لبطرس (أعمال الرسل : ١٠ /

(١١)، ويرى الانسان هناك صخرة ترى عليها آثار سلاسل أندروميذا
. Andromeda

وعلى بعد ستة أميال من يافا تقع أرسوف، التي بناها سليمان .

وعلى بعد عشرين ميلاً من أرسوف، وباتجاه الشرق، تقع دور (خطأ دور هي الطنطورة قرب حيفا)، وهي التي سماها هيرود قيسارية، تشریفاً لأغسطس قيصر، وهناك بنى أيضاً ميناء لها من الرخام الأبيض، وفيها عمّد بطرس كورنيلوس، بعد ما حوّل بيته إلى كنيسة، وقد عينه أسقفاً وهناك يرقد أربع نبيات عذراوات، ويقال بأن يوسيبوس الطيب كان في قيسارية هذه أسقفاً، وكان في قيسارية برج ستراتو Strato ، وفيه كان هيرود جالساً بثوبه الأرجواني عندما ضرب بقوة انتقامية ربانية ومات ، وازدهرت قيسارية كثيراً في أيام المسلمين بدورها فيما بين بابلين وبابل ، أي فيما بين بغداد في فارس ومفيس في مصر (بغداد والقاهرة)، ونمت حتى أصبحت مثل جنة للمسلمين ، وفيها دفن النبلاء ورجال السلطان ، ويوجد في محيط المدينة ، وسط الحدائق عدد كبير من الكهوف الصغيرة ، مبنية من حجارة منحوتة فيها كان يتم مزج أنواع البخور والطيب حيث كان هذا المزيج يحرق بالنار، وبذلك كانت المدينة كلها تمتلئ بعبق الروائح الطيبة ، وبهذا كان يجري حجب الروائح السيئة وتبتهج الأعداد العظيمة من السكان ، لكن زال هذا كله الآن وبات معدوماً.

ويعيش في أنهار قيسارية التماسيح وهي ثعابين مرعبة ، وفم التماسيح متميز عن جميع الأفواه في أن الفك العلوي لديه قابل للحركة ، في حين أن الفك السفلي ثابت ، وليس للتمساح مخرج سفلي ، وعندما يأكل التماسيح طعامه ، يتوجه نحو مكان استحمامه المعتاد على طرف النهر ، ويقف على ذراعيه ، وتمتد رقبتة وفمه مفتوح ، وكأنه يساعد نفسه على التنفس ، ثم يقع نائماً ، وعندما يغرق في نومه تأتي بعض الديدان إليه ، وتأكل من طعام التماسيح ، وتدخل الى أمعائه ، وتعمل

احدهن بمثابة بواب تراقب البقية ، خشية أن يفيق التمساح ويحبس الديدان في داخله ، وهكذا يجري خداع التمساح من قبل ذاته ، ويكره التمساح الانسان أكثر من كراهته لأي مخلوق آخر.

وهناك ثعبان آخر يدعى يدروس Ydrus (ابن عرس) يحب الانسان أكثر من حبه لجميع المخلوقات ، وهو يكره التمساح كثيراً ، ولهذا يبحث كل واحد منهما عن الآخر ويطلبه ، ويستطيع ، اليدروس تمويه نفسه واخفائها بالوحل ، وبذلك لا يستطيع عدوه ملاحظته ، ويعرض نفسه على التمساح الذي يدور حوله مرتين أو ثلاث مرات ، ويقوم بجهل منه بابتلاعه ، ويقوم اليدروس في سجنه الذي أغلق عليه بأكل ما في داخل التمساح ، ويحرك الأمعاء بشدة ، ويقطع الكبد ، ويمزق القلب الى قطع ، ويحدث فتحات في جوانبه ، ومن ثم يخرج بعد قتله لعدوه ، لكن كيف حصل وجاء التمساح الى قيسارية ، هذا ما سوف أحكيه باختصار : حكم فيما مضى من الأيام أخوان اثنان معاً في قيسارية بسلطات متساوية ، وتآمر الكبير بينهما ضد أخيه لأنه لم يكن يحكم وحيداً وأراد أن يميته ، وكان معروفاً عن أخيه أنه مصاب بالجذام ، ولقد ظن في نفسه أنه إذا استطاع جلب زوجين من التماسيح من النيل ووضعهما في الأنهار المتقدم ذكرها ينال غرضه فقد كان أخوه قد اعتاد على السباحة فيها في الصيف ، وبهذه الوسيلة أمل أن يُقتل ومن ثم يحصل على المملكة منفرداً ، وهذا قد حدث بالفعل ، وحكم الأكبر المملكة لوحده .

وعلى بعد عشرة أميال من قيسارية وباتجاه الشرق تقع أسخريط التي جاء منها الخائن يهودا الأسخريطي .

وعلى مسافة ستة أميال من أسخريط بورفيريوم Porfirium ، عند سفح الكرمل ، على شاطئ البحر الميت ، وكانت فيما مضى مدينة جيدة (أراد هنا حيفا التي حلت محل سيكامنيوم Sycaminum

ووقعت بورفيريوم على بعد ثمانية أميال الى الشمال من صيدا)

والكرمل هو جبل ، تحادث فيه لبعض الوقت الياس مع اليسع ، وضحي هناك للرب أمام أربعائة وأربعين كاهناً لبعل ، واستحق النار السماوية ، وأمسك هناك الكهنة ، وذبحهم بالسيف فوق مسيل سيحون ، وهرب من بعد هذا من جزبل Jezebel وجاء الى حورب ، وتقع حورب، الآن على طرف سيناء .

وعلى بعد ثلاثة أميال من الكرمل يقع جبل قاين (تل قيمون) الذي عند سفحه هناك عين بقربها قتل لامخ أباه قاين بوساطة سهم ، وقتل بقوسه قائده .

وعلى بعد عشرة أميال من قاين تقع عكا (عكون) التي سماها بطليموس ملك مصر ثولومياس tholomaic ذلك أنه هو الذي أسسها ، والى هناك يصل أكبر عدد من السفن (مما يأتي الى أي ميناء) يقع على ساحل البحر العائد للفرنجة والممتد من عسقلان الى جبال طوروس ، وإليها تتدفق بضائع وحاجيات آسيا وأوربا وأفريقيا ، وحدث في إحدى السنوات ، في شهر آب على شاطئ البحر وليس بعيداً عن الأسوار ، باتجاه الشرق ، أن تفجرت ينابيع ، فحولت الجداول العائدة لهم الى البحر ، الذي عمل بمثابة حل للذين كانوا يشربون منهم حسب هواهم ، ولهذا السبب يتردد عليهم الذين يسكنون فيما بين الفرات والنيل .

وعلى بعد ستة عشر ميلاً من عكا تقع مدينة صور، التي كانت تدعى في العصور القديمة باسم سّرا Sara ، صدوراً عن اسم سمك كثيراً هناك ، وهو الذي يدعوه السوريون بلغتهم باسم سر Sar، ومنه جاء اسم سمك صغير يدعى نوعه باسم سريا Sarae أو سردين (معنى صور : صخرة) ويسمي العبرانيون تاير Tyre باسم سور ، أو

بالدارجة باسم صور، وجاء الفينيقيون الذين أسسوا صور من البحر الأحمر.

وتقع صيدا على مسافة أربعة عشر ميلا من صور.

وأسست صيدا من قبل صيدون ، الذي كان الابن الأول لكنعان بن حام ، ومنه انحدر الصيداويون وحكم في صور وصيدا فينكس Fenix الذي كان أخاً لكثموس (قدموس) الطيبي في مصر ، والذي جاء من سورية ، ومن اسمه صار هؤلاء الناس يدعون بالفينيقيين واسم المنطقة كلها فينيقيا ، التي احتلت فيها صور المرتبة الأولى ، وحكم في صور حيرام عندما حكم سليمان في القدس وأبولونيوس عندما حكم حكم انطوخيوس في أنطاكية ، ويؤكد السوريون أن صور رفضت استقبال يسوع عندما سار على طول ذلك الساحل ، لكن عندما قام يسوع من الموت ، استقبلت باسمه بولص الذي بشر فيها بالشرعة والانجيل ، ثم إنه جثا فيما بعد على ركبته ، وصلى على ذلك الرمل ودعا أن تمتن رحمة المسيح صور وتدعمها في الإيمان ، ويوجد أمام صور الصخرة التي قيل بأن يسوع قد جلس عليها ، وهي قد بقيت كما هي دونما أذى من أيامه حتى وقت طرد المسلمين من المدينة ، وقد حطمت فيما بعد وقطعت من قبل الفرنجة وكذلك من قبل البنادقة ، وقيد البناء الآن فوق بقاياها وحول موقعها كنيسة مكرسة للمخلص ، وتبعاً لبيد Bede المبجل قدمت صور عدداً كبيراً من الشهداء للرب ، وأعداد الذين ينتمون لها نفسها العلم وحده قادر على تعدادهم .

وصور هي مكان دفن أورجين Origen ، وقد استولى الاسكندر الكبير على صور الذي وسع أراضيها بوساطة سور ، لأنها كانت وقتذاك مطوقة بالبحر أيضاً ، وحوصرت في أيامنا صور بفعالية من البر والبحر ، وتم الاستيلاء عليها من قبل البطريك وورموند Warmund صاحب الذكرى الطيبة ، وذلك بمساعدة البنادقة ، وبإذن من نعمة الرب ،

وجاءت من أحواز صيدا وصور المرأة الكنعانية التي قالت ليسوع : « ارحمني يا بن داود » وعندما غادر يسوع هذه المناطق عاد إلى الجليل من خلال المدن العشرة » ، وأعاد السمع إلى الأصم والكلام إلى الأخرس

وعلى بعد ستة أميال من صيدا تقوم الصرفند على شاطئ البحر باتجاه صور ، وهي صرفند الصيداويين ، وإليها بعث الرب إلياس إلى أرملة صرفندية ، حتى تزوده بالطعام ، وحينما مكثا معاً كان قليل من الزيت في الأبريق وبقايا الطعام كافية للوجبة ، وهنا أقام إلياس ابن الأرملة ، أي يونه Jonah ابن أماثوس Amathus وجمعت امرأة في الصرفند حزميتين ، ويقوم في جبال صيدا والصرفند جت حافر (المشهد على ثلاثة أميال من الشمال الشرقي للناصره) ، وهي البلدة التي جاء منها يونه المذكور أعلاه ، وكان من صيدا ديدو Dido الذي بنى قرطاج في إفريقيا ، وشهرت صيدا بوساطة الفينيقيين الذين تملكوها ، وقد ثبتوا اسمها صيدا بسبب وفرة الأسماك ، لأنه معنى كلمة صيدا في لغتهم : سمك.

وعلى مسافة ثمانية عشر ميلاً من صيدا تقع مدينة بيروت ، وهي مدينة غنية جداً ، ويوجد في بيروت تمثال لمخلصنا صنعه نيكوديموس بيديه ، وحدث بعد أمد وجيز من آلام المسيح أن تم صلب هذا التمثال بشكل شائن من قبل بعض اليهود وذلك بشكل ساخر ، فصدر عنه دم وماء ، ونتيجة لهذا الحادث آمن عدد كبير بالمسيح ، وعاد كل واحد مسح بنقطة من التمثال إلى الصحة.

وعلى بعد عشرين ميلاً من بيروت ، وباتجاه الشرق ، تقوم بيبيلوس التي هي جبيل أو باللسان العبري جوبيل ، وجلب إلى مرساها في أيام سليمان الخشب من جبل لبنان من أجل بناء بيت الرب في القدس ، وقد نقل منها إلى يافا.

وعلى بعد عشرين ميلاً من جيبيل، وباتجاه الشرق، تقوم طرابلس، وهي حاضرة المنطقة، وهي مدينة محصنة بشكل رائع بالأسوار والبحر.

وعلى بعد اثني عشر ميلاً من طرابلس، وباتجاه الشرق، يوجد ألبانا [Albana]، وهو نهر عرقة، فمن هناك تبدأ مملكة القدس.

ويعود أصل الصلاة العامة على الميت والمنفعة العامة الى يهوذا المكابي، والى هركانوس يعود تأسيس المشفى العام، وتم بناء البرج الذي يدعى الآن باسم برج داود من قبل هيرود، وعندما هدم تيتوس وفسبسيان المدينة تركاه قائماً ليكون علامة على نصرهما، والقلعة التي بناها داود لنفسه، حيث أُملى المزامير، قد احتل مكانها الكنيسة التي تحصن صهيون وتجمله، وذلك باتجاه بيت لحم على رابية مرتفعة جداً، وظلت القلعة قائمة حتى أيام الابن الأصغر لمثاثياس الذي هدم كل من القلعة والرابية، وعندما هدم تيتوس وفسبسيان المدينة، لم يأخذوا منها سكانها فقط، بل أخذوا أيضاً تابوت العهد وما كان فيه، وحملوا الجميع الى روما معهم، وذلك كما هو منقوش على أقواس النصر القائمة فيما بين البلاديوم Palladium وتل البلاتين Palatine الى جوار كنيسة القديسة مريم الجديدة (في روما حيث مازال قوس تيتوس).

وأخذ الدوق غودفري مفاتيح البرج المذكور أعلاه من يد البطريرك داغوبيرت، وهياً كل ما يمكنه من إحسان وألطف للبطريرك ولمكانة الكنائس، ولقد استخفق عن جدارة أن ينال أعلى المراتب وأعظم الألقاب، غير أنه لم يؤثر مكانة وألقاب الذين حكموا بل لقب عبد الرب، ونذر إذا ما أعطاه الرب عسقلان، وسلمها ليديه، سوف يعطي القدس كلها للذين يخدمون الرب في كنيسة الضريح المقدس، ولسوف يزيد من أملاك البطريرك، لكن عندما حلت السنة التالية، لم يستطع إكمالها، ووصل الى النهاية التي لا يمكن الفرار منها، وقد دفن بحزن ونواح لانظير له أمام الجلجلة، حيث جرى صلب ربنا، وقد كتبت هذه الأبيات على قبره:

النجم الرائع. هنا يرقد الدوق غودفري.
مرعب مصر، هازم العرب، ممزق صفوف الفرس.
ومع أنه انتخب ملكاً، رفض أن يلقب بملك.
وأن يتوج، وظل «عبد المسيح» فقط.
وكان همه أن يعيد إلى صهيون حقوقها.
وكاثوليكي أن يتبع العقائد المقدسة للحق والمساواة.
وأن يزيل جميع الهرطقات من حوله وأن يرعى الحق.
وبذلك يمكنه أن ينال مع القديسين تاجاً.
وأن يكون مرآة الجيش، وقوة الشعب، وكهف الكهنوت.
وقد خلفه أخوه بلدوين، الذي كان أول قنصل للرها، والذي اختير من
قبل جميع رجال الكهنوت والناس، وعندما ما كان في الحكم جلس
الأدوميون والعمالقة صامتين، وارتعب العرب والفلسطينيون، ودفعت
دمشق، وصور وعسقلان الجزية.... وخلفه في صهيون الذي خلفه في
الرها، وأعني به بلدوين دي بورغ، الذي كان رجلاً حكيماً، وعظيم
الشجاعة، وجاء من بعده المبجل فولك الثالث كونت أنجرومين.

المحتوى

رقم الصفحة	الموضوع
٤	توطئة
٧	مدخل
١٩	كتاب حملة رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة
٢٠	كيف هاجم صلاح الدين فلسطين
٢٦	حصار عكا
٣١	خبر ملكي انكلترا وفرنسا
٣٨	كيف أمضت الجيوش الشتاء في صقلية
٤٥	كيف غادروا نحو الأراضي المقدسة
٥٢	الملك رتشارد في قبرص
٥٩	كيف سلم الامبراطور قبرص
٦٨	كيف تحاربوا مع سفينة اسلامية ووصلوا أخيراً إلى عكا
٧٥	كيف هاجم الفرنسيون عكا حينما كان الملك رتشارد مريضاً
٧٩	كيف صد الأتراك بفعالية رجال الملك رتشارد
٨٦	تسليم عكا
٩١	حول الخصام بين الملكين
٩٧	كيف نصب الملك رتشارد خيامه خارج عكا

كيف زحف الجيش نحو عسقلان	١٠١
كيف تحارب الجيشان عند أرسوف	١٠٨
النصر الرائع للمسيحيين	١١٦
كيف كاد الملك رتشارد أن يقع أسيراً	١٢٦
حول المعاناة المزعجة من الأمطار ومن الأعداء	١٣٥
كيف أعادوا بناء عسقلان	١٤١
كيف تراجع الفرنسيون إلى عكا وكيف جرى اغتيال مركيز مونتفرات	١٤٧
كيف جرى اختيار الكونت هنري ليكون ملكاً لصور	١٥٥
كيف جرى اختيار هنري ملكاً لصور	١٥٩
كيف استولى الملك رتشارد على دير البلح عنوة	١٦٣
لماذا لم يزحفوا إلى القدس	١٧٢
الاستيلاء على القافلة الكبيرة	١٧٩
كيف عاد الجيش إلى عكا	١٨٥
كيف هاجم صلاح الدين يافا	١٨٩
كيف حاول الغلمان والأكراد مفاجأة الملك رتشارد في خيمته	١٩٨
كيف أقام الملك رتشارد هدنة مع صلاح الدين	٢٠٧
كيف رأى الحجاج القدس وكيف عاد الملك	٢١٣

رتشارد إلى وطنه	
رحلة حج سيولف إلى القدس	٢٢١
مدخل	٢٢٢
رواية عن حج سيولف إلى القدس وإلى الأراضي المقدسة	٢٢٦
الوصول إلى قبرص ثم إلى يافا	٢٢٩
الوصول إلى القدس ووصف لمشاهدها	٢٣٢
الرسم التوضيحي رقم ١	٢٣٥
الجليل وطبرية	٢٤٢
دير القديس سابا	٢٤٣
أريحا	٢٤٤
الخليل	٢٤٥
الناصرية ونابلس وجبل الطور	٢٤٦
الأردن ومنابعه	٢٤٨
العودة عبر يافا	٢٤٨
حواشي رحلة حج سيولف	٢٥٢
رحلة حج الراهب الروسي دانيال	٢٦١
مدخل	٢٦٢
رحلة راعي الدير الروسي دانيال	٢٧٠

القدس ودير القديس سابا	٢٧١
الطريق الى القدس	٢٧٢
مدينة أفسوس	٢٧٣
جزيرة باتموس	٢٧٤
جزيرة قبرص	٢٧٥
الجبل الذي أقامت عليه القديسة هيلانة صليبا	٢٧٦
البلسم	٢٧٦
القدس	٢٧٧
كنيسة القيامة	٢٧٨
مكان مركز الأرض	٢٨٠
الجمجمة	٢٨٠
مذبح ابراهيم	٢٨١
برج داود	٢٨٢
بيت أوريا	٢٨٣
بركة الغنم	٢٨٤
كنيسة قدس الأقداس	٢٨٤
بيت سليمان	٢٨٥
قرية بيت حنينا	٢٨٦
قرية جيسماني	٢٨٧

أبواب المدينة	٢٨٧
مكان ضريح العذراء	٢٨٧
الكهف الذي جرت خيانة المسيح فيه	٢٨٨
المكان الذي بدأ فيه المسيح بتعليم حواريه	٢٨٨
جبل الزيتون	٢٨٨
مدينة القدس	٢٨٩
الطريق الذي يقود الى الأردن	٢٩٠
جبل حرمون	٢٩٠
مكان انعطاف الأردن	٢٩٠
مكان تعميد المسيح	٢٩١
مكان الاستحمام	٢٩١
الأردن	٢٩١
كهف القديس يوحنا المعمدان	٢٩٢
كهف النبي الياس	٢٩٢
بلدة أريحا	٢٩٤
جبل جبعون	٢٩٥
الكهف الذي صام فيه المسيح أربعين يوماً	٢٩٥
دير القديس سابا	٢٩٥
دير القديس يوثيموس	٢٩٧

جبل صهيون	٢٩٨
بيت العشاء المقدس	٢٩٨
مكان انكار بطرس المسيح	٢٩٩
بركة سلوان	٢٩٩
حقل الفاخوري	٢٩٩
بيت لحم	٢٩٩
كهف ولادة المسيح	٣٠٠
كنيسة ميلاد المسيح	٣٠٠
مزود المسيح	٣٠١
بيت يسي	٣٠٢
بئر داود	٣٠٢
الكهف وبلوطات ممرا	٣٠٢
جبل الخليل	٣٠٤
قبر يوسف	٣٠٥
دعاء ابراهيم	٣٠٦
ضريح لوط	٣٠٧
المكان الذي قتل فيه داود جالوت	٣٠٩
مكان شجرة الصليب	٣٠٩
الجبل الذي التجأت إليه اليزابث مع المبرشر	٣١٠

رامه	٣١٠
عمواس	٣١١
اللد	٣١١
يافا	٣١١
قيسارية فيليب	٣١٢
كفر ناحوم	٣١٢
جبل الكرمل	٣١٢
بلدة عكا	٣١٢
بيروت	٣١٣
أنطاكية	٣١٣
الجليل وبحيرة طبرية	٣١٣
السامرة	٣١٥
بلدة أرماتيا	٣١٦
بلدة بيسان	٣١٦
نهر الأردن	٣١٧
بيت تعشير متى	٣١٧
بحر طبرية	٣١٨
منابع الأردن	٣١٩
المكان الذي أشبع فيه المسيح خمسة آلاف رجل	٣٢٠

المكان الذي ظهر المسيح فيه لحوارييه للمرة الثالثة	٣٢١
بلدة بيت صيدا	٣٢١
المكان الذي جاء إليه المسيح متجهاً نحو حوارييه	٣٢١
بلدة ديكابولس	٣٢١
جبل لبنان	٣٢١
جبل الطور	٣٢٢
المكان الذي تغيرت فيه هيئة المسيح	٣٢٣
كهف ملكيصادق	٣٢٣
بلدة الناصرة	٣٢٥
ضريح يوسف خطيب العذراء	٣٢٥
كهف البشارة	٣٢٦
بئر الاعلان الأول	٣٢٧
قانا الجليل	٣٢٧
القدس	٣٢٨
النور المقدس	٣٢٩
فيتيلوس	٣٣٧
مدخل	٣٣٨
وضع مدينة القدس	٣٤٤

بيت لحم	٣٤٦
نهر الأردن	٣٤٧
وصف الأماكن القائمة حول القدس	٣٤٩
بئر السبع	٣٥١
بحيرة اسفلت	٣٥١
صحراء التيه	٣٥٣
دمشق	٣٦٢
بانياس	٣٦٢
وادي البقاع وبعلبك	٣٦٢
عرقة	٣٦٣
كفر ناحوم	٣٦٥
المجدل	٣٦٦
طبرية	٣٦٦
جبل الطور	٣٦٧
بيسان	٣٦٨
السامرة	٣٦٨
نابلس	٣٦٩
بيت لحم	٣٧٠
القدس	٣٧٢

- ١١٨٤ -

أريحا	٣٧٩
اللد	٣٨٠
يافا	٣٨٠
أرسوف وقيسارية	٣٨١
عكا وصور	٣٨٣
صيدا	٣٨٤
الصرfund وبيروت	٣٨٥
طرابلس وعرة	٣٨٦
قبرغودفري وما كتب عليه	٣٨٧